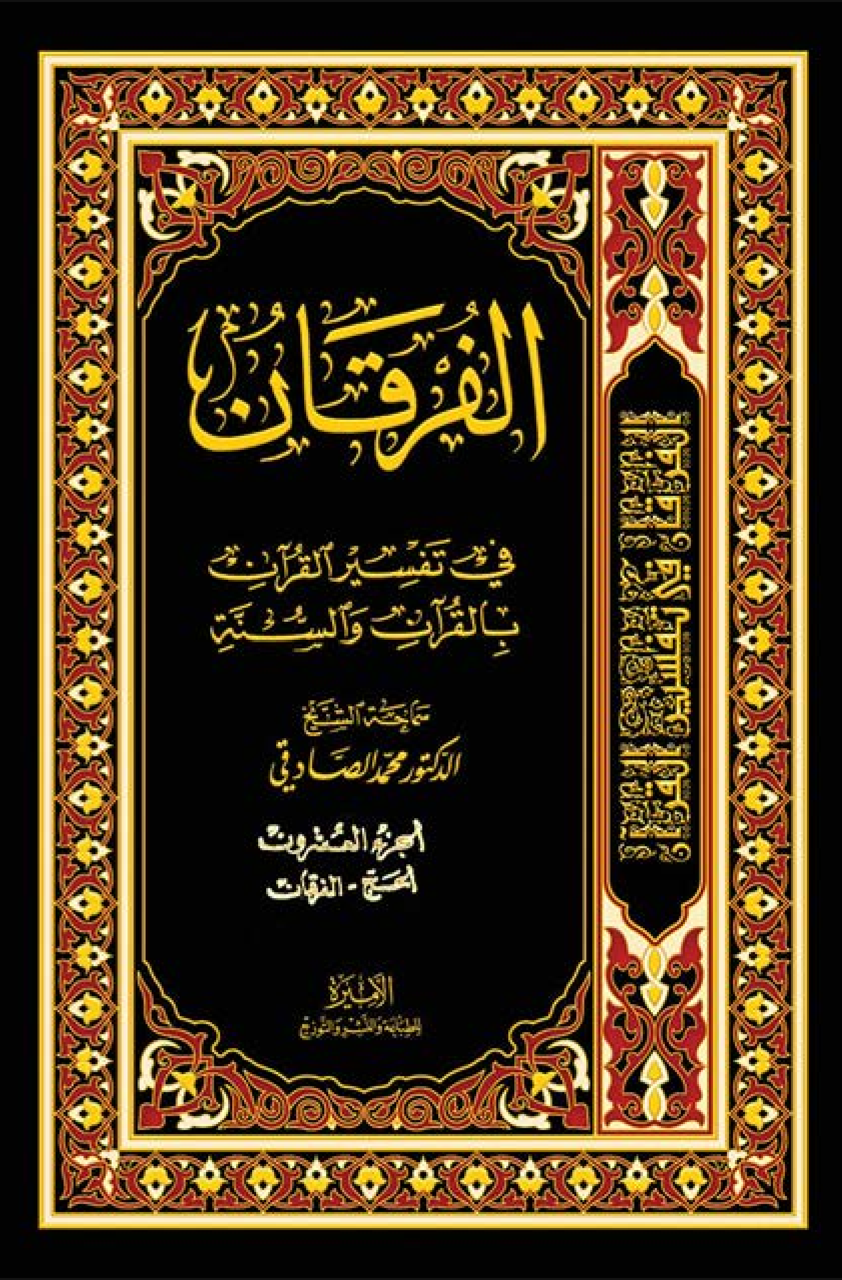

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسنة
سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي
الجزء العشرون
الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسُّنة

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

الجزء العشرون

تتمة سورة الحج - سورة المؤمنون

سورة النور - سورة الفرقان



سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي

٢٢

تتمة

سُورَةُ الحَجّ



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ
ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم
مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَنۡ عَاقَبَ
بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ
غَفُورٞ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ
ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ
ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ
ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا
فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ
سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ
أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ
﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ
وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ

أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

في هذه الآيات تعقيبات لما سلفت من الإذن في القتال، مهاجرةً في

سبيل الله مع وعد النصر في ختام بأمر الجهاد حق الجهاد واعتصام بالله ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

والمهاجرة في سبيل الله - وحياة المؤمن كلها مهاجرة - هي تجرُّدة كاملة شاملة من كل ما تهفو له النفس في سبيل غير الله، إيثاراً لتلك السبيل على كل سبيل.

ولا تعني المهاجرة هنا - فقط - ترك الوطن السكَن إلى سواه كما حصل مرتين في مكة المكرمة، تارة إلى الحبشة وأخرى إلى المدينة، حيث المهاجرة في الله لا تحمل معها صورة خاصة، ولا سيما أن السورة مدنية وقد تمت تلك المهاجرات الخاصة، وإنما تعني التباعد عن كل ما يعرقل المسير في سبيل الله، وأهمها المهاجرة الأنفسية، ثم الآفاقية هي من مظاهرها، فقد تقتضي الهجرة عن أرض الوطن، وأخرى البقاء في أرض الوطن، كما قد تنتهي إلى القتل وأخرى إلى الموت.

ومن ميِّزات هذه الآيات أن تسعاً منها متتالية تحمل ثمانية عشر من أسماء الله تعالى، تُختم كل واحدة باسمين من أسماء الله الحسنى بعد الجلالة: وأن الله لهو خير الرازقين - العليم الحليم - العفوُّ الغفور - السميع البصير - العلي الكبير - اللطيف الخبير - الغني الحميد - الرؤوف الرحيم، أحياكم ثم يميتكم».

وهذه ظاهرة منقطعة النظير في الذكر الحكيم، مما يدل على عظم الموقف للمهاجرين في سبيل الله:

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾:

هنا ﴿هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هو الأصل ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟﴾ دون

تفاضل، فقد يُقتل في سبيل الله، وقد يَقتل ثم يموت، أم لا يَقتل ولا يُقتل ثم يموت، والمهاجر في سبيل الله هو في أيٍّ من هذه الحالات الثلاث على سواء في ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ بعد القتل أو الموت، وهو حياة طيبة عند الله، ممتازة عن سائر الحياة لسائر القتلى أو الأموات الذين لم يهاجروا في سبيل الله، ثم لم يقتلوا أو يموتوا في سبيل الله، مهما كانوا مؤمنين، فإن المهاجرة في سبيل الله تصبِّغ القتل أو الموت بنفس الصبغة الإلهية ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾[(١)].

إذاً فلا يفضَّل القتيل في سبيل الله على الميت في هذه السبيل ويفضِّل ذلك الميت على القتيل في غير هذه السبيل[(٢)] وقد سمع سلمان الفارسي النبي ﷺ يقول: من مات مرابطاً أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر وأمن الفتانين، واقروا إن شئتم ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا - إلى قوله - حَلِيمٌ﴾[(٣)] بل والآيتان نزلتا بشأن الميت في هذ السبيل[(٤)].

وهذه التسوية هي قضية ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ حيث المفاضلة هنا خلاف الخير، كما هي قضية أنه «عليم» بأحوال المهاجرين في سبيل الله، ولو كان بينهم تفضيل فهو على حدّ السبيل، وأنه ﴿حَلِيمٌ﴾

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٨.

(٢) الدر المنثور ٤: ٣٦٩ - أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن فضالة بن عبيد الأنصاري الصحابي أنه كان برودس فمروا بجنازتين أحدهما قتيل والآخر متوفى فمال الناس على القتيل فقال فضالة: ما لي أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا؟ فقالوا: هذا القتيل في سبيل الله، فقال: والله ما أبالي من أي حفرتيها بعثت اسمعوا كتاب الله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا...﴾ [البَقَرَة: ٢١٨].

(٣) المصدر أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن سلمان الفارسي سمعت رسول الله ﷺ يقول:....

(٤) في جوامع الجامع وروى أنهم قالوا: يا رسول الله ﷺ هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا معك؟ فأنزل الله هاتين الآيتين.

بعباده، فلا يختص رزقُه بخصوص القتل في سبيله، حيث الأصل هو المهاجرة في هذه السبيل، فمن يعيش حياتُه مهاجرة في سبيل الله، فهو من أهل هذه الآية على قدر نصيبه من هذه السبيل: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

فهنا الموت وهو أعم من القتل، وهناك القتل أو الموت، مما يدل على ألّا فارق بينهما ما هما مشتركان ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ اللهم إلا تفارقاً في درجات السبيل، فقد يفضل قتيلٍ على ميت أو قتيل، أو ميت على ميت أو قتيل ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾[2] ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[3].

ذلك ترغيب عام هام بالنسبة للمهاجرة في سبيل الله، ولأن طبيعة الحال في حياة المهاجرة أن يتربص بها دوائر السوء، يتلوه وعد النصر:

﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾:

فهذه ضابطة عامة هي السماح في المعاقبة بالمثل في سبيل الله، وأما المعاقب في غير سبيل الله فلا سماح له بالمثل إذا كان تأديباً أم ردَّة فعل لما أخطأ، اللهم إلا من ظلُم.

فالمعاقب بالمثل إذا بغي عليه، أنه موعود بالنصر، حيث عوقب في سبيل الله، وعاقب بالمثل بإذن الله، فإذن: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

أترى ما هي الصلة بين وعد النصر لمن بغي عليه وبين عفو الله وغفره؟

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٢.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

علّه بمناسبة شأن النزول حين دافع سرية الرسول في الشهر الحرام عن أنفسهم فتحرجوا[١].

ثم المعاقبة بالمثل مسموحة كضابطة وليست واجبة إلا أحياناً، وهي مرجوحة أخرى على سماحها، ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[٢] ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[٣].

كيف لا ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[٤] فالغفر شامل حتى موارد السماح بالاضطرار فضلاً عن غير الاضطرار مهما كان مسموحاً، حيث الأصل المحلّق على كل الأصول هو التغامض عن المعاقبة بالمثل، ما كان دفعاً للسيئة بالحسنة ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾[٥] أم دون دفع ما لم يخلِّف تطاولاً من الظالم عليه وعلى من سواه من المظلومين علّه ينتبه.

فقد يبتلي المؤمن بالمعاقبة بالمثل والظرف ظرف رجاحة العفو والإصلاح، فالنصرة الإلهية تشمله كظروف الرجاحة والوجوب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ عن مثل ذلك اللمم.

ثم الغَفْر لا يختص برفع أثر العصيان بعدما كان، بل ودفع العصيان عن

---

(١) الدر المنثور ٤: ٣٦٩ - أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في الآية قال: إن النبي ﷺ بعث سرية في ليلتين بقيتا من المحرم فلقوا المشركين فقال المشركون بعضهم لبعض قاتلوا أصحاب محمد ﷺ فإنهم يحرمون القتل في الشهر الحرام وإن أصحاب محمد ﷺ ناشدوهم وذكروهم بالله أن يعرضوا لقتالهم فإنهم لا يستحلون القتال في الشهر الحرام إلا من بدأهم وقاتلوهم فاستحل الصحابة قتالهم ونصرهم الله عليهم.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٦.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٥) سورة المؤمنون، الآية: ٩٦.

المعفو، من نفسه أم سواه، فحين يعاقب المؤمن بالمثل ثم يبغى عليه يعفو الله عما فعل ويغفر له دفعاً عنه من نفسه أم سواه عن التطاول، حيث المعاقبة تخلِّف تطاولاً طائلاً من المعاقب عليه والله يغفره ويستره عن المظلوم فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ تتبع في معناها موارده، وهذه المعاني معنية حسب الموارد المختلفة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾:

إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل سنة كونية تشبه هذه السنة الشرعية والكونية في المعاقبة بالمثل، فكما أن الله يولج كلًّا في الآخر كظاهرة طبيعية تمر بالبشر ليل نهار وصيف شتاء، فلا تطاول لليل على نهار أم لنهار على ليل، اللهم إلا تساوياً لردح قصير في ليال وأنهار، مصلحة دائبة قد تخفى على الناس.

كذلك الأمر بين المتعاقبين، سماحا تكوينياً لمن يَظلِم، ثم سماحاً شرعياً في معاقبته بالمثل، ثم نصرة للمنتصر بعد ظلمه إذ بغي عليه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ قيلات المعترضين، ومقالات المظلومين ﴿بَصِيرٌ﴾ بحالات أولاء وهؤلاء، فلا يعاملهم في أحكامه التكوينية والتشريعية إلا بالعدل، كما يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، قصراً في كلٍّ ومزيداً في الآخر كمصلحة كونية وناموس مطَّرد طبيعي، كذلك الله يفعل بخلقه ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ...﴾.

هنا الليل - علَّه - كناية عن ليل الظلم على المظلوم، والنهار هو الظالم، حيث يصيب من حق المظلوم انتقاصاً منه، ثم يولج النهار في الليل، معاقبة بالمثل المسموحة للمظلوم، إيلاجاً لكلٍّ في كلٍّ على سواء فكما الليل يزوي سلطان النهار، كذلك ليل المظلومين يزوي بظلامه سلطان المتجبرين وينشر سلطان المؤمنين المظلومين.

وفيما نراه لا يعاقَب الظالم بمثل ما ظَلم واقعياً مهما كان الحكم هكذا شرعياً، وهو الأكثرية الساحقة من الظلامات؟ فالنشأة الآخرة هي المجالة الأخرى الوافية الموفية لذلك الانتصار، فـ ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ ليست لتختص بالأولى، والآخرة خير وأبقى، وقد جمعت النصرة للحسين عليه السلام بين النشأتين، فهنا النصرة لمرامه ومرماه حيث يقود مدرسة الشهادة والنضال في سبيل الله، مستمراً به القتال ضد الفرعنة اليزيدية الأموية طوال التاريخ.

ثم نصرة ثانية عالمية بولده القائم المهدي عليه السلام [(١)] ثم في الآخرة النصرة الأوفى ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[(٢)]. فعلى المظلوم أم له أن ينتصر، وهو منصور هنا أم في الأخرى أم فيهما كما وعد الله، والآخرة أوفى فإنها هي دار الجزاء.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾:

---

(١) نور الثقلين ٣: ٥١٨ في تفسير القمي وأما قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ...﴾ [الحجّ: ٦٠] فهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أخرجته قريش من مكة وهرب منهم إلى الغار وطلبوه ليقتلوه فعاقبهم الله تعالى يوم بدر وقتل عتبة وشيبة والوليد وأبو جهل وحنظلة بن أبي سفيان وغيرهم فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طلب يزيد بدمائهم فقتل الحسين وآل محمد صلوات الله عليهم بغياً وعدواناً وظلماً وهو قول يزيد حين تمثل بهذا الشعر:

ليت اشياخي ببدر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا واستهلوا فرحاً	ثم قالوا يا يزيد لا تشل
لست من خندف إن لم انتقم	من بني أحمد ما كان فعل
قد قتلنا القرم من ساداتهم	وعدلناه ببدر فاعتدل
وكذاك الشيخ أوصاني به	فاتبعت الشيخ فيما قد سأل

فقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ﴾ [الحجّ: ٦٠] يعني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ [الحجّ: ٦٠] يعني الحسين عليه السلام أرادوا أن يقتلوه ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحجّ: ٦٠] يعني بالقائم صلوات الله عليه من ولده.

(٢) سورة الأعلى، الآية: ١٧.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العدل والتعديل في التكوين وفي التشريع، دونما تخلُّف هنا أو هناك قيد شعرة ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ فلا يأتي منه إلا الحق، بحكم العلم والقدرة والحكمة البالغة، العادلة الفاضلة، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ من آلهة وأحكام ﴿هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ متأرجفاً في الحكم، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ عليّ عن أن تناله الأوهام، ومن تطاول في الأحكام، وكل ما لا يناسب ساحة الرب الملك العلام، فـ ﴿هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ لا سواه، وهو ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ في علوه لا سواه، فرب علي غير كبير، علواً جعلياً مؤقتاً، أو استعلاءً دون حق، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ لا يأتي منه إلا الحق العالي الكبير.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾:

وكما هنا الأرض الموطوءة بالأقدام، اليابسة الواطئة تحت الأقدام، تصبح مخضرة بماء السماء، كذلك الله يفعل بالمظلومين المحطمين حيث ينزل ماء الحياة النصرة إليهم تكويناً وتشريعاً في الأولى، وانتصاراً وافياً في الأخرى، كما وينتصر لهم أحياناً في الدنيا، وفي آخر أحيانها يوم المهدي عليه السلام: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1] حين تصبح أرض المستضعفين مخضرة بماء الرحمة والقوة والسلطة العالمية.

ولماذا «تصبح» مستقبلاً استمرارياً بعد ﴿أَنزَلَ﴾ ماضياً؟ حيث إن اخضرارها نتيجةٌ متأخرة عن إنزال ماء السماء، هي في نفس الوقت مستمرة حيث الماء النازل إليها هو نصيبها الدائب، مهما يتبخر صاعداً ويرجع نازلاً على طول خط الحياة الأرضية، وهكذا الله يفعل بالمستضعفين المؤمنين، ثم الانتصار الوفي في دولة المهدي عليه السلام ومن ثم الأوفى في الأخرى ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾[2].

(١) سورة طه، الآية: ١٣٢.
(٢) سورة النجم، الآيات: ٣٩-٤١.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝٦٤﴾:

﴿لَّهُۥ﴾ مُلكاً ومِلكاً، قدرة وعلماً، إيجاداً وإعداماً، خلقاً وتدبيراً ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ صيغة رائجة عن الكون كله، وهما يشملان ما بينهما وما عليهما ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ﴾ لا سواه ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ دون فقر ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ بكل مدح ودون أي ذم وقدح، فطبيعة الغنى لمن سوى الله هي الطغيان ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾(١) وهي في الحق أفقر من كل فقر، فغناه تعالى كسائر صفاته رحمة كلها.

فالغني قد يكون ذميماً حيث يطغى، أم لا ذميم ولا حميد وهو الذي يتاجر بغناه، فإذا أنفق يرجو منه عائدة مادية أم روحية، أم هو حميد إذ لا ينتفع بما ينفق وهكذا الله دون من سواه، فإنه ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ المطلق ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ المطلق، دون حاجة في غناه ولا لؤم.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٦٥﴾:

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ يا رسول الهدى، أم أي راءٍ كان، رؤية العلم والإحساس ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من جماد ونبات وحيوان، مما يرى وما لا يرى، ما على ظاهر الأرض سطحاً أو جواً، براً أو بحراً، أم في باطنها، تسخيراً بعلم موحى أم مستفاد، وبقدرة موحاة أم مستفادة، لولا تسخيره لما تَسخرت لنا الأرض بما فيها.

فلولا التناسق بين طينة الإنسان وطينة الأرض لما استطاع الحياة عليها فضلاً عن أن يستفيد منها، ولو اختلفت كثافة الأرض بجوها عن كثافته وما يحتاجه من جوٍّ لما استقرت قدماه عليها كما لا تستقر في كرة أخرى مثل القمر.

---

(١) سورة العلق، الآيتان: ٦، ٧.

فهناك آلافات الموافقات بين الأرض وإنسانها سخرت بها الأرض له، وكل ما هنا منه أن يسعى كيف يستفيد منها!

وسخر «الفلك» حال أنها ﴿تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ حيث الماء الملتطم، والريح المحتدم، هما بأمر الله، كما الفلك بموادها وشكلياتها مصنوعة بأمر الله، فصانعها بما يعقل ويعلم هو من أمر الله، فلا حول ولا قوة إلا بالله، فالفلك مسخرة لنا بأمره مهما كانت لنا محاولات في أمرها، حيث النصيب الأوفر في أمرها هو أمره تعالى، بل الكل في أمره لحد الاختيار دون الإجبار.

وليست الفلك هي - فقط - السفن الشراعية التي تجري بالأرياح والشراعات بل هي كل جار في البحر، سواء أكانت تلك السابقة، أم كل لاحقة تجري بقوات بترولية وكهربية أماهيه من طاقات مرئية وغير مرئية هي مما سخرها لنا ربنا.

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ بأنجمها ﴿أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ فإنها بأنجمها محيطة بالأرض مرفوعة عنها دون عمد ترونها: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾(١) إذاً فثم عمد ولكن لا ترونها، فـ ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ بتلك العمد مما نعلمه أولاً نعلمه، وهما مما لا يرى، فلو لم تكن هناك عمد لتساقطت السماء بأنجمها على ما في مركزها، والأرض من مراكزها حيث هي محاطة بها، فهي ممسَكة بإمساكه تعالى، لا تقع على الأرض ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ فقد يأذن أن تقع أجزاء سماوية على الأرض كالأحجار السماوية التي تصيبها أحياناً كعذابات مؤقتة يسيرة، ثم ويأذنها كلها أن تقع كما يأذن الأرض، أن تقع عليها وتتساقط كلٌّ على كلٍّ حين ينفرط عقد الكون كله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾(٢).

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

إذاً ففوقنا بليارات الأنجم بشهبها وأحجارها وسائر ما فيها، هي كلها تهدِّدنا بالسقوط لولا رأفته تعالى بنا ورحمته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

فيا ويلاه لولا رأفة الله ورحمته بنا، وهنالك بليارات من السواقط السماوية تهدفنا، من نيازك نارية تهدف الشياطين، ومن أحجار تهدف أرضنا، ولكن الله لا يأذن لها أن تقع على الأرض، إلا بإذنه يوم الطامة الكبرى، أم طرف ضئيل من ذوق العذاب قبلها!.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ في هذه الدنيا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عنها فتظلون أحياءً بالحياة البرزخية ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ للحياة الأخرى بعد النفخة الأولى المميتة عن الحياة البرزخية: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[١] وكل من هذه وما سخر لنا مما في الأرض، والفلك تجري ويمسك السماء، كلها نعم تتطلب الشكر، و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ﴾ علمياً حين يتجاهل هذه النعم، وعقيدياً حين ينكرها، وعملياً حين لا يصرفها في مرضاة الله تعالى.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾:

المنسك كما أسلفناه هو منسك الحج ومنه الذبح[٢] أم هو كل عبادة

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٢) الدر المنثور ٤: ٣٦٩ - أخرج أحمد والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن علي ابن الحسين عليهما السلام: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ قال: ذبحاً هم ذابحوه حدثني أبو رافع أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أملحين أقرنين فإذا خطب وصلى ذبح أحدهما ثم يقول: اللهم هذا عن أمتي جميعاً من شهد لك بالتوحيد ولي بالبلاغ ثم أتى بالآخر فذبحه وقال: اللهم هذا عن محمد وآل محمد ثم يطعمها المساكين ويأكل هو وأهله منهما فمكثنا سنتين قد كفانا الله الغرم والمؤنة ليس أحد من بني هاشم يضحي.

حين إطلاقه كما هنا و«كل أمة» تستغرق الأمم الخمس في الشرائع الخمس، وكل الشرائع هي ناشئة من الأمر ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ...﴾(١).

- ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ حيث الأمر كله لله ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ...﴾(٢). ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٣).

فبمجرد أن منسكاً - في هذه الشرعة أم أية شرعة بعد أخرى - يختلف عما قبلها، لا يحق لأهل الشرعة السابقة أن يعترضوا على هذه اللاحقة رمياً لها بالفرية إذ لا يجدونها في شرعتهم، كما ليس لأهل اللاحقة أن يعتبروا سابقتها ناقصة غير لائقة، فإن الشرائع بمناسكها هي سلسلة متواصلة، موصولة بأصل الدين الطاعة ولا واضع لها إلا الله، فكيف يعترض متشرع على الله ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ أمر الدين - أمر الرسالة - أمر الشرعة أو أي أمر تحمَّله من الله صاحب الأمر ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ بدل الاشتغال بمنازعتهم فـ ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ دون أي عوج، فعليك يا حامل الرسالة الأخيرة بمواصلة الدعوة دون تلفت إلى من ينازعونك، ولا تفلت عنها ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

إنهم - أياً كانوا - كتابيين أو مشركين، كانوا يُمركِزون ما يعملون ويقيسون عليه - كأصل - أعمالَ من سواهم، فكانوا يجادلون الرسول ﷺ في منسكه إذ كان غير منسكهم، فيؤمر الرسول - إذن - أن يحوِّل أمر الله

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٢) سورة الجاثية، الآية: ١٧.
(٣) سورة الجاثية، الآية: ١٨.

إلى الله: ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من عمل، جدالاً في الأمر وسواه من أمر، وما أنا إلا رسول فـ ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾(١).

ومما كان يجادل فيه المشركون قولهم اعتراضاً عليه «أما ما ذبح الله بيمينه فلا تأكلون وأما ما ذبحتم بأيديكم فهو حلال»(٢) وهم ليسوا من هذه الأمم المجعول لهم منسك هم ناسكوه!.

وكذلك سار الجدال معه بالنسبة لشرعته الخاصة الناسخة لما قبلها، من المشركين ومن أهل الكتاب وكأنه بدعٌ من الرسل، حيث المنسك مهما يستعمل في الأضحية، يعم مناسك الحج كلها، ثم ومناسك الشرعة كلها فتتجاوب الآية آية الشرعة: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا... لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ...﴾.

وقد تكون العبادة والمنسك كالظرف والمجرور إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، فآية المنسك السابقة تذكره رَدف عبادات وقَرْنَ الذبح، مما يدل على معنى خاص، وهنا ﴿مَنسَكًا﴾ وهو لكل أمة دون قرين، قد يشمل كافة الطقوس الشرعية.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ...﴾ وقل:

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

وهكذا يأمره الله تعالى ألا يدع لهم فرصة لينازعوه أو يجادلوه مضياً على نهجه دون التفات ولا انشغال بنزاع المنازعين ولا جدل المجادلين،

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.

(٢) الدر المنثور ٤: ٣٦٩ - أخرج ابن المنذر عن مجاهد ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [الحَجّ: ٦٧] قول أهل الشرك... وفي نور الثقلين ٣: ٥١٩ عن جامع الجوامع في الآية روي أن بديل بن ورقاء وغيره من كفار خزاعة قالوا للمسلمين: ما لكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله؟ يعنون الميتة.

فإنهم أغلقوا أبواب قلوبهم فهم عن الحق عمون فلا ترجع في جدالهم إلى هدى لهم إلا إصراراً على ضلالهم واستكباراً وفراراً.

إن الجدال قد تعني إرشاد المجادل وهم لا يرشدون، أم استرشادك فـ ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ ثم لا تعني - بعد - إلا ما يُعنى فليس عليك يا رسول الهدى ولا لك الانشغال بذلك الجدال، بعد أنك على هدى مستقيم وعلى بينات من الأمر لا مزيد عليها فإنها كالشمس في رابعة النهار.

ونهاية المطاف معهم تحويلهم إلى الله: الله أعلم بما تعملون، والله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون، وذلك من مرور الكرام باللغو: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾[1].

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧٠﴾﴾:

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ يا رسول الهدى! وهو يعلم فاستفهام تقرير، أو ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ أيها المجادل مع الرسول. فاستفهام تنكير ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ لا سواه، ولا أنا الرسول إلا ما علمني - يعلم ﴿مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وهما الكون كله، فهو العالم بما نعمل وتعملون، وهو الحاكم يوم القيامة بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ العلم المحيط ﴿فِي كِتَٰبٍۚ﴾ مكتوب ثابت في الذكر الحكيم لدى الله العزيز العليم، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ العلم المكتوب ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ مهما كان على من سواه عسير.

أم ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ البعيد المدى من العلم المحيط ﴿فِي كِتَٰبٍۚ﴾ فـ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ القليل القليل مما تعملون، علمه ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ فما هو إلاّ قطرة من يمٍّ وذرة من طمٍّ.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٢.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾:

العبادة وسواها من الأمور المشابهة لها بحاجة إلى برهان قاطع لا مرد له، من سلطان الوحي القاطع أم سلطان العلم أياً كان، فطرياً أو عقلياً أو علمياً أو حسياً.

«و» هؤلاء المجاهيل ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ يثبت السماح فيها ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ﴾ أياً كان حيث العلم حجة وقمتّه سلطان الوحي، فنحن نعلم فطرياً وعقلياً وعلمياً أن المعبود الحق هو الله لا سواه، وقد نزل به سلطان الوحي تقويماً وتبييناً وتفصيلاً لما علمناه من سواه، إذاً فعبادة غير الله بحاجة إلى علم وسلطان يسامي ذلك العلم والسلطان، وهما قائمان على بطلانها انحصاراً في الله وانحساراً عما سوى الله أن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

والباء في «به» لمجرد التعدية، فإن ﴿يُنَزِّلْ﴾ معدى إلى مفعول واحد هو ﴿سُلْطَٰنًا﴾ وذلك السلطان يعم الوحي، والسلطة الربوبية لمن سواه، فالمعبودون من دون الله يفقدون كل علم وسلطان تستصلحهم لأن يعبدوا فعبادتهم - إذاً - من دون الله ظلم ما أظلمه ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1] - ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ في أية نشأة من النشآت وأي مسرح من المسارح إذ لا يملكون على ما يفتعلون أي برهان عاذر.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾:

لا فحسب إنهم يعبدون من دون الله دون أي برهان، بل ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ

(١) سورة لقمان، الآية: ١٣.

عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾ وهي سلطان الوحي حاملاً كل برهان وسلطان، لمَّا تمر بأسماعهم يظهر في وجوههم من النكرة لسماعها والإعراض عن تأملها ما يعرفه الناظر إليهم، و﴿ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ هو الحالة المنكرة التي ينكرها الناظرون، وإنكارهم بسطوة منكرة حيث ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾ سطوة الإخافة وسطوة البطشة وإذا اسطاعوا فسطوة الإسكات والإماتة.

أجل! إنهم ليسوا ممن يناهضون الحجة بالحجة أو يقرعون البرهان بالبرهان، فهم يلجأون إلى البطش والعنف حين تعوزهم الحجة ويخذلهم البرهان، وتلك هي سنة الطغاة لا يملكون أمام حجج الله وبيناته إلا هياج البطشات والغوغائيات وألوان التهديدات.

إنهم يزعمون آيات الله شراً يستنكرونه فتظهر على وجوههم حالة النكران لحد السطوة على المؤمنين، فيناسبهم التهديد الشديد ﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ﴾ الذي تحسبونه شراً، وبشر من حالتكم الشريرة هذه والمنكر الظاهر في وجوهكم من قلوبهم المقلوبة كأنكم محترقون بلهيب الأفئدة؟ ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

فإن كنتم تتقون الاستماع إلى آيات الله البينات هنا فهل أنتم تتقون هذه النار الناتجة عن تقواكم الطغوى هناك؟ وإنها تسطو بكم أكثر مما كنتم تسطون، وتحرقكم أشد مما كنتم تحرقون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾:

المثل هو النموذج من الشيء يمثِّله ويبرزه أمام الممثل لهم، وهذا أمثل مثل لتزييف ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ضعفاً في خلقهم لأضعف

الكائنات: ﴿ذُبَابًا﴾ وأضعف منه أنهم لا يستطيعون استنقاذ سَلَبِهم منه، ضعفاً في بُعديه ما أضعفه وهم يدعونهم من دون الله القادر المتعال!

و﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ دون «التي» مما تدل على شمولها لكل معبود دون الله، ملائكة وأنبياء، أم طواغيت وأصناماً، وما خلقُ المسيح طيراً بإذن الله خلقاً له حتى تنتقض به تلك الضابطة المستغرقة للمعبودين من دون الله ككل و﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾[1]؟!

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[2] ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[3] ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[4]، و«لن» المحيلة هنا في المستقبل تحيل في مثلث الزمان خلق كائن ذي حياة مهما كان ذباباً أم أضعف منه، وإنما يأتي الذباب مثلاً لأنه معروف لدى الكل بسَلَبه ما يسلب.

﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ إحالة لاجتماعهم على إحالة خلقهم للذباب ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ فلو اجتمعت كافة القدرات الخلقية على خلق ذباب أو بعوضة فما فوقها في الصغر لن يخلقوه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا...﴾[5].

لا فحسب بل ولا يستطيعون خلق ذباب أو بعوضة أما هيه بلا روح لو خلقت فيها الروح لطارت أو تحركت.. بل ولا خلق حبة من حنطة في كل المعامل الكيماوية إن أدخلت في تراب صالح نمت!.

إن خلق الحياة وما دونها، ذلك مما يختص بخالق الحياة وما دونها،

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٩١.
(٣) سورة النحل، الآية: ٢٠.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٣.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٦.

لا يعدوه إلى سواه مهما كان مسيحاً أم سواه، وخلق البعوضة والذباب مستحيل كخلق الجمل والفيل والإنسان حيث يشترك الكل في سر الحياة، وهنا اختيار الذباب كما هناك البعوضة مثلاً لتلك الاستحالة يلقي ظل أضعف الضعف ضِعف ما يلقيه غيره من مَثَل.

والواجهة الثانية منه ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ. . .﴾ سلباً لمتاع أو لصحة وعافية، أم لعيون وجوارح، أم للحياة، حيث الذباب على ضعفه يحمل أخطر الأمراض إذ يحمل ميكروب السل والتيفود والدستاريا والرمد.

ومن الطريف فيما يروى من شأن نزولها سلب الذباب من المسك والعنبر حيث لطخوا بهما الأصنام حول البيت الحرام فلم يبق من ذلك شيئاً إلا أكله[١].

عجباً من هؤلاء الآلهة غير الله أنهم على عجزهم أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، هم أضعف من الذباب حيث ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ وإن كانوا أحياءً فضلاً عن أصنامهم الأموات، فقد ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ طالباً لعبادتهم ومطلوباً، وطالباً استنقاذ سَلَبِهم ومطلوباً هو المستلب. وإلى أين يصل هذا الإنسان الظلوم الكفار، إذ يترك خالقه ويعبد مخلوقاً مثله نفسه أم أرذل وأدنى! و:

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾:

فمن أنحس الباطل وأبطله تسوية الخلق برب العالمين، بل وهم

---

(١) نور الثقلين ٣: ٥١٩ في الكافي بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كانت قريش تلطخ الأصنام التي كانت حول الكعبة بالمسك والعنبر وكان يغوث قبال الباب ويعوق عن يمين الكعبة وكان نسر عن يسارها وكانوا إذا دخلوا خروا سجداً ليغوث ولا ينحنون ثم يستدبرون بحيالهم إلى يعوق ثم يستدبرون عن يسارهم بحيالهم إلى نسر ثم يلبون فيقولون: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك قال: فبعث الله ذباباً أخضر له أربعة أجنحة فلم يبق من ذلك المسك والعنبر شيئاً إلا أكله وأنزل الله هذه الآية.

يقدمونهم عليه فيما يعبدون: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[١] ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾[٢].

فحق قدره في ألوهيته، هو توحيده لمكان قوته وعزته وضعف مَن دونه وذلته، وحقّ قدره في عدالته إقامة قيامته، وحق قدره في فضله ورحمته أن يوحي إلى بشر من خلقه، إذاً فنكران توحيده وقيامته ووحيه ثالوث من الكفر به ونكران لحق قدره ومنزلته في هذه الجهات الثلاث من ربوبيته، فقد نزَّلوه عن قدر الربوبية ومنزلتها توحيداً وعدلاً ورحمة، وهكذا يكون كل من لا يُقدِّر الله حق قدره قالاً أو حالاً أو فعالاً، مهما كان عدم قدره حق قدره دركات، كما أن قدره حق قدره درجات.

فما أنحسه مَن سوى بينه وبين خلقه ثم رجحهم عليه حيث يعبدهم دونه، ودونه من يخاف عبداً له كما يخافه ثم لا يخاف إلا عبده، ثم ومن دونه من دونه، ورأس الزاوية هو الذي يشرك به جاهراً، ومن ثم الرئاء وهو شرك خفي داخل في نطاق الآية بصورة هامشية، وكذلك كل قولة أو فعلة أو حالة تنافي منزلة الربوبية، جهلاً أو تجاهلاً، قاصراً أم مقصراً.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا...﴾[٣].

آيتان تحملان رسالة للملائكة، أولاهما وكثير مثلها تحمل رسالة من الناس، ولكن ملائكة الفاطر مطلقة في جعلها رسلاً كأنهم هم كلهم دونما استثناء، وملائكة الحج ﴿يَصْطَفِى مِنَ﴾ تبعيضاً لمكان الفعل والجار،

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٧.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩١.
(٣) سورة فاطر، الآية: ١.

تتجاويان باختصاص آية الفاطر بخاصة آية الحج ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ دون فوضى، بل كما في الحج اصطفاءً منهم كما من الناس، أم يعني اصطفاءُ الحج رسالة الوحي إلى رسل الناس، و«جاعل» الفاطر يعني مطلق الرسالة حيث تعم أمور التكوين والتشريع، إذاً فبين رسالة الملائكة والناس عموم مطلق، فمن رسول ملائكي من لا يحمل وحي الشرعة ومنهم من يحمله، ورسل الناس إنما يحملون وحي الشرعة مهما كانوا يحملون آيات تكوينية حجة على رسالاتهم بإذن الله.

والتجاوب مع ذلك الاصطفاء الرباني سراً وإعلاناً، ذلك من قدْر الله حق قدره في ربوبيته، حيث الرسالة كونيةً وشرعيةً هي من قضايا رحمته تعالى وعلمه وقدرته وقوته وعزته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ ما تسألون من حاجة بلسان قال أو حال، وما تقولون من نكران للرسالة ﴿بَصِيرٌ﴾ بحاجاتكم ومصلحياتكم، فلولا علمه سمعاً وبصراً بسؤلكم لما أرسل، ولولا قدرته ورحمته على علمه لما أرسل، ولكنه لقوي عزيز سميع بصير، مما يفرض الرسالة المصطفاة هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾:

﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ هو ما يستقبلونه من تصرفات وحالات ومقالات صالحة لرسالة السماء، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْۗ﴾ هو ما يستدبرونه من ماضيهم المشرق المشرِّف، ظرفاً صالحاً لـ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ﴾ لذلك الاصطفاء الرسالي، فليسوا - إذاً - ليتخلفوا عن صالح الرسالة وأمانتها، وذلك قضية علمه المحيط وحكمته المحلِّقة على كل ما دق وجل، جل جلاله وعظم شأنه.

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

أجل ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ۝٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾[1] ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾[2].

فلا أحد من رسل الله ملائكية أم بشرية يتخلف عن أمر الله، فإنهم كلهم بعين الله ورعايته، عالماً بأحوالهم في مثلث الزمان، وإن مزعمة الخطأ في رسل الله هي بنفسها تخطئة لله في رسالته، ومزرءة في علمه أو قدرته وحكمته ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ في كافة النشآت، فليس لأحد سواه استقلالٌ بجنبه ولا استغلال لربوبيته، سبحانه وتعالى عما يشركون.

ولأن الرسالة الإلهية هي من أهم الأمور الربوبية، فهو - لا سواه - المرجع له، يصطفي لها من يشاء من عباده، من الملائكة ومن الناس، فإنه رب الناس وملك الناس وإله الناس، فلا بد وأنه ينجيهم برسالاته وسائر تأييداته عن الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس، اللهم إلا النسناس الذين هم يحاربون الناس وإله الناس.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ۝٧٧﴾:

أوامر أربعة توجَّه إلى الذين آمنوا، من خاص ﴿ٱرۡكَعُواْ﴾ وعام حين لا يقرن بركوع ﴿وَٱسۡجُدُواْ﴾ وأعم من السجدة: ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ ثم وأعم من العبادة المصطلحة ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ حيث تتحول كل حالات المؤمن ومقالاته وفعالاته عبادة لله لو أنه راقب كل ما دق وجل من تصرفاته لتكون بمرضاة الله وتقرباً وزلفى إلى الله.

---

(١) سورة الجن، الآيات: ٢٦-٢٨.

(٢) سورة مريم، الآية: ٦٤.

أترى ﴿ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ هما ركوع الصلاة وسجودها، والتعبير الخاص الحاصر عنهما هو الصلاة، فإنهما ولا سيما ﴿ٱسۡجُدُواْ﴾ أعم من الصلاة، حيث السجدة عبادة طليقة في صلاة وسواها، بل والركوع حيث يذكر مفرداً ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾[١] ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ﴾[٢].

هذا، مهما تعني منهما الصلاة أحياناً في ردف دون عطف، ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[٣] ﴿... وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[٤] ولأنهما أظهر مظاهرها وأهم مواقعها.

إذاً فالركوع كما السجود عبادة مطلقة في الصلاة وسواها، اللهم إلا بقرينة تخصصها بها، مثل ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[٥] حيث المعية فيه دليل إنه في الصلاة جماعةً، مهما قرن بالصلاة قبله، فإنها مطلق الصلاة، وهذه هي في جماعة.

ولأن ظاهر الأمر هو الوجوب ما لم تحوّله قرينة قاطعة، إذاً فالركوع والسجود واجبان عند هذه التلاوة المباركة، قراءة وسماعاً واستماعاً، وكما تجب السجدة في الآية (١٨) من نفس السورة وفي فصلت ﴿وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾[٦] والنجم ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ۩﴾[٧] والعلق ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩﴾[٨] والسجدة ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ

---

(١) سورة المرسلات، الآية: ٤٨.
(٢) سورة ص، الآية: ٢٤.
(٣) سورة الحج، الآية: ٢٦.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٤٣.
(٦) سورة فصلت، الآية: ٣٧.
(٧) سورة النجم، الآية: ٦٢.
(٨) سورة العلق، الآية: ١٩.

سُجَّدًا. . .﴾[١] والنمل ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٢] آيات سبع تتطلب السجدة واجبة، مهما ترك مجتهدون كثير سجدتي الحج، خلاف الظاهر من آيتيها، ونص المروي من روايتها عن النبي ﷺ «فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما»[٣] وكذلك آية النمل، واختصوا الوجوب بالباقية المعروفة بالعزائم الأربع.

وقد يحمل الأمر في رواية بخصوص الأربع بحالة الصلاة، وكما تؤيده أخرى[٤] ومهما يكن من شيء فالظاهر هو وجوب السجدة في هذه السبع مهما تأكدت في العزائم الأربع أو اختص وجوب السجدة في الصلاة بها فلا تجب فيها للثلاث الأخرى، تأمل.

وقد تلحق بهذه الثلاث آيات الرعد والنحل ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١٥.
(٢) سورة النمل، الآية: ٢٥.
(٣) نقلناها بسندين عن النبي ﷺ وثالث عن علي عليه السلام في بداية الحج فراجع وفي جوامع الجامع عن عقبة بن عامر مثلها قال قلت: يا رسول الله ﷺ في سورة الحج سجدتان؟ قال: نعم إن لم تسجدهما فلا تقرأهما.
وأما ما في نور الثقلين ٣: ٥٢٠ عن الكافي بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث: وفرض على الوجه السجود له بالليل والنهار في مواقيت الصلاة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ. . .﴾ [الحج: ٧٧] فقد يعني أهم مصاديق واجب السجدة، لمكان إطلاق الآية متأيداً بنص الرواية.
(٤) ومثلها ما في البرهان ٣: ١٠٤ - الشيخ بسند متصل عن سماعة قال سألته عن الركوع والسجود هل نزل في القرآن؟ فقال: نعم قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا. . .﴾ [الحج: ٧٧] فقلت: فكيف حد الركوع والسجود؟ فقال: أما ما يجزيك من الركوع والسجود فثلاث تسبيحات تقول: سبحان الله سبحان الله ثلاثاً ومن كان يقوى على أن يقول في الركوع والسجود. فليطول ما استطاع يكون ذلك في تسبيح الله وتحميده وتمجيده والدعاء والتضرع فإن أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد وأما الإمام فإذا أم بالناس فلا ينبغي أن يطول بهم فإن في الناس الضعيف ومن له الحاجة فإن رسول الله ﷺ إذا صلى بالناس خفف عنهم.

﴿وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[(١)] إلا أن الفرض في هذه التسع درجات حسب الدلالات، والعزائم الأربع مجمع عليها، والأحوط وجوباً إلحاق آيات الحج والنمل بها ثم الأولى أكيداً آيات الرعد والنحل.

والحكم في القراءة والسماع والاستماع على سواء، والأوسط أوسطها، والآخران أن أولاها، وتعارض الروايات في السماع إيجاباً ونفياً مردود إلى القرآن الظاهر في شموله للسماع.

والفقه الطليق عن أسر الشهرات والإجماعات، حيث يتمحور القرآن والسنة الموافقة للقرآن، ذلك هو الفقه الحري بالتصديق والتطبيق والله المستعان على ما يصفون.

﴿... ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ في ركوع وسجود وسواهما من مظاهر العبادة، وقد اختصا بالذكر من بينها لاختصاصهما القمة في ذلك المظهر، ثم ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ وهو أعم من العبادة المرسومة تحليقاً لأفعال المؤمنين على كل خير، ولتصبح كلها عبادة لله وركوعاً وسجوداً لله ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وتشقُّون أمواج الفتن وأفواج العراقيل بسفن النجاة، فإن الخير الصامد يذيب الشر ويذبله مهما زمّر وعربد، فإن للحق دولة وللباطل جولة، وقد يروى عن رسول الهدى ﷺ خير ما في فعل الخير من قوله: «رأس العقل بعد الإيمان التودد إلى الناس واصطناع الخير إلى كل بر وفاجر»[(٢)] و«اصطنعوا الخير إلى من هو أهله وإلى من هو ليس من أهله فإن لم تصب من هو أهله فأنت أهله»[(٣)].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٥.

(٢) نور الثقلين ٣: ٥٢١ في عيون الأخبار بإسناده قال قال رسول الله ﷺ وفيه عن أبي جعفر عليه السلام من هم بشيء من الخير فليعجله فإن كل شيء فيه تأخير فإن للشيطان فيه نظرة، وعن أبي عبد الله عليه السلام جعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا.

(٣) المصدر السابق نفسه.

و﴿ٱلۡخَيۡرَ﴾ علاقة عامة مع عباد الله، بغير الركوع والسجود والعبادة لله، فالمؤمن هو الذي يُصلح علاقاته مع عباد الله كما أصلحها مع الله.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾:

ترى من هم المراجع للضمائر الجامعة الإحدى عشر؟ أهم كل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ المأمورون في سابقة الآية؟ وليس حق الجهاد إلا لأحق المجاهدين! ولا يشمل الاجتباء كل المؤمنين! ولا أنهم كلهم من ولد إبراهيم! وما هم مسمَّين ككلٍّ مسلمين من قبل مهما سُمُّوا في هذا مسلمين! ولا إنهم شهداء على الناس ككل بمن فيهم من غير العدول!.

وعلّ هذه الخمس تكفي دليلاً باهراً أن المخاطبين في هذه الإحدى عشر هم جماعة خصوص من المؤمنين، تناسبهم هذه المواصفات وكما في آية البقرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ...﴾[1].

١ - ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ الجهاد هو بذل المجهود واستفراغ الوسع في دفع العدو، وهو في الله عبارة عن دفع ما سوى الله الذي يمانع عن سبيل الله ويصدّ عنها، وهو كل شيطان مريد، أنفسي كالنفس الأمارة بالسوء والهوى وآفاقي ككل شياطين الجن والإنس فهكذا ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[2] وذلك هو تقوى الله حقاً: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[3] الجهاد القِمَّة الطليقة والتقوى القمة المطلقة.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

وعلى حد المروي عن الرسول ﷺ «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله»(١) وكما سماه الجهاد الأكبر حين سمى القتال في سبيل الله الجهاد الأصغر، فلا يخص القتال وهي أصغر الجهاد، مهما كان أظهر مظاهر جهاد النفس أن يبذل نفسه في الله فإن رأس النبعة هنا هو جهاد النفس لحدٍّ يفتدي المجاهد بها في سبيل الله»(٢).

وكما المجاهدون في الله درجات كذلك الجهاد في الله درجات أعلاها حق الجهاد، وهي للمؤمنين القمة كالرسول ﷺ والأئمة عليهم السلام ومن نحى منحاهم وحذا محذاهم.

٢ - ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ والجباية هي الجمع فالاجتباء هو الجمع على طريق الاصطفاء، وهو هنا جمع الطاقات اصطفاء في الله، دون تبعثر فيها ولا تفرق، فهو - إذاً - تجنيد كل الطاقات في الله، دون أن يكون لغير الله منها نصيب، وتلك هي العصمة أمَّا يقاربها، كما ولم يأت في القرآن فيما أتى لغير المعصومين(٣) وكيف يعم الاجتباء كل الأمة وقليل منهم عدول

---

(١) الدر المنثور ٤: ٣٧١ - أخرج ابن مردويه عن فضالة بن عبيد قال قال رسول الله ﷺ.

(٢) نور الثقلين ٣: ٥٢٣ عن الخصال عن فضيل بن عياض عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألته عن الجهاد أسنة هو أم فريضة؟ قال: الجهاد على أربعة أوجه، فجهادان فرض وجهاد سنة لا يقام إلا مع فرض وجهاد سنة فأما أحد الفرضين فمجاهدة الرجل نفسه عن معاصي الله وهو من أعظم الجهاد ومجاهدة الذين يلونكم من الكفار فرض، وأما الجهاد الذي هو سنة لا يقام إلا مع فرض فإن مجاهدة العدو فرض على جميع الأمة ولو تركوا الجهاد لأتاهم العذاب وهذا هو من عذاب الأمة وهو سنة على الإمام أن يأتي العدو مع الأمة فيجاهدهم وأما الجهاد الذي هو سنة فكل سنة أقامها الرجل وجاهد في إقامتها وبلوغها وإحيائها فالعمل والسعي فيها من أفضل الأعمال لأنه إحياء سنة قال النبي ﷺ من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء.

(٣) ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١] ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢] ﴿فَٱجْتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القلم: ٥٠] ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩] ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧] ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن =

فضلاً عن العصمة الخاصة بالرسول ﷺ والأئمة من آل الرسول؟[1]

٣ - ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ والحرج هو الذي ليس له مخرج من الحرجة الشجرة التي ليس لها مخرج فهو «أشد من الضيق»[2] والعسر، وقد وصف الضيق بالحرج ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾[3] فليس - إذاً - مطلق الضيق، والرواية المفسرة[4] له بالضيق تؤوّل رداً على الآية.

﴿وَمَا جَعَلَ﴾ يعم الجعل البدوي، جعلاً لأحكام محرجة، والاستمراري، أن يتطلب تطبيق حكم غير محرج حرجاً في خاصة الظروف، فكل حرج إما يستلزم الحرج سواءً أكان حكماً أم سلباً لحكم، كل ذلك منفي عن هذا الدين.

فلو أن زوجاً يؤذي زوجته ناشزاً عما يتوجب عليه. فلا يقيم صلبها،

= ﴿يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣] ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: ٦] ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ [مريم: ٥٨]. فترى كل هؤلاء المجتبين هم من المرسلين دونما استثناء، أفلا يكفي هذه شهود صدق على أن ﴿اجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج: ٧٨] هنا لا تعم كل الأمة.

(١) نور الثقلين ٣: ٥٢١ في أصول الكافي عن بريد العجلي قال قلت لأبي جعفر عليه السلام ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج: ٧٨] قال: إيانا عنى ونحن المجتبون..».

(٢) الدر المنثور ٤: ٣٧١ - أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق سعيد بن جبير أن ابن عباس سئل عن الحرج فقال: ادعوا لي رجلاً من هذيل فجاءه فقال: ما الحرج؟ فقال: الحرجة.. فقال ابن عباس هذا الحرج الذي ليس له مخرج، وفي نور الثقلين ٣: ٥٢١ في أصول الكافي عن الباقر عليه السلام في حديث حول الآية: فالحرج أشد من الضيق.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

(٤) المصدر - أخرج ابن جرير وابن مردويه والحاكم وصححه عن عائشة أنها سألت النبي ﷺ عن هذه الآية ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] قال: من ضيق وفي قرب الإسناد للحميري بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه عن النبي ﷺ قال: مما أعطى الله أمتي وفضلهم به على سائر الأمم... ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يقول: من ضيق.

ولا يقوم بواجب الزوجية معها، فيذرها كالمعلقة لا ذات زوج ولا أيِّم، ثم ولا يطلقها مضارة إياها، نظِرَة أخذ مال منها أمَّا ذا، جاعلاً إياها في حياة محرجة، فإن بقيت هكذا كان حرجاً عليها، فليس - إذاً - بقاؤها كما هيه مفروضاً عليها بحكم الشرعة، فللحاكم الشرعي تطليقها دون اشتراط إذن من زوجها وهو على حالة المضارة دون تنازل عن إحراجه إياها.

فضابطة اللّاحرج محلِّقة على كافة الظروف، نافية للحكم المحرج أو العمل المحرج، أو الترك المحرج، فلا إحراج في الدين إطلاقاً من ناحيته، اللهم إلا من أحرج نفسه فإنه ليس من الدين في شيء.

فالواجب المحرج، والمحرم المحرج، لا يبقى على وجوبه أو حرمته، فضلاً عما يحرج ولا يعرف حكمه كطلاق المحرجة في زواجها، فـ ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

فهذا الدين كله، بأحكامه العبادية والسياسية والاقتصادية والحقوقية أماهيه، ملحوظة فيه فطرة الإنسان وطاقته، قد لوحظ فيه تلبية الفطرة الطليقة والاتجاه إلى البناء والاستعلاء فلا تبقى حبيسة كالبخار المحتبس، ولا تنطلق انطلاق الحيوان الغشم.

لذلك ترى الرسول ﷺ والأئمة من آل الرسول يستندون في نفي الإحراج بهذه الآية، ويرجعون الأمة إليها كضابطة عامة لا تستثنى[2].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٢) نور الثقلين ٣: ٥٢٤ عن تهذيب الأحكام في صحيحة عبد الأعلى مولى آل سام قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام عثرت فانقطع ظفري فجعلت على إصبعي مرارة كيف أصنع بالوضوء؟ قال: يعرف هذا وأشباهه من كتاب الله عز وجل قال الله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحَجّ: ٧٨]. امسح عليه، وفيه عن الكافي في الصحيح عن ابن مسكان قال حدثني ميسر قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرجل الجنب ينتهي إلى الماء القليل في الطريق ويريد أن =

وإذا كان العسر والضيق منفيين في شرعة الإسلام فبأحرى للحرج أن يُنفى، و﴿فِي الدِّينِ﴾ دون «الشرع» مما يلمح كتصريحه أن الحرج منفي عن كافة الشرائع من الدين، فلا حرج في دين الله إطلاقاً، في أية شرعة من الدين دونما استثناء، مهما كان في بعض الشرائع عسر كشرعة التوراة، كما ويعم الدين أصله إلى فرعه والأصل أحرى، فلا حرج في أصول الدين كما في فروعه.

٤ - ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ الزموا ملة أبيكم إبراهيم، والجهادُ في الله حق جهاده، وعدمُ جعل الحرج في الدين، هما يعنيان ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾.

أترى ﴿كُمْ﴾ هنا تعم الأمة الإسلامية؟ وليس هو أباهم، اللهم إلا قليلاً منهم هم من ذرية إبراهيم وإسماعيل! وليست هذه الأبوة هي الروحية فإنها تأويل دون دليل، ثم وأحرى بهذا النبي ﷺ أن يكون أباً للأمة الإسلامية روحياً كما هو أب لكافة المرسلين فـ ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾[1]!

فإنما الأبوة هنا هي النسبية مضافةً إلى الروحية، فـ «كم» ليسوا هم إلا الرسول ﷺ والأئمة من آل الرسول عليهم السلام [2] دون الأمة ككل، ولا ذرية

= يغتسل منه وليس معه إناء يغرف به ويداه قذرتان؟ قال: يضع يده ثم يتوضأ ثم يغتسل هذا مما قال الله عزّ وجلّ : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحَجّ: ٧٨].

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦.

(٢) المصدر في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سليم بن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال في جمع من المهاجرين والأنصار بالمسجد أيام خلافة عثمان: أنشدكم الله أتعلمون أن الله عزّ وجلّ أنزل في سورة الحج ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ [الحَجّ: ٧٧] إلى آخر السورة فقام سلمان فقال: يا رسول الله ﷺ من هؤلاء الذين أنت عليهم شهيد وهم شهداء على الناس الذين اجتباهم الله ولم يجعل عليهم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم؟ فقال: عنى بذلك ثلاثة عشر رجلاً خاصة دون هذه الأمة قال سلمان: بينهم لنا يا رسول الله ﷺ قال: أنا وأخي وأحد عشر من ولدي، قالوا اللهم نعم وفيه عن بريد العجلي قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام قال الله عزّ وجلّ : ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ =

إبراهيم المسلمين ككل إذ لا يصدق عليهم حق الجهاد ولا الاجتباء مهما شملتهم الأبوة الإبراهيمية نسبياً، فها هي الأبوة الروحية إلى جانب النسبية وكما في دعائه عليه السلام لهم: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[1].

٥ - ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ وترى من «هو» أهو إبراهيم إذ سماهم مسلمين في دعائه من قبل عندما دعى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[2] فكيف سماهم «في هذا» الدين؟ فهل هي تسميتهم من قبل؟ فـ «في هذا» زائد، أم سماهم بعد القبل وليس هو معهم في هذا!

فحقاً إنه هو الله[3] إذ سماهم المسلمين من قبل «في الكتب التي مضت»[4] منذ صحف إبراهيم إلى توراة موسى وإلى الإنجيل ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ الدين المتين حيث السمة البارزة المتميزة في القرآن لخاصة المسلمين وعامتهم هي ﴿الْمُسْلِمِينَ﴾.

ونموذجاً مما في كتابات السماء من هذه التسمية المباركة من التوراة حسب الأصل العبراني: «وُليشمَعِيل شِمَعتِيخا هِينّه بِرَخْتي أوتُو وَهِيفْرْتِي أوتُو وَهِيرْبَيْتِي أوتُو بِمْئُدْ مُئِدْ شِنِيم عَاسَار نِسِيئِيمْ يُولِدْ وِنْتَتِّيوُ لِغُوى غادُلْ» (تكوين المخلوقات ١٧ : ٢٠).

= [الحج: ٧٨]؟ قال: إيانا عنى خاصة. أقول: وفي تفسير البرهان ٣: ١٠٦ في رواية قيس «أسباطاً» بدل «رجلاً» وهو أليق تناسباً لدعاء إبراهيم، وبدل «من ولدي» من ولد علي.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.

(٣) نور الثقلين: ٣: ٥٢٢ الكافي عن بريد العجلي قال قلت لأبي جعفر عليه السلام قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨] الله عز وجل سمانا المسلمين من قبل في الكتب التي مضت وفي هذه القرآن.

(٤) المصدر في أصول الكافي عن بريد العجلي قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] قال: إيانا عنى خاصة ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨] في الكتب التي مضت» «وَفِي هذا» القرآن...

«ولإسماعيل سمعته (إبراهيم) ها أنا أباركه كثيراً وأنميه كثيراً وأثمره كثيراً وأرفع مقامه كثيراً بمحمد ﷺ واثني عشر إماماً يلدهم إسماعيل وأجعله أمة كبيرة»(١).

وطالما التوراة لا يذكر في هذا النص دعاء إبراهيم إلا إشارة، فالقرآن ينص عليه قائلاً: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾(٢).

ومن الإنجيل ما في لوقا ٣: ١٤: «وظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السماويين يسبحون الله ويقولون: الحمد لله في الأعالي وعلى الأرض إسلام، وللناس «أحمد».

فالأصل المنقول عنه «إسلام» هو «إيريني» و«أحمد» «أيودكيا» كلمتان يونانيتان، وقد ترجموا «إيريني» بـ «سلامة - مسالمة - سلام» وهي في السريانية «شلم» وفي العبرانية «شالوم» ومن المعلوم أن لفظة «إسلام» تفيد معاني واسعة كالسِّلم والسلام والصلح والمسالمة والأمن والراحة، فالإسلام الذي هتفت به الملائكة هو ذلك الإسلام حيث يضمن كل معاني السلم والسلام(٣).

وقد يعني «هو» - ضمن المعني منها - إبراهيم الخليل حيث سماهم المسلمين من قبل، وليس ذلك إلا بوحي من الله وكما أوحي إلى نبيين آخرين.

ترى ولماذا اجتباكم مجاهدين في الله حق جهاده دون حرج، وسماكم المسلمين من قبل وفي هذا؟:

---

(١) راجع كتابنا رسول الإسلام في الكتب السماوية ٤٠ - ٤٣.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ١٢٨، ١٢٩.

(٣) المصدر ١٧٨ - ١٨٢.

٦ - ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ - ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(١) فهؤلاء المسلمون الأكارم الخصوص المعصومون من ذرية إبراهيم وإسماعيل، هم وسط بين الرسول وبين الناس، وهم شهداء على الناس والرسول شهيد عليهم.

فما كل مسلم حتى العدول منهم شهيداً على الناس مهما كانوا كافرين، حيث الشهادة هي على الأحوال والأقوال والأعمال، وهي تتطلب حضوراً لتلقيها، واستحضاراً لإلقائها، حضوراً دائباً عند ما دق وجل من أعمال الناس، ما كان الشهداء أحياءٍ وأمواتاً، وذلك خارج عن قاصر العلم والحضور لكل عالم من المسلمين وحاضر، اللهم إلا بإشهاد الله، وليس ليُشهد إلا رجالات الوحي والعصمة كما هو مسرود في آيات الشهادة ومن أشملها ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾(٢) فهو إذاً شهيد الشهداء، حيث الأمة الوسط شهداء على الناس كافة والرسول ﷺ شهيد عليهم تحليقاً على الشهداء والمشهود لهم وعليهم.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾(٣).

فـ «الناس» - في تلكم الشهادة - هم كل الناس، مسلمين وسواهم، وهذه الأمة الوسط هم شهداء على كل الناس والرسول شهيد عليهم(٤) وقد

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤١.

(٣) سورة النحل، الآية: ٨٩.

(٤) نور الثقلين ٣: ٥٢١ عن الكافي بسند عن الباقر عليه السلام في الآية، فرسول الله ﷺ الشهيد علينا بما بلغنا عن الله تبارك وتعالى ونحن الشهداء على الناس يوم القيامة فمن صدق يوم=

تحلّق شهادة الأمة الوسط: الأئمة الأثني عشر، على شهداء كل أمة حيث هم داخلون هنا في نطاق الناس.

وهذه قضية ذلك الاجتباء القمة بالجهاد في الله القمة للرسول ﷺ والأئمة، أن تُحتصر الشهادة المحلقة على الناس كلهم فيهم، فآية الحج والبقرة حاكمتان على سائر آيات الشهادة.

وهؤلاء الشهداء هم أفضل الشهداء على الأعمال من المرسلين والنبيين والملائكة، ومن الجوارح والأجواء ومن الأرض وما عليها، فإنها عساكر مجنَّدة تتحمل شهادات ثم تُلقيها يوم القيامة، وكما هي مسرودة مشروحة في آيات انعكاسات الأعمال في سجلاتها الأربعة.

أترى بعدُ أن المخاطبين بهذه الخطابات هم كل الأمة الإسلامية بمن فيهم فسقة ومنافقون، فحتى العدول منهم وعلماءهم الربانيون غير المعصومين لا تشملهم هذه الخطابات، اللهم إلا هامشياً، أم في بعضها «وكان زيد والله ممن خوطب بهذه الآية» كما يروى[1].

= القيامة صدقناه ومن كذب كذبناه وعن بريد العجلي مثله عن الصادق عليه السلام . وفيه عن المناقب في خبر أن قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحَجّ: ٧٨] فدعوة إبراهيم وإسماعيل لآل محمد عليهم السلام فإنه لمن لزم الحرم من قريش حتى جاء النبي ﷺ ثم اتبعه وآمن به وأما قوله: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ [الحَجّ: ٧٨] النبي يكون على آل محمد عليهم السلام شهيداً ويكونون شهداء على الناس وفيه عبد الله بن الحسن عن زين العابدين عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البَقَرَة: ١٤٣] قال: نحن هم وفيه عن كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى إبراهيم بن أبي محمود عن الرضا عليه السلام حديث طويل وفيه: نحن حجج الله في خلقه ونحن شهداء الله واعلامه في بريته.

(١) نور الثقلين ٣: ٥٢٢ في عيون الأخبار بإسناده إلى ابن أبي عبدون عن أبيه قال لما حمل زيد ابن موسى بن جعفر إلى المأمون وقد كان خرج بالبصرة وأحرق دور ولد العباس وهب المأمون جرمه لأخيه علي بن موسى الرضا عليه السلام وقال له يا أبا الحسن لئن خرج أخوك وفعل ما فعل لقد خرج زيد بن علي عليه السلام فقتل ولولا مكانك مني لقتلته فليس ما أتاه بصغير فقال الرضا عليه السلام : يا أمير المؤمنين لا تقس أخي زيداً إلى زيد بن علي عليه السلام فإنه كان من علماء =

٧ - ﴿...فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾:

تلك الأمانة الكبرى تتطلب علاقة دائبة بالله: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وصلة بعباد الله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ واعتصاماً بالله على أية حال:

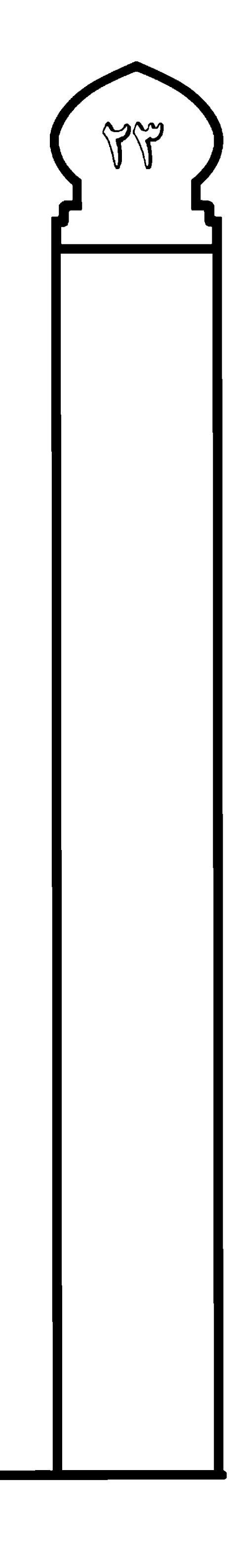
﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ لكي يعصمكم عن الزلات في هذه السبيل الشائكة، المليئة بالأشلاء والدماء والعرقلات ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ لا سواه ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

ومن لطيف الأمر في هذه الآية الأخيرة من السورة، أن واجهات الخطابات فيها تعم المسلمين في ظاهر الحال، وهي خاصة بالقادة المعصومين عند التأمل والتعمل، وذلك لكي يدرس المسلمون في مدارس العصمة والطهارة هذه الدروس القيمة القمة.

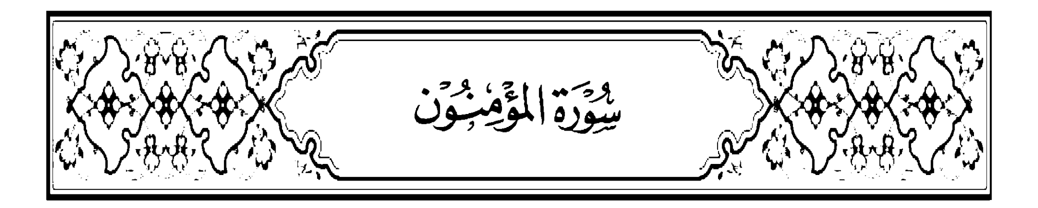
فالصلاة المُقامة بشروطها الظاهرية والباطنية هي صلة الفرد الضعيف الفاني بمصدر القوة والزاد، والزكاة هي صلة الجماعة المؤمنة بعضها ببعض والتأمين من الحاجة والفساد، والاعتصام بالله هو العروة الوثقى التي لا انفصام لها بين المعبود والعباد.

وبهذه العُدَّات وما سبقتها تملك الأمة المسلمة بقياداتها الصالحة - معصومة وعادلة - أن تقود البشرية جمعاء.

= آل محمد، غضب لله تعالى فجاهد أعداءه حتى قتل في سبيله ولقد حدثني أبي موسى بن جعفر عليه السلام أنه سمع أباه جعفر بن محمد عليه السلام يقول: رحم الله عمي زيداً أنه دعا إلى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولو ظفر لوفى بما دعا إليه، ولقد استشارني في خروجه فقلت له: يا عمي أن رضيت أن تكون المصلوب بكناسة فشأنك فلما ولى قال جعفر بن محمد عليه السلام ويل لمن سمع داعيته فلم يجبه، فقال المأمون يا أبا الحسن أليس قد جاء فيمن ادعى الامامة بغير حقها ما جاء؟ فقال الرضا عليه السلام أن زيد بن علي عليه السلام لم يدع ما ليس له بحق وانه كان أتقى لله تعالى من ذلك إنه قال: أدعوكم إلى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإنما جاء ما جاء فيمن يدعي أن الله تعالى نص عليه ثم يدعو إلى غير دين الله ويضل عن سبيله بغير علم وكان زيد والله ممن خوطب بهذه الآية ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ [الحج: ٧٨].



سُورَةُ المُؤْمِنُونَ



سورة المؤمنون

وآياتها ثماني عشرة ومائة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾

سورة «المؤمنون» وكل سور القرآن هي للمؤمنين، إلا أن الجو الشامل فيها هو جو الإيمان، صفات الإيمان، ودلائل الإيمان في الآفاق والأنفس، وحقيقة الإيمان وحده وتفرق الناس عنها، وما للمؤمنين من فضائل الأخلاق والأعمال، ولمن سواهم من رذائل الأخلاق وسفاسفها.

فهي تبدأ بفلاح المؤمنين الحاملين شروطات الإيمان في آيات عشر «من أقامهن دخل الجنة»[1] و﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ توضيحة للعاشرة دون أن تحمل مواصفة زائدة.

(١) الدر المنثور ٥: ٢ - أخرج جماعة عن عمر بن الخطاب قال: كان إذا أنزل على رسول=

ثم عرضاً لخلق الإنسان وخلق الطرائق السبع وإنزال نصيب الأرض من ماء السماء، ثم قصصاً من دعوات الرسل وعرقلات الناكرين منذ نوح ورسلٍ بعده إلى موسى وهارون وعيسى ابن مريم، توحيداً لدعواتهم وأممهم، وإلى خاتم النبيين، بما يطمها ويتمها من دلائل التوحيد والوحي والمعاد، وكلها تحول حول صالح الإيمان وطالح الإيمان.

وفي بعض الروايات اليتيمة أن علياً عليه السلام قرأ هذه الإحدى عشر عند ولادته أمام النبي صلى الله عليه وآله وسلم [1] وفي لطيمة أنه قرأ حينذاك كافة الكتب السماوية

= الله صلى الله عليه وآله وسلم الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل فأنزل عليه يوماً فمكثنا ساعة فسرى عنه فاستقبل القبلة فرفع يديه فقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارض عنا وأرضنا ثم قال: لقد أنزلت علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ: قد أفلح المؤمنون حتى ختم العشر وأخرج آخرون عن يزيد بن بابنوس قال قلنا لعائشة: كيف كان خلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قالت: كان خلقه القرآن ثم قالت: تقرأ سورة المؤمنون فقرأ حتى بلغ العشر فقالت هكذا كان خلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) بحار الأنوار ٣٥: ١٧ في رواية شعبة عن قتادة عن أنس عن العباس بن عبد المطلب ورواية الحسن بن محبوب عن الصادق عليه السلام والحديث مختصر - أنه انفتح البيت من ظهره ودخلت فاطمة فيه ثم عادت الفتحة والتصقت وبقيت فيه ثلاثة أيام فأكلت من ثمار الجنة فلما خرجت قال علي عليه السلام؟ السلام عليك يا أبه ورحمة الله وبركاته ثم تنحنح وقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الآيات فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قد أفلحوا بك أنت والله أميرهم تميرهم من علمك فيمتارون وأنت والله دليلهم وبك والله يهتدون ووضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لسانه في فيه فانفجرت اثنتا عشرة عيناً قال فسمي ذلك اليوم يوم التروية فلما كان من غده وبصر علي برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وضحك في وجهه وجعل يشير إليه فأخذه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت فاطمة: عرفة فسُمي ذلك اليوم عرفة فلما كان اليوم الثالث وكان يوم العاشر من ذي الحجة أذن أبو طالب في الناس أذاناً جامعاً وقال: هلموا إلى وليمة ابني علي ونحر ثلاثمائة من الإبل والف رأس من البقر والغنم واتخذوا وليمة وقال: هلموا طوفوا بالبيت سبعاً وادخلوا وسلموا على علي ولدي ففعل الناس ذلك وجرت به السنة ووضعته أمه بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ففتح فاه بلسانه وحنكه وأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى فعرّف الشهادتين وولد على الفطرة.

أقول: وفي الحديث من الغرائب ما يعجز عنها التعبير، وكأن مختلق الحديث نسي أن النبي بعد لم ينبأ فكيف أذن وأقام؟ وأبو طالب كان فقيراً ذا عيال فكيف قدم هذه الوليمة التي كانت =

ومنها القرآن من أولها إلى آخرها»[١].

= تكفي أهل مكة أياماً عدة وسنة الطواف هي كانت منذ آدم إلى إبراهيم وإلى محمد ﷺ فكيف كانت منذ هذه الولادة. . .؟ ورواه مثله الشيخ الطوسي في أماليه.

(١) بحار الأنوار ٣٥: ١٩ ح ١٥ خص ضه روي عن مجاهد عن أبي عمرو وأبي سعيد الخدري قالا: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذ دخل سلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وأبو الهيثم بن التيهان وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين وأبو الطفيل عامر بن واثلة فجثوا بين يدي رسول الله ﷺ والحزن ظاهر في وجوههم فقالوا: فديناك بالآباء والأمهات يا رسول الله ﷺ إنا نسمع من قوم في أخيك وابن عمك ما يحزننا وإنا نستأذنك في الرد عليهم فقال ﷺ: وما عساهم يقولون في أخي وابن عمي علي بن أبي طالب؟ فقالوا يقولون: أي فضل لعلي في سبقه إلى الإسلام، وإنما أدركه الإسلام طفلاً ونحو هذا القول، فقال ﷺ فهذا يحزنكم؟ قال: إي والله فقال: بالله اسألكم. هل علمتم من الكتب السالفة أن إبراهيم هرب به أبوه من الملك الطاغي فوضعت به أمه بين أثلال بشاطئ نهر يتدفق يقال له حزران من غروب الشمس إلى إقبال الليل فلما وضعته واستقر على وجه الأرض قام من تحتها يمسح وجهه ورأسه ويكثر من شهادة أن لا إله إلا الله ثم أخذ ثوباً واتشح به وأمه تراه فذعرت منه ذعراً شديداً ثم هرول بين يديها ماداً عينيه إلى السماء فكان منه ما قال الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] - ثم نقل قصة موسى وعيسى فقال -: وقد علمتم جميعاً أن الله عز وجل خلقني وعلياً من نور واحد - إلى قوله - ولقد هبط حبيبي جبرئيل في وقت ولادة علي ويقول: هذا أوان ظهور نبوتك وإعلان وحيك وكشف رسالتك إذ أيدتك بأخيك ووزيرك وصنوك وخليفتك ومن شددت به أزرك وأعلنت به ذكرك فقم إليه واستقبله بيدك اليمنى فإنه من أصحاب اليمين وشيعته الغُر المحجلون فقمت مبادراً فوجدت فاطمة بنت أسد أم علي وقد جاء لها المخاض وهي بين النساء والقوابل حولها فقال حبيبي جبرئيل: يا محمد نسجف بينها وبينك سجفاً فإذا وضعت بعلي تتلقاه ففعلت ما أمرت به ثم قال لي: امدد يدك يا محمد فمددت يدي اليمنى نحو أمه فإذا أنا بعلي على يدي واضعاً يده اليمنى في أذنه اليمنى وهو يؤذن ويقيم بالحنفية ويشهد بوحدانية الله عز وجل وبرسالاتي ثم انثنى الي وقال: السلام عليك يا رسول الله، ثم قال لي: يا رسول الله أقرأ؟ قلت: اقرأ، فوالذي نفس محمد بيده لقد ابتدأ بالصحف التي أنزلها الله عز وجل على آدم فقام بها ابنه شيث فتلاها من أول حرف فيها إلى آخر حرف فيها حتى لو حضر شيث لأقر أنه أحفظ له منه ثم تلا صحف نوح ثم صحف إبراهيم ثم قرأ توراة موسى حتى لو حضر موسى أقر له بأنه أحفظ لها منه ثم قرأ زبور داود حتى لو حضر داود لأقر بأنه أحفظ لها منه ثم قرأ إنجيل عيسى حتى لو حضر عيسى لأقر بأنه أحفظ لها منه ثم قرأ القرآن الذي أنزله الله علي من أوله إلى آخره فوجدته يحفظ كحفظي له الساعة من غير أن أسمع منه =

ذلك! مع العلم أن الرسول ﷺ نفسه لم ينبأ بعدُ ولما ينزل عليه القرآن إلا بعد اثنتي عشرة سنة، فما كان يعلم من القرآن شيئاً: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾[1] ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[2] ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[3]! فهل

نزلت على علي عليه السلام هذه الآيات، أم القرآن كله بسائر كتابات السماء، قبل أن ينزل القرآن على رسول القرآن، فأصبح - إذاً - رسولاً قبل الرسول، أم علمها دون وحي حياداً عن رسالته، ولم يكن الرسول يعلمها دون وحي، إذاً فهو أعلم من الرسول ﷺ!

ومما لا ريب فيه أن علياً علم ما علم بتعليم الرسول ﷺ فكيف علم ما قرأه قبل تعليمه بوحي أم دون وحي! إذاً فهذه الروايات اليتيمات لطيمات من إسرائيليات وكنسيات ووثنيات، والهدف من اختلاقها القضاء على سيادة القرآن وكرامته، والجهلة البسطاء من الشيعة المتطرفين يتقبلونها زعماً أنها ترفع من كرامة الإمام، غفلة أو تغافلاً عن أنها من واجهة أخرى تمس من كرامة الرسول ﷺ.

لا نقول إن الصبا تمنع عن نزول الوحي فإن يحيى ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[4] والمسيح قال في مهده: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ. . .﴾[5] فليس من المستحيل ذاتياً أن يقرأ الامام علي حين ولادته هذه الآيات أم القرآن كله، أم كتب السماء كلها.

ولكنه من المستحيل أن يوحى وحي الرسالة إلى من ليس برسول، وقبل أن يوحى إلى الرسول!

= آية ثم خاطبني وخاطبته بما يخاطب الأنبياء والأوصياء ثم عاد إلى حال طفوليته، وهكذا أحد عشر إماماً من نسله فلم تحزنون وماذا عليكم من قول أهل الشك والشرك بالله. . . ؟

(١) سورة هود، الآية: ٤٩.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.
(٣) سورة الشورى، الآية: ٥٢.
(٤) سورة مريم، الآية: ١٢.
(٥) سورة مريم، الآية: ٣٠.

والنظر الصائب المجرد، المتحلل عن العصبيات العمياء الجهلاء يُطمئن الناظر إليها أنها من المختلقات الزور، وساحة الرسول ﷺ وأهل بيته الطاهرين براء من هذه التقولات التي تمس من كرامة الرسالة والشرعة القرآنية.

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾:

الفلْح هو الشق، والفلّاح: الأكّار الذي يشق الأرض للزراعة، والفَلاح الظفر وإدراك بغية دنيوية أو أخروية أو الطليقة الشاملة لهما، والآخرة خير وأبقى.

فالإفلاح هو بالغ الفلاح دخولاً فيه[1] تشقيقاً لأرض الحياة، وسحقاً لكافة الشهوات والحيوَنات، وإزالة لكل العرقلات، فوصولاً إلى بغية الإيمان في الدارين وكما وعد الله ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾[2].

ثم «المؤمنون» هنا وفي سواها لا يخص الذكور، بل هم كل من حمل الإيمان ذكراناً وإناثاً، اللهم إلا في البعض من هذه المواصفات التالية التي لا تناسب الإناث كـ ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾[3].

وترى «المؤمنون» هنا تشمل كل من آمن أياً كان، مهما حمل في قلبه - فقط - صورة الإيمان، دون أن يأتي بسيرته؟ كلّا! بل هم المؤمنون الموصوفون بهذه الثمان عدد أبواب الفردوس:

١ - ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢﴾:

فالصلاة فيها هي البداية بعد الإيمان خشوعاً فيها، وهي النهاية حفاظاً

---

(١) كأبشر دخل في البشارة ويقال افلحه صيّره إلى الفلاح.
(٢) سورة غافر، الآية: ٥١.
(٣) سورة النحل، الآية: ٧١.

عليها، وبينهما متوسطات، وهكذا تكون الصلاة قاعدة الإيمان وعموده، ورائدة لسائر شروط الإيمان.

وهنا عنصر الخشوع هو القلب لقالب الصلاة، كما هو قلب لسائر العبادات والطاعات: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[1] ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[2] ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۚ﴾[3].

والخاشع في صلاته وهي قلب العبادات، هو بطبيعة الحال خاشع لله في سائر الحالات، فحياته إذاً حياة الخشوع لله في كافة التصرفات، فلا يخشع لما سواه، ولا يترك الخشوع لله.

والخشوع هو ضراعة القلب كما الخضوع هو ضراعة القالب، وإذا ضرع القلب ضرع سائر جوانح الإنسان وجوارحه فإن «القلوب أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء» فخشوع إمام الأئمة خشوع وخضوع لسائر الأئمة والمأمومين، وقد رأى النبي ﷺ رجلاً يعبث بلحيته في صلاته فقال: «أما أنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه»[4].

ثم وخشوع المؤمن هو خشوع الإيمان تسوية فيه بين القلب والجسد دون نفاق، فـ «ما زاد خشوع الجسد على ما في القلب فهو عندنا نفاق»[5]

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩٩.

(٤) الدر المنثور ٥: ٣ وفي نور الثقلين ٣: ٥٢٨ في المجمع روي أن النبي ﷺ رأى رجلاً.. وفيه عن الخصال عن أمير المؤمنين عليه السلام ليخشع الرجل في صلاته فإنه من خشع قلبه لله عزّ وجلّ خشعت جوارحه فلا يعبث بشيء.

(٥) المصدر في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: ... وفي الدر المنثور=

وأما إذا زاد خشوع القلب على الجسد فما هو بنفاق مهما كانت التسوية أولى، اللهم إلا في مظان الرئاء أو مرجح سواه هو قضية خشوع القلب.

فـ «إذا قام أحدكم في الصلاة فليسكن أطرافه لا يتميَّل تميُّل اليهود فإن سكون الأطراف من تمام الصلاة»(١) والالتفات في الصلاة «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد»(٢) فـ «لا يلتفت أحدكم في صلاته فإن كان لا بد فاعلاً ففي غير ما افترض الله عليه»(٣).

فإلى من تلتفت في صلاتك وأنت أمام ربك وهو خير لك ممن تلتفت إليه وما يلفتك إليه! اللهم إلا لفتة غير قاصدة فيما تضطر إليه.

ولأن الخشوع هو في الأصل فعل القلب، فله النصيب الأوفر بالنسبة للقالب، والصلاة تنقسم حسب درجات الخشوع وكما يروى عن رسول الهدى ﷺ (٤) فـ «إنما الخشوع لمن تمكن وتواضع»(٥) فالصلاة الخاشعة لله هي قطع كافة الصِّلات عما سوى الله، فيصبح المصلي موصول القلب وبكليته إلى الله، بإعظام المقام وجمع الاهتمام، عارفاً ذلّه أمام العز المطلق

= ٥ : ٣ أخرج الحكيم الترمذي والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي بكر قال قال رسول الله ﷺ : تعوذوا بالله من خشوع النفاق قالوا : يا رسول الله وما خشوع النفاق؟ قال : خشوع البدن ونفاق القلب.

(١) الدر المنثور ٥ : ٣ - أخرج الحكيم الترمذي من طريق القاسم بن محمد عن أسماء بنت أبي بكر عن أم رومان والدة عائشة، قالت رآني أبو بكر أتميل في صلاتي فزجرني زجرة كدت أنصرف من صلاتي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا قام. .

(٢) المصدر أخرج ابن أبي شيبة والبخاري وأبو داود والنسائي عن عائشة قالت سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: هو اختلاس. . .

(٣) المصدر - أخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة أنه قال في مرضه اقعدوني اقعدوني فإن عندي وديعة أودعنيها رسول الله ﷺ قال: لا يلتفت. .

(٤) الدر المنثور ٥ : ٤ - أخرج أحمد عن أبي اليسر أن رسول الله ﷺ قال: منكم من يصلي الصلاة كاملة ومنكم من يصلي النصف والثلث والربع حتى بلغ العشر.

(٥) تفسير الفخر الرازي ٢٣ : ٧٧ قوله عليه السلام : . . . .

الـذي لا يـرام، ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝٤٦﴾[1].

فخشوعك في صلاتك هو على قدر معرفتك بالله وعقلك عن الله[2] وحضورك بمحضره، فمن المصلين مَن هن غُيَّب في صلاتهم فما صلاتهم هذه - إذاً - بصلاة، ولولا أمر الله لكانت مزرءة ومسخطة، وعليهم أن يستغفروا من هذه الصلاة الغائبة غير الخاشعة.

والمصلون هم الذين تستشعر قلوبهم رهبة الموقف بين يدي الله بلقاء الله، فتسكن وتخشع لله، فيسري خشوعهم إلى الجوارح والملامح، ويغشى أرواحهم جلال الله في حضرته، ويتوارى عن مشاعرهم وحواسهم كل ما سوى الله، فلا يشهدون إلا الله، ولا يتذوقون إلا حظوة لقاء الله، وعندئذٍ تتصل هذه الذرة التائهة بمصدرها، وتجد الروح الحائرة طريقها، ويعرف القلب المتقلب مثواه ومأواه، وتتضاءل كل القيم والأقدار إلا قدر الله ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾! والصلاةُ معراج المؤمن، والمصلي يناجي ربه[3] فكيف تكون نجوى ومعراجاً الصلاة الفاضية عن الخشوع، الخاوية عن الخنوع لله؟ وأفحش الفحشاء وأنكر المنكر لمن لا تنهاه صلاته عن التفكك، والتلفُّت إلى من سوى الله[4].

فـ ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[5] ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾[6] و«من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً»[7].

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٤٥، ٤٦.
(٢) المصدر عنه ﷺ «ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل».
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) المصدر عنه ﷺ.
(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.
(٦) سورة طه، الآية: ١٤.
(٧) المصدر عنه ﷺ.

فـ «كم من قائم حظه من قيامه التعب والنصب»[١].

فماذا تفيدك صلاتك في ألفاظ وأفعال خاوية والقلب لاهٍ، وليست هذه المظاهر إلا بيانات عما في القلب، إذاعة صوتية وصورية عن خشوع القلب وبخوعه.

ولأن الخشوع في الصلاة معدود في عداد مواصفات الإيمان فتركه - إذاً - خلاف الإيمان حيث الإيمان المستكن في القلب يتطلّب خشوع القلب في معراجه.

فهو واجب من واجبات الصلاة قدر الإمكان، والمتهاون عنه متهاون بالصلاة، فمهما صحت صلاته قالبياً لم تكن لتصح قلبياً، وأركن أركان الصلاة هي صلاة القلب، البارز في صلاة القالب، و«إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها»[٢].

٢ - ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾:

إعراضاً عن لغوهم واللغو من غيرهم[٣] فإعراضاً شاملاً عن اللغو كله أياً كان ومن أيٍّ كان قالةً أو فعالةً أم حالةً ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾[٤] ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾[٥].

واللغو - ككل - هو ما لا يعتد به ولا يعنى حيث يورد لا عن رويَّة ولا فكرة فيجري مجرى اللَّغا وهو صوت العصافير حيث لا نفهم منه شيئاً وإن تفهم هي

---

(١) المصدر عنه ﷺ.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٣: ٧٩ وروي أيضاً مسنداً قال ﷺ: . . .

(٣) نور الثقلين ٣: ٥٢٩ عن المجمع روي عن أبي عبد الله ﷺ قال - في الآية - أن يتقول الرجل عليك بالباطل أو يأتيك بما ليس فيك فتعرض عنه لله.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٧٢.

(٥) سورة القصص، الآية: ٥٥.

وتعني ما تعنيه، ولكنه لا يخص الصوت، بل يعم كل حركة وسكون في مثلث الأحوال والأقوال والأفعال، منك وممن سواك، فتعيش حياةً تعني الحيويَّة الإنسانية الإيمانية، دون الحيوانية اللاغية اللاهية مما لا يعنيه الإيمان.

والإعراض هو حالة نفسانية، فهو يعم الترك، والمؤمن أياً كان يعترضه أحياناً اللمم وما فوقه فضلاً عن اللغو، فلم يقل هنا «تاركون» كيلا يخرج هكذا مؤمنين عن ﴿أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وإنما ﴿مُعْرِضُونَ﴾ مهما يعتريهم بطبيعة الحال لغو وما فوقه.

ومن حق الإيمان أن يتطلب الإعراض عن اللغو الذي يرفضه الإيمان، ترفُّعاً لنفس المؤمن النفيسة عن خسيسة الأعمال وخسة الأحوال والأقوال، واعتلاءً عن الاشتغال بما يمس من كرامته وشرافته، وتعلقاً بجلائل الأمور وعظائم المقاصد.

لست أعني أن المؤمن لا يتفرج ولا يمزح إذا كانا في سبيل التفريج عن التضايق، والتخريج عن المضايق، وإنما اللغو هو ما لا يُعنى لا في نفسه وفي لا غايته، وأما ما يفيده تفريجاً عن كربته وتفريحاً عن كآبته، مزاحاً أو لعباً أما إذا في هذه السبيل فهي سبيل الإيمان وقضيته.

فالاستماع إلى القصَّاص لغو[١] كما الغناء واللهو - ككل - مِن ألغى اللغو[٢] وكضابطة عامة «كل قول ليس فيه لله ذكر فهو لغو»[٣] والذكر أعم

---

(١) نور الثقلين ٣: ٥٢٩ في اعتقادات الإمامية للصدوق وسئل عليه السلام عن القصاص أيحل الاستماع لهم؟ فقال: لا.

(٢) المصدر في عيون الأخبار بإسناده إلى محمد بن أبي عباد وكان مشتهراً بالسماع وشرب النبيذ قال: سألت الرضا عليه السلام عن السماع؟ فقال: لأهل الحجار رأي فيه وهو في حيز الباطل واللهو أما سمعت الله عز وجل يقول: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، وفي المجمع في رواية أنه الغناء والملاهي.

(٣) المصدر في إرشاد المفيد كلام طويل لأمير المؤمنين عليه السلام: . . .

من ذكر القال والحال والفعال: ألّا يخلو المؤمن على أية حال عن ذكر الله، إعراضاً عما يلهيه ويغفله عن الله، سواء أكان لغو القول أو لغو الفعل أو لغو الاهتمام.

٣ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾:

هنا ﴿لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ وفي سواها من آيات الزكاة ﴿يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ أتراهما على سواء؟ كلا! حيث العبارة الصحيحة والأخصر عنها «والمزكون» وليس القرآن مما يفدي المعنى رعاية اللفظ، فلا تعني ﴿لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ سجعاً ووزناً اللهم على ميزان خاص للمعنى.

وحقاً إن ﴿لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ تحلِّق على كافة الاهتمامات في سبيل الزكاة، مِن سعي ينتج مال الزكاة ثم إيتاءها، ودعاية للآخرين سعياً ينتج الزكاة ودعاية لإيتاء الزكاة، ودعوة لجبايتها بنفسه ومَن سواه.

ثم «الزكاة» لا تنحصر في زكاة المال، انحساراً عن زكاة الحال من عقل وعلم وأية طاقة بالإمكان إنفاقها في سبيل الله، فالمؤمن حركة دائبة لتحصيل الزائد عما يلزمه في حياته، لكي يزكيه لمن ينقصه مالاً وحالاً، عقلاً وفكراً وعلماً وقوة، وكما في الحديث زكاة العلم تعليمه. . .

ذلك، ومن الزكاة هنا تزكية النفس فقد تكون مصدراً تشملها وسائر الزكاة، فهي - إذاً - زكاة ذات بعدين نفسي وغيري والأخير يعم كل إنفاق حالي ومالي.

أجل إنهم فاعلون للزكاتين، تطهيراً للقلب من كل شح واستعلاءً على حب الذات، وانتصاراً على وساوس الشيطان، ثم وتطهيراً للمال وسائر الحال إنفاقاً لهما في سبيل الله، صيانة جماعية بعد الفردية عن التفكك والخلل الذي ينشئه العوز في ناحية، والتَّرف في أخرى.

والزكاة كما الصلاة هي مما شرعت منذ العهد المكي كما تدل على

ذلك آيات منها[1] مهما كانت الأكثرية الساحقة من آياتها مدنيات، وعلّ تلك القلة هي قضية جو الضيق في العهد المكي، وهذه الثُّلة قضية السعة في الجو المدني، فليس - إذاً - ﴿فَٰعِلُونَ﴾ لأن الزكاة ما كانت مشرَّعة بعدُ في مكة المكرمة.

بل و﴿فَٰعِلُونَ﴾ في مكة تتبنّى مختلف ألوان الزكاة في الطول التاريخي والعرض الجغرافي الإسلامي، فحتى لو لم تكن مشرّعة في مكة فلا بد من ذكرها فيها لأنها بداية العهد من هذه الشرعة، وكما تشير بعض آياتها إلى القتال ولم يؤذن فيه بعدُ حتى الهجرة إلى المدينة المنورة.

٤ - ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥﴾:

كل من الذكور والإناث يحفظ فرجه عن النظر واللمس وعمل الجنس أم إفراغ النطفة، وكل ما يخص الفرج من المشتهيات الجنسية، كل بالنسبة لجنسه وسواه، فهذه ضابطة عامة أن الفرج محفوظ بعامة الحفظ وخاصته في ذلك المربع وأضرابه من مرتقبات الجنس.

إذاً فلا تحل أية محاولة شهوانية جنسية بالفروج، ذكراناً مع ذكران وأنحسه اللواط، أم إناثاً مع إناث وأنحسه المساحقة، أم كل مع الآخر على أية حال، اللهم:

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾:

﴿أَزْوَٰجِهِمْ﴾ تعم الزوجين دائماً ومنقطعاً، كما البيع يعم القاطع الدائم والمشروط المؤقت، اللهم إلا بقرينة قاطعة كالأزواج في أحكام الميراث والنفقات وأضرابها من اختصاصات النكاح الدائم.

وقولة القائل إن الزواج المنقطع ليس بزواج، قولة قاحلة جاهلة، حيث الوطءُ إما نكاح أو سفاح ولا ثالث بينهما، فهل الزواج المنقطع سفاح إذ

---

(١) كالآيات ٧: ١٥٦ - ٢١: ٧٣ - ٢٧: ٣ - ٣٠: ٣٩ - ٣١: ٤ - ٤١: ٧.

ليس نكاحاً، والضرورة القاطعة الإسلامية حاكمة أن النبي ﷺ سمح في النكاح المنقطع، مهما اختلف المسلمون في نسخه واستمراره، فهل إنه سمح في السفاح ردحاً من زمن رسالته ثم نسخ السفاح، وهو محرم على أية حال وأنه كان فاحشة وساء سبيلاً!.

هذا ولا ينافيه اشتراط العفاف في النكاح والزواج فإن ﴿أَزْوَاجِهِمْ﴾ لا تعني إلا الزواج الصحيح بشروطه المسرودة في الكتاب والسنة[(١)].

ولا حرمة الوقاع في حالات خاصة فإنها مستثناة عن قاعدة الحل.

وعلى الجملة فكل آيات الزواج والنكاح بإطلاقاتها أو عموماتها تشمل القسمين القسيمين، إلا بقرينة تخصها بأحد الزواجين، ولولا آية النساء ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾[(٢)] ولا سماح النبي ﷺ بالنكاح المنقطع، لكانت الآيات بعموماتها وإطلاقاتها حجة السماح فيه، والروايات المنقولة عن النبي ﷺ في نسخه واستمراره متناقضة من جهات عدة، فترد إلى كتاب الله، حيث يسمح له بخصوصه وعمومه، ونهي عمر عنه مردود إليه لأنه خلاف الكتاب والسنة، فتحريمه بدعة كما أن تحليل السفاح بدعة.

ومن أسخف الهراء قولة القائل إنه سفاح سمح فيه لضرورة وقتية اقتضته، فإذا كانت الضرورة تبيحه وهو سفاح، فلماذا سمي في ذلك الوقت نكاحاً، وقرر فيه ما قرر من شروطات النكاح، ثم وتلك الضرورة دائبة على طول الخط للذين لا يجدون نكاحاً دائماً فلماذا التحريم إذاً منذ الخلافة الثانية إلى يوم القيامة، والضرورة فيه - أحياناً - هي أقوى مما هيه؟

---

(١) نور الثقلين ٣: ٥٣١ في الكافي عن أحمد بن محمد عن العباس بن موسى عن إسحاق بن أبي أبي سارة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عنها يعني المتعة فقال لي حلال فلا تتزوج إلا عفيفة إن الله عز وجل يقول: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المومنون: ٥] فلا تضع فرجك حيث لا تأمن على درهمك.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٤.

وكذلك القول بنسخ آيات السفاح بآية النساء والروايات، وتلك الآيات لا تتحمل نسخاً ولا تخصيصاً على أية حال، فإنه فيها فاحشة وسبيل سوء، وإن فاعله يلق آثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويُخلد فيه مهاناً.

إذاً فـ ﴿أَزْوَٰجِهِمْ﴾ تعم الزواجين دون ريب، اللهم إلا وطأً في حالات خاصة، ومع ما دونه في أخرى كالإحرام.

ومن حفظ الفرج - إلا على أزواجهم أو . . . - حفظه عن إفراغ نطفة دون جماع، فلا يحل إلا في هذين الموردين. فإقرار نطفة غير الزوج في رحم امرأة، قريبة أو غريبة، لا سيما المحارم، ذلك محظور بعموم الآية ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ حيث الإطلاق يعم مربع الأعمال المترقبة جنسياً من الفروج، بل وأهمها الاستيلاد وكما في آية التحريم ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ . . .﴾[1].

والمورد الثاني، وهو على هامش الأول ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ وهنا مربع من الصور لا يحل إلا في بعضها:

فقد يملك رجل امرأة غير مزوجة ولا ممنوعة من ناحية أخرى، أو تملك امرأة رجلاً أياً كان، أو يملك رجل رجلاً أو امرأة امرأة، قد تشمل كلها ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ في بادئ الأمر.

ولكنما المتجانسين ذكراً أو أنثى خارجان قطعاً، حيث الأول لواط والثاني مساحقة وهما محرَّمان ضرورة بالكتاب والسنة، وإن طبيعة الحال إسلامياً هي الأمور الجنسية بين المتخالفين في الجنس في المستثنى، مهما شمل المستثنى منه غيرهما تحريماً، ثم «هم» في الأصل لا يعني إلا الرجال وليس لحوق النساء بهم في «الذين آمنوا» إلا بقرينة، وهنا القرينة ضدها.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٣.

وبنفس الحجة تخرج الصورة الثانية فلا يحل مملوك لمالكته، وتبقى الصورة الأولى هي المستثناة من تلك الضابطة المحرَّمة، اللهم إلا في حل نظره إليها ونظرها إليه كما فصلناها في آية النور: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾[١] لولاها نصاً لما كان داخلاً في نطاق الاستثناء.

فما ملكت أيمان الرجال من النساء حلٌّ لهم كزوجة، وما ملكت أيمانهن من الرجال هم حل لهن كمحرم من المحارم إلا الزوج، على شروط مسرودة في محلّها.

ثم الأصل المفهوم من ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ بديل ﴿أَزْوَٰجِهِمْ﴾ هن النساء للرجال وكما في آياتها[٢].

إلا ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ كما في النور (٣١) والأحزاب (٥٥) فهم الرجال للنساء أو الأعم منهم.

فهنا ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ بديل ﴿أَزْوَٰجِهِمْ﴾ ليست لتعني إلا النساء المملوكات للرجال، اللهم إلا المحرمات نسبياً أو سببياً أم في حالات خاصة كالحيض والنفاس والإحرام والصوم، فالقصد من الاستثناء هو الخروج عن أصل الحرمة ولا ينافيه الموارد المستثناة كما في أزواجهم.

ولماذا ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ...﴾ دون «لأزواجهم»؟ عله اعتبار بالعلو في ذلك الحق للأزواج على زوجاتهم، فإنه ليس مجرد حق مسموح، بل هو حق مستعل، مفروض عليهن التمكين في موارد الطلب حيث هي حلٌّ خارج عن مستثنيات التحريم.

---

(١) سورة النور، الآية: ٣١.

(٢) ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣] ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النساء: ٢٥] ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

فقد تحرم ﴿أَزْوَٰجِهِمْ﴾ حالة الإحرام والصيام والحيض والنفاس، وحين نكحت امرأة ولما تدخل عليها ثم تنكح ربيبتك منها فتحرم أمها دون طلاق، وإن لم تصدق عليها زوجة بعد، فهي - إذن - خارجة عن نطاق الأزواج.

كما تحرم من ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ المحرمات النسبية والسببية والرضاعية وأمتك وهي حامل من غيرك حتى تضع، والمزوجة من غيرك حتى تسرح، والتي لك فيها شريك، والمحرِمة والصائمة والحائض والنفساء.

فكما في حل أصل الزواج وملك اليمين شروط، كذلك في الحل بعد الزواج وملك اليمين شروط، والآية إنما هي في مقام البيان لأصل الضابطة تحريماً وتحليلاً، إن الحل في الفروج يختص بالأزواج والمملوكات ولا ثالث لهما[١].

﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ في هذين الحقلين، مهما اختلفت الحالات والظروف معهن وجوباً واستحباباً وإباحة وكراهة، ثم هم ملومون في موارد الحرمة مثل ما في المستثنى منه.

وترى كيف يستبيح الإسلام ملك اليمن دون نكاح، أليس في ذلك هتكاً لحرمة الإنسان مهما كان كافراً أن يستباح عرضه وبضعه بصورة طليقة خارجة عن شروطات النكاح المشروع عند كل قوم، مهما اختلفت صوره؟.

نقول: النكاح بحاجة إلى سبب، فقد يكون لفظة تقال مع رعاية الأحوال، صيغة دائمة أو مؤقتة، وأخرى معاطاة كما في سائر المعاملات، ونفس الاسترقاق بحرب وأشباهها هو من أسباب النكاح قائماً مقام صيغة النكاح.

(١) نور الثقلين ٣: ٥٢١ عن جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال قال أمير المؤمنين عليه السلام: تحل الفروج بثلاثة وجوه نكاح بميراث ونكاح بلا ميراث ونكاح بملك يمين.

ثم وذلك الاستمتاع، الملحوظ فيه تلبية الحاجة الفطرية للأسيرات أنفسهن، يمنعهن عن التبعثر، كيلا يشبعنها من طريق الفوضى في المخالطة الجنسية.

وفيما إذا لا ترضى أمة تلبية الجنس مع مالكها قد لا تُجبر على أسر الجنس هكذا، فتتزوج بمن تراه ويراه المالك صالحاً، وعلى أية حال فهذه الاستباحة بشروطها سياج على تخلف الجنس وتحرير عن حبسه.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾:

وذلك وراء الأزواج بالنسبة للشهوات الجنسية بأضلاعها الأربعة نظراً ولمساً ووقاعاً، واستيلاداً بإفراغ المني في الأرحام دون وقاع، فإن ذلك تجاوز عن الحق المُرام وخروج عن حدود الله الملك العلام.

كما ووطء البهائم أمّا ذا من غير الأزواج وما ملكت أيمانهم داخل في ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ اللهم إلا نظراً ولمساً دون شهوة، بل وهما عن شهوة خارجان عن المستثنى منه، حيث الناظر إلى فرج حيوان أو اللامس له بغير فرجه نفسه لم يترك الحفاظ على فرجه، فليدل على حرمتها عن شهوة دليل آخر.

فقد حصرت حرية الشهوة في هاتين بحدودها وإياهما، فمن ابتغى وراءهما أية بغية شهوانية فقد عدا الدائرة المباحة ووقع في المحظور واعتدى على الأعراض المحترمة المحرمة غير المستحلة بنكاح ولا جهاد، وحينئذ تفسد النفس الراعية في غير مرعاها، وتتفسخ حرمة العائلة المشروعة المحددة، وتفسد الجماعة المؤمنة.

٥ و٦ - ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨﴾:

والأمانات تعم أمانات الله تكويناً وتشريعاً، وأمانات الخلق حالاً ومالاً وعِرضاً أمّا هي، وكذلك العهد الذي عاهد الله عليهم في فِطَرهم وعقولهم

وشرعتهم أو الذي عاهدوا له، أو المعاهدات بينهم أنفسهم، فالعهد كما الأمانة لزام المتعهد والمؤتَمَن أياً كان، اللهم إلا أمانة أو عهد في غير مرضاة الله، كسارق يأتمنك على ما سرق، أو متعهد يتعهد لك أن يقترف إثماً، فالأمانات والعهود الواجبة الرعاية محدودة بحدودها دون فوضى جزاف.

وهنا النص يجمل التعبير دون تفصيل عن كل أمانة بـ «أماناتهم» وعن كل عهد بـ «بعهدهم» وعلّ الإفراد في «عهدهم» يتبنى عهد الفطرة الذي يتبناه كل عهد.

٧ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝﴾:

الخشوع في الصلاة أمر، والحفاظ عليها أمر آخر بهما تكمل الصلاة ظاهراً وباطناً، قلباً وقالباً، فهنا صلاة بأصلها، وهناك خشوع فيها، وهنالك شروطها من «أوقاتها وحدودها»[1] ومقدماتها ومقارناتها بقبلتها والطهارة عن حدث، أو خبث في الأبدان والألبسة، وكل هذه ونظائرها داخلة في نطاق ﴿عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، فـ «في» ناظرة إلى نفس الصلاة، و«على» تنظر إلى ما يحلِّق على الصلاة من أوقات ومكانات ومقدمات ومقارنات.

هذا ولكن المحافظة في آية البقرة: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾[2] وكذا الأنعام (٩٢) والمعارج (٣٤) هي أعم مما هنا حيث لم تقرن بسابقتها ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾

ولماذا الإفراد للصلاة في «خاشعون» والجمع في ﴿يُحَافِظُونَ﴾؟ علّه

(١) نور الثقلين ٣: ٥٣١ عن تفسير القمي في الآية قال: على أوقاتها وحدودها وعن الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: هي الفريضة و﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المومنون: ٩] قال هي النافلة.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

حيث الخشوع هو لزام جنس الصلاة، والمحافظة هي على الجمع، سواء جمع الشروط والأجزاء، أم جمع الركعات أو الصلوات عداً لها، أم جمع الأوقات، فالمحافظة هي عن التبعثر والتفرق في الصلاة، والخشوع هو قلبها على جمعها، ثم و«في صلاتهم» هي حالة المصلي فيها و﴿عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ﴾ أعم مما فيها وما قبلها وبعدها.

ولقد بدأت شروطات الإيمان بخضوع الصلاة وختمت بالحفاظ عليها تدليلاً على عظيم مكانتها في بناء الإيمان، والذي لا يحافظ على صلاته كصلة دائبة بربه لا يُنتظر منه أن يحافظ على سائر صلاته، وصلاته الصالحة تضمن صالح كل صِلاته، حياة أدبية منضبطة على أية حال.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾:

﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ شرعةَ الله حيث يحملونها تطبيقاً لها ودعوة ودعاية إليها بعد نبيها، أئمة وعلماء ربانيين: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[1].

و﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ السلطةَ الزمنية إضافة إلى الروحية يوم الدولة الإسلامية العالمية: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[2].

و﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ بين هؤلاء وأولاء: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾[3] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾[4].

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٢.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٣٧.
(٤) سورة غافر، الآية: ٥٣.

وعلى أية حال ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[١] وطبعاً الأتقى منهم فالأتقى ولكي يحافظوا على وراثة الله.

ومهما كانت الوراثة الأرضية غير تامة ولا طامة لهم اللهم إلا في الدولة الأخيرة، لكنها خالصة لهم يوم القيامة، فإنهم هم:

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾:

و﴿ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ هي «أعلى الجنان»[٢] و«هي مقصورة الرحمن»[٣] وهي «ربوة في الجنة وأوسطها وأفضلها»[٤] هذه! وفي أخرى أضيفت إليها الجنات مما يدل على اختصاصها من بينها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾[٥] ويا لها من جنة «سورها نور والغرف التي فيها هي من نور رب العالمين»[٦] وكما أن النار دركات أسفلها لمن يصلونها إيقاداً لها، كذلك الجنة درجات أعلاها للمؤمنين القمة حسب الدرجات.

وتراهم عمن يرثون الفردوس؟ عن الله؟ وهو الوارث للسماوات والأرض

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٣: ٨٢ روى أبو أمامة عنه عليه السلام أنه قال: سلوا الله الفردوس فإنها أعلى الجنان وإن أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش.

(٣) المصدر روى أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: الفردوس مقصورة الرحمن فيها الأنهار والأشجار.

(٤) الدر المنثور ٥: ٦ - أخرج عبد بن حميد عن أنس أن الربيع بنت النضر أتت رسول الله ﷺ وكان ابنها الحارث بن سراقة أصيب يوم بدر وأصابه سهم غرب فقالت أخبرني عن حارثة فإن كان أصاب الجنة احتسبت وصبرت وإن كان لم يصب الجنة اجتهدت في الدعاء فقال النبي ﷺ: يا أم حارثة إنها جنان في جنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى والفردوس ربوة.

(٥) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٧، ١٠٨.

(٦) نور الثقلين ٣: ٥٣٢ في من لا يحضره الفقيه في خبر بلال عن النبي ﷺ يذكر فيه صفة الجنة قال الراوي فقلت لبلال: هل فيها غيرها؟ قال: نعم جنة الفردوس، قلت وكيف سورها؟ قال: سورها نور قلت الغرف التي هي فيها؟ قال: هي من نور رب العالمين».

ولا يتحلل عن مِلكِهِ حتى يورث المؤمنين به! أم عن سائر خلقه؟ وأهل الجنة منهم يدخلونها دون توريث، وأهل النار ليس لهم منها نصيب حتى يورثوه! أهل الفردوس يرثونه عمن دونهم من المؤمنين إذ كان لهم منها نصيب إن كانوا كما هم، ويرثونه عن أهل النار إذ كان لكلٍّ منها نصيب حرموا أنفسهم منه.

فكما وراثة الأرض للمؤمنين في الدولة الحقة لم تكن إلا احتلالهم في السلطة عليها عنهم وهو حقهم بما عملوا، كذلك الجنة وأحرى: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] وهذا لأهل الجنة كلهم، ولأهل الفردوس ميراثان، عمن دونهم من المؤمنين، وعن الكافرين، حيث قدِّر لكلٍّ نصيب لو عملوا كما عمل هؤلاء، وكذلك منازل النار «فيورث هؤلاء منازل هؤلاء ويورث هؤلاء منازل هؤلاء»[2].

هذا وكما يروى عن النبي ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

(٢) الدر المنثور ٥: ٦ - أخرج سعيد بن منصور وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: ... أقول وقد مضى حديث حارثة أنه أصاب الفردوس.

(٣) وفي نور الثقلين ٣: ٥٢١ عن تفسير القمي حدثني أبي عن عثمان بن عيسى عن سماعة عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما خلق الله خلقاً إلا جعل له في الجنة منزلاً وفي النار منزلاً فإذا أسكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد: يا أهل الجنة اشرفوا فيشرفون على أهل النار وترفع لهم منازلهم فيها ثم يقال لهم: هذه منازلكم التي في النار لو عصيتم الله لدخلتموها، قال: فلو أن أحداً مات فرحاً لمات أهل الجنة في ذلك اليوم فرحاً لما صرف عنهم العذاب ثم ينادي مناد: يا أهل النار ارفعوا رؤوسكم فيرفعون رؤوسهم فينظرون إلى منازلهم في الجنة وما فيها من النعيم فيقال لهم هذه منازلكم التي لو أطعتم ربكم لدخلتموها قال: فلو أن أحداً مات حزناً لمات أهل النار حزناً فيورث هؤلاء منازل هؤلاء ويورث هؤلاء منازل هؤلاء وذلك قول الله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠-١١].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾:

هذه واللتان بعدها هي أشمل الآيات وأجمعها تفصيلاً لخلق الإنسان تناسلياً.

أترى هذا ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعم الإنسان الأول وذريته؟ وليس خلق الأول مرحلياً كذريته! أم هو - فقط - ذريته؟ فما هو دور الطين في مراحله الجنينية! الإنسان هو الإنسان ككل، وخلقه من سلالة من طين يعم كل إنسان، ومفرق الطريق بينه وبين ذريته هو المرحلية الجنينية في نشوئه وارتقائه.

فالإنسان الأول مخلوق ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ قفزة دون أن تخطو هذه المراحل، ونسله مخلوق من سلالة من طين بهذه الخُطى بعد البداية حيث المني ينتهي إلى طين.

ومهما اختلف طين الإنسان الأول عن طين ذريته في التخلق كياناً فقد يشتركان في ﴿سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ وإن كان هنالك اختلاف بين سلالة وسلالة.

وأما آية السجدة ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾[1] فقد تعني ذلك البدء الخاص قفزة دون كل بدءٍ، فهنالك بدء قريب يختص بالإنسان الأول، وهنا بدء بعيد يعم أنساً له.

فـ ﴿سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ بدءً للأول هي الطين الخاص الخالص المُنْسَلّ من سائر الطين، المُقتفِز إلى خلق آدم عليه السلام دون مراحل، حيث السلالة هي المنسلّة المنفصلة خفية كصفوة مختارة، وقد انسل الإنسان - ككل - من الطين واستخرج من صفوه وسره، من خلاصته وكلاسته، حيث السلالة هي محض الشيء ومصاصه وصفوته ولبابه.

والبشرية لم تعرف حتى الآن كيف يتسلل المني من الطين، والنطفة كيف تتسلل من المني، اللهم إلا إشرافاً على أشرافٍ بعيدة من ذلك المنظر المبين.

و﴿سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ نسله، هي الخلاصة السرية المنوية المنسلة المختارة عن صفوة المواد الطينية - أغذيةً وأشربةً - وكلها سلالات من طين، وهنا ﴿سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ تعني منياً يمنى، وهناك تعني طينة آدم المنسلة عن سائر الطين.

فـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الأول ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ ثم هو الإنسان دون أن يخطو مراحل.

---

(١) سورة السجدة، الآيتان: ٧، ٨.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ الذرية ﴿مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ هو المني ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً...﴾ حيث النطفة مجعولة من المني، فإنها جزء من البحر المنوي.

فالطين إذاً هو المصدر الأول المتكرر ذكره في الذكر الحكيم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾[1] ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾[2] ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ﴾[3].

وقد يعبر عنه بالتراب وهو أصل الطين: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾[4] ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾[5] ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾[6] ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾[7].

ولأن النطفة مخلوقة في المني كجزء منه، فالمني مخلوق من طين سلالةً عنه، ولكن النطفة ليست مخلوقة ثانية مع المني، وكل ما يحصل لها بعدُ لمرحلة ثانية أن تُجعل في قرار مكين من الرحم دون خلق لها ثان، ولذلك.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾:

دون ثم خلقنا نطفة، فإنه مخلوق عند خلق المني السلالة عن الطين ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾[8] ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾[9] فالنطفة تُمنى مع مني يمنى، إذاً فليست مخلوقة منه، بل هي كائنة فيه منذ يُمنى، ثم يجعلها الله في قرار مكين.

وهكذا يقرر القرآن هذه الحقيقة الطينية للإنسان ككل ليتخذها مجالاً للتدبر في صنع الله، تأملاً في تلك النقلة البعيدة العجيبة بين الطين وذلك

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢.
(٢) سورة الصافات، الآية: ١١.
(٣) سورة السجدة، الآية: ٧.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٣٧.
(٥) سورة الحج، الآية: ٥.
(٦) سورة فاطر، الآية: ١١.
(٧) سورة غافر، الآية: ٦٧.
(٨) سورة القيامة، الآية: ٣٧.
(٩) سورة النجم، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

الإنسان دون تفصيل إلا أنه على أية حال ﴿سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾. والنطفة هي نقطة منوية، وهي خلية واحدة من ملايين الخليات السابحات في البحر اللجي المنوي يجعلها الله ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ من الرحم، محميّة عن كافة الاختلاطات والاهتزازات والانصدامات وما يصيب الظهر والبطن من كدمات ورجّات وتأثرات ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾[١].

وذلك ﴿قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ مكاناً في هندسته وحرارته الخاصة، ومكانة في حراسته وحفاظته، فلا مكين أمكن منه وأمتن وأحسن تمكيناً وضيافة من ذلك المضيف المكين الأمين الرزين الرصين ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[٢].

هذه النطفة التي لا تحسب بشيء في ظاهر الحساب، الغريقة في ذلك البحر الملتطم، أنها تُجعل في قرار مكين «بما مكّنها الله، وأمكن لها كل شروطات النمو والارتقاء، فخالق كل شيء يجعل هذه اللاشيء في صيانة كاملة لكي يخلق منه إنساناً خلق له كل شيء، فيا لهذا الإنسان النسيان من كفران بآلاء الرحمن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٣].

هذا الإنسان العظيم العظيم، بكل أجزائه الجسمية، وبكلٍّ خصائصه الروحية، كان مختصراً محتصراً في تلك النطفة النقطة الهندسية، كأنها لا وجود لها فلا تُبصر إلا بالمكبرات القوية، سبحان الخلاق العظيم!

وفي التعبير عن مقر النطفة بـ ﴿قَرَارٍ﴾ مصدراً، إشارة إلى دور الرحم بالنسبة لها، كأنه لا شأن له إلا إيواءها، فهو إذاً قرار لا شأن له إلّا ذلك الإقرار.

ثم ﴿مَّكِينٍ﴾ تأكيدة ثانية لاستقرارها في ذلك القرار، ذي مكنة ومكانة

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦.

(٢) نور الثقلين ٣: ٥٣٤ في الكافي ابن محبوب عن رفاعة قال قال أبو عبد الله عليه السلام في حديث تطور الجنين: وإن النطفة إذا وقعت في غير الرحم لم يخلق منه شيء.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

راقية فائقة، لا تتطرق إليها أية هجمة داخلية أم خارجية، حيث أعمقُ أعماق كيان الأم، مستقر قارٌّ، ذو مكان مكين لا يضرها فيه ضار.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً...﴾:

وهي كالدودة العالقة بجدار الرحم، مرحلة ثانية جنينية لها التقدير الثاني من الدية إذا أسقطت، فللنطفة عشرون وللعلقة أربعون، وللمضغة ستون، وللعظام ثمانون، وبعد كسوها لحماً مائة، وبعد إنشائه خلقاً آخر - هو الروح - الدية كاملة، إذا كان ذكراً فألف وإن أنثى فخمسمائة[1].

ثم بين كل مرحلتين - الدية - بحساب الرحلة، مقدرة بقدرها[2] ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[3] وهكذا يكون دور الإنسان جسدانياً، ثم دوره

---

(١) قد استفاضت الرواية على هذه التقادير في دية الجنين بمراحله.

(٢) نور الثقلين ٣: ٣٥٨ عن تفسير القمي في الآية إلى ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فهي ستة أجزاء وستة استحالات وفي كل جزء واستحالة دية محدودة ففي النطفة عشرون ديناراً وفي العقلة أربعون ديناراً وفي المضغة ستون ديناراً وفي العظم ثمانون ديناراً وإذا كسي لحماً فمائة دينار حتى يستهل فإذا استهل فالدية كاملة فحدثني أبي بذلك عن سليمان بن خالد عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت يا بن رسول الله ﷺ فإن خرج في النطفة قطرة دم؟ قال: في القطرة عشر النطفة ففيها اثنان وعشرون ديناراً قلت: فقطرتان؟ قال: أربعة وعشرون ديناراً قلت: فثلاث قال: ستة وعشرون ديناراً قلت: فأربعة قال ثمانية وعشرون ديناراً قلت: فخمس قال: ثلاثون ديناراً وما زاد على النصف فهو على هذا الحساب حتى تصير علقة فيكون فيها أربعون ديناراً قلت: فإن خرجت متخضخضة بالدم؟ قال قد علقت إن كان ماءً صافياً فيها أربعون ديناراً وإن كان دماً اسود فذلك من الجوف فلا شيء عليه إلا التعزيز لأنه ما كان من دم صاف فذلك للولد وما كان من دم اسود فهو من الجوف قال فقال أبو شبل: فإن العلقة صارت فيها شبه العروق واللحم؟ قال: اثنان وأربعون ديناراً العشر قلت إن عشر الأربعين ديناراً أربعة دنانير؟ قال: لا إنما هو عشر المضغة لأنه إنما ذهب عشرها فكلما ازدادت زيد حتى تبلغ الستين، قلت: فإن رأيت في المضغة مثل العقدة عظم يابس؟ قال: إن ذلك عظم أول ما يبتدى: ففيه أربعة دنانير فإن زاد فزاد أربعة دنانير حتى يبلغ الثمانين، قلت: فإن كسي العظم لحماً؟ قال: كذلك إلى مائة قلت: فإن وكزها فقط الصبي لا يدري حياً كان أو ميتاً؟ قال: هيهات يا أبا شبل إذا بلغ أربعة أشهر فقد صارت فيه الحياة وقد استوجب الدية.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٨.

روحياً وأين دور من دور، ثم لا قيمة لهذا الجسد إلا لاستعداده حلول الروح بعيداً أو قريباً، وكذلك الدية طبقاً عن طَبَق دون فوضى جزاف.

﴿... فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً...﴾:

هي اللحمة الصغيرة قدر ما يُمضغ، وكأنها ممضوقة مهشَّمة، فلا هي لحمة كسائر اللحم، ولا هي مهضومة كسائر الهضم.

﴿... فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا...﴾:

ناعمة كأنعمها كما تناسب الجنين لأولى النشأة العظامية، عظاماً فيها الأسس الأولية لكل عظام الإنسان الأصلية مهما خفَّت وقلَّت ورخت.

﴿... فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا...﴾:

وهنالك تتم الصورة الجنينية دون إبقاء، وكيف هنا «كسونا» دون «خلقنا» خلاف التطورات السابقة، لأن اللحم غير نابت من العظام، وغير متحول عنها، فخلايا العظام هي خلايا المضغة والعلقة والنطفة وليست هكذا خلايا اللحم.

وهكذا كشف العلم اليوم النقاب عن وجه هذه الحقيقة الخفية، على ضوء تقدم علم الأجِنَّة، إن خلايا اللحم لا تُشاهد ولا واحدة منها إلا بعد ظهور خلايا العظام واستكمال الهيكل العظمي، وهكذا ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ عارضاً عليها من غيرها، من المواد المساعدة لنشوء الجنين في الرحم.

﴿... ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾:

عبارة ثالثة عن ذلك التطور الجنيني، أم رابعة بجعل الجعل أولاً في ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ﴾ تعابير قاصدةٌ دقيق المعنى المُرام، دون فوضى التعبير.

هناك جعلٌ وليس خلقاً إذ لم يكن خلقاً إلا قبلُ حيث ﴿خَلَقْنَا

﴿ٱلْإِنسَٰنَ. . .﴾ ومن ثم خلق في زوايا ثلاث، كل لاحقٍ يتبنى سابقه، وكل تطور عن أسبقه مزيداً عليه.

ثم كسوة العظام لحماً ليس في هذه التطورات له نصيب، وأخيراً - وبعد تكملة الجنين جسمياً - ﴿أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ - دون خلقناه أو جعلناه - مما يدل على أن المنشيء غير مجعول ولا مخلوق كمثلث الخلق أو مربعة.

﴿أَنشَأْنَٰهُ﴾ الجنين، دون «أنشأنا له» فليس الخلق الآخر الروحُ من غير جنس الجنين، مجرد أم سواه، بل هو هو إنشاءً، فلم تتحول العظام المكسوة باللحم روحاً، كما تحول كل من النطفة والعلقة والمضغة تاليتَها ككل، وإنما ﴿أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ ليس آخر كما كانت هذه الثلاث، وإنما آخر في الحالة والخاصة الحاضرة رغم كونه من المادة الجنينية.

فكما يقال أنشأت الوردة جلاباً وعطراً، وأنشأت التراب الذهبي ذهباً، فالمُنشأ سلالة وصفوة من المُنشأ منه وليس كلّه، كذلك الروح مُنشأ من نفس المادة الجنينية وليس كلها، ولا بعضاً منها كسائر أبعاضها، بل هو سلالة منها مصطفاة، لها خاصتها الخاصة التي ليست لسائر أجزاء الجنين مهما اشتركا في أصل المادة، كما الذهب والتراب! وكما الإيدروجين وهي أخف وأصفى الذرات بالنسبة لأثقلها وأكدرها.

وقد تعني «ثم» المراخية هنا - كما في ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ﴾ - انفصالَ الروح عن البدن بعيداً من حيث الكيان، مهما كانا متحدين في الكون المادي، كما أن جعل النطفة متراخٍ عن خلقه من سلالة من طين، والفاء في الثلاثة المتوسطة دليل التقارب والتماثل.

«ثم» بعيداً عن الكثافة الجسمية الجنينية وبعيداً عن كُدرتها والأكثرية الساحقة من آثارها ﴿أَنشَأْنَٰهُ﴾: الإنسان الميت لحد الآن ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾

يختلف عن الأول في شاكلة المادة وخاصتها بحيوية شاعرة مريدة لم تكن له من ذي قبل، إلا حركات تكاملية - إن صح التعبير - هي أتوماتيكية.

ثم الإنشاء هو إيجاد الشيء وتربيته ناشئاً عن الآخر، إذاً فـ ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ وهو الروح[(١)] ناشئ عن البدن نفسه، مهما كان منفوخاً فيه ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾[(٢)] فتربية البدن تخليصاً منه - صفوة مختارة وسلالة صافية غير كدرة - هي إنشاؤه خلقاً آخر.

فالإنسان قبل نفخ الروح خلق وهو بعد نفخة خلق آخر، مهما كان منشأ عن الأول، كما أن الحطب قبل حرقه خلقٌ، وبعده - حيث يتحول ناراً ودخاناً - هو خلق آخر، والمادة نفس المادة إلا في الصورة المتحولة.

إذاً فليس الروح مجرداً عن المادة، فلا هو روحانية النشأة ولا روحانية البقاء، بل هو جسمانية نشأةً وبقاءً مهما اختلفت حالاته وتصرفاته وخاصياته عن البدن الميت.

إذاً فشعوره دون البدن، وبقاؤه دون البدن، وسائر ميزاته دون البدن لا يدل على شيء إلا أنه ليس هو البدن أو جزء عادياً من البدن، بل هو صفوة مختارة وسلالة منسلّة عن البدن، وعلّ عقله سلالة عن مخِّه وصدرُه عن صدره وقلبُه عن قلبه، وسائر أبعاضه عن سائر أعضائه حسب المناسبات والتجاوبات[(٣)].

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾:

(١) نور الثقلين ٣: ٥٤١ في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فهو نفخ الروح فيه.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٩.

(٣) لتفصيل البحث حول الآية وآية الروح راجع تفسير سورة الإسراء عند ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥].

وكيف هو أحسن الخالقين و﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾[١] حتى يكون هو أحسنهم؟

علّه يعني فيما يعني: لو أن هناك خالقين فهو أحسن الخالقين ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾[٢] فلو أن بعلاً خالق فالله هو أحسن الخالقين!

أو يعني من جمع الخالقين خالقياته المختلفة حسب اختلاف الكائنات فقد جعل أحسنها في الإنسان ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[٣] ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[٤].

أم أن الخلق في هذا الجمع أعم من حق الخلق، ومن مجازه ككل صنع، فهو إذاً أحسن الخالقين، وقد نسب الخلق بهذا المعنى الطليق إلى الخلق ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾[٥] كما نسبه إلى المسيح مقيداً له بإذنه ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾[٦] [٧].

هذا ولكن الخلق الربوبي وهو حق الخلق، يختص برب العالمين: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٨] ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[٩] ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾[١٠].

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣.
(٢) سورة الصافات، الآية: ١٢٥.
(٣) سورة التين، الآية: ٤.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.
(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٢٩.
(٦) سورة المائدة، الآية: ١١٠.
(٧) نور الثقلين ٣: ٥٤١ في كتاب التوحيد بإسناده إلى الفتح بن يزيد الجرجاني عن أبي الحسن الرضا عليه السلام حديث طويل وفيه: قلت جعلت فداك وغير الخالق الجليل خالق؟ قال: إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] منهم عيسى ابن مريم عليه السلام خلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله فنفخ فيه فصار طائراً بإذن الله والسامري أخرج لهم عجلاً جسداً له خوار.
(٨) سورة الأنعام، الآية: ١٠٢.
(٩) سورة الرعد، الآية: ١٦.
(١٠) سورة فاطر، الآية: ٣.

ومن الأقاويل المختلقة الزور هنا أن ذلك التعقيب مما جرى على لسان عمر قبل أن يسمع وحيه(١).

تفضيلاً للخليفة على الرسول ﷺ وما أكثره في أمثال هذه المختلقات الزور من رواة كاذبين مبتدعين!.

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾:

﴿ثُمَّ إِنَّكُم﴾ بعد تلكم الحياة الدنيا، بانقضاء أجلها المحتوم أو المعلق ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ انتقالاً إلى حياة برزخية «ثم» بعد انقضاء البرزخ ﴿إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ العامة ﴿تُبْعَثُونَ﴾ من أجداثكم في أرواحكم بأجسادكم الأصلية التي كنتم فيها تعيشون.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾:

هذه طرائق سبع تعني السماوات السبع وأخرى في الجن تعني طرائقهم القِدَد المفصولة عن بعض في سُبُلهم الحيوية العقيدية والعملية: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾(٢).

---

(١) الدر المنثور ٥: ٦ - أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن صالح أبي الخليل قال: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] قال عمر: فتبارك الله أحسن الخالقين فقال والذي نفسي بيده أنها ختمت بالذي تكلمت يا عمر.
أقول وفي تفسير الفخر الرازي ٢٣: ٨٦ فقال رسول الله ﷺ هكذا نزلت يا عمر وكان عمر يقول: وافقني ربي في أربع: في الصلاة خلف المقام وفي ضرب الحجاب على النسوة وقولي لهن لتنتهن أو ليبدلنه الله خيراً منكن فنزل قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٥]. والرابع قلت: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فقال ﷺ: هكذا أنزلت وفيه روى الكلبي عن ابن عباس أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب هذه الآيات لرسول الله ﷺ فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] عجب من ذلك فقال: فتبارك الله أحسن الخالقين، فقال رسول الله ﷺ: اكتب فهكذا أنزلت فشك عبد الله وقال: إن كان محمد صادقاً فيما يقول فإنه يوحى إلي كما يوحى إليه وإن كان كاذباً فلا خير في دينه فهرب إلى مكة فقيل إنه مات على الكفر وقيل إنه أسلم يوم الفتح!!!.

(٢) سورة الجن، الآية: ١١.

ولأن ﴿طَرَآئِقَ﴾ هي جمع طريقة دون طريق، فكلُّ سماءٍ فوقنا - إذاً - طريقة بالإمكان التطرق بها إلى ما فوقها وإلى السابعة إلى السدرة المنتهى، وكما تطرَّقها كلها رسول الهدى ﷺ، وكما يتطرق من فوقها إلى تحتها وإلينا، فهي السبل المطروقة لبعض المقربين السابقين كالرسول ﷺ وللملائكة ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾[1] ولأمره المدَّبر ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾[2] ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾[3] ولنزول الأمطار ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ. . .﴾[4] ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ عن هذه الرحمات الروحية وسواها المتنزلة بين الأرضين والسماوات، فالكون كله بسماواته وأرضيه وحدة مدبرة من عليم حكيم، سبحان الخلاق العظيم!.

نحن وحتى الآن - على ركب العلم السريع السير - لم نتطرق إلا بعض الأبواب من طريقة السماء الأولى، فأنَّى لنا السير في سائر طرقها والطرائق الست الأخرى سبحان الخلاق العظيم!

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾:

من هذه الطرائق السبع طريقة الماء من السماء إلى الأرض، فقد كانت أرضنا هذه محروقة عطشانة قبل حياتها والحياة عليها، فأنزل الله عليها من ماء السماء بقدر مقدر فأسكنه في الأرض نصيباً لها خاصاً، فالأبخرة المائية الأرضية الصاعدة إلى السماء ترجع كما هيه ماءً دون زيادة ولا نقيصة، اللهم إلا زيادة في حالات استثنائية كطوفان نوح: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾[5] فـ ﴿مَآءَكِ﴾ هو الماء النازل إليها بقَدرٍ الساكن فيها على حذر:

---

(١) سورة مريم، الآية: ٦٤.
(٢) سورة الطلاق، الآية: ١٢.
(٣) سورة السجدة، الآية: ٥.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ١٨.
(٥) سورة هود، الآية: ٤٤.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ ذهاباً عن بكرته كما في يوم قيامتها، أم ذهاباً مؤقتاً عن قدره تجديباً كما يفعله أحياناً في أرض دون أخرى، ولكي يعلموا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[١].

إذاً فكل مياه الأرض هي من نازل السماء دون إبقاء، كما ويؤيده التهديد في ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ وذلك خلافاً لما كان يزعمه الإنسان إلى وقت قريب ألّا علاقة بين المياه الجوفية والمياه السطحية، والقرآن يقرر العلاقة الوثيقة بينهما وأن الكل من نازل السماء.

فلا تعني ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ سُكناه فيها دون صعود مؤقت، وإنما تعني أن النازل منها بقدر إليها هو نصيبها الخاص، دون أن يصعد بأسره إلى غيرها ويبقى.

ومما يلمح له ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ﴾ مُلحَّقاً «بذهاب به» أنه لولا إسكانه فيها لما رجعت أمطاراً عن الأبخرة الصاعدة عنها، فإن طبيعة الحال في الماء المحكوم بحرارة الشمس وسواها الصعود إلى السماء، وقضية إسكان ماء الأرض فيها رَجْعُه مطراً إليها بعد تبخّره: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾[٢] أمانات الأرض من ماء وسواه.

أجل ﴿مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ دون إفراط ولا تفريط ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾[٣] ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[٤].

فهناك في النطفة ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾[٥] بغية تحوله إلى جنين، وهنا

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٨.
(٢) سورة الطارق، الآية: ١١.
(٣) سورة الرعد، الآيتان: ٨، ٩.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٢١.
(٥) سورة المرسلات، الآية: ٢١.

﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كذلك الأمر، حيث الماء كنطفة والأرض قرار مكين بغية حياتها بإنشاء مختلف النبات:

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾:

فكما هناك في نهاية المطاف للأطوار الجنينية ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ حياةً بعد ممات، كذلك هنا ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ...﴾ حياةً بعد ممات وأين حياة من حياة هي في أحسن تقويم!

وعلّ تخصيص ﴿نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ بالذكر بين ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ لأنهما طعام وإدام وفاكهة رطباً ويابساً دون سائر الفاكهة، وأن منافعها تحلِّق على سائر المنافع كما:

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾:

وهي الزيتونة وعلّها في أصلها خارجة من طور سيناء ثم انتشرت في غيره، أم هي فيه أطيب من غيره، أم أكثر وأوفر، والقصد ﴿مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ المحيط الشرق الأوسطي الأقرب إلى الطور فالأقرب، ومن ميزاتها بين سائر الشجر أنها ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ وعلَّ الباء هنا سببية فهي تنبت بسبب الدهن، حيث الأصل النابت عليه هو الحصى التي تحمل الدهن، وكذلك هي تعدية تنبت دهناً، أم ومعية، وبالدهن حال لـ ﴿تُنۢبِتُ﴾ فهي تنبت مع الدهن، وهذه هي الشجرة الوحيدة بين الشجر حيث تنبت بالدهن، وكذلك ﴿وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ يصبغون به خبزهم وطعامهم فتصبح سابغة طيبة الطعام، سريعة الهضم، كما وتصبغ أمعاءهم.

فالزيتونة هي ضوء وإدام وطعام وشفاء من داء، فهي منقطعة النظير بين سائر الشجر ولقد جاءت الرواية عن خير البشر: «الزيت شجرة مباركة فائتدموا منه وادّهنوا»[1].

---

(١) نور الثقلين ٣: ٥٤٣، في المجمع في الآية وقد روي عن النبي ﷺ: ...

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

هنا ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ وفي النحل ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾[1] ولقد فصلنا القول فيه فيها فلا نعيد. ﴿وَعَلَيْهَا﴾: الأنعام الرَّكوب والفرش أمّا بالإمكان أن يُركب ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ أيا كان ﴿تُحْمَلُونَ﴾ وذلك جمع بين حمل البر والبحر بنعمة الله.

وإن لكم فيها لعبرة لمن ألقى السمع وهو شهيد، لمن ينظر بعين عقله ويبصر ببصيرته، عبرة يعبر بها إلى خالقها الكبير المتعال، سبحان الخلاق العظيم.



(١) سورة النحل، الآية: ٦٦.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨)

قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

هنا انتقالة بارعة من دلائل الإيمان إلى واقع الإيمان الذي جاء بها رسل الإيمان، وما واجههم الطغاة المستكبرون على مدار الزمان طول خط الرسالات منذ نوح إلى خاتم النبيين، وهم يحملون رسالة واحدة إلى أمم هم في الحق أمة واحدة، حيث الدعوات الرسالية صيغة واحدة في الجذور مهما اختلفت في بعض الصور والقشور، قضيةَ مختلف الظروف والابتلاءات في مختلف العصور.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

«نوح» هو أول نبي من أولي العزم الذين دارت عليهم الرحى ولقد اختصت باسمه سورة تحدثنا عندها عن مدى رسالته ودعوته الصعبة الصارمة، وتصدّيات وعرقلات قومه العارمة، وهذه الدعوة التوحيدية هي إجمال عن كل تفاصيل دعوته المفصلة في آياتها.

هنا ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وفي هود ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[1] والأولى لا يستلزم الثانية، فإنها نص في توحيد العبودية وتلك مطلقة، وليست مقالة نوح لقومه إلا التوحيد، فما هو التوفيق؟

المشركون كانوا ولا يزالون يعبدون غير الله ولا يعبدون الله لا توحيداً ولا إشراكاً، وإطلاق الإشراك على عبادتهم لا يعني الجمع بين العبوديتين، وإنما لأنهم يعبدون من لا يستحق، كأنه الله الذي يُعبد، فهي إذاً إشراك في أصل استحقاق العبادة لا من حيث واقع الشركة، فالله - في زعمهم - شريك في الاستحقاق، وليس له نصيب العبادة في الواقع حسب الزعم أنه أعظم من أن يُعبد بنفسه، فليُعْبد شركاءه: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[2] فلو كان يصح عبادته لم تصح عبادة غيره.

ثم ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[3] قائم مقام ذلك الحصر ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وحتى بالنسبة لمن يجمعون بين العبادتين، كما هو واقع في آخرين من المشركين ومن مقالهم ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾[4]

(١) سورة هود، الآية: ٢.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٣.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.
(٤) سورة الشعراء، الآيتان: ٩٧، ٩٨.

والشرك الأول ليس - في زعمهم - تسوية، ثم ومن مصاديق الإشراك الواقع في العبادة رئاءُ الناس، حيث المعبود الأصل فيها هو الله، إضافة إلى رعاية الناظر رئاءً له ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الشرك بالله، و«لا تتقون» عذاب الله؟.

وهنا ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[1] برهان لا مرد له لحصر العبودية في الله إذ لا يُعبد إلا الإله ولا إله إلا الله، فلا يُعبد إلا إياه.

ولكن الملأ المستكبرين من قومه الذين لم يناقشوا أمثال هذه الحجج الباهضة الناهضة للهدى، إنهم تغافلوا عنها بصورتها العامة وأخلدوا إلى شخصياتهم الوهمية قياساً إلى شخص نوح كالساً فالساً في حقول البرهان:

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

«من» هنا تبعِّض قومه الكافرين إلى الملإِ المستكبرين الأشراف وسواهم، وهذه الأقاويل ليست إلا منهم الأصول دون الهوامش الأتباع اللهم إلا تبعاً لهم ولفظَ قول، ولم يؤمن أحد من ذلك الملإ وكما يحكي عنهم القرآن دون تكذيب ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾[2].

نقول لهؤلاء الأنكاد وحماقى الطغيان إذا كان بشر - لأنه مثل سائر البشر - لا فضل له على أضرابه فكيف أنتم تفضلون أنفسكم - بزيادة المال والمنال والقوة والأولاد وسائر زخرفات الحياة - على من يفقدها، وهذه كلها من حيونات الحياة، ثم لا ترضون أن يتفضل ذوو الفضل في الروحية الإنسانية - وهي أصلها وجمالها - على من يفقدها، وليهديهم إلى صراط مستقيم.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.
(٢) سورة هود، الآية: ٢٧.

فيا له من برهان قاحل جاهل هو عليهم أنفسهم قبل أن يكون على رسل الله لأنهم بشر.

ثم هم يهتكون ساحة البشرية حيث لا يستأهلونها لابتعاث نبي لهم من أنفسهم لحدِّ الإحالة: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ إحالة لإرسال أي رسول، ثم على فرض إمكانيته فليكن من الملائكة.

ثم تلحيقاً لذلك النكران النكير يستندون إلى ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وطبعاً المشركين، وهم شرع سواء في استحالة أو استبعاد ابتعاث بشر إلى بشر.

يستندون في نفي التوحيد إلى حقل الشرك القديم، وهو جديده وقديمه على سواء في كونه خواء وعراء عن أي برهان، إلا دعايات زور وغوغائيات غرور، يرأسهم في كل ذلك الغَرورا!.

ولا فحسب إنهم نزَّلوه إلى منزلة البشرية المماثلة لسواه، غير المفضَّلة على من سواه، بل ونزلوه عنها أيضاً إلى حقل المجانين إسقاطاً لرأيه عن بكرته حتى لا يُسمع كبشر مثل سائر البشر:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾:

به جنة لأنه يخالف آراءنا وآباءنا الأقدمين في أصالة الشرك، وإنه يدعي ضرورة المستحيل في بعدين: أن ينزل الله شيئاً، وأن يرسل بشراً رسولاً ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ﴾ نظِرَةَ علاجه عجالةً أم أُجالة ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ يعافى عن جِنته، فسوف ترون إنه لا يقول قوله الآن، أم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ يموت على جنته فنستريح من دعايته الجنونية، أم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ يظهر تصلبه في دعوته فتقضوا عليه في ذلك الحين، أم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ تظهر جنّته ويظهر حقنا عليه، حينات أربع قد تعنيها كلها ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إذ لا برهان لواحدة منها دون أخرى حتى حين.

وهذه الدعاية النحسة هي بطبيعة الحال مؤثرة في المستضعفين العائشين

تحت نير الذل، المحتاجين إلى رحمة المستكبرين، حيث العقل هو خير ما يرام، فمَن به جنَّة لا يُرجى منه أي خير حتى إذا كان ممكناً وهو منه متمكن فضلاً عن الدعاوى الشاردة المستحيلة غير الواردة في ﴿ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

إذاً فاتِّباعه خروج عن العقلية الإنسانية، وسنة الآباء القدامى! تحذير خطير يتحذر منه كل مسامح عن عقله، متاجر بإنسانيته الحرة البالغة.

هنا - ولما لا يجد نوح منفذاً إلى هذه القلوب المتحجرة - يستنصر ربّه لكي يهديه سواء السبيل:

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾:

وهذه آخر المطاف من تصبُّره على أذاهم، وتحمُّله لَظاهم طول ألف سنة إلا خمسين عاماً، وقد تكون إجمالاً عن تفاصيل دعواته لربه طول هذه المدة كما في آيات عدة:

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾[1] ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ﴿٢٧﴾﴾[2] وذلك بعدما أخبره ربه ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[3].

﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

﴿ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾: رقاباتنا، كما تناسب صناعة فلك النجاة عن

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ١١٧، ١١٨.

(٢) سورة نوح، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٣) سورة هود، الآية: ٣٦.

البحر اللجي ﴿وَوَحْيِنَا﴾ فقد كانت هندسة الفلك تماماً وصناعته بوحي الله، إذ لم يكن نوح صانع الفلك، ولا أن مصنوع الإنسان دون وحي يتمكن من الإنجاء في هذه الهلكة الشاملة، فليكن إذاً صنع الفلك ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾[(١)] ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ﴾[(٢)].

أترى فلكاً تُصنع بأعين الله ووحيه، وهي تجري بأعين الله، أتراها تغرق أو تتكسر في موج كالجبال والله ربّانه!

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بغرقهم ودلالة عليه بأمارة عجيبة خارقة العادة كنفس الغرق الجماعي، ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ فوران ماء الغرق من تنور النار دون سائر التنور المؤوّل، ثم وما ندري أين هو[(٣)]؟

﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ وَ اسلُك ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾: امرأته وابنه ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ رسالة الله وعباد الله، سواء أكانوا من أهلك أم سواهم ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ كلمة واحدة لا رجعة فيها.

ولأن السلوك هو النفاذ في الطريق، وهذه الفلك كانت طريق النجاة، إذاً ﴿فَاسْلُكْ﴾ لا تعني - فقط - الإدخال، وإنما التمكين والإنفاذ لكامل الإنقاذ.

ثم ﴿مِن كُلٍّ﴾ تعني من كلِّ الخليقة إلا الناس، أم كلهم لمكان

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٢.

(٢) سورة القمر، الآية: ١٤.

(٣) قيل إنه تنور آدم وكان من حجارة فصار إلى نوح واختلف في مكانه فعن الشعبي في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كنده: وكان نوح عليه السلام عمل السفينة في وسط المسجد، وقيل بالشام بموضع يقال له عين وردة وقيل بالهند. ثم قيل إن التنور هو وجه الأرض عن ابن عباس أم هو تنور الشمس ونورها طلوعها عن علي عليه السلام، أم هو الموضع المنخفض من السفينة الذي يسيل الماء إليه عن الحسن ولكن هذه التنانير خارجة عن التنور المعروف لغوياً، ولو كان كل يراد لأتي بلفظه الخاص.

الاستثناء: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ إلا أن ﴿أَهْلَكَ﴾ قبلهم يؤيد الأول، إذ كان يكفي الاستثناء دون ذكر أهله، إن كانوا معنيين في ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾.

وترى ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا...﴾ هم فقط كانوا ناجين، فلم يؤمن طيلة ألف سنة إلا خمسين عاماً إلا أهله الثمانون، إلا امرأته وابنه كانا من الغابرين؟

علّه نعم حيث ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧)﴾[١] ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٢].

وقد يعني «أهله» أهله نسبياً وسببياً إلا من سبق، وأهله إيمانياً كما تدل عليه ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[٣] فالقلة الثمانون طول هذه المدة بين الملايين، هم أهله إلا من سبق ومن آمن من غير أهله، إذا ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هم ليسوا كل قومه، بل هم - فقط - ﴿الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

وذلك آخر المطاف لقوم صلد صلب هم حجر عثرة في حياة الإنسان وعقبة كؤودة كائدة في طريق الإيمان، ولأنهم كانوا في فجر البشرية في بدايات الطريق، فشاءت إرادة الله الإطاحة بهم من الطريق المرسوم للإنسانية جمعاء، تحطماً لهذه المتحجرات المتفجرات في وجهها، فتحتُّماً من سلوك سبيلها إلى النجاة، ولتسري ركب الانسانية قُدُماً إلى الحياة المُرماة.

فقد غسل الطوفان هذه التربة لتعاد بذرة الحياة السليمة من جديد: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾.

---

(١) سورة الصافات، الآيتان: ٧٦، ٧٧.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٧٧.

(٣) سورة هود، الآية: ٤٠.

ذلك! وقد كان بالإمكان أن ينزل الله عليه فلكاً من السماء، أو يصنعه هو دونه، ولكنه شاء أن يصنع نوح فلك النجاة بيده، لأنه لا بد للإنسان من الأخذ بالأسباب، ويبذل ما في طوقه، ثم يمده الله في الخارج عن طوقه، والنجاة القاطعة بالفلك كانت بأن يصنعها ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ وكما هي ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾!

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ﴾ يا نوح ﴿وَمَن مَّعَكَ﴾ المؤمنين والحيوان، والاستواء هو الاستقرار: أن يأخذ كلٌّ مستقرَّه وقراره كقرار البيت ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كواجب الحمد لله ﴿ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من بأسهم البائس ومن الغرق معهم، وهذه مرحلة أولى من النجاة حالة الطوفان، ثم ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ نفس النزول ومكانه وزمانه، مباركاً في زواياها الثلاث ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ - «اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين»[1].

هنا ﴿أَنتَ وَمَن مَّعَكَ﴾ فلماذا «فقل - وقل» وهم عدة؟ عله لأنه إمامهم، فقوله قولهم وكل ما يقوله بأمر الله فهم قائلوه وقائلون به قضية الإمامة المحلِّقة على كل قالٍ وحالٍ وفعالٍ، ولا سيما في هذه الحالة الخطرة والرحمة العطرة المستوجبة لقالة الحمد والدعاء والاستدعاء.

فقَطْعُ دابر الظالمين يتطلب الحمد له من المظلومين، بل والله يقولها تعليماً لهم وتأديباً ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

وترى كيف أصبح الإستواء على الفلك نجاة لـمَّا تنزل منزلاً مباركاً؟ لأنها صنعت بعين الله ووحي الله، وهم ركبوها باسم الله: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا

(١) نور الثقلين ٢: ٥٤٤ في الفقيه قال النبي ﷺ لعلي عليه السلام: يا علي إذا نزلت منزلاً فقل: . . . .
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٤٥.

﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾(١) وهي ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾(٢) أفيبقى بعد هذا من شك في النجاة؟!

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾:

﴿إِنَّ﴾ مخففة عن مثقلة تعني تأكيد مدخولها وكذلك اللام، تأكيدان اثنان أنه تعالى يبتلي عباده بألوان البلاء، ابتلاء لنوح ومن آمن معه بالصبر والشكر، تمحيصاً للشكر والتوجه والتأديب والأجر والتقويم، وابتلاء للذين كفروا بازدياد الكفر والكفران والنكران وإلى مصير النيران.

ف ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ العظيم العظيم في تاريخ الرسالات ولفجرها ويزوغها ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ تدل المستدلين على علمه وحلمه وحكمته وقدرته، وواقع وعده للمؤمنين وعلى الكافرين «يا أيها الناس إن الله قد أعاذكم من أن يجور عليكم ولم يعذكم من أن يبتليكم وقد قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾(٣).

و﴿كُنَّا﴾ هنا تضرب إلى أعماق الماضي الضارب إلى مثلث الزمن كسنة إلهية يوم الدنيا.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾:

وهم ذرية نوح حيث ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ وتراهم ذرية النسب؟ فما شأن المؤمنين الآخرين! علهم أهله الناجون حيث تعم ذرية النسب وذرية الإيمان بغير النسب، بل هم ذرية الإيمان ككل في نسب أو سبب أم غير سبب ولا نسب، وقد تلمح له سابقتها: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا

(١) سورة هود، الآية: ٤١.
(٢) سورة القمر، الآية: ١٤.
(٣) نور الثقلين ٣: ٥٤٤ وفي نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام: ...

ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾[١] مع العلم أن أهله أعم من أهله الخصوص كما دلت عليه آية هود ﴿وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ﴾[٢].

وأما أن نوحاً هو الأب الثاني للبشر، فهو إن كان ثابتاً فليس يستغرق كل البشر، وإنما - على أكثر تقدير - الأكثرية الساحقة اللاحقة من البشر حيث انتسلوا من ذريته في النسب وهم ثلة ثم الآخرون هم قلة وترى ﴿قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ هم كل المتنسلين من الناجين في الفلك؟ وما كان كلهم كافرين! أم أنهم خصوص الكافرين منهم المكذبين؟ ولا يختصهم ذلك الإنشاء الجديد!

﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ﴾ هي عبارة أخرى عن ﴿قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ ولكنه يقصد منهم في حقل الدعوة الرسالية مَن هم أضراب قوم نوح.

ومهما اختلفت الآراء في: من هم هؤلاء المكذبون؟ إلا أن في إنشائهم بعد قوم نوح، وإرسال رسول فيهم بعد نوح، برهان قاطع لا مرد له إنهم عاد قوم هود فإنهم كانوا بعد قوم نوح وكما خوطبوا ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾[٣] كما وجاءت قصة عاد تلو قصة نوح في سورة الأعراف وهود والشعراء وهم يُذكرون قبل ثمود فيما تجمعهما من آيات، إذاً فهم ﴿قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ مهما كان منهم مؤمنون:

﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

وصيغة الدعوة نفس الصيغة السابقة السابغة، حيث الرسالة واحدة وأمم الرسل هم أمة واحدة في هذه الدعوة التوحيدية، وكما المعارضة ضد الدعوة نفس المعارضة، سلسلة موصولة طول تاريخ الرسالات رسلاً ومرسلاً إليهم:

---

(١) سورة الصافات، الآيتان: ٧٦، ٧٧.
(٢) سورة هود، الآية: ٤٠.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٦٩.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ﴾ وهم في ثالوثهم المنحوس ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ - وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ - وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قالوا قيلتهم في نكران الأصل الثالث: الوحي والرسالة: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فإنه ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ آخذين المماثلة في حيونة البشرية وحاجياتها المادية دليلَ المماثلة المطلقة بين بشر وبشر، متغافلين متجاهلين عن رحمات روحية وإن الله يمن على من يشاء من عباده، فمقياسهم الأول والأخير هو المادة والمادة فقط ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[1] والإتراف - وهو التوسيع في النعم فوق الحاجة - إنه يحجب الفطرة، ويغلِّظ المشاعر، ويغلِّط الشعور، ويسد المنافذ وتفقد القلوب حساسيتها المرهفة، فالمترفون كالعفن يفسدون الجو الذي فيه يعيشون، ولا سيما إذا كانوا كافرين بالله ويوم لقاء الله.

ثم هم يمحورون المماثلة في البشرية لإبطال الطاعة وهم يطيع بعضهم بعضاً والمماثلة نفس المماثلة، لأنهم يُمَحوِرون فضل المادة والترف أصلاً أصيلاً وحيداً في التفضيل:

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

حيث المماثل يجعل من طاعته لمماثله ترجيحاً بلا مرجح، لأن الرجحان عندهم هو فقط في ميزات الحيوان، متغافلين عن إنسانية الإنسان.

وترى إذا كانت طاعة المماثل في البشرية خساراً، فلماذا هم أنفسهم يحمّلون طاعتهم على مَن دونهم؟ ألأنهم - فقط - بشر وسواهم حيوان؟ أم هم

(١) سورة محمد، الآية: ١٢.

مناقضون في قيلاتهم الويلات، وذلك هو الملاحَظ فيها عند كل حماقى الطغيان، ثم وهم بأتباعهم يعبدون أحجاراً وأخشاباً وأين الجماد من الإنسان؟

ومنهم من هم يحتجون على نكران رسالة البشر أنهم وإياهم في أصل البشرية سواء وفي فضلها المادي لا سواء ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1] وهؤلاء أقل من أولاء خطأً مهما هم كلهم مخطئون.

ذلك! ومن ثم يحاولون إحالة رسالة هذا الرسول البشر لدعواه البعيدة عندهم كحجة أخرى على دحضه بمحضه:

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

﴿إِذَا مِتُّمْ﴾ زوالاً للحياة ﴿وَكُنتُمْ تُرَابًا...﴾ زوالاً للأجساد ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ من أجداثكم بأرواحكم وأجسادكم، فيا له مُراماً ما أبعده ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ بعيداً بعيداً لحد الاستحالة ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾: ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ وهم بهذه الحجب الثلاث عن واقع المرام وعن الحق المُرام، هم مرتكسون ركسة الحيونة الرذيلة، منتكسون إليها عن كل فضيلة، وقد هدرت ميزات الإنسانية فيهم فـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[2]! ثم هم بعد هذه الدعاية والدعوى يحصرون الحياة في حياتهم الدنيا ليست إلا:

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

ذلك وكما قال نظرائهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[3] ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣١.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٢٩.

هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[١] وعلَّ الآخرين - فقط - هم دهريون كما قد تشهد ما قبلها: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ...﴾[٢].

وتراهم حين يحصرون حياتهم في الحياة الدنيا، كيف يقدِّمون ﴿نَمُوتُ﴾ على «نحيى» والحياة بعد الموت هي الحياة الأخرى، تناقضاً صارحاً صارخاً ينقض دعواهم الأولى؟.

قد تعني ﴿نَمُوتُ﴾ جماعة مثلنا نحن الأحياء ثم لا نبعث ﴿وَنَحْيَا﴾ جماعة أخرى لمّا يحيوا، وهم - كما نحن - يموتون ثم لا يبعثون، ويجمع عدم بعثهم أحياءً وأمواتاً ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ سواء الأحياء الحاضرون الذين يموتون، أو الذين سوف يحيون ثم يموتون.

أم أن ﴿نَمُوتُ﴾ تعني ما تعنيه «نحيى» مقالة التناسخية، فكل من يموت عن جسده يحيى في آخر حتى تنتهي الحياة الدنيا ثم لا حياة بعدها.

أم أنه بيان واقع حياتهم بعد موتهم خلاف زعمهم، إضافة إلى الأوَّلَين، فأصبحت الآية تجمع بين هذه الثلاث، والمجموعة صالحة دلالياً ومعنوياً لتعنيها، وما أجملها عبارة وألطفها جمعاً بين الواجهات المعنية حقاً وزعماً.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

وهنا أصبحوا وكلاء عن الله يذودون عن ساحته فرية الرسالة التي هي قضية ربوبيته العادلة الرحيمية.

فهم - إذاً - لا يؤمنون بمدعي الرسالة قضيةَ إيمانهم بالله، معاكسة هارعة رأساً على عقب، وكأنهم هم الصادقون في إيمانهم إذ لا يؤمنون بمن يفتري على الله كذباً، فليشكرهم الله على ذلك ويشكرهم الشَّاكرون!

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

ولما وصلت حالتهم البئيسة التعيسة الآية هذه الهارفة النحيسة، حيث صمت آذان قلوبهم وعميت أبصارها.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾:

نصرة كما نُصِر نوح على قومه الظالمين مهما اختلفت صورتها، فطَمْأنه ربه بالإجابة:

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

وماذا تفيدهم الندامة والإيمان - لو آمنوا - عند رؤية بأسهم؟!

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾:

﴿بِالْحَقِّ﴾ هنا قد تعني بسبب الوعد الحق، أو مصاحبة الحق الذي رفضوه، أو الحق الذي وعدوه، والصيحة هي التي جعلتهم كالرميم، حيث خلَّفت الريح العقيم ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾[(١)].

والغثاء هي هشيم الأوراق: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾[(٢)] فقد عاجلهم الله بهلاك الاستئصال فطاحوا كما يطيح الغثاء إذا سال به السيل الجارف، حيث الغثاء ما حملت السيول في ممرها من أضغاث النبات وهشيمها، فكأنهم هلكوا ولم يحس لهم أثر كما لا يحس أثر ما طاح به السيل من غثاء، فجعلناهم كالغثاء الطافح في سرعة انجفاله وهوان فقدانه واضمحلاله ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾[(٣)]؟

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٤١، ٤٢.
(٢) سورة القمر، الآية: ٣١.
(٣) سورة الحاقة، الآية: ٨.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

كثمود قوم صالح وسائر الفراعنة والنماردة المعرقلة لمسير الرسالات.

﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

فإن أجل العذاب المهدَّد محدَّد بما يراه الله، فـ ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ المقدر لها أن يعجلها ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ تأجيلاً لها، فإنها من الآجال المحتومة الأممية حين تستحق العذاب ولات حين مآب.

وهذه سنة الله الجارية في تاريخ الدعوات الرسالية، كل قرن يستوفي أجله ويمضي غثاءً:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿ثُمَّ﴾ بعد نوح إلى موسى ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ من ولي عزم كإبراهيم أم سواه كسواه ﴿تَتْرَا﴾ تلو بعض البعض ولصق بعض، متواترين في سلسلة الرسالة والدعوة دونما انقطاع ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ دونما انقطاع، وكأنهم تواصوا بينهم ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ في عذاب الاستئصال مهما اختلفت ألوانه وأطواره ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ إذ لم نُبق منهم على أثر فلم تكن منهم من باقية إلا ﴿أَحَادِيثَ﴾ عنهم في صفحات التاريخ وألسنة الناس وبقيت العبرة ماثلة أمام الناس في مصارعهم، حيث محيت العيون وعفيت الآثار فلم تبق منهم إلا الآثار ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ - ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾!

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

وهنا إرسال كسائر الرسالات بآيات كسائر الآيات وسلطة البرهان كسائر السلطات الرسالية، مهما اختلفت في بنودها وقيودها ومظاهرها،

وإنما يذكر هنا موسى بعد رسل تترى لأنه كان يحمل ولاية العزم في أعظم رسالة إلهية وأبعدها غوراً، وأعمقها طوراً، وأكثرها عراقيل، وأشدها في مواجهة الأباطيل، فكانت - إذاً - قمة رسالية مرموقة، كما أن آياتها بعد القرآن قمة منقطعة النظير.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ رأس الزاوية الطاغية ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ هوامش الضلالة ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن هذه الرسالة بصيغة مطردة بين المستكبرين المكذبين ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ في كافة القدرات الزمنية والمقدرات المادية، وبطبيعة الحال كانوا مستعلين.

﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

فصيغة التكذيب نفس الصيغة وهم كانوا مؤمنين لبشر مثلهم وهم له عابدون! كما وهلاك التكذيب نفس الهلاك مهما اختلفا إمهالاً وإملالاً، وصورة ومثالاً.

وقد يعنون بـ ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ أن لنا الفضل عليهما كما عليهم فليعبدانا كما هم إياناً يعبدون، وقد تعني العبادة الخضوع الطليق. وهذه معاكسة مرتكسة أمام الدعوة الموسوية.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

﴿لَعَلَّهُمْ﴾ فرعون وملؤه وبني إسرائيل وسواهم من المكلفين ﴿يَهْتَدُونَ﴾ على هديه وهو أوّل كتاب رسالي يحمل شرعة مفصلة رئيسية ومن ثم القرآن العظيم إلى يوم الدين.

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾:

ولماذا ﴿ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ وهما اثنان، وكلٌّ - إذاً - آية؟ حيث

القصد من ﴿ءَايَةً﴾ هنا هي الآية الخارقة الرسالية، وهما معاً يشكّلان آية الولادة دون أب.

﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ﴾ إسكاناً مطمئناً في مأوى مريح ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ مكان مرتفع رابٍ من الأرض، هي ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ لعيشة راضية دون اضطراب ﴿وَمَعِينٍ﴾ ماء جار.

وقد عبر عن هذه الربوة في «مريم» بـ «سرياً»: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ... فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا...﴾[1].

وقد تعني ربوة القدس الشريف، وهو ربوة بعد ربوة، قد تعنيهما معاً ﴿رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ﴾ حين الولادة، وذات قرار بعدها، ويروى أنها دمشق الشام[2] وعلها توسعة للقدس حيث الشام كان يشمل تلك الدويلات الحاضرة من فلسطين ككل ولبنان وسوريا والأردن.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾[3]: نداء عام للرسل أولاً في بُعد

---

(١) سورة مريم، الآيات: ٢٢-٢٦.

(٢) الدر المنثور ٥ : ١٠ - أخرج ابن عساكر بسند ضعيف عن أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية قال: أتدرون أين هي؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هي بالشام بأرض يقال لها الغوطة مدينة يقال لها دمشق هي خير مدن الشام.

(٣) سورة الأنبياء، الآيتان: ٩٢، ٩٣.

البشرية ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فليست محرمة عليهم مهما حرمها عليهم حارمون حراميون، فلا أصل الأكل ينافي الرسالة ولا أكل الطيبات: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[1] «فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإنه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين»[2].

ثم في بُعد الإيمان ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ فلا تضمن لكم رسالتكم صالحاً دون أن تعملوا صالحاً، وليست الرسالة سياجاً عن عقوبات التخلفات، بل والمسؤولية الرسالية تملي صالحاً أكثر.

ثم البُعد الثالث و﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ الأمم بأسرها ﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ في مسيرها ومصيرها لوحدة الرسالة فوحدة الائتمام ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ لا سواي «فاعبدون» لا سواي.

فالحكم الحاكم عليهم في كل دور رسالي هو شريعة من الأمر تصدر عنه وتتجه إليه دون تَقَطُّع، وليس عديد الشرائع من ذلك الأمر الدين تقطيعاً لأصل الأمر فإنه مصدرها بأمر الله ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾[3] ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾[4]، ولكنهم:

﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ حيث جعلوا عديد الزبر للشرائع وسيلة للتقطع تحريفاً لها وتهريفاً بها، وتحزبوا أحزاباً كتابية متناحرين بحربة شرعة ضد شرعة وكتاب ضد كتاب ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ من هؤلاء المتقطعين ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

(٢) نور الثقلين ٣: ٥٤٥ في المجمع. روي عن النبي ﷺ أن الله.. فقال: «ياأَيُّهَا الرُّسُلُ. كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ..» وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٧٢].

(٣) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٤) سورة الجاثية، الآية: ١٨.

كأنه الحق وسواه باطل ﴿فَرِحُونَ﴾ والله لا يرضى من عباده تقطعاً في أمره ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[1] ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ﴾[2] خلقهم لرحمة الوحدة ووحدة الرحمة على ضوء توحيد الكلمة على كلمة التوحيد في كل زمن كما يريد الله، فلا أممية في أمر الله ودينه ولا رايات مختلف الكتابات السماوية، كلٌّ ضد الأخرى، محاربة شرعة إلهية لأخرى!.

ففي كل دور من الأدوار الخمسة الرسالية الأصيلة يجب على العالمين ككل اتباع رسولها، ثم إذا جاء دور التالي، فعلى الكل النقلة إلى التالي وللتالي إلى الشرعة القرآنية التي تحلِّق منذ بزوغها على الطول التاريخي والعرض الجغرافي وإلى يوم الدين[3].

ومن مصائب التحجر في ذلك التقطع أن كل قطاعة متحزبة ضد الأخرى ترى الحق معها كله والباطل مع من سواها كله، فتمضي فَرِحاً مرحاً لا تفكر في شيء ولا يلتفت إلى شيء إلا إلى شيئه المتقطع، مغلقة على أنفسها جميع المنافذ التي تأتيه منها أية نسمة طليقة، أو يدخل إليها منها أي شعاع مضيء، تعيش كلٌّ في تلك الغمرة الهامرة «فذرهم..»:

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾:

لقد غمرتهم وأغرقتهم حيونة الجهالة وجهالة الحيونة، والغمرة هي إزالة أثر الشيء، وهي معظم الماء الساتر لمقرها، وهم أزالوا آثار الإنسانية

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٩.
(٢) سورة هود، الآيتان: ١١٨، ١١٩.
(٣) راجع كتابنا «المقارنات العلمية والكتابية بين الكتب السماوية» وراجع تفسير الآية الثانية في سورة الأنبياء تجد فيها تفصيلاً أكثر مما هنا.

كلها، واختصوا أنفسهم بآثار الحيوانية كلها بل هم أضل سبيلاً ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ يغمرهم العذاب في لجة أو يأتيهم الموت قُبُلاً، أو حتى حين يؤذن لك في حربهم حيث تغمرهم، أو حين ينجو منهم من ينحوا منحى النجاة.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

ذلك الحسبان هو ظن الذين كفروا حيث يستمدون بمدِّ الله لهم من أموال وبنين لتثبيت قاعدتهم وإنهم - فقط - على خير، رغم أن ذلك المدّ مزلة ومضلة لكثير من المؤمنين فضلاً عن الكافرين ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ شعوراً في الأمور، ودقة تميّز لهم المحبور عن المحظور.

وقد قال رسول الله ﷺ إن الله تعالى يقول: يحزن عبدي المؤمن إذا قترت عليه شيئاً من الدنيا وذلك أقرب له مني، ويفرح إذا بسطت له الدنيا وذلك أبعد له مني... إن ذلك فتنة لهم»(١).

وقال علي عليه السلام: «فلو رخص الله في الكبر لأحد لرخص لأنبيائه ورسله ولكنه سبحانه كره التكابر ورضي لهم التواضع، فألصقوا بالأرض خدودهم، وعفروا في التراب وجوههم، وخفضوا أجنحتهم للمؤمنين، فكونوا قوماً مستضعفين قد اختبرهم الله بالمخمصة، وابتلاهم بالمَجهَدة وامتحنهم بالمخاوف ومحّصهم بالمكاره، فلا تعتبروا الرضا والسخط بالمال والولد جهلاً بمواقع الفتنة والاختبار في موضع الغنا والإقتار فقد قال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا

---

(١) نور الثقلين ٣: ٥٤٥ عن المجمع وروى السكوني عن أبي عبد الله عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال قال رسول الله ﷺ: ... ثم تلا هذه الآية إلى قوله: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المومنون: ٥٦] ثم قال: إن ذلك فتنة لهم.

يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ فإن الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم»[١].

أجلْ هؤلاء الحماقى لا يشعرون أن مدّ الأموال والبنين ليس مسارعة في الخيرات، فهم يسارعون في ذلك البلاء المبين تلوَ ما يمد الله لهم فيه زعما أنه مسارعة في الخيرات، وإنما المسارع في الخيرات هم:

(١) نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ (٥٧) وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ
يُؤۡمِنُونَ (٥٨) وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ (٥٩) وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ
وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ (٦٠) أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ
لَهَا سَٰبِقُونَ (٦١) وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ
لَا يُظۡلَمُونَ (٦٢) بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ
لَهَا عَٰمِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ (٦٤) لَا
تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ
عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمۡ
يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٦٨) أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ
رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ
وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ (٧٠) وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ
(٧١) أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ
لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٧٣) وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ
ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ (٧٤) وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي
طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا
يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ
مُبۡلِسُونَ (٧٧) وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا

تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

الخشية هي للقلب، والإشفاق عناية مختلطة بخوف زائد عليها حين يُعدَّى بمِن كما هنا، فالمؤمنون لأنهم يخشون ربهم، فهم مشفقون على أية حال، ولا سيما حال النعمة الموفَّرة عليهم، فخشيتهم من ربهم تجعلهم خائفين في الرخاء والبلاء، ولا سيما الرخاء إن قصروا وغمروا فيها غافلين، فتبدَّل نِعمة الله نِقمَة ونَعمة، محاسبين أنفسهم في صرفها دون تهدُّر، بكل حائطة ومراقبة وتحذر، فالمؤمن الخاشي إذا يجمع يجمع إحساناً وإشفاقاً، وغيره يجمع دائباً إساءة وغمرة وإغراقاً، يقول: إنما أوتيته على علم عندي ولا يحسب لله حسابه، ولا يرجو ثوابه ولا يخاف عقابه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾:

سواء فيها الآيات الآفاقية والأنفسية، بل هم يعيشون كل الآيات إيماناً

بها، والكون كله آيات الرب دون إبقاء ولا استثناء فيعتبرون بضمنها كلاً من الرخاء والبلاء من آيات البلاء فيشفقون خشية من ربهم.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

وكيف يأتي نفي الإشراك بربهم بعد الإيمان والإشفاق من خشية ربهم، وهذا السلب يتقدم كل إيجابات الإيمان؟

علّه لأنه يعني الإشراك في شؤون الربوبية، لا - فقط - الألوهية، ومن الإشراك بالرب رئاء الناس، والانعطاف إلى غير الرب في أية زاوية من زوايا الحياة طويلة وقصيرة.

فذلك - إذاً - سلب يجرف عن إيجابيات الإيمان كُدرتَها، وتُبلور الإيمان عما يشوبه من شرك خفي قد لا يحسب بشيء.

فمثَله مثل الإسلام بعد الإيمان الذي هو بعد إسلام، فهنا سلب بعد إيجاب كان بعد سلب، وأين سلب من سلب وأين إيجاب من إيجاب كـ ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ...﴾[1].

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ عن طاعة لله، من مال وعلم ومعرفة، ومن نفس وأي نفيس يمكن إيتاءه في سبيل الله و﴿مَآ ءَاتَواْ﴾ ماضياً بعد ﴿يُؤْتُونَ﴾ دليل استمرارهم في ذلك الإيتاء، فهم يعيشون حياة الإعطاء والإيتاء في سبيل الله «و» الحال في إيتائهم أن ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ علهم مقصرون أم هم قاصرون لـ «أنهم إليه راجعون».

والوجل هو استشعار الخوف، فهم تستشعر قلوبهم خوفاً من الهول

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٦.

المطَّلَع حين يرجعون إلى ربهم، استعظاماً لقدر الله حق قدره، واستصغاراً لأقدارهم أنفسهم بما آتوا من صالحات.

أتراهم وجلة قلوبهم لمعاصيهم ومآسيهم؟ كلا! حيث ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾ هو إتيان ما فرض عليهم وندب فيه إليهم: «يصوم ويتصدق ويصلي وهو مع ذلك يخاف الله أن لا يتقبل منه»[1].

وهكذا يكون المؤمن الصالح، وَجِل القلب إنه راجع إلى ربه، وافداً إليه من غير زاد مهما زاد فيما أتى من طاعة ربه، وليس يعني وجلهم أنهم في شك من الثواب.

على ما آتوا، بل هم بين خوف من تقصيرهم ورجاء لرحمة ربهم دون أن يروا استقلالاً لأعمالهم في الثواب، بل يستقلونها لاستحقاق الثواب.

و«لو أن العباد وصفوا الحق وعملوا به ولم تعقد قلوبهم على أنه الحق ما انتفعوا به»[2] ولا ينافيه وجل قلوبهم استصغاراً لأعمالهم وعدم بلوغ تقواهم حق التقاة، فـ «إن المؤمن يعمل بين مخافتين بين أجل قد مضى لا

---

(١) الدر المنثور ٥: ١١ أخرج جماعة عن عائشة قال قلت يا رسول الله ﷺ قول الله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ اهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو مع ذلك يخاف الله؟ قال: لا ولكن الرجل يصوم... وأخرجه مثله جماعة عن أبي هريرة عنه ﷺ إلا «وهو مع ذلك». وفي نور الثقلين ٣: ٥٤٥ عن الكافي بسند متصل عن حفص بن غياث قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن قدرت أن لا تعرف فافعل وما عليك أن لا يثني عليك الناس وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس إذا كنت محموداً عند الله ثم قال قال علي بن أبي طالب: لا خير في العيش إلا لرجلين رجل يزداد كل يوم خيراً ورجل يتدارك مَنِيّتَه بالتوبة وأنى له بالتوبة والله لو سجد حتى ينقطع عنقه ما قبل الله تبارك وتعالى منه إلا بولايتنا أهل البيت ألا ومن عرف حقنا ورجا الثواب فينا ورضي بقوته نصف مد في كل يوم وما ستر عورته وما أكن رأسه وهم في الله في ذلك خائفون وجلون ودوا أنه حظهم من الدنيا وكذلك وصفهم الله عز وجل فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المومنون: ٦٠] ثم قال: ما الذي آتوا والله مع الطاعة والمحبة والولاية وهم في ذلك خائفون ليس خوفهم خوف شك ولكنهم خافوا أن يكونوا مقصرين في محبتنا وطاعتنا.

(٢) نور الثقلين ٣: ٥٤٦ في محاسن البرقي عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام قال:...

يدري ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله عز وجل قاض فيه»[١].

أجل وإن قلباً يستشعر يد الله عليه وعين الله ترعاه، ويحس آلاءه التي لا تحصى في كل نبضة فيستصغر ويستقل كل ما آتاه تعبداً لربه وأعطاه لخلقه في سبيله، شاعراً بالهيبة المحلِّقة على كيانه ككل، مشفقاً أن يلقى الله وهو مقصر - وقطعاً هو قاصر - في حقه:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾:

يصارعون الشرور والأشرار ويسارعون في الخيرات مع الأخيار، قضية تلك اليقظة والتطلُّع الدائب، وعجلة سيرهم إلى ذلك المصير هي عدم إشراكهم بالله وإيمانهم بآيات الله، وخشيتهم وإشفاقهم من الله وإيتائهم ما آتوا وجلةً قلوبهم في سبيل الله، فبطبيعة الحال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ دنياً وعقبى، دون مسارعة في أموال وبنين إلا ما يقدمونه في سبيل الله، ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ دون «إليها» فقط، بل ﴿لَهَا﴾ حيث أن ذلك السباق لزام حياتهم فهم غامرون فيها ليل نهار ما عاشوا، لا يهمهم إلا أن يسبقوا الرفاق في ذلك السباق.

أم هم لأجل الخيرات سابقون في كل ميادين السباق، دون ما يسارع لها غيرهم وهم فيها متصارعون غامرون.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

لا نكلفهم في سباقهم هذا إلا وسعهم دون عسر ولا حرج، فكلٌّ يعتقد حسب وسعه دون عسر ولا حرج، وكلٌّ يعمل حسب وسعه دون عسر ولا حرج.

(١) المصدر في الكافي عن حمزة بن حمران قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن مما حفظ من خطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: . . .

وكما ولا ﴿نُكَلِّفُ﴾ يعم أصل التكليف الخارج عن الوسع، كذلك الحالات الاستثنائية للأحكام الميسورة حيث تنقلب فيها التكاليف معسرة أو محرجة، كما وأن ﴿نَفْسًا﴾ تؤيد ذلك الشمول.

﴿وَلَدَيْنَا﴾ علماً لدنِّياً نعلم عسرهم ويسرهم، وسائر الشهود الرسالية والملائكية والعضوية والأرضية ﴿كِتَٰبٌ﴾ استنسخناه: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] ﴿كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ بسبب الحق الثابت الذي حصل، وبسبب الحق عند الله، وبمصاحبة الحق الذي يحمله الكتاب ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في ذلك النطق الشهادة، نطق القالة ونطق الصورة ونطق السيرة المستنسَخة المسجَّلة في سِجلَّات الأعمال والأحوال والأقوال.

ولقد كان يحمل علي بن الحسين عليه السلام غلمانه قائلاً: «ارفعوا أصواتكم وقولوا: يا علي بن الحسين عليه السلام ربك قد أحصى عليك ما عملت كما أحصيت علينا ولديه كتاب ينطق بالحق لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فاذكر ذل مقامك بين يدي ربك الذي لا يظلم مثقال ذرة وكفى بالله شهيداً، فاعف واصفح يعف عنك المليك...»[2].

فليس نكرانهم لأنهم كُلِّفوا فوق السعة معرفياً.. وعملياً فهم معذرون:

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

هذه صفات المؤمنين وحالاتهم، وأما المسارعون في خلافها فهم معاكسون لهم تماماً ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ الذي ذكرناه لهؤلاء، وفي

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.

(٢) نور الثقلين ٣: ٥٤٧ في المناقب لابن شهر آشوب في مناقب زين العابدين عليه السلام وكان إذا دخل شهر رمضان يكتب على غلمانه ذنوبهم حتى إذا كان آخر ليلة دعاهم ثم أظهر الكتاب وقال: يا فلان فعلت كذا وكذا ولم أؤدبك؟ فيقرون أجمع فيقوم وسطهم ويقول لهم: ارفعوا أصواتكم...

﴿هَٰذَا﴾ القرآن الذي يذكرهم عن غفلتهم فهم غامرون في لجج الجهالة، خامرون عقولهم بخُمُر الغفلة «و» الحال ان ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الذي يعمله المؤمنون، ومن دون ذلك الذي وصفناه لهم، غمرة هامرة خامرة ليس لهم من دونها شاعرة إلا شاغرة، أولئك هم في غمرة المسارعة في الخيرات، وأولاء في غمرة الشهوات، في حيرة تغمرها وغمة تسترها، حيث الغمرة هي ما وقع الإنسان فيه من أمر مذهِل، وخطب موغِل، مُشبه بغمرات المياه التي تغمر الواقع فيها وتأخذ بكظم المغمور بها.

هذا، وقد تعني ضمائر الجمع الثلاثة المؤمنين أنفسهم و﴿بَلْ﴾ إضراب عما ذكرت لهم من صفات تحدد مواقفهم الإيمانية ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ المذكور لهم فلا تحدُّ خيراتهم حدودٌ ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرناه ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ دون «هم عاملوها» فاللام تجعل أعمالهم الصالحة لزاماً لغمرتهم.

أم تعني الآية كلتا الضفتين كلاً بغمرته، وأين غمرة من غمرة وأين مسارعة من مسارعة؟

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

ولأن الضفَّة الشريرة المسارعة في الشهوات موصوفة من قبل بـ ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[1] فـ ﴿مُتْرَفِيهِم﴾ هنا يقتسم الغامرين إلى مترفين وسواهم، و﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ﴾ تُنهي الغمرتين إلى حين العذاب موتاً وسواه، فالغامرة المترفة تجأر، والغامرة المؤمنة لا تجأر، والجؤار هو صوت الوحش عند الفزع، فهم الوحش مستوحشين من عذاب الله المفاجأ رجاء النصر ولكن:

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٣٣.

﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

ولأنه ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[1] فسلب النصر من عنده سلب لمطلق النصر، وهكذا يخاطَبون بعد غياب من ذكراهم ليكون أوقع في استيحاشهم تقريعاً لهم وقطعاً لآمالهم فإنه:

﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

﴿قَدْ كَانَتْ﴾ مؤكَّدة متواترة بينة ﴿ءَايَٰتِى﴾ المذكرة لكم عن غمرتكم ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ليل نهار ﴿فَكُنتُمْ﴾ على طول خطها ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ آبائكم الأولين، وأعقابكم أنفسكم مدبرين ﴿تَنكِصُونَ﴾، رجوع القهقرى، مرتجفين إلى جهّال وجهالات، مسامحين عما عندهم من عقول وذكريات:

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ عن سماع الآيات، أم إذا سمعتهم فعن تدبرها والاعتبار بها ﴿سَٰمِرًا﴾: متحدثاً بالليل، ليلة الجهالة والشهوة، ليلة الحيونة والاستكبار، ليلة التقاليد العمياء، دون ضوء من الأضواء آفاقية وانفسية، حال أنكم ﴿تَهْجُرُونَ﴾ هذياناً هاجراً للحق، حاجزاً عما يحق أن يسمع ويطبَق، مُطلِقون ألسنتكم بهجر القول وفحشه وأنتم محلّقون - حول أصنامكم في سامركم - بالكعبة.

فلقد كان هؤلاء يرمون الرسول ﷺ في ظلام، ويطلقون ألسنتهم بهجر القول وفحشه في نواديهم، وهنا القرآن لما يجأرون يذكرهم بسمرهم الفاحش وهجرهم الطائش في الليل الأليل الدجى، بهراء هم الهجى.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾:

«أ» سمعوا «فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ» حتى يعرفوا حقه الرسالي «أم» أعرضوا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٦.

عنه لأنه أتى ﴿مَا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؟ وقد أتاهم نفس ما أتاهم وزيادة، فما هو بدعاً من الرسل ولا قوله الرسالي بدع من القول!

وهم محجوجون إن لم يدَّبَّروا حيث أنكروا رميةً في ظلام، ومحجوجون إن تدبروا وأنكروا بحجة أنه أتى ما لم يأت آبائهم الأولين وقد أتى!

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٦٩﴾:

«لم يعرفوه» منذ دعوته إذ لم يدّبّروا قوله أم هو بدع من القول، «أم لم يعرفوه» رغم كافة الحجج الرسالية المحلقة عليه ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ رغم هذه الحجج الدامغة البارقة، أم لم يعرفوه قبل رسالته فقد لبث فيهم عمراً من قبله أفلا يعقلون، فقد عرفوه قبل بالأمانة والصدق، فهل الأمين الصادق مع الناس يتحول إلى خائن كاذب مع الله ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾[1] فقد عرفوه سابقاً وفي الحال بأحواله المصدِّقة لكل حاله وقاله دون أي كذب وإدغال، ثم لما جاءهم بما ينجيهم من غمرة الجهالة أنكروه.

ذلك وكما عرفه أهل الكتاب بما بُشر به بمواصفاته في كتاباتهم، ولمّا جاءهم كذبوه وجنّنوه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾[2].

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٠﴾:

وهذه طنطنة وغوغائية دعائية هي آخر المطاف لهم في تزييف موقف الرسالة، أن ﴿بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ إذ يقول ما لا نقول به، ويعد ما لا نعرفه، فبيننا وبينه حجاب المعرفة، ﴿بَلْ﴾ كل ذلك دعوى بلا حقيقة ولا برهان ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بكلِّ آياته وبيناته ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ وأقلهم لا يعرفونه قصوراً أو تقصيراً فهم له منكرون، قصوراً كالمستضعفين الذين لا يجدون

---

(١) سورة النجم، الآية: ٢٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.

حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فهم بُلهٌ لا يميزون، وتقصيراً كمن لا يفتشون عن الحق، بغية أريحية الحياة، أم عرفوه ولكنهم تركوه دون كراهية له نفسه، وإنما كراهية التوبيخ من قومهم وأن يقولوا ترك دين آبائه.

هؤلاء هم منجرفون مع الهوى، منحرفون إلى كل ردى، يهوون أن يتّبع الحق أهواءهم، كأنهم آلهة بأهوائهم الطائشة وعلى الحق أن يتبعهم حيث جعلوا آلهتهم أهواءهم فألهتهم عما يعنيهم:

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾:

«لو» تحيل ذلك الاتباع المفروض المرفوض في كل الحقول عند أرباب العقول، فلو كان الحق - المطلق، المعصوم عن كل زلل وخطل - موافقاً لأهوائهم القاحلة الجاهلة، لعاد كلٌّ إلى ضلاله وأوقع كلٌّ في بَطْلِه وكلاله، حيث الحق يدعو إلى المحاسن والمصالح، والأهواء تدعو إلى المساوئ والمقابح، فلو اتبع الحق قائد الهوى لشمل الفساد وعم الاختلاط وخفضت أعلام الهدى، ورفعت أعلام الردى.

ولا تعني ﴿أَهْوَآءَهُمْ﴾ فقط الشريرة منها التائهة، بل والخيرة أيضاً والعاقلة، حيث المتّبع الصالح لإدارة شؤون التكوين والتشريع هو الحق المطلق، لا الحق الخاطئ كالعقول غير المعصومة، فضلاً عن الباطل المطلق، فـ «الحق» هنا هو الله، والأهواء هي من غير الله عقولاً أم أهواء سواها، فـ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾[1].

أجل وفي اتباع الحق لسواه - أيّاً كان - اختلال كافة الموازين والمقاييس في السماوات والأرض ومن فيهن، وكما في تعدد الآلهة المدبِّرة والمشرِّعة.

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤.

فالحق المطلق واحد ثابت لا يتقلب في تغلُّبه، والأهواء عاقلةً وسواها كثيرة متقلبة، وبالحق الواحد يدبّر الكون كله تكويناً وتشريعاً فلا ينحرف ناموسه لهوى تعترض، ولا تتخلف سنته لرغبة طارئة ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ الذي يذكِّرهم عن قصورهم وتقصيرهم، عن غفلتهم وغفوتهم، ويذكرهم لما يتوجب عليهم في صالح حياتهم ﴿فَهُمْ﴾ أولاء الحماقى ﴿عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾!

فالقرآن ذكر جملة وتفصيلاً، ذكر للفِطَر والعقول والقلوب، ذكر عما نسيه أصحابها أم تناسوه، وذكر لما ستر عنهم من فصائل المعارف وفضائلها وهم يطلبون أن يتّبع الذكرُ الحقُّ وحقُّ الذكر أهواءهم الخاملة غير الكاملة، فحتى لو اتفقت أهواءهم العاقلة على شيء لم تكن لتأتي بالحق المطلق، فضلاً عن أهوائهم الجاهلة، أم المختلقة في هذه أو تلك كما هي الواقع فيها على أية حال، فالفساد - إذاً - آت من بعدين اثنين: قصور الأهواء، وتضادها، فليكن الحاكم المطلق هو الحق المطلق لا سواه.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾:

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾ رزقاً على أتعاب الدعوة، وليس يسأل، وذلك تذكار لهم أنه يدعوهم إلى الله دون أن يسأل خرجاً ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾[1] فكل الموانع في تقبُّل الدعوة - مادية ومعنوية أما هيه - زائلة، وكلُّ الدوافع لتقبلها حاصلة ماثلة:

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾:

«إن واللام» تأكيدان اثنان لانحصار هذه الدعوة إلى صراط مستقيم، وانحسارها عما يبعده أو يميل عنه، وقد ذكر لنا أن نبي الله ﷺ لقي رجلاً فقال له أسلم فتصعَّب له ذلك وكبر عليه فقال له النبي ﷺ: أرأيت لو كنت

(١) سورة يس، الآية: ٢١.

في طريق وعرٍ وعثٍ فلقيت رجلاً تعرف وجهه وتعرف نسبه فدعاك إلى طريق واسع سهل أكنت تتبعه؟ قال: نعم - قال: فوالذي نفس محمد بيده إنك لفي أوعر من ذلك الطريق لو كنت فيه ولني لأدعوك إلى أسهل من ذلك الطريق لو دعيت إليه...»[1].

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

فالصراط المستقيم هو صراط المبدأ والمعاد وما بين المبدأ والمعاد، فالذين لا يؤمنون بالآخرة هم ناكبون عن ذلك الصراط حيث المعاد هو مصير المبدأ والرسالة، وهما مسير المعاد، وكما المعاد مصيرهما.

ولأن الصراط صراطان: في الدنيا والأخرى، فهم ناكبون مائلون عنهما، فساقطون فيهما إلى شفا جرف هار ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

«لو» هنا تُحيل رحمة الله لهم إذ صدوا على أنفسهم كل منافذها، ثم لا يرجى منهم الهدى بكشف الضر عنهم، بل لجوا في طغيانهم المتعرق في حياتهم يعمهون، فلماذا نرحمهم وهي عذاب على عباد الله الذين يظلون ويضلون تحت رحمة طغيانهم العمه.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾:

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٣ - أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: ما فيه عوج ذكر لنا... وذكر لنا أن النبي ﷺ لقي رجلاً فقال له أسلم فصعده ذلك فقال له نبي الله ﷺ أرأيت فتييك أحدهما إن حدث صدقك وإن أمنته أدى إليك والآخر إن حدث كذبك وإن ائتمنته خانك قال: بلى فتاي الذي إذا حدثني صدقني وإذا أمنته أدى إلي قال نبي الله ﷺ: كذاكم أنتم عند ربكم.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

هؤلاء الصِّلتون الصِّلبون الصامدون في كفرهم لا يزحزحهم عن ضلالهم لا رحمة بكشف الضر عنهم ولا عذاب ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ تخضعاً[١] له عن كبرهم ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ استغفاراً عما كانوا يعملون، والإنسان أياً كان يتحول حال الرحمة والعذاب إلى غير حاله، ففريق يشكرون حال الرحمة، وآخرون يستغفرون حال العذاب والزحمة، وأما هؤلاء المناكيد فكأنهم ليسوا من الناس، بل هم نسناس وسواس خناس دائبون في كفرهم بآله الناس:!

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾:

إن أبواب العذاب أربعة، اثنان في الأولى وآخران في الأخرى، فعذاب الاستئصال وما دونه يوم الدنيا، وأشد منه يوم الرجعة ثم أشد منهما يوم البرزخ، ثم الأشد في الأخرى، و﴿بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قد لا يعني الأولى في الأولى، لمكان ﴿أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ من ذي قبل ومواصفته بـ ﴿شَدِيدٍ﴾ والأولى أياً كان هي بجنب سائر العذاب غير شديد، و﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا﴾ تضرب إلى المستقبل، ولأن ضمير الجمع في ﴿عَلَيْهِم﴾ يعم كافة الطغاة في تاريخ الرسالات فليكن العذاب الشديد يوم الرجعة[٢] ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ حزناً معترضاً من شديد البأس.

---

(١) في الكافي بإسناده عن محمد بن مسلم قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية فقال: الاستكانة هي الخضوع والتضرع رفع اليدين والتضرع بهما وفي المجمع وروي عن مقاتل بن حيان عن الأصبغ بن نابتة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم رفع الأيدي في الاستكانة قلت وما الاستكانة؟ قال: أما تقرأ هذه الآية ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦] أورده الثعلبي والواحدي في تفسيريهما وفيه قال أبو عبد الله عليه السلام الاستكانة الدعاء وفي الدر المنثور ٥ : ١٤ أخرج العسكري في المواعظ عن علي بن أبي طالب في الآية أي لم يتواضعوا في الدعاء ولم يخضعوا ولو خضعوا لله لاستجاب لهم.

(٢) نور الثقلين ٣: ٥٥٠ عن المجمع قال أبو جعفر عليه السلام : هو في الرجعة.

وأما يوم القيامة فكل أبواب العذاب مفتوحة عليهم وعلى سواهم من أهل الجحيم، ويوم البرزخ لكلٍّ باب تناسبه، وليس هناك باب جماهيرية تفتح على ذلك الجمع الطاغي.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾:

«الأفئدة» هي القلوب المتفئدة، ذاتية بأنوار الفطرة، وعارضية بما تستوردها بالسمع والأبصار ظاهرية وباطنية من الآيات الآفاقية، والشكر على هذه النعم الثلاث هو استعمالها فيما أنشأت له من مزيد المعرفة ولكن ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ عِدَّة بين الجموع ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[1] وعدة في هذه القلة حيث لا يشكرونه كلهم كما يحق ويستطيعون، فالشاكرون تماماً هم أقل قليل، والشاكرون بعضاً هم القليل، والكافرون هم الكثير.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾:

الذرء هو الإظهار فـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾ أظهركم أحياءً ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ثم يخفيكم إذ يميتكم ثم ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

فكما له اختلاف الليل والنهار أن يأتي كلٌّ خلف الآخر وخلفته وفي كل حكمة بالغة، كذلك له اختلاف الإحياء والإماتة كلٌّ يأتي خلف الآخر حسب الحكمة البالغة وهي أحرى وأعقل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وما هو الفارق بين الاختلافين إلا موادهما؟ فحين نعيش اختلاف الليل والنهار لحكمة معيشية دنيوية فانية، فهلا نعيش اختلاف الموت والحياة لحكمة معيشية أخروية باقية ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾!؟

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣)﴾:

إنهم لم يؤمنوا بعد هذه الدلائل الباهرة والحجج الظاهرة ولم يقولوا آمنا «بل» قالوا كلمة الكفر، ولم تكن قولتهم من عند أنفسهم ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ - ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾(١) قالوا قيلة الاستبعاد لبعثهم بعد إذ كانوا تراباً وعظاماً، وهو الذي خلقهم أول مرة، ثم هو يخلقهم وهو أهون عليه ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا﴾ الوعد ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ طول تاريخ الرسالات ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وخرافات ملفقة من «الأولين».

لقد كان مشركو العرب مضطربي العقيدة ومتناقضيها، فهم حين لا ينكرون الله خالق الكون يشركون خلقه به، وحين لا ينكرون أنه خالق الحياة ينكرونها بعد الموت، ولذلك هنا يستجوبهم فيما هم معترفون، ثم يتبناه لتثبيت ما هم منكرون:

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤)﴾:

لمن هي ومَن فيها، مِلكاً ومُلكاً وتدبيراً أصيلاً.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥)﴾:

أفبعد ذلك الاعتراف الجاهر لا تذكَّرون؟.

إن مالك الكون هو - فقط - مدبِّره حسب الحكمة البالغة، دون شريك ولا معين ولا مشير، وقضية المَلِكية والمالكية الصالحة إصلاح المماليك وفصل القضاء بينهم فلا بد إذاً من يوم لفصل القضاء.

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧﴾:

و﴿ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ هو هنا عرش العلم والقدرة والتدبير والتقدير، وبصيغة أخرى هو عرش الربوبية المحلِّقة على كافة شؤون السماوات السبع ومن فيهن ومن بينهن، وأرضنا منها.

﴿سَيَقُولُونَ﴾ إن هذه الربوبية ﴿لِلَّهِ﴾ مهما اعتقدوا في ربوبيات هامشية لأربابهم فإنها أيضاً لله حيث هي أنفسها مخلوقة لله ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله حيث تشركون به وتنكرون وحيه ويوم حسابه.

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ۝٨٩﴾:

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ﴾ علماً وقدرة وأية سلطة ﴿مَلَكُوتُ﴾ حقيقة المِلك والمُلك لـ ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ فهو أملك لكل شيء منها لأنفسها، فناصية كل شيء - وما به الشيء شيء بأسره - ليس إلا بيده لا سواه، ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ وينقذ كل شيء مستجيراً وسواه، حيث الفقر هو ذات كل شيء، والأخطار محلِّقة على كل شيء فهي بحاجة ذاتية إلى إجارة من الأخطار والأضرار ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ حيث لا مجير عليه كما لا مجير له إذ لا أخطار عليه ولا يدَ فوق يديه.

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٩٠﴾:

فليس هنالك قصور منا ولا تقصير في بيان الحق ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ المطلق دون غبار عليه ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في دعاويهم، وحتى في اعترافاتهم بهذه الحقائق فإنها تضاد واتخاذهم آلهة سواه، وعبادتهم لما سواه، بل وتركهم إياه كأن لا إله الا ما تهواه أنفسهم مما اتخذوه آلهة سواه:

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا
خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ
ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا
يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن
نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحْنُ أَعْلَمُ
بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ
بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ
﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن
وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ
يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾
وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ
﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ
عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا
قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ
ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ
ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ
أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟
أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟

لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾

كون إله من دون الله لا يخلو من اتخاذه إلهاً من قبل الله ولداً وسواه، أم أنه إله كما الله على سواء، ولكن ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ اتخاذاً بالولادة إذ لم يلد، ولا اتخاذاً تشريفياً إذ لا شرف لعباد الله المقربين أشرف من العبودية، والمجاز مُجاز إذا أمكنت الحقيقة، فلأن حقيقة الولادة الذاتية مستحيلة في الله فكذلك مجازها تبنياً لبعض خلقه.

فالولد الحقيقي جزء من حقيقة الوالد، فألوهية الوالد تقتضي ألوهية لولده، ثم للولد التشريفي ألوهية مخوَّلة مهما لم تكن له ذاتية ولادية، وهما منفيان لأي أحد تجاه الله.

وهنا تبقى ألوهية ثالثة هي ذاتية غير ولادية وكما لله، تنفيها عن غير الله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ وبرهان النقض ﴿إِذًا لَّذَهَبَ...﴾ يتمحور الألوهية الذاتية، وعلى هامشها الولادية أم والتشريفية.

إذاً لو ﴿كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ واستقل هو بنفسه بما خلق، وانفصل النظام وانفصم، فإن لكل شأناً غير شأن الآخر، ولكلٍّ خلق يريده سوى ما يريده الآخر، فإن أنقسم الخلق بينهما ولكلٍّ نصيب، انقسم النظام، وإن تعارضا في كل خلق لتناقض الخلق واستحال النظام، فـ «إذا شاء واحد أن يخلق إنساناً شاء الآخر أن يخالفه فيخلق

بهيمة، فيكون الخلق منهما على مشيتهما واختلاف إرادتهما إنساناً وبهيمة في حالة واحدة، فهذا من أعظم المحال غير موجود، وإذا أبطل هذا ولم يكن بينهما اختلاف بطل الاثنان وكان واحداً، فهذا التدبير واتصاله قوام بعضه ببعض يدل على صانع واحد...»[١].

فهذه الآية تضم حججاً ثلاثاً ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ - ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ - ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾.

فالثاني لزوم ذهاب كل آله بما خلق مستقلاً بما خلقه، يعرفه حسب ناموس خاص، فيصبح لكلٍّ جزءٍ من هذا الكون، أو لكلٍّ فريق من الخلق، ناموس خاص لا يلتقي فيه بناموس عام يصرف الجميع، وبذلك تنفصم عرى الوحدة في التدبير ويختل النظام رغم وحدة التدبير واتصاله.

والثالث لزوم علو كلٍّ على زميله استقلالاً بعرش الألوهية وقضاءً على نقص الشركة، علواً على ألوهيته ذاتاً أم صفات أو أفعالاً، استقلالاً بما هو قادر عليه.

والقول أننا نفرض وحدتهما في الإرادة فلا يتنازعان، يرده أن الوحدة المطلقة قضيتها الوحدة من جميع الجهات فأين الاثنان، فحتى لو صحت وحدة الإرادة لوحدة العلم والقدرة والحكمة، نتساءل أليس بينهما أي فارق ذاتي أم صفاتي؟ ففي فرض وجود الفارق - وهو لزام التعدد - نقول إن كان الفارق لكلٍّ نقصاً فهما ناقصان، وإن كان لكلٍّ كمالاً فكلٌّ يفقد كمالاً يجده الآخر، فهما - إذاً - ناقصان من وجه ثان، فليسا إلهين اثنين.

---

(١) تفسير البرهان ٣: ١١٨ عن تفسير القمي في الآية ثم رد الله عَزَّوَجَلَّ على الثنوية الذين قالوا بإلهين فقال: ما اتخذ الله... قال قال: لو كان إلهين كما زعمتم فكانا يختلفان فيخلق هذا ولا يخلق هذا يريد هذا ولا يريد هذا وليطلب كل واحد منهما الغلبة لنفسه ولا يستبدل كل واحد بخلقه وإذا أراد... لطلب كل واحد فيهما العلو وإذا شاء.. وهو قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ...﴾ [المومنون: ٩١] وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وفي فرض عدم الفارق أياً كان فلا تعدد أياً كان ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[(١)] الآلهة إلا الله كما ﴿لَفَسَدَتَا﴾ السماوات والأرض ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من أي شريك بثالوثه المنحوس.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ وهو كل ما يغيب عن سواه حاضراً أم سوف يخلق ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وهي خلافه، أم «الغيب ما لم يكن والشهادة ما قد كان»[(٢)] وهما له شهادة على سواء، فلو كان معه إله لعلمه قبل خلقه، ولو كان اتخذ ولداً أم إلهاً سواه لكان يَعلمه فيُعْلمه خلقه حتى يتخذوه معه إلهاً ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾:

دعاء يُعلمه الله الرسول ﷺ حين يريه ما يوعدون ألَّا يجعله في القوم الظالمين، لا ظالماً كما هم ولا معيناً لهم كما الأعوان، ولا مشمولاً لما يوعدون كفتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، فهي دعاء لمفاصلة تامة بينه وبينهم في دافع الظلم وواقعه وواقعته الموعودة للظالمين.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾:

تعجيلاً لما نعدهم حتى ترى، أم تأجيلاً لأجلك حتى تبقى فترى آجل وعدهم، وقد يكفيك وعدنا عن رؤيته وإنما عليك دفع السيئة بالتي هي أحسن حتى ترى ما ترى أم يقع ما لا ترى:

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

(٢) تفسير البرهان ٣: ١١٨ في معاني الأخبار ابن بابويه بسند عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: عالم الغيب ما لم يكن والشهادة ما قد كانا، أقول: ما قد كان هو شهادة له ككل لمكان حضوره وما لم يكن هو غيب عن الحضور كونياً ولكنه شهادة لحضوره علمياً.

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾(١).

فواجب الدفاع عن النفس أو النفيس أم راجحه، يفرض الطريقة التي هي أحسن، فقد تكون عفواً وسماحاً فينقلب السيّء حسناً، أم تأجيلاً وأنت - بينك وبين الأجل الصالح - تعامل بالتي هي أحسن عله يرجع عن غيه وضلاله، أم تستجيش كافة المحاولات الممكنة المعقولة لدفع السيئة عنك وعمن يسيء إليك أم من يسيء إلى سواك أم إلى نفسه أو إلى شرعة الله ككل(٢).

وفي آخر المطاف حيث لم تبق لك باقية من الطرق الحسنى فقضاء على عامل السوء اجتثاثاً لمادة الفساد إن استطعت، وإلا فـ «التي هي أحسن التقية»(٣).

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ من أوصافه خارفة جارفة.

﴿ٱدْفَعْ﴾ كما تستطيع بمن معك من المؤمنين همزات الشياطين، مستعيذاً في ذلك برب العالمين:

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾:

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

(٢) نور الثقلين ٣: ٥٥١ في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: بعث أمير المؤمنين عليه السلام إلى بشر بن عطارد التيمي في كلام بلغه فمر به رسول أمير المؤمنين عليه السلام في بني أسد وأخذه فقام إليه نعيم بن دجاجة الأسدي فأفلته فبعث إليه أمير المؤمنين عليه السلام فأتوه به وأمر به أن يضرب فقال نعيم: أما والله إن المقام معك لذل وإن فراقك لكفر، قال: فلما سمع ذلك منه قال له: قد عفونا عنك إن الله عز وجل يقول: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦] أما قولك: إن المقام معك لذل فسيئة اكتسبتها وأما قولك: وإن فراقك لكفر فحسنة اكتسبتها فهذه بهذه فأمران يخلى عنه.

(٣) المصدر في محاسن البرقي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: التي...

صحيح أن «ادفع - وقل» خطابان للرسول ﷺ ولكنهما لا يخصانه إذ ليسا من اختصاصاته كحامل الرسالة.

فهما كسائر الخطابات القرآنية يعمان كافة المكلفين مهما توجه إلى الرسول ﷺ كبداية، ولكنه منطلَق الخطابات كرسول، إلا فيما قرنت بقرينة قاطعة تخصها به كفرض صلاة الليل وسماح الزواج أكثر من الأربع وأضرابهما من اختصاصاته.

و﴿هَمَزَٰتِ﴾ جمع همزة، وهي شدة الدفع والهزِّ والأزِّ كما هي الاغتياب: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾[١] وقد تعنيهما الهمزات هنا لمكان الإطلاق، وقرنها بـ ﴿يَحْضُرُونِ﴾ فالاستعاذة إذاً تحلِّق على الحالتين للشياطين «غياباً»[٢] وحضوراً، وهم - أيضاً - أعم من الشياطين الغُيَّب والحضور، فإن لهم دفعاً إلى الشرور ومنعاً عن الخيرات غُيَّباً وحضوراً.

ولقد «كان رسول الله ﷺ يُعلِّمنا كلمات نقولهن عند النوم من الفزع: «بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون»[٣] «فإنه لا يضرك وبالحري أن لا يضرك»[٤].

و«كان ﷺ يقول بعد استفتاح الصلاة: لا إله إلا الله ثلاثاً - الله أكبر ثلاثاً - اللهم إني أعوذ بك من همزات الشياطين همزه ونفثه ونفخه، فقيل يا

---

(١) سورة الهمزة، الآية: ١.

(٢) في تفسير القمي في الآية قال: ما يقع في قلبك من وسوسة الشياطين، أقول: فحضورهم غير ذلك الهمز مهما اشتركا في الدفع.

(٣) الدر المنثور ٥: ١٥ - أخرج جماعة عن عمر بن شعيب عن أبيه عن حده قال كان رسول الله ﷺ . . .

(٤) المصدر أخرج أحمد عن خالد بن الوليد أنه قال يا رسول الله ﷺ إني أجد وحشة قال: إذا أخذت مضجعك فقل أعوذ. . . فإنه لا يضرك. .

رسول الله ﷺ وما همزه؟ قال: الموتة التي تأخذ ابن آدم أي الجنون الذي يأخذ أبن آدم، قيل: فما نفثه؟ قال: الشعر، قيل: فما نفخه قال: الكبر[١].

وهكذا تكون همزات الشياطين حيث تجنُّن والجنون فنون تختصرها معصية الله حيث يهز الإنسان هزاً ويأزه أزاً ودفعاً إليها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

ترى وبما ذا تتعلق ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هذه الغائية؟ انها متعلقة بـ «أعوذ - أعوذ» فالاستعاذة من الشيطان هي ما دام هو حي يُشَيطِن ويهمِز، ومتعلقة بما قبلهما ما يصلح تعلقها به، ويجمعه كفر الشياطين ونكرانهم وأقاويلهم، وأن تلك الحالة النكدة دائبة لهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ...﴾.

ثم ومجيء الموت هو واقعه، فهو يقول بعد انقباض روحه وانتقاله عن الحياة الدنيا ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ حيث «إذا حضر الإنسان الوفاة يجمع له كل شيء يمنعه عن الحق فيحول بين عينيه فعند ذلك يقول: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ﴾[٢].

و﴿ٱرْجِعُونِ﴾ هنا حيث تعني الرجوع إلى الحياة الدنيا، دليل قاطع لا مرد له على الحياة بعد الموت، وهي المسماة بالحياة البرزخية كما هي تصريحة الآية ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

ولماذا ﴿ٱرْجِعُونِ﴾ جمعاً والرب واحد كما هو معترف به ﴿رَبِّ﴾ مهما مات مشركاً، حيث الموت يكشف كافة الحجب مهما لم ينفع المحجوب يوم الدنيا؟

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٣: ١١٩ قال الحسن كان عليه السلام يقول...

(٢) الدر المنثور ٥: ١٥ - أخرج الديلمي عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ:...

علّه خطاب لملائكة الموت بعد ندائه الرب: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾(١).

﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ...﴾ وقد يخاطب الربَّ نفسه: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾(٢) ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾(٣).

﴿لَعَلِّىٓ﴾ ترجياً لإصلاح ما فات ﴿أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ من حياة التكليف ﴿صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾(٤) فليس ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ فقط الصالحات المتروكة، حيث الطالحات المفعولة لها دور أخطر، وخطر أكثر، ولا تشملها ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

﴿صَٰلِحًا﴾ هو صالح الفعل وصالح الترك بديلاً عن الطالح فيهما فيما تركت من حياة التكليف، وكما تعنيه - أيضاً - «نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل» حيث تعم عمل الواجبات وترك المحرمات فكلٌّ عملٌ مهما اختلفا سلباً وإيجاباً.

وقد يعني ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ الفرصة التي تركها، والمال والبنين والمنال وكل حال من الأحوال، أم ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ من التكاليف سلبية وإيجابية أما هيه مما ترك.

والجواب كلمة واحدة «كلا» بكل تقريع ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ ليس وراءها واقع لا من قائلها لو أُرجع، ولا من الله حيث لن يرجعه، وكل ما

---

(١) سورة الانفال، الآية: ٥٠.
(٢) سورة السجدة، الآية: ١٢.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٧.
(٤) سورة فاطر، الآية: ٣٧.

في الأمر ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ بعد الموت ﴿بَرْزَخٌ﴾ بين الحياة الأولى والأخرى فهو الحياة الوسطى ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ بأرواحهم وأجسادهم عن أجداثهم.

وَيْ كأن المشهد معروض بنفسه الآن كالعيان، مشهد الاحتضار والانتصار للرجوع، ثم الرد القارع كأنه يسمع الآن ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ لا مدلول وراءها، كلمة تقال في لحظة الضيق، ليس لها في القلب أي رصيد ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[1] ولا من الله أية إجابة إلا عذاب شديد!.

ولماذا «من ورائهم» والبرزخ أمامهم حيث يستقبل الموتى؟ علّ الوراء كناية عن الحيطة البرزخية بهم كما ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[2] إضافة إلى أنهم لا يستقبلون ذلك البرزخ خيرة منهم ولذلك يقولون ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ إذاً فالبرزخ هو الذي يلحقهم كمن يطلب الفارّ من وراءه، وهو لاحقه وهم عنه مدبرون.

وقد يعني البرزخ - فيما عناه من حياة وسطى - الحاجزَ المانع، فهو في هذا البين محجوز عن الرجوع إلى الحياة الدنيا، كما هو محجوز عن البعث إلا في يومه.

وترى ﴿كَلَّآ﴾ تعم كل الموتى؟ فأين الرجعة يومها؟ الراجعون المؤمنون يوم الرجعة لا تشملهم الآية حيث تخص الكافرين وأضرابهم من المجرمين، والراجعون الكافرون هم بعضهم ولا تنفعهم تلك الرجعة بل وتضرهم، ولا تعني «كلّا» عدم الرجوع مطلقاً، وإنما رجوعاً فيه ﴿أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ ثم «كلا» وإن كانت عامة أو مطلقة فهي مخصصة أو مقيدة بمن يرجعون حسب آيات وروايات.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٨.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٧٩.

فالبرزخ البرزخ وما أدراك ما البرزخ؟ «هو أمر بين أمرين وهو الثواب والعقاب بين الدنيا والآخرة، وهو قول الصادق عليه السلام: «والله ما أخاف عليكم إلا البرزخ، وأما إذا صار الأمر إلينا فنحن أولى بكم»[١] و«إن القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار»[٢].

فيا لله إنهم «سلكوا في بطون البرزخ سبيلاً سلطت الأرض عليهم فيه، فأكلت لحومهم وشربت من دمائهم فأصبحوا في فجوات قبورهم جماداً لا ينمون، وضماراً لا يوجدون، لا يفزعهم ورود الأهوال، ولا يحزنهم تنكر الأحوال، ولا يحفلون بالرواجف ولا يأذنون للقواصِف، غُيَّباً لا ينتظرون وشهوداً لا يحضرون، وإنما كانوا جميعاً فتشتتوا وألاَّفاً فافترقوا، وما عن طول عهدهم ولا بعد محلهم، عميت أخبارهم وصمت ديارهم، ولكنهم سقوا كأساً بدَّلتهم بالنطق خرساً، وبالسمع صمماً، وبالحركات سكوناً، فكأنهم في ارتجال الصفة صرعى سبات، جيران لا يتأنسون وأحباء لا يتزاورون، بليت بينهم عرى التعارف، وانقطعت منهم أسباب الإخاء، فكلهم وحيد وهم جميع، وبجانب الهجر وهم أخلاَّء، لا يتعارفون لليل صباحاً ولا لنهار مساء، أي الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمداً، شاهدوا من أخطار دارهم أفظع مما خافوا ورأوا من آياتها أعظم مما قدروا، فكلا

(١) نور الثقلين ٣: ٥٥٣ في تفسير القمي قال قال: البرزخ... وفيه عن الصادق عليه السلام البرزخ هو القبر وهو الثواب والعقاب بين الدنيا والآخرة والدليل على ذلك قول العالم عليه السلام: والله ما نخاف عليكم إلا البرزخ. وفيه عن الكافي عن عمر بن يزيد قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام إني سمعتك وأنت تقول: كل شيعتنا في الجنة على ما كان فيهم؟ قال: صدقتك كلهم والله في الجنة، قال قلت جعلت فداك أن الذنوب كثيرة كبار فقال: أما في القيامة فكلكم في الجنة بشفاعة النبي المطاع أو وصي النبي ولكني والله أتخوف عليكم في البرزخ قلت: وما البرزخ؟ فقال: القبر منذ حين موته إلى يوم القيامة.

(٢) المصدر عنه وقال علي بن الحسين عليه السلام...

الغايتين؟ مدت لهم إلى مباءة، فأتت مبالغ الخوف والرجاء، فلو كانوا ينطقون بها لعيوا بصفة ما شاهدوا وما عاينوا»[١].

وهذه صفتهم في أجسادهم دون أرواحهم بأبدانهم المثالية فإنهم فيها أحياء، «ولو كشف لك لرأيتهم حلقاً حلقاً مجتمعين يتحادثون»[٢] فـ «إن الأرواح في صفة الأجساد في شجرة في الجنة تتعارف وتتساءل»[٣].

إنهم يعيشون في البرزخ «في أبدان كأبدانهم»[٤] «في روضة كهيئة الأجساد في الجنة»[٥]. . . . .

---

(١) المصدر عن نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام . . . .

(٢) نور الثقلين ٣: ٥٥٧ عن الكافي بسند متصل عن حبة العرني قال: خرجت مع أمير المؤمنين عليه السلام إلى الظهر فوقف بواد السلام كأنه مخاطب لأقوام فقمت لقيامه حتى أعييت ثم جلست حتى مللت ثم قمت حتى نالني مثل ما نالني أولاً ثم جلست حتى مللت ثم قمت وجمعت ردائي فقلت يا أمير المؤمنين عليه السلام: إني قد أشفقت عليك من طول القيام فراحة ساعة، ثم طرحت الرداء ليجلس عليه فقال لي: يا حبة إن هو إلا محادثة أو مؤانسة قال قلت يا أمير المؤمنين وإنهم لكذلك؟

قال: نعم ولو كشف. . . فقلت؟ أجسام أم أرواح فقال أرواح وما من مؤمن يموت في بقعة من بقاع الأرض إلا قيل لروحه الحقي بوادي السلام وإنها لبقعة من جنة عدن.

(٣) المصدر عن الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال إن الأرواح. . . فإذا قدمت الروح على الأرواح تقول: دعوها فإنها قد أقبلت من هول عظيم ثم يسألونها ما فعل فلان وما فعل فلان فإن قالت لهم: تركته حياً ارتجوه وإن قالت لهم: قد هلك قالوا قد هوى هوى.

وفي البحار ٦: ٢٣٤ عن المحاسن ابن محبوب عن إبراهيم بن إسحاق الجازي قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أين أرواح المؤمنين؟ فقال: أرواح المؤمنين في حجرات في الجنة يأكلون من طعامها ويشربون من شرابها ويتزاورون فيها ويقولون ربنا أقم لنا الساعة لتنجز لنا ما وعدتنا قال قلت: فأين أرواح الكفار؟ فقال: في حجرات النار يأكلون من طعامها ويشربون من شرابها ويتزاورون فيها ويقولون ربنا لا تقم لنا الساعة لتنجز لنا ما وعدتنا.

(٤) في البحار ٦: ٢٦٨ الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام جواباً عما يروون أن أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر حول العرش فقال: لا - المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصلة طير لكن في أبدان كأبدانهم.

(٥) نور الثقلين ٣: ٥٥٩ ح ١٣٩ عن الصادق عليه السلام رداً على من قال أرواح المؤمنين في =

«في قالب كقالبه في الدنيا[١] والمؤمنون «في قوالب من نور»[٢] فالكافرون في قوالب من ظلمة.

«والروح جسم رقيق قد ألبس قالباً كثيفاً»[٣] ثم يلبس بعد الموت قالباً خفيفاً يتسمى البدن البرزخي، أو الروح المجسم أم الجسم المروَّح وهو الجسم الذي يطير به الروح ويسير في الرؤيا.

= حواصل طيور وفي البحار ٦: ٢٦٩ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الأرواح في صفة الأجساد في شجرة في الجنة تعارف وتسأل..

(١) المصدر عن الكافي عن يونس بن ظبيان قال كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فقال: ما يقول الناس في أرواح المؤمنين؟ فقلت: يقولون تكون في حواصل طيور خضر في قناديل تحت العرش فقال أبو عبد الله عليه السلام سبحان الله المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصلة طير يا يونس إذا كان ذلك أتاه محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلي وفاطمة والحسن والحسين والملائكة المقربون عليهم السلام فإذا قبضه الله عز وجل صير تلك الروح في قالب كقالبه في الدنيا، فيأكلون ويشربون فإذا قدم عليهم القادم عرفوه بتلك الصورة التي كانت في الدنيا أقول والأخبار الدالة على الأجساد المثالية كثيرة ومن مظانها في بحار الأنوار في باب احتجاج أمير المؤمنين على أبي بكر وفي باب غصب الخلافة وفي أبواب المعجزات من أراد تفصيلاً أكثر فليراجعها.

(٢) البحار ٦: ٢٣٧ البرسي في مشارق الأنوار عن الفضل بن شاذان من كتاب صحائف الأبرار أن أمير المؤمنين عليه السلام اضطجع في نجف الكوفة على الحصى فقال قنبر يا مولاي إلا افرش لك ثوبي تحتك؟ فقال: لا إن هي إلا تربة مؤمن أو مزاحمته في مجلسه، فقال الأصبغ بن نباتة أما تربة مؤمن فقد علمنا انها كانت أو ستكون فما معنى مزاحمته في مجلسه؟ فقال: يا بن نباتة أن في هذا الظهر أرواح كل مؤمن ومؤمنة في قوالب من نور على منابر من نور.

(٣) المصدر عن الكافي في حديث الزنديق الذي سأل الصادق عليه السلام عن مسائل إلى أن قال أخبرني عن السراج إذا انطفأ أين يذهب نوره قال: يذهب فلا يعود، قال: فما أنكرت أن يكون الإنسان مثل ذلك إذا مات وفارق الروح البدن لم يرجع إليه أبداً كما لا يرجع ضوء السراج إليه إذا انطفأ؟ قال: لم تصب القياس أن النار في الأجسام كامنة والأجسام قائمة بأعيانها كالحجر والحديد فإذا ضرب أحدهما بالآخر سطعت من بينهما نار تقتبس منها سراج له الضوء فالنار ثابتة في أجسامها والضوء ذاهب والروح جسم رقيق قد البس قالبا كثيفاً ليس بمنزلة السراج الذي ذكرت، أن الذي خلق في الرحم جنيناً من ماء صاف وركب فيه ضروباً مختلفة من عروق وعصب وأسنان وشعر وعظام وغير ذلك هو يحييه بعد موته ويعيده بعد =

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾:

وهذه هي نفخة الإحياء - وقبلها نفخة الإماتة. ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ﴾ إذ لا تنفع الأنساب ولا الأسباب ولا الأحباب إلا نسب الإيمان وسببه ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ هم عن أنسابهم إذ لا تنفع اللهم إلا نسب الرسول ﷺ وصهره وكما يروى عنه ﷺ: إن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي وسببي وصهري»[1] وطبعاً على شريطة الإيمان فيصبح نوراً على نور، «وإن كان النسب مقطوعاً إلا ما وصله الله بالإسلام»[2].

﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣﴾:

= فنائه، قال: فأين الروح؟ قال: في بطن الأرض حيث مصرع البدن إلى وقت البعث، قال: فمن صلب أين روحه؟ قال: في كف الملك الذي قبضها حتى يودعها الأرض، قال: أفيتلاشى الروح بعد خروجه عن قالبه أم هو باق؟ قال: بل هو باق إلى وقت ينفخ في الصور فعند ذلك تبطل الأشياء وتفنى فلا حس ولا محسوس ثم أعيدت الأشياء كما بدأها مدبرها وذلك اربعمائة سنة تسبت فيها الخلق وذلك بين النفختين.

(١) الدر المنثور ٥: ١٥ - أخرج أحمد والطبراني والحاكم والبيهقي في سننه عن المسور بن مخرمة قال قال رسول الله ﷺ: . . . وأخرج البزاز والطبراني والحاكم والبيهقي والضياء في المختارة عن عمر بن الخطاب سمعت رسول الله ﷺ يقول كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي وأخرج ابن عساكر عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري. وفي نور الثقلين ٣: ٥٦٢ عن تفسير القمي حدثني أبي عن حنان بن سدير عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام أن صفية بنت عبد المطلب، مات ابن لها فأقبلت فقال لها عمر: غطي قرطك فإن قرابتك من رسول الله ﷺ لا تنفعك شيئاً، فقالت له: هل رأيت لي قرطاً يا بن اللخناء؟ ثم دخلت على رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك وبكت فخرج رسول الله ﷺ فنادى الصلاة فاجتمع الناس فقال: ما بال أقوام يزعمون أن قرابتي لا تنفع لو قد قمت المقام المحمود لشفعت في خارجكم.

أقول: عجباً لابن الخطاب كيف ينكر ذلك وهو من رواة حديث النسب عن رسول الله ﷺ!

(٢) نور الثقلين ٣: ٥٦٤ في أصول الكافي عن أمير المؤمنين عليه السلام جواب لرسالة طلحة والزبير إليه وفيه: زعمتما أنكما أخواي في الدين وابنا عمي في النسب، فأما السبب فلا أنكره، وإن كان النسب مقطوعاً إلّا ما وصله الله بالإسلام.

والموازين هناك هي موازين الإيمان والعمل الصالح، موازين العلم والمعرفة والنية الصالحة وعلى حد ما يروى عن صادق آل محمد عليهم السلام الموازين هي موازين الإنسانية.

وأما العوان بين أولاء وهؤلاء الذين ثقلت بعض موازينهم وخفت الأخرى، فلا هم مفلحون تماماً، ولا هم خالدون في النار تماماً، وإنما لهم عوان الجزاء ثواباً وعقاباً كعوان الموازين ولا يظلمون فتيلاً.

وكضابطة شاملة ما يروى أن «الحسنات ثقل الميزان والسيئات خفة الميزان» فلا وزن إذاً للسيئات ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾[1] وإنما هو للحسنات.

فيا «أيها الناس إن العربية ليست بأب والد وإنما هو لسان ناطق فمن تكلم به فهو عربي، ألا إنكم ولد آدم وآدم من تراب وأكرمكم عند الله أتقاكم والدليل على ذلك قول الله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بالأعمال الحسنة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ من تلك الأعمال الحسنة ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾[2].

إن نسب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مما يثقل الميزان شريطة الحسنات، وإنها الأصل الأصيل والله لا ينفعك غداً إلا تقدمة تقدمها من عمل صالح[3] إلا

(١) سورة الكهف، الآية: ١٥.

(٢) المصدر عن تفسير القمي قال الصادق عليه السلام: لا يتقدم يوم القيامة أحد إلا بالأعمال والدليل على ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٣) نور الثقلين ٣: ٥٦٣ في كتاب المناقب في مناقب زين العابدين عليه السلام طاوس الفقيه: رأيته يطوف من العشاء إلى السحر ويتعبد فلما لم ير أحداً رمق إلى السماء بطرفه وقال: إلهي غارت نجوم سماواتك، وهجعت عيون أنامك وأبوابك مفتحات للسائلين جئتك لتغفر لي وترحمني وتريني وجه محمد صلى الله عليه وآله وسلم في عرصات القيامة ثم بكى وقال: وعزتك، وجلالك ما أردت =

أن الصالح من نسيب الرسول ﷺ أصلح كما الطالح منه اطلح كما تدل على ذلك آيات من الأحزاب[١].

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥)﴾:

هؤلاء هم أئمة الكفر وقادة الضلالة[٢] كما أن من ثقلت موازينه هم أئمة الإيمان وقادة الهداية.

= بمعصيتي مخالفتك، وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شاك، ولا بنكالك جاهل ولا لعقوبتك متعرض، ولكن سوّلت لي نفسي وأعانني على ذلك سترك المرخى به علي فأنا الآن من عذابك من يستنقذني، وبحبل من اعتصم إن قطعت حبلك عني فواسوأتاه غداً من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخفين جوزوا، وللمثقلين حطوا، أم مع المخفين أجوز، أم مع المثقلين أحط؟ ويلي كلما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب، أما آن لي أن استحي من ربي ثم بكى وأنشأ يقول:

أتحرقني بالنار يا غاية المنى فأين رجائي ثم أين محبتي
أتيت بأعمال قباح رديئة وما في الورى خلق جنى كجنايتي

ثم بكى وقال: سبحانك تعصى كأنك لا ترى وتحلم كأنك لم تعص، تتودد إلى خلقك بحسن الصنيع كأن لك الحاجة إليهم، وأنت يا سيدي الغني عنهم، ثم خر إلى الأرض ساجداً قال: فدنوت منه وشلت رأسه فوضعته على ركبتي وبكيت حتى جرت دموعي على خده فاستوى جالساً وقال: من الذي أشغلني عن ذكر ربي؟ فقلت له: أنا طاوس يا بن رسول الله ﷺ ما هذا الجزع والفزع؟ ونحن يلزمنا أن نفعل مثل هذا ونحن عاصون جافون؟ أبوك الحسين بن علي عليه السلام وأمك فاطمة الزهراء وجدك رسول الله ﷺ قال: فالتفت إلي وقال: هيهات هيهات يا طاوس دع عني حديث أبي وأمي وجدي خلق الله الجنة لمن أطاع وأحسن ولو كان عبداً حبشياً وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولداً قرشياً أما سمعت قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] والله...

(١) وهي: يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن...

(٢) نور الثقلين ٣: ٥٦٥ في الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يذكر فيه أحوال القيامة وفيه: ومنهم أئمة الكفر وقادة الضلالة فأولئك لا يقيم لهم يوم القيامة وزناً ولا يعبأ بهم لأنهم لم تعبؤوا بأمره ونهيه فهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون.

واللفح هو شديد النفخ السامّ، والكُلوح هو تقلُّص الشفتين عن الأسنان حتى تبدو، فقد يصيب وجوههم لهب النار بنفتحها لحد تتقلَّص شفاههم وتبدو أسنانهم كالرؤوس المقشرة المشوية، «مفتوحي الفم، متربدي الوجوه[١] تلفحهم لفحة فتسيل لحومهم على أعصابهم»[٢] فيقال لهم قولة قارعة ضارعة ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ تلاوة البيان من كتاب الشرعة التدوين، وتلاوة العيان من كتاب الآفاق التكوين ﴿فَكُنتُم﴾ على طول خطوطها وبكل خيوطها ﴿بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في قال وحال وفعال على أية حال.

وهنا الاعتراف الصارخ القارح، اعتذاراً بغلَب الشقوة علَّه يخفف عن وطأة العذاب، وكما كان الاعتراف بالذنب من شروطات استجابة الدعوة يوم الدنيا:

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾:

ما كنا غالبين إذ كذبنا بآياتك بل كنا مغلوبين تحت وطأة الشقوة والضلالة، ولكن من أين جاءت الشقوة وحلت الضِلالة إلا من أنفسكم تخيراً لها وتسيُّراً فهم «بأعمالهم شقوا»[٣] فقد كان غلباً مختاراً لا يعذركم فيما كذبتم، ولكنهم على زعمهم القاحل يتطلبون الرجعة إلى حياة التكليف:

---

(١) نور الثقلين، ٣: ٥٦٦ في تفسير القمي في الآية قال: تلهب عليهم فتحرقهم «وهم فيها طالحون» أي..

(٢) الدر المنثور ٥: ١٦ - أخرج ابن مردويه والضياء في صفة النار عن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ في قوله: تلفح وجوههم النار قال:.. و فيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقتهم بعنق فلفحتهم لفحة فلم تدع لحماً على عظم إلا ألقته على العرقوب، وفيه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في الآية قال: تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته.

(٣) نور الثقلين ٣: ٥٦٦ في كتاب التوحيد بإسناده إلى علي بن أبي حمزة عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: بأعمالهم شقوا وفيه عن كتاب الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يذكر فيه أحوال المحشر يقول فيه وقد ذكر النبي ﷺ: =

﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧﴾:

وعل ذلك آخر المطاف في سؤالهم المستجدي لعله يجدي وكما يروى عن النبي ﷺ . . . فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧﴾ فيجيبهم: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ. . .﴾[1] [2] وقد تعني ﴿عُدۡنَا﴾ عوداً إلى التكذيب وعوداً إلى حياة الحساب بنفس الحالة، وعوداً إلى الجحيم بنفس التصميم.

وي كأنهم لم يكونوا من قبل ظالمين في غَلَب الشقوة والضلالة، وإن الله أدخلهم النار دون ظلم منهم! ولذلك الهُراء القاحل، والاعتذار الجاهل يستحقون خطاب الكلاب:

﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾:

﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾ خسأ الكلاب - وهم أضل سبيلاً من الكلاب - ﴿وَلَا

= ويشهد على منافقي قومه وأمته وكفارهم بإلحادهم وعنادهم ونقضهم عهوده وتغييرهم سنته واعتدائهم على أهل بيته وانقلابهم على أعقابهم وارتدادهم على أدبارهم واحتذائهم في ذلك سنة من تقدمهم من الأمم الظالمة الخائنة لأنبيائها فيقولون بأجمعهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾ [المومنون: ١٠٦].

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٨.

(٢) الدر المنثور ٥ : ١٦ - أخرج ابن أبي شيبة والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ : يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثوا بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع، فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصة فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بالشراب، فيستغيثون بالشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد فإذا دنا من وجوههم شوت وجوههم وإذا دخلت بطونهم قطعت ما في بطونهم فيقولون ادعوا خزنة جهنم فيدعون خزنة جهنم أن ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب فيقولون: أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات؟ قالوا: بلى قال: فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال فيقولون: ادعوا مالكاً فيدعون مالكاً فيقولون: يا مالك ليقض علينا ربك فيجيبهم انكم ماكثون فيقولون ادعوا ربكم. . .

﴿تُكَلِّمُونِ﴾ فذلك إذاً آخر المجال لكلامهم المستغيث فيظلون خرساً لا يكلّمون، اللهم إلا مع بعضهم البعض متلاومين.

ولأن الخسأ هو زجر الكلب مستهيناً به، ولا يُخسأ إلا الكلب الهراش الضاري، كذلك هم يخسؤون بكذبهم فيها وما كانوا يكذبون(١).

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾:

هم كانوا يستغفرونني بسناد الإيمان يوماً فيه مناص، وأنتم تستغفرونني بسناد الشقوة والضلالة زعم العاذرة فيها ولات حين مناص إذ قد مضى يوم خلاص.

وأنتم اتخذتموهم سخرياً ساخرين الله ورسوله وأهل الإيمان ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ وهنا ينسب الإنساء إلى المؤمنين إذ لولاهم لما كانت سخرية ولا نسيان ذكر، فهم من أسباب نسيان الذكر دون تقصير، وهم بشقوتهم وضلالهم سخروا منهم عامدين بكل تقصير، فنسوا بذلك ذكر الله، وأصبحت قلوبهم قاحلة عن ذكره إلى مليء من ذكر الشيطان، وذلك كمثل قوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾(٢).

﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾ على ما كنتم منهم تسخرون وعليهم تضحكون، دون تزعزع من إيمانهم ولا تلكع فيما يعملون، ﴿جَزَيْتُهُمُ... أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ ففوزهم اليوم ككل هو جزاؤهم بما صبروا.

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٧ - أخرج ابن أبي الدنيا في صفة النار عن حذيفة أن النبي ﷺ قال: إن الله إذا قال لأهل النار: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المومنون: ١٠٨] عادت وجوههم قطعة لحم ليس فيها أفواه ولا مناخير تردد النفس في أجوافهم.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠.

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢﴾:

وترى كيف تتناسب ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ وذلك السؤال حيث يتطلب كلاماً في الجواب؟ علّه يعني لا تكلمون دون إذن أو أمر: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾(١).

هذا، ولأن الكلام الممنوع هو المرجو منه الفائدة، وأما الكلام العذاب فهو عذاب فوق العذاب.

وهذا السؤال تقريع لهم وتبكيت تثبيتاً لإجرامهم القاصد على فسحة من زمن التكليف: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ورغم أن السؤال يؤكد لبث سنين، هم يحولونها إلى يوم أو بعض يوم:

﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ الْعَادِّينَ ۝١١٣﴾:

وعلهم هكذا يجنّنون في الجواب لعظيم الهول المرهف الذي أنساهم عدد مكثهم، فيحولون الجواب إلى العادين الذين هم في ذكر من عدد السنين إلى يوم الدين.

﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١٤﴾:

وطبعاً ﴿قَلِيلًا﴾ بجنب الآخرة لا لأداء التكليف، وهم طول هذا القليل في غفلة الشهوة وشهوة الغفلة دون أن يقدموا لأنفسهم.

و«في الأرض» هنا كما في البعض مما سواها تقصد الحياة الأرضية دنيوية وبرزخية، وكما أجابهم الله في أخرى ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ﴾(٢) وحقاً إن زمن اللبثين قليل بجنب الآخرة لأمور عدة ذكرناها في طه وسواها.

---

(١) سورة هود، الآية: ١٠٥.

(٢) سورة الروم، الآية: ٥٦.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾:

فحيث لا بعث ولا رجوع إلى الله للحساب والجزاء فالخلق - إذاً - عَبَث عبث الظلم، فإن خلق الخلق دون فصل القضاء ظلم، وعبث اللاغاية الصالحة - حيث الحياة الدنيا بنفسها - بهذه الظلامات والحرمانات - ليست غاية صالحة، والرجوع إلى الله يجعل الخلق صالحاً ذا غاية صالحة، فالخلق دون بعث عَبْث، سبحانه وتعالى عما يصفون.

ويا لها من آية تقريع على الغافلين المتجاهلين وقد قال رسول الهدى ﷺ: «والذي نفسي بيده لو أن رجلاً موقناً قرأها على جبل لزال»[1].

ويقول جعفر بن محمد الصادق في جواب من سأله:

لِمَ خلق الله الخلق؟ إن الله تبارك وتعالى لم يخلق الخلق عبثاً ولم يتركهم سدىً، بل خلقهم لإظهار قدرته، وليكلفهم طاعته، فيستوجبوا بذلك رضوانه، وما خلقهم ليجلب منهم منفعة ولا ليدفع بهم مضرة، بل خلقهم لينفعهم ويوصلهم إلى نعيم»[2].

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾:

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ - ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ - ﴿ٱلْحَقُّ﴾ عن العبث بالخلق، وعن أن يكون له شريك في الملك أو ولي من الذل، أو أن يترك خلقه سدى دون هدى

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٧ - أخرج جماعة عن ابن مسعود أنه قرأ في أذن مصاب، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ حتى ختم السورة فبرىء فقال رسول الله ﷺ فإذا قرأت في أذنه فأخبره فقال...

(٢) وفيه أخرج ابن السني وابن منده وأبو نعيم في المعرفة بسند حسن من طريق محمد بن إبراهيم ابن الحارث التيمي عن أبيه قال بعثنا رسول الله ﷺ في سرية وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ فقرأناها فغنمنا وسلمنا.

(٣) نور الثقلين ٣: ٥٦٦ في علل الشرائع بإسناده إلى جعفر بن محمد بن عمارة عن أبيه قال: سألت الصادق جعفر بن محمد عليه السلام فقلت له:....

بالوحي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ﴾ عرش الربوبية والتدبير، في التكوين والتشريع ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ عرش لا تضيُّق فيه، بل هو كريم واسع الرحمة.

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾:

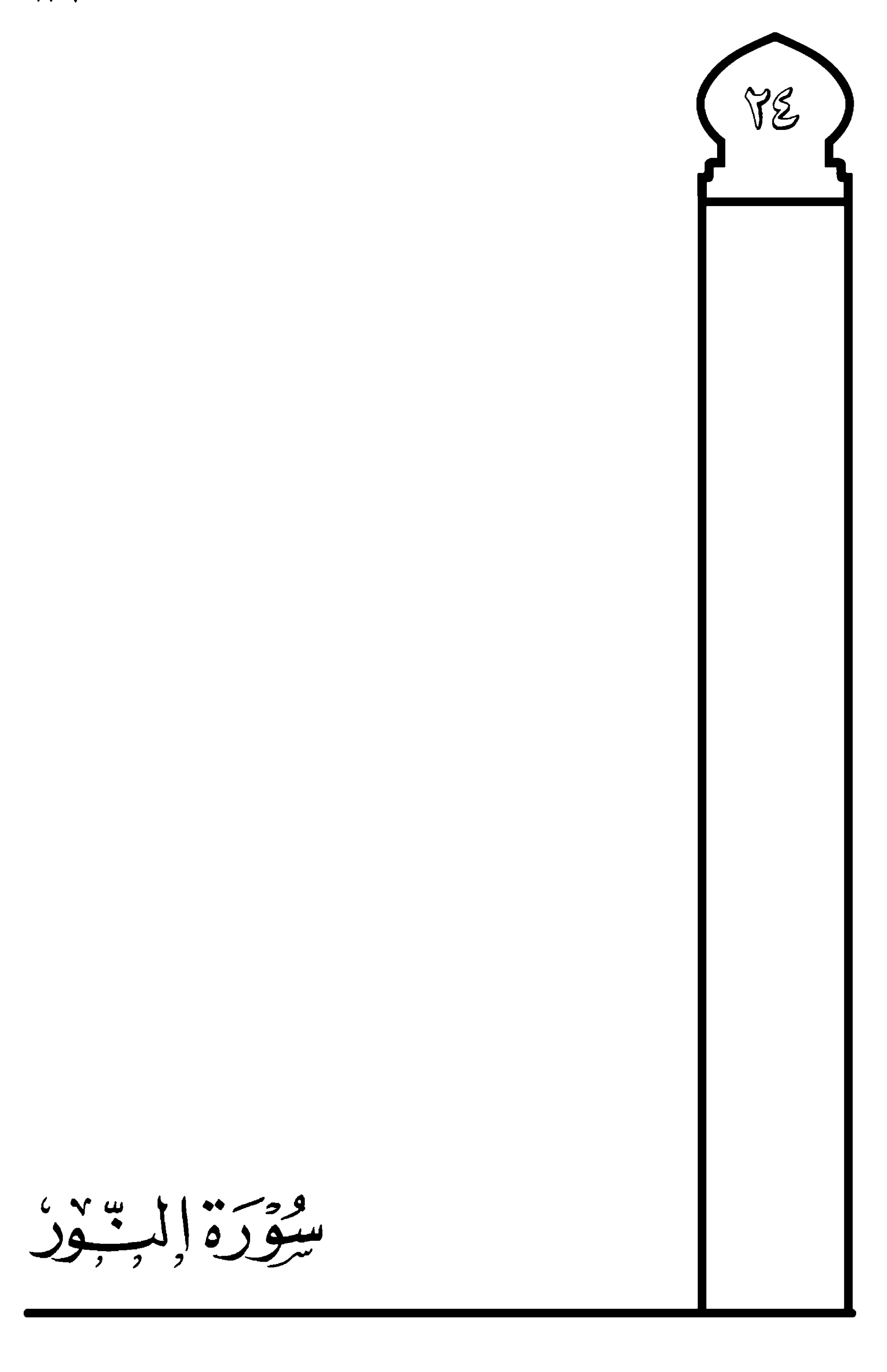
﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ قد تكون جزاء الشرط نكراناً لأي برهان على إله آخر، أم وصفاً لـ ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ مماشاة، أن لو كان هنالك برهان له لكان مقبولاً، أم قيداً توضيحياً حيث الإله الآخر لا برهان له، فهذه الدعوة والدعوى الباطلة دون أي برهان ولا إمكانه هو من أضل الضلال وأظلم الظلم ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ يوم القيامة الكبرى ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لا برهاناً ولا واقعاً متخلفاً عن برهان، لا في الأولى ولا الأخرى، مهما أرعدوا وأبرقوا في هذه الأدنى، إذاً فكل دعوى دون أي برهان فيه حساب عند الله دون أي إفلاح لصاحبها، فذلك محرّم شرعياً كما هو محرم عقلياً وفطرياً، حيث الإنسان العاقل والمتشرع هو ابن البرهان جملة وتفصيلاً، وفيما يجب عليه التقليد لعجز عن الاجتهاد، فلا يجوز التقليد - كما الاجتهاد - دون أي برهان.

ويا لها من سورة بدايتها تبشير للمؤمنين ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ومن نهايتها إنذار الكافرين ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ثم ختامها الاستغفار والاسترحام للمؤمنين:

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾:

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ﴾ لي عما يهاجمني من دوائر السوء التي تعرقل دون رسالتي ﴿وَٱرْحَمْ﴾ ني في هذه السبيل الشائكة المليئة بالأشلاء والدماء.

ثم ﴿ٱغْفِرْ﴾ للمؤمنين عما تعرضهم من خطايا أو تعترضهم ﴿وَٱرْحَمْ﴾ المؤمنين ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فالغفر من مصاديق الرحمة الرحيمية، فخير الراحمين هو خير الغافرين.


٢٤
سُورَةُ النُّورْ



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

سورة هي ثورة على الهمجيات واللاأخلاقيات، وهي تحمل صورة لائقة لابقة بالإنسان في خلقه، في تفكيره وتعبيره وتقريره، فيما يعتقده ويتوجّب عليه أو يحرم من أعمال وأقوال.

إنها «سورة النور» في بعدين: إذ تحمل آية النور، وهي الأصل في تسميتها بالنور، كما وتحمل في آيها كلها نوراً تضيء للإنسان مسالك الحياة وتنير عليه دروب الفضائل والفواضل، فالمحور الذي تدور عليه السورة محور التربية للضمائر واستجاشة المشاعر، ورفع المقاييس الأخلاقية الحيوية، لكي تشفّ وترفّ وتتصل بنور الله، فكما الله نور السماوات والأرض فليكن الإنسان نوراً في السماوات والأرض وأين نور من نور؟

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾:

مطلع منقطع النظير في القرآن كله تتقدم فيها ﴿سُورَةٌ﴾ ليست في سائر القرآن وهو سور كله، ثم ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ وهي فرض على فرض، حيث القرآن كله فرض، وهذه السورة تزيد فرضاً يخصصها، لأنها تحافظ على شرف الإنسانية ونواميسها التي هي لزام كيانها وتداومها سليمة صالحة.

ومهما كان لقسم من سور القرآن صورة التنزيل كغير سورة التأليف إذ ألفت بعد التنزيل، فهذه من التي سورتها كصورتها في التنزيل(١) وإلا فكيف هي ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾.

وقد «تشير» أنزلناها في مضيها إلى سابق نزولها على جبريل وها هي صورة السورة تنزل على الرسول في تفصيل مهما نزلت عليه ليلة القدر دون تفصيل كسائر القرآن.

ثم ﴿سُورَةٌ﴾ لغوياً من سور المدنية: حائطها المشتمل عليها، فسورة من القرآن هي جملة مستقلة مرتبطة آيها ببعض، كمدينة من مدن العلم القرآني، فإنه مملكة ثقافية تربوية تشتمل على مائة وأربعة عشر مدينة: من الحمد الفاتحة، إلى الناس الخاتمة، حيث تتبنى تكملة الناس بإسكانهم في مدنها الزاهرة الباهرة، فاتحة بحمد الله رب العالمين بعد البسملة، ناحية منحى تربية الناس كما تختم إلى الناس.

وقد تشير «أنزلناها» دون «نزلناها» إلى نزولها كحالها الآن، دون تنزّلها نجوماً متفرقة، فهي كمثل الفاتحة والناس وأضرابهما من التي تأليفها كتنزيلها سواء!

---

(١) تذكر «سورة» في ثمانية مواضيع دون تعيين لها إلّا هنا ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٢٣] ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم﴾ [التوبَة: ٦٤] و٩: ٨٦ و١٢٤ و١٢٧ و١٠: ٣٨ و٤٧: ٢٠ وسور في ١١: ١٣ فهذه تسع.

ولأن «سورة» نكرة لا يبتدأ بها، فهي إذاً خبر لـ «هذه» المقدرة قبلها، أم لـ ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي . . .﴾ المذكورة بعدها، فواقع السورة مبتدأ لـ «سورة» وهما محتملان على سواء، وعلّهما معنيان سواء، وهذه السورة كلها مفروضة: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ و﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ قد تعني أن ليست فيها متشابهات إذ لا تشابه في آيات الأحكام، ثم وسائر الآيات فيها أيضاً محكمات إلا شذراً كآية النور ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما يتوجب عليكم ويحرم في شرعة الله.

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾:

حكم ثان على الزانية ينسخ الحكم الأول في النساء: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾[(١)] وقد جعل لهن سبيلاً هنا في النور[(٢)] نهائياً، بعد سبيلهن في النساء مؤقتاً بدائياً، مما يدل على تقدم النساء على النور، وأن حكم الزّناة تدريجي تصاعدي كما هو طبيعة

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥.

(٢) نور الثقلين ٣: ٥٦٨ ح ٥ في أصول الكافي عن أبي جعفر عليه السلام حديث طويل يقول فيه: وسورة النور أنزلت بعد سورة النساء وتصديق ذلك أن الله عز وجل أنزل عليه في سورة النساء ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النّساء: ١٥] والسبيل الذي قال الله عز وجل : ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ [النّور: ١] ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ . . .﴾ [النّور: ٢].

وفي الوسائل ١٨ : ٣٥١ ح ١١ علي بن الحسين المرتضى في رسالة المحكم والمتشابه نقلاً من تفسير النعماني بإسناده الآتي عن إسماعيل بن جابر عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين في حديث الناسخ والمنسوخ قال: كان من شريعتهم في الجاهلية أن المرأة إذا زنت حبست في بيت وأقيم بأودها حتى يأتيها الموت وإذا زنى الرجل نفوه عن مجالسهم وشتموه وآذوه وعيّروه ولم يكونوا يعرفون غير هذا قال الله في أول الإسلام: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ . . .﴾ [النّساء: ١٥] فلما كثر المسلمون وقوي الإسلام واستوحشوا أمور الجاهلية أنزل الله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ . . .﴾ [النّور: ٢] فنسخت هذه آية الحبس والأذى، ورواه علي بن إبراهيم في تفسيره مرسلاً نحوه.

الحال في جملة من الأحكام - دون جملتها - الأحكام التي فيها صعوبات ولا بد لتحملها من تدرجات وتدربات كالحد في شرب الخمر وأمثاله، وكالفرض في الصلاة وأمثالها.

أترى الرجال الزانون ما كان عليهم حد في البداية، وقد كان على الزناة حيث آيته الأولى تخصهن؟ أجل ولكنه أجمل حدّها فيهم كما في الزناة في التي تليها: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾[١].

وهل أن حدّ الزانية - وهي أضعف - يكون أقوى من الزاني وهو أقوى؟

ثم ونسبة الزنا إليه أقوى منها لأنه هو الذي يتطلبها ليفعل فيها، فهو - إذاً - أغوى، وليست هي التي تطلبه وإن كانا فاعلين باختيار؟ فكيف جمع إلى إيذائها تخليدها في بيت دونه!.

ليس تخليدها في بيت إلّا حفاظاً عليها ولكي تنقطع عن الذين يريدونها ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾: إلى الخروج، من توبة فلا إمساك بعدها، ولا حدّ على شروطها، ومن حدّ آخر بعد إمساكها وإيذائها إن لم تتب أم تابت بغير شروطها[٢] والزاني يشارك الزانية في «فآذوهما» وكما في سائر الحد ﴿فَٱجۡلِدُواْ...﴾ وإيذائها من حدهما قبل حدهما، وأما إمساكها فهو سياج عليها منعةً عن تكرار الفاحشة منها ﴿يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾.

ثم وآية النساء لا تعني في الإمساك والإيذاء خصوص فاحشة الزنى، فـ «يأتيانها» تعني إتيان الفاحشة، في زنا أو لواط أم مساحقة، حيث هي فاحشة كلها، وإيذاؤهما يختلف في هذه الثلاث وقد بين في السنة.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦.

(٢) كما إذا تابت بعد القبض عليها والإشهاد فإنها لا تدرأ الحد.

والفاحشة في «يأتيانها» وإن كانت لا تشمل اللواط، ولكنها هنا اعتباراً بجمعهما تشمله حيث الرجل يأتيه».

ففعل الرجل في رجل لواط، وفي المرأة قبلاً أو دبراً دون محلل زنا أو محرم آخر[١] وفعل المرأة في المرأة مساحقة، وكل ذلك فاحشة فـ ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ فاحشتهن أعم من الزنا والمساحقة، ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ﴾ أعم من ذكرين لواطاً[٢] وأنثيين مساحقة، ومن ذكر وأنثى زنا «فآذوهما» تأديب مجمل تفصيله ككل في السنة، وبالنسبة للزنا نجده هنا في النور: ﴿فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾.

وترى من هما ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾؟ هل هما من شغله الزنا، الشهيرة بها؟ وفاعل الزنا يتصف بها وإن كانت مرة! أم من زنى أو زنت أياً كان وكانت، بإكراه أو اختيار؟ على علم بموضوع الحرمة وحكمها أم جهل؟ مكلفاً أم مجنوناً أو قاصراً؟

إن الإكراه والجنون والقصور وعدم العلم تستثنى من حكم الزنا أو موضوعها، حيث ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ تعنيان فاعلها باختيار، والمكره ليس فاعلاً، والقاصر قاصر عنه قلم التكليف مجنوناً أم سواه، والجاهل ليس عامداً ولذلك تدرأ الحدود بالشبهات، وكل ذلك ثابت بالكتاب أو السنة أو بهما.

ولماذا تتقدم الزانية هنا على الزاني وهو أقوى في طلبها؟ عله لأن الزنا من المرأة أقبح وأنكى وإن كان حدهما على سواء!

---

(١) كوطئها حالة الحيض أو الإحرام أو الصيام، أم بنكاح محرم صحيح كنكاح بنت أخت الزوجة دون إذنها، ونكاح العزباء دون إذن وليها وأمثال ذلك.

(٢) وقد يطلق على اللواط اسم الزنا كما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان، كما المساحقة أيضاً زناً فيما يروى «إذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان» (تفسير الفخر الرازي ٢٣: ١٣٢ - ١٣٣) أقول: اختلاف الحدود في هذه الثلاث وكذلك اختلاف الأسماء دليل على أن المراد هنا وهناك كبر الإثم مهما كان في اللواط أكبر.

ثم الزنا الثابت فيها الحد أياً كان من جلد أو رجم ليس إلا ما ثبتت بأربعة منكم أو الإقرار أربع مرات على شروطهما، إذاً فهي الزنا الفاحشة التي لا يأتيها إلا متهتك ستر الحياء في ملإٍ الناس لحد يرى فعلهما بين من يرى شهود أربعة! ولذلك ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هتكاً لهما كما هتكا شرف الإنسانية وناموسها بين المؤمنين!

إذاً فحد الزنا ليس لمجرد الزنا، بل وبإتيانها في الملأ لحد يراهما فيمن يرى شهوداً أربعة، وأما الإقرار فلا موجب له شرعياً ولا عقلياً أو عرفياً ما دامت التوبة كفارة عما فعل، وكما قال الله ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾!

لذلك ترى التشكيك والتمهل من الرسول ﷺ وعترته عليهم السلام في المقرّ بالزنا دون الشهود عليه[1] وأن الاستشهاد فرض أحياناً كما إذا رمى دون

(١) الروض النضير ٤ : ٤٦٨ حدثني زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام أن رجلاً من أسلم جاء إلى النبي ﷺ فشهد على نفسه بالزنا فرده النبي ﷺ أربع مرات فلما جاء الخامسة قال له النبي ﷺ : أتدري ما الزنا؟ قال: نعم أتيتها حراماً حتى غاب ذلك مني في ذاك منها كما يغيب المرود في المكحلة والرث في البئر فأمر النبي ﷺ برجمه فلما أذلقته الحجارة فر فلقيه رجل بلحى جمل فرجمه فقتله فقال النبي ﷺ : «ألا تركتموه» ثم صلى عليه فقال رجل: يا رسول الله ﷺ رجمته ثم تصلي عليه؟ فقال له النبي ﷺ : إن الرجم يطهر ذنوبه ويكفرها كما يطهر أحدكم ثوبه من دنسه والذي نفسي بيده إنه الساعة لفي أنهار الجنة يتغمص فيها».

قال في التخريج: حديث ماعز الأسلمي هنا قد أخرجه أهل الحديث من طرق عن أبي سعيد الخدري وبريدة وأبي هريرة وابن عباس وجابر بن عبد الله ونعيم بن هزال الأسلمي.

أقول: وقد يختلف النقل في هذه الطرق على اتفاق في أصل القصة ففي الصحيحين فاعترف بالزنا فأعرض عنه النبي ﷺ حتى شهد على نفسه أربع مرات فقال ﷺ : أبك جنون؟ قال: لا قال ﷺ : أحصنت؟ قال: نعم فأمر به فرجم في المصلى.

وفيه في حديث عبد الله بن بردة عن أبيه في آخر قصة ماعز: فجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله! إني زنيت فطهرني وإنه ردها فلما كان الغد قالت: يا رسول الله! أتردني؟ لعلك تريد أن تردني كما رددت ماعز بن مالك فوالله إني لحبلى قال ﷺ لها: فاذهبي حتى تلدي فلما =

شهود، ولا يجوز أخذ الإقرار بتهديد وإيذاء وإصرار، فـ «لا حد على معترف بعد بلاء»[1]: ولا يجب الإقرار حيث التوبة دارئة عذاب الدنيا والآخرة، والتوبة قبل الشهادة والإقرار على شروطها مقبولة، ولكن الشهادة خارجة عن الإختيار، فقد لا يتوب قبلها على غفلة، ولكنما الإقرار في مطلق الاختيار فله التوبة ولا يستغفل أو يفاجأ.

ولماذا لم يكن المقرّون يُمنعون عن الإقرار توجيها إلى التوبة بدلاً عنه؟ لأنه ممانعة عن تحقيق حدود الله، ولقد بُيِّن كتاباً وسنة أن التوبة دارئة، فإذا اختار الإقرار فلا سبيل إلا التشكيك، وأما أن يحكم عليه حكماً باتاً بالمنع عن الإقرار فلا، وإنما الاختيار بينه وبين التوبة، وعلّهم كانوا يختارون

= ولدت أتته بالصبي في خرقة فقالت: هذا ولدته قال ﷺ: اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه فلما فطمته أتته بالصبي وفي يده كسرة خبز قالت هذا يا رسول الله قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها.
أقول: هذه مراجعة ثلاث مرات ففيها إقرارات ثلاثة وعلّ الرابعة في واحدة من هذه فلا تنافي حديث ماعز، ويدل عليه من طريق عبد الرزاق أخبرنا الثوري عن علقمة بن مرثد الحضرمي عن سليمان بن بريدة أن امرأة أتت النبي ﷺ اعترفت بالزنا فردها أربع مرات فقالت له في الرابعة: يا رسول الله أتريد أن تردني كما رددت ماعز فأخرها حتى وضعت... فإنه إقرار أكثر من أربع مرات وعل في الرابعة قال ﷺ لها: فاذهبي حتى تلدي.

(١) الروض النضير ٤: ٤٨٥ حدثني زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام قال: لما كان في ولاية عمر أتي بامرأة حامل فسألها عمر فاعترفت بالفجور فأمر بها عمر أن ترجم فلقيها علي عليه السلام فقال: ما بال هذه؟ فقالوا: أمر بها أمير المؤمنين عمر أن ترجم، فردها علي عليه السلام فقال: أمرت بها أن ترجم؟ فقال: نعم اعترفت بالفجور فقال علي عليه السلام: هذا سلطانك عليها فما سلطانك على ما في بطنها؟ قال: ما علمت أنها حبلى قال علي عليه السلام: إن لم تعلم فاستبرئ رحمها ثم قال علي عليه السلام فلعلك انتهرتها أو أخفتها؟ قال: قد كان ذلك، فقال: أوما سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا حدّ على معترف بعد بلاء أنه من قيدت أو حبست أو تهددت فلا إقرار له، فلعلها إنما اعترفت لوعيدك إياها فسألها عمر فقالت: ما اعترفت إلا خوفاً قال: فخلى عمر سبيلها ثم قال: عجزت النساء أن يلدن مثل علي بن أبي طالب، لولا علي لهلك عمر! قال: وفي الأمالي حدثنا علي بن حسن عن حماد بن عيسى عن جعفر عن أبيه قال: لا يجوز على رجل حدٌّ بإقرار على تخويف ضرب ولا سجن ولا قيد.

الإقرار لأنه أدرأ من العذاب وكما يلوح من أحاديث عدة، وفي حديث رسول الله ﷺ لمقرة بالزنا «استتري بستر الله» ولمقر: «ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه»![1].

وذلك في مراجعات، مما يدل على عدم وجوب أو رجاحة الإقرار، اللهم إلا سماحاً لدرء العذاب في الآخرة دون ريب.

والحد المفروض في الزنا كضابطة مرسلة هي مائة جلدة كأصل في سائر مواردها إلّا ما يستثنى بكتاب أو سنة ثابتة، ما يزيد عليها أو ينقص، اللهم إلا ما يخالف الكتاب فكلا! وآية الحد هذه ليست نصاً في الإطلاق كآية ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾[2] حتى لا تقبل تقييداً، فإنما هي ظاهرة في الإطلاق أم وبأحرى مهملة، إذ نعلم بيقين أن الحدود في مختلف الزانين والزناة مختلفة، فهي كآية البيع والربا ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[3] تُقيد بدليل قاطع أو مقبول.

ومما يزيد عليها، الرجم في محصن ومحصنة، وهل يجمع بين الجلد

---

(١) المصدر ٤٧١ - أخرج أبو داود والنسائي واللفظ له بإسناد فيه مجهول من حديث أبي بكرة عن أبيه قال: شهدت النبي ﷺ وهو واقف على بغلته فجاءته امرأة حبلى فقالت: إنها قد بغت فارجمها فقال لها النبي ﷺ: استتري بستر الله، فذهبت ثم رجعت إليه وهو واقف على بغلته فقال ارجمها فقال لها ﷺ: استتري بستر الله - فرجعت ثم جاءت الثالثة وهو واقف على بغلته فأخذت باللجام فقالت: أنشدك الله إلا رجمتها، قال ﷺ: انطلقي حتى تلدي فانطلقت فولدت غلاماً فجاءت به النبي ﷺ فكفله النبي ﷺ ثم قال: انطلقي فتطهري من الدم فانطلقت فتطهرت من الدم ثم جاءت فبعث النبي ﷺ إلى نسوة فأمرهن أن يستبرئنها وأن ينظرن أطهرت من الدم فجئن فشهدن عند النبي ﷺ بطهرها فأمر عليه السلام بحفرها إلى ثندوتها ثم أقبل هو والمسلمون فقال بيده فأخذ حصاة كأنها حمصة فرماها ثم قال للمسلمين: ارموها وإياكم ووجهها فرموها حتى طفئت فأمر بإخراجها حتى صلى عليها، وفي بعض روايات الحديث «ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه».

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٧٥.

والرجم في موارده؟ أم فيه تفصيل؟ أم لا يجمع إطلاقاً؟ فيه خلاف فتوى ونصاً! والثابت بمقطوع السنة هو الرجم في الإحصان أياً كان، وفي الجمع بينه وبين الجلد تردد أشبهه عدمه إذ لا يجمع بين حدين في جريمة واحدة[١] وأن السنة المقبولة قيدت آية الحد ﴿مِأْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ بغير المحصن والمحصنة.

---

(١) في الوسائل ١٨ : ٣٤٦ ح ١ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الرجم حد الله الأكبر والجلد حد الله الأصغر فإذا زنى الرجل المحصن رجم ولم يجلد، ورواه الشيخ بإسناده عن الحسين بن سعيد وح ٣ عن أبي جعفر عليه السلام قال: قضى أمير المؤمنين عليه السلام للمحصن الرجم... وح ٣ عن أبي عبد الله عليه السلام ... فأما المحصن والمحصنة فعليهما الرجم وح ٥ ابن العباس عنه عليه السلام قال: رجم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يجلد وذكروا أن علياً عليه السلام رجم بالكوفة وجلد فأنكر ذلك أبو عبد الله عليه السلام وقال: ما نعرف هذا - أي لم يحد رجلاً حدين: جلد ورجم في ذنب واحد، ومن طريق إخواننا قصة العسيف فإنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: يا أنيس اغد إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها وكذلك قصة ماعز حيث رجمه صلى الله عليه وآله وسلم ولم ينقل جلده، وقصة الغامدية حين أقرت بالزنا فرجمها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن وضعت ولم ينقل جلدها.

وأما الروايات الجامعة بين الرجم والجلد فمنها ما يروى عنه صلى الله عليه وآله وسلم البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة، وما رواه أبو بكر الرازي في أحكام القرآن عن ابن جريح. عن ابن الزبير عن جابر «أن رجلاً زنى بامرأة فأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فجلد ثم أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان محصناً فأمر به فرجم، وما روي أن علياً عليه السلام جلد شراحة الهمدانية ثم رجمها وقال: جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

أقول: فيما يروى عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام تناقض ولا دلالة في رواية جابر حيث لم يخبر صلى الله عليه وآله وسلم أولاً بالرجم حتى يكون جمعاً بالرجم وإنما أخبر أولاً بأصل الزنا وحكمها في الأصل الجلد، ثم أخبر أنها كانت محصنة فأمر برجمها، ثم إنه بعيد عن ساحة الرسالة أنه لم يتحقق عن كيفية الزنا، وأما المروي عن علي عليه السلام فالتعليل فيه عليل حيث لا محادة بين الكتاب والسنة، وإنما للسنة تخصيص الكتاب وقد خصصت آية الجلد بالرجم في الإحصان، وهذا يشبه كلام إخواننا في غسل الرجلين أنه جمع بين الكتاب الآمر بالمسح والسنة الآمرة بالغسل!

وأما من طريق أصحابنا ففي الوسائل ١٨ : ٣٤٨ ح ٨ عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام في المحصن والمحصنة جلد مائة ثم الرجم ورواه مثله زرارة عنه عليه السلام ح ١٤ وتعارضه الرواية الأخرى عنه الماضية في قضاء، أمير المؤمنين وح ١٥ عن الفضيل قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: من أقر على نفسه عند الإمام - إلى أن قال -: إلا الزاني المحصن فإنه لا يرجمه إلا أن يشهد عليه أربعة شهداء فإذا شهدوا ضربه الحد مائة جلدة ثم رجمه، وتعارضها =

ومنه التغريب في موارد الجلد، فهل يغرّب المرجوم زانيا أم زانية؟ أم الزاني فقط دون الزانية؟ أم فيه تفصيل؟ أم لا تغريب مع الجلد؟ فيه خلاف نصاً[(١)] وفتوى! أشبهه عدم التغريب ولا سيما في الزانية إذ في تغريبها تقريبها وتعريضها للزنا.

ومنه القتل كذمي يزني بمسلمة فحده القتل إطلاقاً وكذلك الزنا بالمحارم.

وأقل منه الخمسون وهو للرق لقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ

= الروايات ١ - ٣ - ٥ عنه عليه السلام وأقل ما هنا تساقط الطائفة الأولى والثانية بالتعارض والمرجع كتاب الله المقرر الجلد لمطلق الزنا والسنة القطيعة المقررة في الإحصان الرجم.

وهنا روايات ثالثة تخص الجمع بين الحدين بالشيخ والشيخة في إحصان مثل ح ٩ عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: في الشيخ والشيخة جلد مائة والرجم وح ١١ وعن عبد الله بن طلحة عن أبي عبد الله قال: إذا زنى الشيخ والعجوز جلدا ثم رجماً عقوبة لهما وح ١٢ عن عبد الرحمن عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان علي عليه السلام يضرب الشيخ والشيخة مائة ويرجمهما ويرجم المحصن والمحصنة، وهي تعني المحصن والمحصنة منهما وإلا فهي مخالفة للقرآن، وقد يحتمل قوياً صحة الجمع لهما سناداً إلى هذه الروايات حيث تخص روايات الرجم فقط بغير الشيخ والشيخة، ولكنه لا قائل به إلا شذر والرواية المشهورة «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة فإنهما قضيا الشهوة» لها كافية في نفي الحد مع الرجم فإنما هو الرجم وإن كان المحقق الحلي ادعى الإجماع في الجمع كما في مختصر النافع «ويجمع للشيخ والشيخة بين الحد والرجم إجماعاً».

(١) من النصوص ما توافق ظاهر الآية: الجلد فقط مثل ح ٣ عن أبي عبد الله عليه السلام الحر والحرة إذا زنيا جلد كل واحد منهما مائة جلدة...

ومنها التفصيل في الجلد والتغريب مثل ح ٢ قضى أمير المؤمنين عليه السلام في البكر والبكرة إذا زنيا جلد مائة ونفي سنة في غير مصرهما وهما اللذان قد أملكا ولم يدخل بها، وكذلك ح ٦ و٧ فيمن أملك.

ومنها الجمع مطلقاً مثل ح ٩ عن أبي عبد الله عليه السلام والبكر والبكرة جلد مائة ونفي سنة وكذلك ح ١١ و١٢، وفي الدر المنثور ٥: ١٨ - أخرج عبد الرزاق في المصنف عن عمرو بن شعيب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قد قضى الله ورسوله أن شهد أربعة على بكرين جلدا كما قال الله مائة جلدة وغرباً سنة غير الأرض التي كانا بها وتغريبهما سنتين.

والتغريب غريب ولا سيما في الزانية التي كان الحكم لها إمساكها في البيت حتى يتوفاها الموت، وفي هذا التهافت الثلاثي المرجع هو كتاب الله وليس فيه إلا الجلد والزائد مشكوك والحدود تدرأ بالشبهات!

بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ﴾[1] تعني المحصنات هنا الحرائر لردفهن بالإماء، ولو عنت المزوجات لقال: سائر المحصنات، ثم وليس لحد المزوجات وهو الرجم نصف! ولا رجم على المماليك المتزوجين، فحدهم نصف حد الحرائر غير المزوجين.

وقد جمع الإمام أمير المؤمنين بين حدود خمسة لخمسة واستغربه الخليفة عمر فأجاب عليه السلام باختلاف أسبابه[2].

ومن هم المخاطبون في «فاجلدوهما»؟ بطبيعة الحال ليسوا هم كل المكلفين إذ لا يمكن ولا يصح، فليس يصلح إجراء الحد إلا لمن ليس عليه حد، وقد توفرت فيه شروط القضاء المستفادة من أدلتها كتاباً وسنة، فالمعنيون بأمثال هذه الخطابات الحكومية ليس إلا ولاة المسلمين على مختلف مناصبهم.

ثم و﴿مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾ هل تعنيها خفيفة أو شديدة أو عوان؟ ثم هي متواصلة أم تكفي متفرقة؟ فتضرب على جميع الجسد أو يتقى مواضع الخطر؟ مجرداً أم فوق الثياب؟ ثم وبماذا يجلد؟ ومن ذا الذي يجلد؟

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٥.

(٢) الوسائل ١٨ : ٣٥١ ح ١٦ عن علي بن إبراهيم قال: أتي عمر بستة نفر أخذوا في الزنا فأمر أن يقام على كل واحد منهم الحد وكان أمير المؤمنين عليه السلام حاضراً فقال يا عمر! ليس هذا حكمهم! قال: فأقم أنت الحد عليهم، فقدم واحداً منهم فضرب عنقه وقدم الثاني فرجمه وقدم الثالث فضربه الحد وقدم الرابع فضربه نصف الحد وقدم الخامس فعزره وأطلق السادس فتحير عمر وتحير الناس فقال عمر: يا أبا الحسن ستة نفر في قضية واحدة أقمت عليهم خمس عقوبات وأطلقت واحداً ليس منها حكم يشبه الآخر؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: نعم أما الأول فكان ذمياً زنى بمسلمة فخرج عن ذمته فالحكم فيه بالسيف، وأما الثاني فرجل محصن زنى فرجمناه، وأما الثالث فغير محصن حددناه، وأما الرابع فرقٌ ضربناه نصف الحد وأما الخامس فكان منه ذلك الفعل بالشبهة فعزرناه وأدبناه وأما السادس مجنون مغلوب على عقله سقط منه التكليف (نور الثقلين ٣: ٥٧٠ ح ١٣ عن تفسير القمي).

﴿جَلْدَةٍ﴾ دون قرينة تعني المتوسطة العوان، ولا يصلح «أشد الجلد» في رواية يتيمة قرينة للشدة، وهي معارضة بأخرى «بين الضربين»[١] فتقدَّم على الأولى لموافقة القرآن.

و﴿مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ ليست ظاهرة في المتواصلة، فتكفي متفرقة إلا ألا تصدق المائة عرفاً، كأن تفرق عددها عدد الساعات، أم أياماً، ولا تُضرَب على جميع الجسد فإن فيه خطر القتل وليس القتل حد الزنا، ونقص العضو فكذلك، فيتقي الرأس والمذاكير[٢].

وأما التجريد فسكوت الآية عنه دليل على عدمه، فكما الحالة العادية للجلدة هي المتوسطة، كذلك هي فوق ثوب لا يمنع من تألمه وإلا فهو رحمة عليه منفية في الآية، وهنا تقبل الرواية الموافقة لظاهر الآية وتطرح غيرها أو تؤول[٣].

---

(١) الوسائل ١٨ : ٣٦٩ عن إسحاق بن عمار قال سألت أبا إبراهيم عليه السلام عن الزاني كيف يجلد؟ قال: أشد الجلد... وعن سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: حد الزاني كأشد ما يكون من الحدود.

أقول: الثانية تعني بالأشد النسبة العددية في الجلد والأولى معارضة برواية حريز عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال يفرق الحد على الجسد كله ويتقى الفرج والوجه ويضرب بين الضربتين، وقد يعني (أشد الجلد) في الأولى أيضاً ما تعنيه الثانية فلا صراحة فيها، فحتى لو صلحت قرينة للمعني من الآية لا تصلح دلالة ولعله يشير إليه ما في العلل عن محمد بن سنان عن الرضا عليه السلام فيما كتب إليه: وعلة ضرب الزاني على جسده بأشد الضرب لمباشرته الزنا واستلذاذ الجسد كله، وأما ما عن علي عليه السلام قال: «حد الزاني أشد من حد القاذف وحد الشارب أشد من حد القاذف» فالأشد فيه ظاهر في الكيفية ولكنها مقابل القاذف حيث يضرب خفيفاً.

(٢) المصدر عن أبي جعفر عليه السلام قال:... ويترك الرأس والمذاكير.

(٣) المصدر ٣٧٠ ح ٧ عن جعفر عن أبيه عليه السلام قال: لا يجرد في حد ولا يشبح يعني يمدّ وقال: ويضرب الزاني على الحال التي وجد عليها إن وجد عريان ضرب عريان وإن وجد وعليه ثيابه ضرب وعليه ثيابه.

وفيه عن أبي إبراهيم عليه السلام جواباً عن السؤال: فمن فوق ثيابه؟ قال: بل تخلع ثيابه.

أقول: وقد يعني «تخلع ثيابه» الثياب غير المباشرة لبدنه المانعة من تأثير الضرب.

ثم الجلد زمن نزول الآية لم يكن إلّا من الجلد، فليكن به لا سواه، إلا إذا كان مثله في العذاب، فلا يكفي ما دونه ولا يجوز ما فوقه.

وظاهر ﴿فَٱجْلِدُواْ﴾ الحاكم الشرعي، وإذا أمر غيره فليكن ممن لم يجب عليه الحد ولم يجر عليه، ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ فدينه طاعة ائتماراً بأمره: ﴿فَٱجْلِدُواْ﴾ وجزاؤه ﴿مِاْئَةَ جَلْدَةٍۖ﴾ والرأفة التي تمنع الحد أو تنقصه كماً أو كيفاً، أو تؤجله، إنها محرمة في دين الله، كما أن نقمته فوق الحد كماً أو كيفاً، أم إهانته قبل الحد أو بعده مخالف لدين الله، فلا إفراط في الحد ولا تفريط، فإنما العوان الذي أمر به الله لا سواه.

فالحد - أيّاً كان - محدّد بالكتاب والسنة، والتجاوز عنه إفراطاً أو تفريطاً محادة لله ومشاقة! فلا يحل، ولا شطر كلمة مهينة، ولا فعلة مهانة بحق فاعلي الفاحشة إلا ما حدّه الله وحدده.

دين الله هو دين الرأفة، جماهيرية وشخصية، ولكنها الرأفة بمقترف الفاحشة كشخص، هو خلاف الرأفة بالكتلة المؤمنة، إذ ديست كرامتها، إذاً فهي بالنسبة لهم قسوة ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾....

وكما قطع يد السارق رحمة لكتلة الإيمان وطمأنينة، حيث تقطع عنهم أيدي التطاول، وتلك هي الرحمة السارية في كافة الحدود الإلٓهية للمجموعة، مهما كانت زحمة للمتخلفين كحالة شخصية حاضرة، ولكنها لهم أيضاً رحمة، إذ يتأدبون فلا يعيدون، ثم في الآخرة لا يعذبون، ولا تحصل رحمة إلّا بزحمة. ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾[(١)]!.

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾:

تشديد ثان على فاحشة الزنا بعد الحد، حيث يقرن كل منهما بمثله في

(١) سورة الشرح، الآيتان: ٥، ٦.

النكاح كما في السفاح، كما يقرن بالمشرك والمشركة كسياج صارم على هذه العملية النكراء!.

إن الزانين والزانيات على ضروب شتى تختلف فيها أحكام النكاح حظراً وفرضاً وبين ذلك عوان، منهم الدائبون في الزنا دون توبة وقد شهروا بالفاحشة، ولا يمنعهم النكاح عنها، وهم القدر المعلوم ممن تعنيهم الآية، وكما وردت فيهم مستفيض الرواية[1] ولكنما الآية أشمل من شأن نزولها.

ومنهم من كانت هذه فعلته ثم تاب بعد الحد أم قبله فلا محظور في نكاحه حيث التائب عن ذنبه كمن لا ذنب له، فلا يقال له زان أو زانية، فلا يشمله النهي في الآية، أو قد يجب نكاحه إن كان شرطاً عملياً للتوبة حيث يصده عن الفاحشة، وهو مصداق عملي للنهي عن المنكر، أو يستحب إذا كان سياجاً عن رجوعه إلى فاحشة محتملة.

---

(١) لقد كانت الزانيات الشهيرات بالزنا صاحبات الرايات في مكة والمدينة نساء مثل أم مهزول مملوكة سائب بن أبي سائب المخزومي وأم غليظ لصفوان بن أمية وهبة القبطية لعاص بن وائل ومزنة لوالك بن عملية بن الساق وحلالة لسهيل بن عمر أم سويد لعمرو بن عثمان المخزومي وشريفة لدمعة بن الأسود وفرشة لهشام بن أبي ربيعة وقريباً لهلال بن أنس وكانت تسمى بيوتهن خرابات.

وفي الدر المنثور ٥ : ١٦ - أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال لما قدم المهاجرون المدينة قدموها وهم بجهد إلا قليل منهم والمدينة غالية السعر شديدة الجهد وفي السوق زوان متعالنات من أهل الكتاب وأما الأنصار منهن أمية وليدة عبد الله بن أبي ونسيكة بنت أمية لرجل من الأنصار بغايا من ولائد الأنصار قد رفعت كل امرأة منهن علامة على بابها ليعرف أنها زانية وكن من أخصب أهل المدينة وأكثره خيراً فرغب أناس من مهاجري المسلمين فيما يكتسبن للذي هم فيه من الجهد فأشار بعضهم على بعض لو تزوجنا بعض هؤلاء الزواني فنصيب من فضول أطعمتهن فقال بعضهم نستأمر رسول الله ﷺ فأتوه فقالوا : يا رسول الله قد شق علينا الجهد ولا نجد ما نأكل وفي السوق بغايا نساء أهل الكتاب وولائدهن وولائد الأنصار يكتسبن لأنفسهن فيصلح لنا أن نتزوج منهن فنصيب من فضول ما يكتسبن فإذا وجدنا عنهن غنى تركناهن فأنزل الله : ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً. . .﴾ [النور: ٣] فحرم على المؤمنين أن يتزوجوا الزواني المسافحات العالنات زناهن.

ومنهم من لا يأتي الفاحشة إلا أحياناً دون إصرار ولا اشتهار ودون توبة، ولا يمنعه النكاح عن الفاحشة فمحرم أيضاً، سواء ثبتت عليه بحجة شرعية، أم تثبّتتّ عليه وما لك حجة إلا رؤيتك، والآية تشمل مثلث الفاحشة، دون التائب أو التائبة لعدم صدق الزاني حينئذ والزانية.

فكل من ثبتت عليه الزنا عندك أو بحجة شرعية، تشمله لفظ الآية، وليس لزام صدق الفاعل من فعل أن يكون شغله أو أن يكرر، اللهم إلا في موارد عدة كالبقال والحمال وأضرابهما في صيغة مبالغة أم أية قرينة، فمن قتل يقال له «قاتل» وإن كانت قتلة واحدة، ومن باع البقل أياماً ثم ترك لا يقال له بقال!

فـ ﴿ٱلزَّانِي﴾ هو كل من زنى مرة أو مرات، ثبتت عليه بحجة أم لا، اشتهر بها أم لا، فما دام زنى أو زنت يصدق «زان أو زانية» دون هوادة فإن تاب فلا يصدق، وإن يتب بالنكاح وجب النكاح أو رجح بدليل آيات النهي عن المنكر ورواياته.

ولئن قلت إن بينهما عموماً من وجه فلا تقييد أو تخصيص! قلنا إن النهي عن نكاح الزاني ليس إلا من باب السياج على الزنا، زجاً لفاعله في زاوية وعزلة حتى ينتهي، فلا يشمل ما إذا سبّب ترك الزنا!.

كما وأن أدلة النهي عن المنكر أظهر في وجوب هذا النكاح من دلالة آية النور على حرمته لو دلت!

وعلى فرض العموم من وجه فهما متساقطان في النكاح الموجب لترك الزنا فيرجع إلى أصالة الحل!

هذا، وأما المتهم أو المتهمة بالزنا دون ثبوت فمكروه والأشبه عدم الحلّ لآية المائدة ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ. . .﴾[1] الظاهرة في شرط الإحصان.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٤.

قد كانت سنة سيئة بين الجاهليين الأشراف استعمال الإماء في الفحشاء والبغاء طوعاً أو كرهاً لكي يستفيدوا من محاصيلهن فنزلت ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾[(١)] فرغب بعض المسلمين المعدمين في نكاحهن قضاءً للشهوة واستيفاء للفائدة فنزلت هذه الآية قارعة هذه الفكرة الخاطئة، مبعدة للمؤمنين والمؤمنات عن مناكحة من يأتي الزنا في بعدين من التحظير «لا ينكح - وحرم» ومقرنة لأهلها بأهلها وبالمشركين والمشركات، مفاصلة بعيدة تجعلهم في عزلة عن مناكحة المؤمنين حتى يعتزلوا الفاحشة ويرجعوا إلى الإيمان.

شأن نزول الآية خاص ببعدي:

١ - صاحبات رايات البغاء.

٢ - إذا أريد من نكاحهن الإصابة من فضول أطعمتهن، ولفظ الآية عام يشمل كل زان وزانية، في شهرة الكثرة أم ندرة، في إصابة مال أم سواها، والعبرة بعموم اللفظ لا خصوص المورد[(٢)] كما هو الضابطة السارية في الآيات كلها، إلا المطابقة تماماً لمورد نزولها.

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٣.

(٢) في نور الثقلين ٣: ٥٧ ح ٢١ في الكافي عن زرارة قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً...﴾ [النّور: ٣] قال: هن نساء مشهورات بالزنا ورجال مشهورون بالزنا شهروا به وعرفوا والناس اليوم بذلك المنزل فمن أقيم عليه حد الزنا أو متهم بالزنا لم ينبع. لأحد أن يناكحه حتى يعرف منه التوبة.

أقول ورواه مثله داود بن سرحان في الصحيح والشيخان في القوي كالصحيح عن زرارة عنه وفيه بدل «أو متهم بالزنا» «أو شهر بالزنا».

ثم أقول: يعني من «أو متهم بالزنا» من ثبت عليه الزنا ولم يقم عليه الحد وألا فلماذا التوبة عما لم يثبت، كما أن «وعرفوا» يعني من ثبت عليه الزنا حيث قابل «شهروا به» ويؤيده ما رواه أبو الصباح الكناني في القوي قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الآية فقال: كن نسوة مشهورات بالزنا ورجال مشهورون بالزنا قد عرفوا بذلك والناس اليوم بتلك المنزلة فمن أقيم عليه الحد أو شهر به لم ينبغ لأحد أن يناكحه حتى يعرف منه التوبة، وعن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: هم رجال ونساء كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله مشهورين =

فالزاني والزانية قبل التوبة تشملهما الآية حتى تعرف منهما التوبة[١] أو يكون النكاح من أسباب التوبة، فسواء في أصل الحرمة من شهر بالزنا، أو من عرف بها دون شهرة، حدَّ أو لم يحد[٢].

ومما يؤيد عموم الزاني والزانية عموم الزانية والزاني لكل من ثبتت عليه الزنا، وإن كان الحد أضيق مورداً من النكاح، فإنه محظور فيمن ثبت لك أنه أتى الفاحشة، ولا حد إلا عند شهادة أربعة أو الإقرار به أربعاً أو النكول عن الملاعنة.

هنا نجعل الآية في حوار من حيث الدلالة لكي نجتث القولة بالكراهية بدليل الآية أو الرواية! أم أية قولة تخالف الحرمة:

أترى أن ﴿لَا يَنكِحُ. . .﴾ ﴿لَا يَنكِحُهَآ﴾ إخبار عن تركهما نكاحاً إلّا أهل الزنا والشرك؟ وهو خلاف الواقع! بل والزاني يرغب في نكاح المؤمنة الأمينة أكثر من غيرها، كما الزانية في المؤمن، فواقع التناكح - على أية حال - بين الزاني والمؤمنة والزانية والمؤمن يفسد إخبارية ﴿لَا يَنكِحُ. . .﴾! إذاً فهو نهي بصيغة الأخبار تأكيداً لحرمة التناكح، ثم ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى

= بالزنا فنهى الله عن أولئك الرجال والنساء والناس اليوم على تلك المنزلة من شهر شيئاً من ذلك أو أقيم عليه الحد فلا تزوجوه حتى تعرف توبته، وعن حكم بن حكيم عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: إنما ذلك في الجهر ثم قال: لو أن إنساناً زنى ثم تاب تزوج حيث شاء، فمقابلة من أقيم عليه الحد بـ «شهر به» دليل عدم اختصاص الحكم بالشهرة وإنما الثبوت.

(١) المصدر.

(٢) كما في الوسائل ١٤ : ٣٣٦ ح ٥ علي بن الحسين المرتضى في رسالة المحكم والمتشابه نقلاً من تفسير النعماني بإسناده عن علي عليه السلام قال: وأما ما لفظه خصوص ومعناه عموم فقوله تعالى - إلى أن قال - وقوله سبحانه: ﴿الزَّانِي. . .﴾ [النور: ٣] نزلت هذه الآية في نساء كن بمكة معروفات بالزنا منهن سارة وخثيمة ورباب حرم الله نكاحهن فالآية جارية في كل من كان من النساء مثلهن.

أقول: يعني بخصوص اللفظ خصوص مورد النزول، و«من النساء مثلهن». تعني كافة الزناة لا فقط الشهيرات لأنه خلاف عموم لفظ الآية!

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تصريحة أخرى بالحرمة كقرينة قاطعة ثانية على نهي الإخبار، والإنشاء في صيغة الإخبار آكد منه بصيغة الإنشاء!

أو ترى أن ﴿لَا يَنكِحُ...﴾ هنا تعني وطي السفاح لا وطي النكاح أو عقد النكاح بوطي أو سواه كما تعني ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ﴾ تحريم السفاح على المؤمنين؟ والنكاح هو مقابل السفاح عقداً ووطياً! ونفي السفاح في ﴿لَا يَنكِحُ﴾ غلط لغوياً حيث النكاح يقابل السفاح وهو وطي محرم زنا والنكاح عقد أو وطي عن عقد ليس إلا[١]، وغلط إخباراً، حيث الزاني قد يحمل مؤمنة على السفاح كما الزانية قد تحمل مؤمناً على السفاح، وغلط نهياً إذ تخص تحريم الزنا بالمؤمن والمؤمنة، تحليلاً لها بالزاني والزانية وبالمشرك والمشركة، والزنا محرمة على أية حال من أي إنسان بأي كان! ثم ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا تحرم الزنا فقط على المؤمنين!

أم ترى التناكح المحرم هنا يخص الدوام دون المتعة تقييداً للآية بالرواية[٢]؟ والنكاح يعم المتعة، ولا سيما في قضية سلبية ﴿لَا يَنكِحُ﴾ وإذا تمتع فقد نكح، والمتعة نكاح بإجماع الأمة مهما اختلفوا في نسخها، إذاً، فـ ﴿لَا يَنكِحُ...﴾ ﴿لَا يَنكِحُهَآ﴾ ظاهرة كالنص في إطلاق الحرمة دونما هوادة! والتحليل في المائدة خاص بالمحصنة وكما في النساء بالإحصان،

---

(١) لم يأت النكاح بصيغته في القرآن إلا بمعنى العقد وفي آية واحدة الوطي عن عقد ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٠] فإن زوجاً هنا قرينة أن نكاحه لها ليس العقد إذ فرضت زوجيته فإنما هو الوطء عن عقد، ففي ٢٣ نص لم يأت إلا هنا بمعنى الوطي المحلل، ثم لا نجده بمعنى الوطي دون عقد اللهم إلا في نكاح البهيمة في الرواية ولأنها لا يعقد عليها ولا توطأ عن عقد.

(٢) الوسائل ج ١٤: ٣٣٤ - زرارة قال سأله عمار وأنا حاضر عن الرجل يتزوج الفاجرة متعة؟ قال: لا بأس وإن كان التزويج الآخر فليحصّن بابه.

أقول: تخصيص الإحصان بالتزويج الآخر دون المتعة غريب في نوعه، حيث الإحصان شرط النكاح أياً كان بدليل آيتي النساء والمائدة.

وآية النور آبية عن تقييد الحرمة بالنكاح الدائم ولا سيما برواية شاذة ولا عامل بها، فالإجماع المركب يؤكد ردها[١].

محور التحريم هنا التناكح بين الزاني والمؤمنة وبين الزانية والمؤمن في نهي الإخبار ﴿لَا يَنكِحُ...﴾ وتصريحة التحريم: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ﴾ فلا يعني ذلك إلا ذلك التناكح المحظور، لا الزنا حيث تحرم على كافة المكلفين دون خصوص المؤمنين! فقولة الحلية بأن النكاح في الآية سفاح مردودة من جهات عدة، واللفظة الصريحة الصحيحة للوطي المحرم هي الزنا والسفاح دون النكاح الصريح أو الظاهر فيما يقابلهما.

أم ترى الآية منسوخة في هذه الحرمة إلى كراهية أمّا ذا؟ وآية المائدة ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ...﴾[٢] - وهي آخر ما نزلت ناسخة غير منسوخة - إنها تخص حل النكاح بالمحصنات من المؤمنات: غير الزانيات، ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

وأما آية النساء في تحريم المحارم نسبيات أم سببيات ورضاعيات ثم تحليل ما وراء ذلك ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾[٣] فقصوى دلالتها إطلاق التحليل خارج مثلث التحريم، وآية النور نص في حرمة التناكح بين المؤمنين والزانين! بل ولا إطلاق إلا نسبياً يعني عدم الحرمة فيما وراء ذلك ذاتياً مؤبداً لا مطلق التحليل دون شرط وسبب حتى العقد بشروطه! ثم «محصنين» قيد ظاهر للتحليل، أن تحصنوا أنفسكم وإياهن عن الزنا! ونكاح الزاني والزانية دون توبة تشجيع على الزنا وإيقاح للزانية إلى أفحش مما كانت تعمل، أن زناها بعدُ زنا المحصنة!

(١) فإن الفتوى هنا بين حلية نكاح الزانية دون تفصيل وبين حرمته كذلك، وأما التفصيل بين المتعة والدوام فلا قائل به، فالرواية شاذة في بعدين إضافة إلى مخالفة إطلاق الآية الآبي عن هكذا تقييد.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥.
(٣) سورة النساء الآية: ٢٤.

وتقييد الإحصان بالناكح يخالف الإطلاق في «محصنين» والنص في النور والمائدة فلا ناسخ في القرآن لهما في هذه الحرمة!

ثم السنة ليست تنسخ القرآن مهما بلغت حد التواتر وليست إلا دالة على الحرمة كما الآية[1] أو تطرح أو تؤوَّل أو هي دالة على أن آية النور باقية غير منسوخة كما تكرر القول «والناس اليوم بتلك المنزلة»[2] و«اليوم» هو يوم انقطاع الوحي إلى يوم القيامة، فمنزلتهم من الآية باقية دون تغير وتبدل إلى يوم القيامة.

ولا ينبغي حمل «لا ينبغي» في الرواية على الكراهية[3] حيث يستند

---

(١) في روضة المتقين ٨: ٢٠٤ في الموثق كالصحيح والشيخ كالصحيح عن الحلبي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام لا تتزوج المرأة المستعلنة بالزنا ولا يزوج الرجل المستعلن بالزنا إلا أن تعرف منهما التوبة.

أقول: لا يعني استعلان الزنا أن يكون شغله المشهور به وإنما ظهوراً يعرف، مهما عرفه واحد أم أكثر دون عدد الشهود أم عددهم أما ذا، ولذلك أنهى الحل إلى التوبة.

(٢) كما تكررت في الأحاديث السابقة و«لم ينبغ» هي في نفس الروايات التي تقول «والناس اليوم بتلك المنزلة».

(٣) مثل ما رواه علي بن يقطين قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام نساء أهل المدينة؟ قال: فواسق - قلت: فأتزوج منهن؟ قال نعم» (الوسائل ١٤: ٣٣٣).

أقول: منهن راجع إلى كل نساء أهل المدينة فلم تكن الكل فواسق، وإنما فيهن فواسق والسائل يسأل عن جواز النكاح منهن بشبهة الاتهام فيأتي الجواب نعم، ولو يعني «نعم» جواز نكاح الفواسق منهن فهو مخصوص بالتائبات منهن أو اللاتي يتبن بالزواج، وأما المستمرة في الفحشاء بعد الزواج فنكاحها محرم بنص الآية.

وفيه ح (٤) عن زرارة قال سأله عمار وأنا حاضر عن الرجل يتزوج الفاجرة متعة؟ قال: لا بأس - وإن كان التزويج الآخر فليحصِّن بابه -.

أقول يعني: في التزويج الدائم يجب عليه إحصان باب فجورها دون المتعة وهو غريب كما تقدم وهي يتيمة لا مثيل لها في رواياتنا ولا قائل بالتفصيل المذكور فيها فكيف يقيد بها الإطلاق كالنص في الآية!

وفي ٣٣٣ ح ٢ عن أبي جعفر عليه السلام سئل عن رجل أعجبته امرأة فسأل عنها فإذا الثناء عليها في شيء من الفجور فقال: لا بأس بأن يتزوجها ويحصنها» وفي ح ٦ عن علي بن رئاب قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن المرأة الفاجرة يتزوجها، الرجل المسلم قال: نعم وما يمنعه ولكن إذا=

الإمام فيها إلى الآية، وحتى إذا كانت صريحة فيها فمطروحة أو مؤوّلة بمخالفة نص الآية وهنا روايات صريحة كالآية تنهى عن هكذا تناكح «إلا بعد أن يعرف منهما التوبة»[1] وأخرى تسمح به في توبة مستقبلة: «وما يمنعه

= فعل فليحصن بابه مخافة الولد. وفيه ح (٥) عن سعد بن عبد الله عن صاحب الزمان في حديث أن سأله عن الفاحشة - إلى قوله عليه السلام - «فإن المرأة إذا زنت وأقيم عليها الحد ليس لمن أرادها أن يمتنع بعد ذلك من التزويج بها لأجل الحد». . . .

أقول: «لأجل الحد» يرفع محظور نكاحها من هذه الناحية فقط دون جهات أخرى، فيختص نفي الامتناع عن تزويجها بما إذا تابت أو تتوب بالزواج، وأما المصرة غير التائبة فلا لنص الآية فإنه من القدر المتيقن المراد من مواردها.

وفيه ح ٦ عن هاشم بن المثنى قال: إن رجلاً سأل أبا عبد الله عليه السلام وأنا عنده عن الرجل يأتي المرأة حراماً أيتزوجها؟ قال: نعم -

أقول: «نعم» مخصوص بما إذا تابت تحليلاً مبدئياً ينفي الحرمة الأبدية، أم إذا لم يتوبا، ويدل على ذلك ح (٧) عن أبي بصير قال: سألته عن رجل فجر بامرأة ثم أراد بعد أن يتزوجها فقال: إذا تابت حل له نكاحها، قلت: كيف يعرف توبتها؟ قال: يدعوها إلى ما كان عليه؟ من الحرام فإن امتنعت فاستغفرت ربها عرف توبتها وهي محمولة على ما إذا تاب فالرواية النافية للبأس مقيدة تنفي البأس مبدئياً وإن كانت مطلقة كما رواه زرارة بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال: لا بأس إذا زنا رجل بامرأة أن يتزوج بها بعد وضرب مثل ذلك رجل سرق ثمرة نخلة ثم اشتراها بعد.

أقول: وهذا التعليل إنما يجري في نكاحها على شروطه ومنها توبتها أو تتوب، وكما في اشتراء ثمر النخلة شروط، أم إذا لم يتوبا لأنهما زانيان!

وأما ما رواه علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام قال: سألته عن رجل زنا بامرأتين أله أن يتزوج بواحدة منهما؟ قال: «نعم، لا يحرم حلالاً حرام» فالتعليل فيه يخص الحرمة الأبدية دون المؤقتة لفاحشة الزنا قبل التوبة!

أم أن موردها إذا تابا، وفي الموثق عن عمار بن موسى عن أبي عبد الله عليه السلام سألته عن الرجل يحل له أن يتزوج امرأة كان يفجر بها؟ فقال: إن أنس منها رشداً فنعم والا فليراودها على الحرام فإن تابعته فهي عليه حرام وإن أبت فليتزوجها (روضة المتقين ٨: ٢٠٧).

(١) الوسائل ١٤ : ٣٣٥ - عن الحلبي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام : لا يتزوج المرأة المعلنة بالزنا ولا يتزوج الرجل المعلن بالزنا إلا بعد أن تعرف منهما التوبة، ومحمد بن علي بن الحسين بإسناده عنه أبي المعزا مثله.

أقول: وقد تقدمت أمثالها في شريطة التوبة وفيه ٣٣٦ ح ٣ عن محمد بن مسلم عن أبي =

ولكن إذا فعل فليحصن بابه»[١] والتائبة ليست زانية فلا تشملها الآية، والتي تتوب خارجة عنها بنصوص النهي عن المنكر، ويبقى الزاني والزانية بعد ثبوت الفاحشة دون توبة سابقة أو بالنكاح، فهما باقيان في حظر الآية.

هذه هي الحرمة البدائية، فهل تحرم الزانية بعد نكاحها أو يحرم الزاني بعد نكاحه؟ إطلاق «لا ينكح ولا ينكحها» يشملهما حيث النكاح الممنوع أعم من العقد والوطي بعقد، ورواية شاذة أو مؤولة[٢] لا تصلح تقييداً للآية.

وهل يجوز نكاح من زني بها؟ نعم ما لم يتوبا لمكان ﴿إِلَّا زَانِيَةً﴾ أم إذا تابا أو يتوبان لخروجهما عن الآية!

فأما أن يتوب أحدهما دون الآخر فلا حيث يشملهما الحظر في الآية، ففي مثلث التناكح، المحلل هو مورد المماثلة بينهما في الزنا وعدمها، أو التوبة، فالمتخالفان لا يتناكحان، والرواية الدالة على حلية نكاح من زنى بها مطروحة أو محمولة على موارد الحلية[٣].

= جعفر عليه السلام من شهر شيئاً من ذلك أو أقيم عليه حد فلا تزوجوه حتى تعرف توبته وفيه ح ٤ عن أبي عبد الله عليه السلام لو أن إنساناً زنى ثم تاب تزوج حيث شاء وفيه (٥) عن أحدهما عليهما السلام لو أن رجلاً فجر بامرأة ثم تابا فتزوجها لم يكن عليه من ذلك شيء.

(١) الوسائل ١٤ : ٣٣٤ ح ٦ عن علي بن رئاب قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن المرأة الفاجرة يتزوجها الرجل المسلم؟ قال: نعم - وما يمنعه ولكن إذا فعل فليحصن بابه مخافة الولد.

(٢) الوسائل ١٤ : ٣٣٣ ح ١ عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: لا بأس أن يمسك الرجل امرأته إن رآها تزني إذا كانت تزني.

(٣) وفي الوسائل ١٤ : ٣٣٠ - عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن رجل فجر بامرأة ثم بدا له أن يتزوجها فقال: حلال أوله سفاح وآخره نكاح أوله حرام وآخره حلال.
أقول: يحمل على غير ما تاب أحدهما، أن يتوبا أم لم يتوبا، فـ«إلا زانية» دليل الحل بينهما، ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣] دليل الحرمة إن تاب أحدهما، وإذا تابا فهما خارجان عن الآية ويؤيده ح ٢ عن عمار بن موسى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن الرجل يحل له أن يتزوج امرأة كان يفجر بها؟ قال: إن آنس منها رشداً فنعم وإلا فليراودها على الحرام فإن تابعته فهي عليه حرام وإن أبت فليتزوجها.
أقول وهو محمول على أنه تائب وإلا فلا تشترط التوبة في حلية التناكح بين الزاني والزانية. =

وكما تنص آية النور على حرمة مطلق التناكح بين المؤمنين، والزناة والمشركات، وبين الزانين والمشركين، والمؤمنات، كذلك هي نص على حلّه بين الزانين والزناة، أو بينهم وبين المشركين والمشركات، سواء أكانت الزانية مسلمة أم مشركة، أو المشركة زانية أم غير زانية، كما المشرك على سواء، وسواء أكان الناكح هو الزاني بالزانية أم سواه ما صدق أنه زان وأنها زانية.

أترى هذا الحل - كما ذلك الحرمة - باق غير منسوخ بالنسبة لإنكاح الزانية المسلمة للمشرك، ونكاح الزاني المسلم للمشركة، وآية البقرة تحرم إنكاح المسلمة للمشرك وإنكاح المشركة للمسلم: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ . . .﴾[1].

كما وآية الممتحنة تنهى عن إمساك عصم الكوافر مشركات وكتابيات: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾[2] ثم آية المائدة تخص حل الكتابيات بالمحصنات: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ . . .﴾.

وعلّ الحلّ، أن الممتحنة مكية حرمت على المسلمين نكاح الكوافر، ثم آية النور المدنية أحلتهن للزانين مسلمين وغير مسلمين، ومن ثم آية البقرة المدنية إن كانت متقدمة على النور فقد تخصصها بغير المسلمة الزانية

= وقول أحدهما عليهما السلام لو أن رجلاً فجر بامرأة ثم تابا فتزوجها لم يكن عليه شيء من ذلك، دليل الحظر فيما إذا تاب أحدهما واما إذا لم يتوبا فحلال بالآية، وفي تفسير الفخر الرازي ٢٣: ١٥١ رواه مثله عن النبي ﷺ أوله سفاح وآخره نكاح والحرام لا يحرم الحلال، وروى الشيخ في الصحيح عن أبي بصير قال سألته عن رجل فجر بامرأة ثم أراد أن يتزوجها؟ فقال: إذا تابت.

وعلى الجملة فالروايات في المسألة على ضربين: مطلقة في الحل، فمحمولة على غير صورة التوبة من أحدهما، ومقيدة للحل بتوبتها، فمحمولة على توبته، والقول الفصل أولاً وأخيراً هو الآية المباركة.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢١. (٢) سورة الممتحنة، الآية: ١٠.

والمسلم الزاني، أو متأخرة فهي ناسخة لها في خصوص الزانية المسلمة والمسلم الزاني، وخروج الزاني والزانية في آية النور عن المؤمنين بقرينة ﴿أَوْ مُشْرِكَةً... أَوْ مُشْرِكٌ...﴾ لا يقتضي خروجهما عنهم في آية البقرة، وعلى احتمال النسخ فهو لردح من الزمن تشديداً على مقترفي الزنا وتأديباً، ثم آية المائدة تحلل نكاح الكتابيات المحصنات للمسلمين، دون الزناة منهن لهم وإن كانوا زانين بل ولا المتهمات.

هنالك تبقى حرمة التناكح بين المؤمنين والزناة، والزانين والمؤمنات، كحليته بين الزانين والزناة أنفسهم إن كانوا مسلمين، تبقى الآية من هذه الجهة غير منسوخة ولا مخصّصة، مهما خرج ما خرج بنسخ أو تخصيص.

هذا - ! وحتى إذا شكلنا في حل التناكح بين المسلمة الزانية والمشرك، أو بين المسلم الزاني والمشركة، فالأصل هو الحرمة، إذ لا إطلاق ولا عموم فوقياً يحلِّق على الحل في هذا الميدان، لا كتاباً ولا سنة، بخلاف الأصل في الأموال وأضرابها، ولكن مورد الشك هو محط تضارب العمومات بين هذه الآيات، ولولا القناعة فيما بيناه من النسخ الجانبي أو التخصيص، فعموم الحظر أو إطلاقه مُحَكَّم في مورد الشك وهذا منه.

وحصالة البحث في آية النور ومساعداتها كضابطة، حرمة نكاح الزانية وإنكاح الزاني إلا من زان أو زانية أو مشرك أو مشركة، إلا إذا عرف منهما التوبة أو يتوب ويحصّن بالنكاح، فأما قضاء الشهوة بنكاح الزانية دون توبة أو رجاءها فمحرمة بنص الآية كإنكاح الزاني - سواء[1]، ولا فرق في الحرمة بين كون الزوج هو الزاني أم غيره، ولا بين كون الزواج دائماً أو منقطعاً، وكل ذلك في الزواج البدائي، وأما الاستمرار فيما حدث الزنا بعد

---

(١) قد ذهب إلى الحرمة فيمن ذهب علي عليه السلام وابن مسعود وأبو بكر وعمر وعائشة (الفخر الرازي ٢٣: ١٥٠).

النكاح فجائز بعد التوبة أو يتوب، وإلا فحرامٌ بإطلاق الآية، وبأحرى جوازاً إذا علم أحدهما بعد الزواج بزنا سابق عليه، حيث الآية المحرّمة لا تعني إلا موارد العلم بالزنا، إذ التحريم في موارد الجهل تكليف بالمحال أو تكليف محال، فالآية خاصة بموارد العلم إلا أن وطيها بعد العقد وعلمه بزناها نكاح لها فتشمله الآية كالتي زنت بعد العقد، فالحرمة - إذاً - أشبه إلّا إذا تابت[1].

ولأن جواز هكذا نكاح - على حرمته - كان شريطة صدق الزاني والزانية وبسبب الزنا، فعند التوبة لا تشملهما آية النور، وإنما شملتهما قبل التوبة، بل تشملهما حينئذ آية البقرة والممتحنة وهما تعمان البداية والاستدامة، ولا حاجة إلى حملهما على الطلاق أو طلاق الحاكم، حيث ينقطع النكاح بانقطاع سببه فتعتد المسلمة عدة الوفاة كما تعتد المشركة عدة الطلاق، كالمرتد عن زوجة مسلمة أو المرتدة عن زوج مسلم.

وإذا تزوج بمحصنة وهو محصن ثم زنى أو زنت قبل الدخول فهل يفرق بينهما لمكان النهي في الآية، فـ ﴿لَا يَنكِحُ﴾ أعم من العقد ومن الوطي بعد العقد، وكما تدل عليه روايات[2] أم لا يفرق حيث القدر المعلوم من ﴿لَا

---

(١) روى الشيخان في الصحيح عن معاوية بن وهب قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل تزوج امرأة فعلم بعدما تزوجها أنها كانت زنت! قال: إن شاء زوجها أن يأخذ الصداق من الذي زوجها ولها الصداق بما استحل من فرجها وإن شاء تركها، وروى الشيخ في القوي عن عبد الرحمن بن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل تزوج امرأة فعلم بعدما تزوجها أنها كانت زنت قال: إن شاء زوجها أخذ الصداق ممن زوجها ولها الصداق بما استحل من فرجها وإن شاء تركها قال: وترد المرأة من العضل والبرص والجذام والجنون، أقول يحمل جواز الإبقاء على النكاح على ما إذا تابت أو كانت تائبة، فغير التائبة مشمولة للآية في حرمة النكاح.

(٢) الوافي ٣: ٢٥ باب زنا أحد الزوجين قبل الدخول يب طلحة بن زيد في الموثق عن جعفر عن أبيه عليهما السلام قال: قرأت في كتاب علي عليه السلام أن الرجل إذا تزوج المرأة فزنى قبل أن يدخل بها لم تحل له لأنه زان ويفرق بينهما ويعطيها نصف الصداق ومثله علي بن جعفر عن أخيه وعن=

يَنكِحُ﴾ العقد، والأشبه كتاباً وسنة هو الأوّل، فـ ﴿لَا يَنكِحُ﴾ لا تختص بالعقد، بل والوطي عن عقد أيضاً وهو الأصل المقصود من العقد!.

وعليه مهرها إن كان هو الزاني لأن الفصل من قِبَله، ولا مهر لها إن كانت هي الزانية لأن الفصل من قبلها[1].

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)﴾:

آية الرمي القذف - هذه - دون شهادة، تحكم على الرامي بالجلد والفسق وعدم قبول الشهادة إلّا بعد التوبة والإصلاح، وآيته الثانية (٦) في بديل الشهادة: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾ تقبل الرمي لولا أن هناك نقضاً لهذا البديل، وآيته الثالثة (٢٣) تلعن الذين يرمون المحصنات في الدنيا والآخرة، وكل هذه الثلاث في رمي المحصنات دون المحصنين، اللهم إلّا في إطلاق آية الإفك (١١) حيث تشمل رميهم

= الفضل بن يونس في الموثق قال سألت أبا الحسن موسى عليه السلام عن رجل تزوج بامراة فلم يدخل بها فزنت قال يفرق بينهما وتجد الحد ولا صداق لها، ومثله عن أمير المؤمنين عليه السلام في المرأة إذا زنت قبل أن يدخل بها الرجل يفرق بينهما ولا صداق لها أن الحدث كان من قبلها، وروى علي بن جعفر في الصحيح عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام قال: سألته عن رجل تزوج بامرأة فلم يدخل بها فزنى ما عليه؟ قال: - يجلد الحد ويحلق رأسه ويفرق بينه وبين أهله وينفى سنة.

وأما ما رواه في العلل عن رفاعة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرجل يزني قبل أن يدخل بأهله أيرجم؟ قال: لا قلت يفرق بينهما إذا زنى قبل أن يدخل بها؟ قال: لا، فهو إما مطروح لمخافة الكتاب والسنة أو مؤول إلى مورد التوبة! ومثله ما رواه الشيخ في الموثق كالصحيح عن عباد بن صهيب عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: «لا بأس أن يمسك الرجل امرأته إن رآها تزني إذا كانت تزني وإن لم يقم عليها الحد فليس عليه من إثمها شيء».

(١) المصدر السابق نفسه.

كما تشمل رميهن، وعلّ السبب في ذلك الاختصاص أنّ فاحشة الزنا بالنسبة للمؤمنات أفحش منها للمؤمنين فلا تجد في هذا المربع من التنديد بالرمي إلّا زاوية الإفك الشاملة للمؤمنين بإطلاقها! فإذا قذفت امرأة رجلاً بالزنا حدَّت حدّ القذف[1] حيث الرمي نفس الرمي مهما اختلف المرمي والرامي ذكورة وأنوثة! فكما ﴿ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ﴾ يشمل الإناث إلى جانب الذكور، كذلك ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ قد تشمل الذكور إلى جانب الإناث، كلّ بسند الأغلبية، حيث المعاكسة في الأغلبية لرمي الفاحشة الجنسية بين قبيلي الرامي والمرمى إليه، إضافة إلى أن رميها إلى الإناث أفحش!

والرمي هنا هو القذف إلى فاحشة جنسية بقرينة المحصنات وآية الزاني و﴿أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ أماذا؟ والرامي أعم من الشاهد، فقد يرمي ولم يكن شاهداً لما يرمي، وقد يكون شاهداً ولا يرمي حيث لم تكمل شروط الشهادة، وقد يرمي وهو شاهد لما يرمي، فتكمل بعد رميه الشهادة وهو من الشهود الأربعة، ولا يفسق بمجرد الرمي حتى تسقط شهادته بعد الرمي، بل إذا لم يأت بالشهداء، ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ﴾ هنا هو الرامي بشهادة أم سواها ﴿لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ ولكن إذا رمى دون شهادة ثم أتى بأربعة شهداء فلم يكن هو منهم، أو رمى وهو شاهد عدل ثم أتى بشهود ثلاثة وهو رابعهم، شرط ألّا يشهد قبلهم، فالفرضان تشملهما الآية في الآتي بأربعة شهداء، فلا حدّ عليه بل على المرمي، ولكن إذا رمى ولم يأت بشهادة كاملة شملته الآية في ﴿ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ مهما كان رميه دون شهادة أو بشهادته وحده أو أتى بثلاثة

---

(١) الوسائل ١٨ : ٤٣٢ ح ١ عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في امرأة قذفت رجلاً؟ قال: تجلد ثمانين جلدة.

وح ٣ عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا سئلت الفاجرة من فجر بك؟ فقالت: فلان - فإن عليها حدين حداً من فجورها وحداً من فريتها على الرجل المسلم ورواه الشيخ بإسناده عن القمي.

آخرين بعد شهادته، أو شهد ما دون الأربعة أو الأربعة دون شروط الشهادة، ففي كل هذه هم يحدون للفرية ولا يحدّ المرمي!

وهل يعم القذف غير الزنا من لواط ومساحقة؟ لعلّه لا، حيث اللواط لا يناسب المحصنات، فكل فعل فيهن من الرجال زناً قبلاً أو دبراً، ومن النساء مساحقة، ولأن الزنا هي محور البحث فيما قبلها: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي...﴾ ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ...﴾.

أو علّه نعم إلّا في اللواط، فرمي المحصنات بالزنا والمساحقة دون أربعة شهداء يستوجب جلد الثمانين، بإطلاق الآية، وكذلك في اللواط بنص الرواية[1] أم بالأولوية القطعية قياساً إلى الآية حيث اللواط أفحش وحدّه أغلظ فليحدّ قاذفه - لأقل تقدير - وكما يقذف في الزنا.

و﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ هنا اللاتي أحصنّ عن الزنا بعفاف وإحصان ذاتي، كما أنهن كذلك في كلما أطلقت دون قرينة، لا فقط المزوجات وإن كن من المحصنات، حيث الزواج مما يحصن عن الزنا، ولا فقط الحرائر مزوجات وغير مزوجات[2] إذ كانت الإماء يُجبرَن على الزنا أو يأتينها إذ لم يكن تؤتى

---

(١) المصدر ٤٣٣ ح ١ عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: إذا قذف الرجل الرجل فقال: إنك تعمل عمل قوم لوط تنكح الرجال يجلد حدّ القاذف ثمانين جلدة وح ٢ عباد بن صهيب عنه عليه السلام قال كان علي عليه السلام يقول: إذا قال الرجل للرجل يا معفوج (مفتوح) يا منكوح في دبره فإن عليه حدّ القاذف.

(٢) جاءت المحصنات بالمعاني الثلاثة: الحرائر: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ [النساء: ٢٥] والعفائف: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [المائدة: ٥] والمزوجات والحرائر: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] فـ﴿أُحْصِنَّ﴾ يعني تزوجن و﴿عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي الحرائر، والأصل في الإحصان في الرجل والمرأة إحصان الفرج عن الفحشاء بأي سبب كان، داخلياً نفسياً وهو الأصل: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] أم بالزواج حيث يمنع عن الزنا لأنه يرفع الحاجة إلا للفساق، ودونهما الحرية، إذ يمنع شيئاً ما عن الزنا فإنها ليست مبتذلة والزواج لها أيسر من الأمة!

حاجتهن من الزواج، إذ كن مبتذلات ومبتذلات فلا يرغب فيهن الرجال رواجاً إلّا سفاحاً!

فالمحصنات هنا العفائف غير الزانيات، حرائر أم إماءً، مزوجات وخليّات مسلمات أم كافرات ما دمن غير زانيات[1] بإثباتات شرعية، فإن رأيتها تزني ولا إثبات بشهود أو شهادات أو إقرارات، فهي في ظاهر الحكم بين الكتلة المسلمة محصنة لا يجوز رميها! فالأصل إسلامياً في كل مسلم إحصانه إلّا إذاً ثبت عند الحاكم الشرعي خلافه ولم يتب، إذا فـ ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ هنا لا تعني واقع الإحصان، وإنما ظاهره الأصيل إسلامياً ما لم تنقضه إثباتات شرعية!.

رمي المحصنات بين محرّم ومسموح، فالرامي إذا أتى على رميه بأربعة شهداء عند الحاكم الشرعي على شروطها، أو كان هو من الشهود فرمى قبل شهادته، فمسموح أو قد يجب تحقيقاً لحدود الله، وأما ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ وأما رمي غير المحصنات من الزانيات فإذا كان بعد الإثبات كالشهيرات المعلنات بالزنا التي ثبت زناها بالشهادة، فلا بأس، وأما الرمي بزنا لم تثبت في خصوصهما وإن كانت زانية ففيه التعزير.

كل ما لم يثبت بالإثباتات الشرعية من فاحشة فهو رمي فيه الحد، سواء أكان الرامي غير شاهد، أم شاهداً دون الأربعة، أم أربعة في اختلاف الشهادة زماناً أو مكاناً أو كيفية، فالحد شامل للكل دون هوادة، وكذلك عدم قبول الشهادة أبداً وثبوت الفسق.

---

(١) لأن المحصنات لم تقيد بالمؤمنات، وما في التهذيب بسند صحيح عن أبي بكر الحضرمي عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك ما تقول في الرجل يقذف بعض جاهلية العرب؟ قال: يضرب الحد أن ذلك يدخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أقول: ولا أثر في أخبار الباب عن الاختصاص بالمسلمات.

فإنما الدارئُ للحد هو الإتيان بأربعة شهداء عدول، فإن كان الرامي من الأربعة، إن رمى ثم شهد فيهم فهو، وأما إذا شهد ثم ضم الثلاثة فلا، لأنه بشهادته الوحيدة استحق الحدّ فلا تقبل شهادته، فيضرب الثلاثة حدّ القذف إلّا إذا جهلوا أمره، وأما إذا رمى وليس شهيداً ثم أتى بأربعة شهداء لم يحدّ.

﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ هي الأصل في الشهادة المثبتة للفاحشة زناً ولواطاً ومساحقة، وقد تكفي ثلاثة وامرأتان إطلاقاً، أو رجلان وأربع نساء دون الرجم بالسنة الثابتة، فتقيّد ﴿لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ بغيرهما، فإنهما يقومان مقامهم بثابت السنة، أترى والإتيان بالمرمي لإقرار هل يقوم مقام الإتيان بالشهداء حيث الإقرار إحدى المثبتات؟ علّه نعم، حيث السبب الدارئ لحد القذف هو الإثبات الشرعي للفاحشة والإقرار يثبت! وكأنه لا، حيث الإتيان بالمرمي لإقراره غير مسموح، إلّا أن يأتي هو دون أن يؤتى به، ويقر مخيراً لا مسيّراً، فـ ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا...﴾ ليست لتشمل إلّا الشهادة، أصلية كالأربعة وبديلة كرجلين وأربع نساء، ثم بديل ثان هو الإقرار على شروطه الماضية! فإن أقرّ دون شروطه لم يقبل كما الشهادة غير المقبولة، فيحد الرامي، وإن حكم الحاكم بالفاحشة بحمل المرمي على إقرار حدّ الحاكم مع الرامي للقذف، وإن حدّ المرمي بهذا الحكم ضرب ثمانين أخرى اعتداء بمثل ما اعتدى، فهذه ثمانون ثلاثة أضعاف!

ترى هل من محيص عن هذه الثلاث بتوبة؟ أم تتبعض في تأثير التوبة مهما قبلت ككفارة للخطيئة؟

وهنالك عذاب مثلث على الرامين دون شهادة - إذا رموا عند الحاكم، أم ثبت رميهم بعدلين أو الإقرار مرتين عنده ١ - ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾، ٢ - ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾، ٣ - ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ﴾، لا تقبل لهم شهادة في أي أمرٍ يحتاج إلى شهادة حقوقياً أم جزائياً أمّاذا، وهم الفاسقون عند الله، فلا عدالة لهم في أي أمر يحتاج إلى عدالة، وكل ذلك إذا جمع إلى الرمي عدم الإتيان بأربعة شهداء حيث الحكم معلق عليهما! فإن كان

عدلاً دون هذا القذف فشهد في أمر آخر قبل أن يأتي بأربعة وهو في طريقه إليهم، أو لم يثبت عجزه عن الإتيان بهم، فشهادته مقبولة حتى يأتي بأربعة، فإن عجز ردت شهادته السابقة إذ هو من مصاديق الآية! ولو لم تقبل شهادة القاذف قبل الإتيان بأربعة لما قبلت في قذف الزوجة في نفس الشهادات الأربع، فالقذف بمفرده لا يفسِّق وإنما إذا لم يأت بأربعة أو لم يشهد أربعاً!

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾:

إذا ثبت القذف قبل التوبة فالحد ثابت دون مهادة، فالتائب قبل ثبوت القذف لا ذنب له فلا حد عليه، وكما في أشد منه: من يسعى في الأرض فساداً ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ﴾[1].

ف ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ يعني من بعد الجلد، وإلّا فلا موقع لـ ﴿بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ إذا كانت التوبة تدرأُ الحدّ بعد ثبوت القذف، فإذا تاب عما قذف وأصلح، أن كذّب نفسه عند من قَذف لديه، واسترضى من قذف إن أمكن ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يغفر هذا المثلث، أوّله بما جلِّد عذاباً في الدنيا، دون غفرٌ للجلد، فإنما غفر لذنبه بالجلد، وثانيه «عدم قبول الشهادة» لأنه كان بسبب فسقه وقد تاب عنه وأصلح، وأما ثالثه: «فسقه عند الله»، فكذلك الأمر!.

فسقه هذا سبّب هذه التأديبات الثلاث، فتوبته تغفرها كلها إلّا الجلد لمكان ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ فلا هو يعذب في الآخرة بعد عذاب الدنيا حيث تاب، ولا هو فاسق عند الناس كيلا تقبل شهادته، ولا هو فاسق عند الله لكي يعذب في يوم الله.

فحتى إذا اختص الاستثناء بالجملة الأخيرة[2] وهي هنا فسق القاذف

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٤.

(٢) اختلف الأصوليون أن الاستثناء عقيب جمل متعددة مرتبطة ببعض هل يخص الجملة الأخيرة أم يعم الجميع، والحق هو الثاني فإن مقتضى البيان وبلاغته ولا سيما القرآن الذي هو في =

عند الله، كان شاملاً هنا للثلاث فيما سوى الجلد، لأنها كانت بسبب الفسق عند الله، فمن كان عادلاً عند الله فليكن عادلاً عند الناس، والتائب عن قذفه، المصلح، ليس فاسقاً عند الله، فليكن عادلاً عند الناس، فكيف لا تقبل شهادته بعد؟

فـ ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ مخصوصة بعدم التوبة والإصلاح، وأما بعدهما فشهادتهم مقبولة دون ريبة وكما يؤيده المروي عن الرسول ﷺ والأئمة من آل الرسول عليهم السلام [(١)] وهل تقبل شهادته بعد التوبة قبل الحد؟

= قمة البيان أن يذكر استثناء ما يستثنى منه وراءه دون فصل حتى لا يشتبه الأمر، ففي الآية - بعد الغض عن دلالته الثانية على شموله للجميع، لو كان الاستثناء خاصاً بغير ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ [النور: ٤] لكان حتى الكلام ذكر الاستثناء قبل ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ حتى تكون صريحة في النفي المطلق: ﴿. . . فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً . . .﴾ ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا . . .﴾ [النور: ٤-٥] ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾. ثم واو الجمع في الآية تجعل الجمل الجمل كجملة واحدة والاستثناء راجع إلى الكل كجملة واحدة فاختصاصه بالبعض بحاجة إلى قرينة صارفة.

(١) الدر المنثور ٥: ٢٠ - أخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن النبي ﷺ ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ [النور: ٥] قال: توبتهم إكذابهم أنفسهم فإن كذبوا أنفسهم قبلت شهادتهم، وأخرج عبد الرزاق عن عمرو بن شعيب قال قال رسول الله ﷺ: قضى الله ورسوله أن لا تقبل شهادة ثلاثة ولا اثنين ولا واحد على الزنا ويجلدون ثمانين ولا تقبل لهم شهادة أبداً حتى يتبين للمسلمين منهم توبة نصوح وإصلاح».

ثم أقول: رجوع الاستثناء فقط إلى الجملة الأخيرة لا دليل عليه إطلاقاً، ولا سيما مثل هذه الآية، والجملات الثلاث فيها على أصل واحد هو الفسق المغفور بالتوبة. هذا راجع إلى الرقم (١) وفي نور الثقلين ٣: ٥٧٥ ج ٣٦ - الكافي بإسناده المتصل عن القاسم بن سليمان قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرجل يقذف الرجل فيجلد حداً ثم يتوب ولا يعلم منه إلّا خير أتجوز شهادته؟ قال: نعم - ما يقال عندكم؟ قلت: يقولون: توبته فيما بينه وبين الله ولا تقبل شهادته أبداً، فقال: بئس ما قالوا، كان أبي يقول: إذا تاب ولم يعلم منه إلّا خير جازت شهادته.

وفي الوسائل ١٨ ٢٤٣ ح ١ محمد بن علي بن الحسين بإسناده عن سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال: شهود الزور يجلدون حداً وليس له وقت، ذلك إلى الإمام ويطاف بهم حتى يعرفوا ولا يعودوا قال قلت: فإن تابوا وأصلحوا تقبل شهادتهم بعد؟ قال: إذا تابوا تاب الله عليهم وقبلت شهادتهم بعد. =

لعله لا حيث التوبة المقبولة في الآية هي ﴿بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الحد، فتبقى التوبة قبله في عموم ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ أو علّه نعم فيما إذا لم يُحدّ وهو غير متمنِّع عن الحد تكميلاً للتوبة! ولكنه خلاف ظاهر الآية، وكذلك معظم الروايات الدالة على قبول شهادته بالتوبة بعد الحد، إلّا أنها منصرفة عن الحد الذي لا يُجرى قصوراً من الحاكم لا تقصيراً من القاذف، إذاً فالقبول أشبه وعدمه أحوط!

وأما التوبة بعد ثبوت الرمي وقبل الحد الذي سيُجرى، فهي تزيل الرمي في واجهته الإلٓهية الأخروية، ولا تزيله في الدنيوية الخلقية، فلا تقبل شهادته قبل الحد وهو فاسق قبله، ثم بعد الحد هو عدل تقبل شهادته ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ تشمل كافة الشهادات ومنها أن يشهد أو تشهد أربع شهادات بالله كما في الملاعنة، فلا تقبل هذه الشهادة كغيرها حتى التوبة والإصلاح دون هوادة.

= وفي ٣٨٢ ح ١ عن أبي الصباح الكناني، قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن القاذف بعدما يقام عليه الحد ما توبته؟

قال: يكذب نفسه، قلت: أرأيت إن أكذب نفسه وتاب أتقبل شهادته؟ قال: نعم وفي ح ٣ عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال أمير المؤمنين عليه السلام ليس أحد يصيب حداً فيقام عليه ثم يتوب إلّا جازت شهادته.

وفي ح ٤ عن أحدهما عليه السلام سئل عن الذي يقذف المحصنات تقبل شهادته بعد الحد إذا تاب؟ قال: نعم - قيل: وما توبته؟ قال: يجيء فيكذب نفسه عند الإمام ويقول: قد افتريت على فلانة ويتوب مما قال و٥ عن الكناني قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن القاذف إذا أكذب نفسه وتاب أتقبل شهادته؟ قال: نعم.

وأما ح ٦ عن علي عليه السلام قال: ليس أحد يصيب حداً فيقام عليه ثم يتوب إلاّ جازت شهادته إلا القاذف فإنه لا تقبل شهادته أن توبته فيما كان بينه وبين الله تعالى - فهو مردود بمخالفة الكتاب والسنة المستفيضة!.

إضافة إلى معارضة ما عنه عليه السلام ح ٣ ص ٢٨٤ قال: ليس يصيب أحد حداً فيقام عليه ثم يتوب إلا جازت شهادته وح ١ عن عبد الله بن سنان قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن المحدود إذا تاب أتقبل شهادته؟ فقال: إذا تاب وتوبته أن يرجع مما قال ويكذب نفسه عند الإمام وعند المسلمين فإذا فعل فإن على الإمام أن يقبل شهادته بعد ذلك.

لا أقول تشترط العدالة في شهادة الملاعنة، وإنما عدم القذف أو شهادة غير مقبولة في فاحشة، اللهم إلّا بعد التوبة، فمهما تقبل شهادة الملاعنة من الزوجين وإن كانوا فاسقين، لا تقبل هنا بنص الآية[1] !.

إلّا إذا كان القذف بالنسبة للزوجة فعليه الشهادات الأربع والخامسة بنص آية الملاعنة!

ثم التوبة عن قذف أو شهادة زور قد تكون سراً على غير معرفة الناس العارفين فسقه، فهي إن قبلت عند الله خارجة عن هذه الآية، فكيف تقبل شهادة من لم تعرف توبته، فلتكن على معرفة من الحاكم والذين عرفوا قذفه.

وأما الإصلاح فله أبعاد ثلاثة: إصلاح حاله عند الحاكم أن يكذب نفسه ليقبل شهادته بعده، وإصلاح حال المقذوف عند نفسه اعتذاراً منه، وإصلاحه عند الناس الذين عرفوا قذفه أن يكذب نفسه عندهم، حيث الإصلاح بعد إفساد القذف ينحو منحى سعة الإفساد ومداه كما يستطيع، فلا تفيد توبة دون مثلث الإصلاح، كما لا يفيد الإصلاح دون توبة، في دفع الأحكام الثلاث.

وهل القاذف الصادق المردود قذفه دون شهادة يكذب نفسه في توبته وإصلاحه؟ وهو تكذيب لواقع الصدق! أم يعتذر عما أذنب بقذفه دون تكذيب لنفسه؟ وهو حق! و«أكذب نفسه» في الحديث لا يعني تكذيب صدقه إن صدق، وإنما تكذيب قذفه، فإن كان صادقاً فصادق، وإن كان كاذباً فليكذب كذبه!

أم لأن «أولئك عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكاذِبُونَ» فليكذب نفسه وإن كان صادقاً فإن صدقه في رميه عند الله كذب في حكمة عامة؟ ولكنه لا يستلزم تكذيبه

---

(١) الوسائل ١٨ : ٥٩٨ ج ١٢ «إن علياً عليه السلام قال: ليس بين خمس من النساء وأزواجهن ملاعنة - إلى أن قال - والمجلود في الفرية لأن الله يقول: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ [النّور: ٤] -. أقول إلا الذين تابوا كما يقول الله.

صدقه إن صدق، وإنما اعتذاره عما اتفق لأنه ذنب وكشف ستر عن المسلم!

ثم من إصلاحه إصلاح سمعته بين الذين سمعوا رميه، أن يرجع إلى حالته قبل رميه عند الناس، كما عند الله بالتوبة، فتزول هذه المنعة عن قبول شهادته إن لم تكن فيه منعة أخرى، فـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾ تزيل فقط منعة الفرية، ولا توجب قبول الشهادة دون شرط، وهي لا تقبل في غير المفتري دون شرطٍ، فكيف تقبل من المفتري التائب دون شرط؟!.

وهل يُحدُّ المملوك القاذف نصف الحر كما هو الضابطة في حدّه وفيه روايات؟[١]، أم يحد كالحر لإطلاق الآية وروايات أكثر وأصح[٢] وبه فتوى المعظم من أصحابنا؟ أقواهما دون ريب تمام الحد فحد الفرية ثابت على أية حال أي كان القاذف والمقذوف اللهم إلّا غير البالغة فدونه تأديباً.

ثم الحد يتبع المقذوف عدداً، فإذا قذف جماعة حدّ عددهم إذا فرق القذف عليهم[٣] وإذا قذفهم بكلمة واحدة فإن طالبوا متفرقين حُدَّ عددُهم، وفي مطالبتهم مجتمعين روايات تقول بحد واحد[٤] فهي تقيد إطلاق الآية على تأمّل!.

---

(١) فيه ثلاثة أحاديث (١) يجلد حداً إلا سوطاً أو سوطين (٢) عليه خمسون جلدة (٣) عليه: أربعين، وهي على تضاد بينها مخالفة لظاهر الآية والسنة القطعية الموافقة لظاهر الآية.

(٢) روضة المتقين ١٠ : ١١٤ موثقة سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام والحسن كالصحيح عن الحلبي عنه عليه السلام وفي آخر عن سليمان بن خالد عنه وفي الحسن كالصحيح عن أبي الحضرمي معللاً بـ«هذا من حقوق الناس» والموثق كالصحيح عن سماعة والقوي عن أبي الصباح الكناني عنه عليه السلام والقوي كالصحيح عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام والموثق كالصحيح عن سماعة عنه عليه السلام والحسن كالصحيح عن بكر عن أحدهما والصحيح عن محمد بن مسلم عن أحدهما - كل ذلك صريحة في تمام الحد على المملوك القاذف.

(٣) المصدر عن الحسن العطار قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام رجل قذف قوماً بكلمة واحدة قال: بكلمة واحدة؟ قلت: نعم قال: يضرب حداً فإن فرق بينهم في القذف ضرب لكل واحد منهم حداً.

(٤) الوسائل ١٨ : ٤٤٤ صحيحة جميل بن دراج عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن رجل=

وأما إذا قذف جماعة واحداً فعلى كل واحدٍ منهم حدٌّ دون ريب كما في شهود الفاحشة دون شرط الشهادة، وكما المحصنات المرميات تعمهن مسلمات وكافرات حرائر وإماء، كذلك الرامي يعم كل من رمى، اللهم إلّا غير المكلفين رامياً ومرمياً فلا حدّ عليهم في الدنيا كما لا عقوبة عليهم في الآخرة.

ولا بد في القذف من لفظ صريح أو ظاهر كالصريح[1]، وأن يعرف معناه ويعنيه، فلا حد في غير الظاهر، أم في الظاهر الذي لا يفهمه أم لا يعنيه، ولكن عليه التبيين لمن اشتبه عليه الأمر، والظاهر في حد القذف - وبأحرى من حدّ الزنا - بين الضربين كما واستفاضت به الروايات.

وإذا تقاذف اثنان فهل يحدّأن لإطلاق الآية؟ أم يسقط عنهما الحد إلى التعزيزَ لتهاتر الحقين ويكفي التعزيزَ في حق الله؟ ظاهر إطلاق الآية الأول، ولكنها تقيد بالسنة[2].

وعند التردد يدرأُ الحد بالشبهة، والثابت بالسنة جواز العفو عن حدّ القذف[3] مما يدل أنه من حقوق الناس، فيصح فيه التهاتر إلّا إذا لم يرضيا.

= افترى على قوم جماعة؟ قال: إن أتوا به مجتمعين ضرب حداً واحداً وإن أتوا متفرقين ضرب لكل منهم حداً.

(١) الوسائل ٤٥٣ ح ٦ عن إسحاق بن عمار عن جعفر عليه السلام أن علياً كان يعزر في الهجاء ولا يجلد الحد إلّا في الفرية المصرحة أن يقول: يا زان أو يا بن الزانية أو لست لأبيك.

(٢) الوسائل ١٨ : ٤٥١ ج ١ عن عبد الله بن سنان قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجلين افترى كل واحد منهما على صاحبه فقال: يدرأ عنهما الحد ويعزران وكذلك ح ٢ عن علي عليه السلام.

(٣) الوسائل ١٨ : ٤٥٤ باب جواز عفو المقذوف عن حقه الأصلي والمنتقل إليه بالميراث فيسقط الحد.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١﴾ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴿١٢﴾ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ

خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾

الآيات الثلاث (٧ - ١٠) هي في بيان اللعان بأهم أسبابه[١] في قذف الزوجات بعد قذف الأجنبيات: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ هم البعولة رمياً لزوجاتهم بفاحشة زناً أم ومساحقة، ولولا ضمائر الأنوثة هنا بعد الذكورة لعمت الزوجين، و﴿أَزْوَٰجَهُمْ﴾ تعم كافة الأزواج دائمات ومنقطعات، ثيبات وأبكاراً، حرائر وإماءً، مدخولات وغيرهن، إلّا الحلائل بغير الزواج كمن أحلّت بملك اليمين إذ لا تصدق عليهم صيغة «الأزواج»[٢] والمجلود بفرية قبل التوبة[٣] وإلّا من خرجن بسنة ثابتة كغير المدخول بها فلا يقع عليها اللعان ويُضرب الحد ويخلى بينه وبينها[٤] إلّا أن تقر أو يأتي بأربعة شهداء، وهل يتحقق لعان مع المتمتع بها؟ ظاهر الآية بإطلاقها نعم، فإنها زوجة، وفي نصوص من السنة لا[٥] فلتقيد الآية بها ولا سيما أن الزواج منصرف

(١) فإن منها إنكار من ولد على فراشه لستة أشهر فصاعداً من زوجه موطوءة بالعقد الدائم ما لم يتجاوز أقصى الحمل، وكذا لو أنكره بعد فراقها ولم تتزوج أو بعد أن تزوجت وولدت لأقل من ستة أشهر منذ دخل.

(٢) في ملاعنة المملوكة دون زواج روايتان إثباتاً ونفياً والنافية موافقة للآية.

(٣) في الوسائل ١٨ : ٥٦٨ ج ١٢ أن علياً عليه السلام قال ليس بين خمس من النساء وأزواجهن لعان. . . والمجلود في الفرية لأن الله يقول: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ [النور: ٤].

(٤) الوسائل ١٨ : ٥٩٠ باب ٢ - أنه لا يقع اللعان إلّا بعد الدخول، فيه ثمانية أحاديث كلها تدل على هذا الشرط مثل قول أبي عبد الله عليه السلام لا يقع اللعان حتى يدخل الرجل بأهله.

وفي روضة المتقين ١٢٠ : ١١٠ في الحسن كالصحيح عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابه قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: الرجل يقذف امرأته قبل أن يدخل بها قال: يضرب الحد ويخلى بينه وبينها.

(٥) الوسائل ١٨ : ٥٩٦ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا يلاعن الحر الأمة ولا الذمية ولا التي=

إلى الدائم إلّا إذا قيد بالانقطاع أو صرح بالعموم، ومهما يكن من إطلاق في الآية فهو ضعيف يقيّد بثابت السنة دون هوادة، إضافة إلى أن الرجم الثابت في المحصنة ليس في المتعة إذ لا يثبت بها الإحصان، ويبقى حدُّ المائة وليس يثبت إلا بالشهود وليست هنا إلّا الشهادات!

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ فالذين يرمون غير أزواجهم ولم يكن له شهداء إلّا أنفسهم يكذّبون ويُحدُّون، وأما الذين يرمون أزواجهم فلهم مندوحة عن الشهداء، إذ ليس لهم سبيل في الأغلب إلى إشهاد الشهداء، وليسوا ليصبروا على الفاحشة بأزواجهم وهم معهن، فلتكن هنا مندوحة لهم عن الشهداء، ولقد تظافرت الروايات أن هذه الحاجة المدقعة هي شأن نزول هذه الآية، وهل تلحق الرامية زوجها بالرامي زوجه؟ آية الملاعنة تخصهم دونهن، فإذا رمت زوجها دون شهود حدّث ولا تفيدها شهاداتها الأربع، ثم الضرورة المحرجة ليست إلّا في الرامين دون الراميات، فحيث الزوجة لا تأتي الفاحشة في أكثرية مطلقة خارج البيت، فالزوج يأتي بها في الأكثر خارج البيت، فلا صعوبة ولا حرج في إبقاء الزوجة تحت عموم آية القذف، بخلاف الزوج!.

ثم ﴿فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍۭ...﴾ متفرعة على ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ فإن كانت لهم شهداء بشروطها، لم تكن شهاداتهم إلّا الشهداء دون أربع شهادات، فإنها مندوحة عما لم يكن لهم شهداء إلّا أنفسهم، فإذا عجزوا عن الإتيان بأربعة شهداء، فليشهدوا بأنفسهم كما قال الله.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ يخص بما ليس هنالك أربعة يشهدون،

= يتمتع بها، أقول يعني الأمة غير الزوجة والذمية المملوكة كذلك، لإطلاق الآية وخصوص الروايات ومنها ح ٥ عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن الحر يلاعن المملوكة؟ قال: نعم إذا كان مولاها الذي زوجها إياه ومثله ح ٦ و٨ وفي ص ٦٠٥ ح ١ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا يلاعن الرجل المرأة التي يتمتع منها.

حيث الشهداء المقبولون ليسوا إلّا أربعة، فيعم إذا كان هو من الأربعة[١] كما يعم غيره منهم إذا لم يكن شاهداً وغيره يشهدون، فيشهد مرتين كثالث ورابع أماذا؟ و﴿شُهَدَآءُ﴾ في الآية تعني المقررة المقبولة، من الأربعة سواه إن لم يكن هو من أهلها، أو الثلاثة معه إن كان هو من أهلها، وإلّا أنفسهم تثبت شهادة الإنسان لنفسه، فينتقل عمن دونهم إلى شهاداته الأربع دون وسيط بينهما بجمع أمّاذا!.

فسواء ألم يكن هناك شاهدٌ سواه، أم كانوا معه دون الأربعة، فالحكم «أن يشهد أربع شهادات بالله...» سواء كان عدلاً أم سواه[٢] ولكنّه يشهد على الرؤية بشروطها كما الشهود الأربعة.

﴿إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ كما تدل على قبول شهادته نفسه على زوجه مع الشهداء، كذلك تدل على اشتراط شهادته نفسه الفاحشة بزوجه دون سماع وظنّه، وهل يكفي علمه دون رؤية؟ والشهادة تلقياً ليست إلّا برؤية وإلقاء ليست إلّا عن رؤية! أم لا يكفي؟ وشهادته أربعاً بصدقه لا تخص رؤيته! حيث الصدق في رمي لا يختص برؤية! فيه تردد والأشبه عدم قبولها إلّا برؤية لمكان ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ حيث تخص علم الرؤية، دون علم الدراية وإن كان بغير

---

(١) الوسائل ١٨ : ٦٠٦ باب حكم ما لو شهد أربعة على امرأة بالزنا أحدهم زوجها - ح ١ في القول عن إبراهيم بن نعيم عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألته عن أربعة شهود على امرأة بالزنا أحدهم زوجها؟ قال: تجوز شهادتهم، أقول وفي ح ٢ عنه عليه السلام وح ٣ عن أحدهما في نفس المسألة قال: «يلاعن الزوج ويجلد الآخرون» وهو محمول على، إذا كان الزوج أو أحد الشهود غير عادل طرحاً لإطلاقهما لمخالفة القرآن وما في روضة المتقين ١٠ : ١١٩ روى الشيخ في القوي عن إسماعيل بن فراش عن زرارة عن أحدهما في أربعة شهدوا على امرأة بالزنا أحدهم زوجها قال: يلاعن الزوج ويجلد الآخرون، فمطروح بظاهر الكتاب والسنة أو مؤول باختلال في شروط الشهادة.

(٢) فإنما العدالة معتبرة حسب النصوص في الشهود فلا تعم شهاداته نفسه، وإنما يعتبر عدم رميه لغير زوجه، أو عدم توبته بعد الحد أما ذا من موارد ترجعه إلى قبول شهادته بعد الرمي.

رؤية، وشهادته أربعاً تخص صدقه في الرؤية لا علمه الدراية فيبقى غير شهادة الرؤية تحت إطلاق الآية السابقة ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾... وقد تظافرت به الرواية[1].

ترى إذا رمي غير زوجه يحدّ إلّا إذا اعترفت أو جاء بأربعة شهداء، وإذا رمى زوجه تضاف إلى داريءِ الشهود والإقرار شهاداته الأربع إذ لا شهود ولا إقرار، فما هو الفارق بينهما؟.

لعله أنه لا معرّة عليه في زنا الأجنبية والأولى أن يستره أو يجب، وعليه المعرة التي لا تتحمل في زنا زوجه ولا يتمكن أن يستره، وتحصيل البينة عليه عسير غير يسير، وغيرة الزوج يمنعه أن يرمي زوجته بفاحشة إلّا عن صدق وحقيقة، إذاً فشهادته بطبيعة الحال صادقة تؤكد بأربع شهادات بالله ثم واحدة،

(١) الوسائل ١٨ : ٥٩٤ باب ٤ - أن من قذف زوجته لم يثبت بينهما لعان حتى يدعى معاينة الزنا ففي ح ٥ عن محمد بن سليمان عن أبي جعفر الثاني قال قلت له: كيف صار الزوج إذا قذف امرأته كانت شهادته أربع شهادات بالله؟ وكيف لا يجوز ذلك لغيره وصار إذا قذفها غير الزوج جلد الحد ولو كان ولداً أو أخاً؟ فقال: قد سئل جعفر عليه السلام عن هذا فقال: ألا ترى أنه إذا قذف الزوج امرأته قيل له: وكيف علمت أنها فاعلة؟ فإن قال رأيت ذلك منها بعيني كانت شهادته أربع شهادات بالله وذلك أنه قد يجوز للرجل أن يدخل المدخل في الخلوة التي لا يصلح لغيره أن يدخلها ولا يشهدها ولد ولا والد في الليل والنهار فلذلك صارت شهادته أربع شهادات إذا قال: رأيت ذلك بعيني، وإذا قال إني لم أعاين صار قاذفاً وضرب الحد إلا أن تقيم عليها البينة وإن زعم غير الزوج إذا قذف وادعى أنه رآه بعينه قيل له كيف رأيت ذلك «وما أدخلك ذلك المدخل الذي فيه هذا وحدك، أنت متهم في دعواك فإن كنت صادقاً فأنت في حد التهمة فلا بد من أدبك بالحد الذي أوجبه الله عليك، قال: وإنما صارت شهادة الزوج أربع شهادات لمكان الأربعة الشهداء مكان كل شاهد يمين.

وفي ح عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام: قال: إذا قذف الرجل امرأته فإنه لا يلاعنها حتى يقول: رأيت بين رجليها رجلاً يزني بها ومثله ح ١ و٢ و٣ وفي ٦ عن الرضا عليه السلام وإنما صارت شهادة الزوج أربع شهادات بالله لمكان الأربعة الشهداء مكان كل شاهد يمين، وفي روضة المتقين ١٠ : ١١٠ في الحسن كالصحيح عن محمد بن مسلم قال سألته عن الرجل يفتري على امرأته؟ قال: يجلد ثم يخلى بينهما ولا يلاعنها حتى يقول أشهد أني رأيتك تفعلين كذا وكذا.

ولا تشترط فيه العدالة المشروطة في سائر الأشهاد لبعده البعيد عن الكذبة، اللّهم إلّا القاذف غير زوجه دون توبة! أو بتوبة قبل الحد.

فآية اللعان تخصص آية الرمي بالأجنبية أم هي لها ناسخة، كما تظافرت به السنة، فإنها نزلت بعدها، والرامي إذا لاعن قبلها دون هوادة يدرأُ عنه العذاب، وإذا ردته المرمية بلعانها يدرأُ عنها أيضاً، فإن لم يلاعن ولم يقبل حُدَّ ولا لعان عليها، إذ لا ردّ على غير الثابت، وإذا لاعن ولم تقبل هي تعذب دونه، والكل مستفادة من آيات اللعان، ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ . . .﴾ فإن لم يشهد كان قاذفاً بلا بينة ولا شهادة ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ ثم الفاحشة تثبت بهذه الشهادة فالعذاب: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ. . .﴾ فإذا لم تشهد فلا يدرأُ عنها العذاب.

وصيغة الشهادة «أشهد بالله أنني صادق وأشهد بالله أن علي لعنة الله إن كنت كاذباً» و«أشهد بالله إنه من الكاذبين وأشهد بالله إن غضب الله علي إن كان من الصادقين».

ترى ولماذا لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، وغضب الله عليها إن كان من الصادقين؟ لأن في كذبه قذفاً وفي صدقه فاحشة المحصنة، وهذه أفحش من ذاك فلتُغضب وهو أشد من لعن، كما وأن عذاب الفاحشة في الآخرة أشد من القذف وأنكى، إذا لم يثبتا في الدنيا.

ترى وماذا بعد الملاعنة بينهما؟ الثابت في السنة أنه يفرق بينهما حرمة أبدية إطباقاً بين المسلمين كافة، فهل تبقى الزوجية على حرمة؟ وفيه إجحاف على الزوجة وقد خرجت عن العذاب والتهمة بلعانها، وإجحاف على الزوج وقد خرج عن خلفيات القذف بلعانه! أم إنها كالطلاق التاسع المحرَّم أبدياً؟ قد يجوز[١]! أم أن الفرقة المجوزة لزواجها بعد العدة وزواجه بالرابعة

(١) نور الثقلين ٣: ٥٧٨ ح ٥٣ عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث القذف «فإذا أقر =

بحاجة إلى طلاق بعد الملاعنة؟ ولا دليل عليه! ولا نعرف حرمة أبدية بين الزوجين إلّا في إفضاء وملاعنة، ورغم أن في الإفضاء النفقة الدائمة يجوز للمفضاة الزواج بعد العدة فالملاعنة الأولى، ثم لا لعان بعد لعان بانقطاع الزوجية، فإذا قذفها بعدها فحكمه حكم قذف الأجنبية.

ولا يتم التفريق بينهما إلّا بكمال الملاعنة، فإن نكل أو نكلت قبل الخامسة فلا تفريق ويحدّ الناكل حيث اللعان المسقط للحد هو كمالها منهما، وإن كان لها ولد نفاه بلعانه ودرأت بلعانها، فهو يُنفى عنه ويلحق بأمه، ثم هو يرث والده ولا يرثه والده.

ويقدم الزوج في اللعان دون الزوجة، فإن لعان الزوجة المقذوفة ليس إلا لدرء العذاب الذي لا يثبت إلا بلعان الزوج بعد قذفه: ﴿وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ...﴾ ولا عذاب عليها قبل لعانه حتى يدرأ بلعانها قبله!.

= لى نفسه قبل الملاعنة جلد حداً وهي امرأته» وهذا بعد قوله فيه: «يلاعنها ثم يفرق بينهما فلا تحل له أبداً» أقول فهي بعد الملاعنة ليست امرأته.

وفي ح ٥٧ علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر قال: ... أن نكل في الخامسة فهي امرأته وجلد...

وفي روضة المتقين ١٠ : ١١٠ روى الشيخان في الصحيح عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا قذف الرجل امرأته ثم أكذب نفسه جلد الحد وكانت امرأته، وإن لم يكذب نفسه تلاعنا ويفرق بينهما، أقول: يفرق بينهما مقابل وكانت امرأته يعني فراق الزوجية، وفي الوسائل ١٥ : ٥٨٦ عن أبي عبد الله عليه السلام... ففرق بينهما (يعني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) وقال لهما: لا تجتمعا بنكاح أبداً بعدما تلاعنتما، وعن الرضا عليه السلام وإن لم تنكل درء عنها الحد وهو الرجم يفرق بينهما ولا تحل له أبداً، وح ٧ سئل أبو عبد الله عليه السلام... إلى أن قال: فإن لم تفعل رجمت وإن فعلت درأت عن نفسها الحد ثم لا تحل له إلى يوم القيامة...

وفي الدر المنثور ٥ : ٢٢ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في رمي هلال بن أمية... ففرق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بينهما وقضى أنه لا يدعى لأب ولا يرمي ولدها من أجل الشهادات الخمس وقضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه ليس لها قوت ولا سكنى ولا عدة من أجل انهما تفرقاً من غير طلاق ولا متوفي عنها، أقول فهل يجوز لها أن تتزوج دون عدة، أم حرام عليها الزواج بغيره وهذا حرج، ولعل لا عدة تعني العدة الرجعية، فهي تعتد بائنة ثم تتزوج حيث تشاء.

وهل للزوجة المرمية أن تعفو عن زوجها قبل الملاعنة؟ في الصحيح لا[١] وفي رمي غيرها نعم[٢] وعلّه لأن في عفوها عنه شائبة إقرار بالفاحشة حيث قال عليه السلام : لا ولا كرامة! وحدّ القذف حق من حقوق الناس[٣] إذا تنازل عنه فلا رجوع إليه وإلّا فثابت يجري.

وهل للزوج قتل زوجته إذا رآها تزني، أم لا يجوز له إلّا أن يأتي بشهداء أو يلاعنها؟ ظاهر الآية أن ليس له إلا أحد هذين مترتباً، ولا يجوز القتل إلا بقتل أم وأمور أخرى كفاحشة المحصنة، وليست تثبت إلّا بالشهود، أو بالشهادات إذا نكلت عنها في الملاعنة، وعمومات وإطلاقات الكتاب والسنة كذلك متجاوبة في ذلك.

ومن ناحية الاعتبار إذا كان حدّها بنكولها عن الشهادات الدارئة بعد شهاداته، وإن لم يشهد يُحدُّ هو دونها، وإن تلاعنا سقط الحد عنهما، فكيف يجوز له قتلها دون شهادات، ولا يجوز بشهاداته إلّا إذا نكلت فرجماً.

هذا ويأحرى لا يجوز له قتل الزاني، فمهما أثبتت شهاداته جريمتها إذا نكلت، فلا تثبت جريمته إذ لا ملاعنة معه وكما يدل على الحرمة صريح السنة[٤] إضافة إلى الضابطة العامة كتاباً وسنة:

---

(١) روضة المتقين ١٠ : ١٠١ صحيحة محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام في الذي يقذف امرأته؟ قال: يجلد قلت: أرأيت إن عفت عنه قال: لا ولا كرامة.

(٢) في جواز العفو من غير الزوجة روايات متعددة في المصدر والوسائل.

(٣) روضة المتقين في الحسن كالصحيح عن أبي بكر الحضرمي قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن عبد مملوك قذف حراً؟ قال: يجلد ثمانين هذا حق من حقوق الناس.

(٤) الدر المنثور ٥ : ٢٣ - أخرج ابن أبي شيبة وأحمد بن مسلم وعبد بن حميد وأبو داود وابن ماجة وابن حبان وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن أبي عمر قال: كنا جلوساً عشية الجمعة في المسجد فجاء رجل من الأنصار فقال أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً فقتله قتلتموه وإن تكلم جلدتموه وإن سكت سكت على غيظ والله لئن أصبحت صالحاً لأسألن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسأله فقال يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم! أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً فقتله قتلتموه وإن تكلم جلدتموه وإن سكت سكت على غيظ اللهم احكم فنزلت آية اللعان فكان ذلك الرجل=

«عدم جواز القتل إلا بسبب قاطع» ولا سبب هنا يجوّز قتله! وكما يروى عنه ﷺ [(١)]: «لو قتله قتل به ولو قذفه جلد ولو قذفها لاعنها» والضابطة العامة إسلامياً كف اللسان عن التقول في النواميس حتى إذا كان حقاً، اللّهم إلّا في الشهادة لمن تلقاها على شروطها، فلا يقذف حتى الكافر[(٢)] فضلاً عن المسلم الذي يخالف مذهبك أم المشكوك في أمره

= أوّل من ابتلى به، أقول: وقد تظافرت أحاديث الفريقين أن هذه الآية نزلت بعد ابتلاءات كهذه فنسخت عموم ﴿ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ [النّور: ٢٣] وكما أخرج البزاز عن جابر قال: . . . ما نزلت آية التلاعن إلا لكثرة السؤال.

وفيه أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر والطبراني عن سهل بن سعد قال جاء عويمر إلى عاصم بن عدي فقال سل رسول الله ﷺ أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فقتله أيقتل به أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم بن عدي فقال سل رسول الله ﷺ المسائل فلقيه عويمر فقال: ما صنعت؟ فقال إنك لم تأتني بخبر سألت رسول الله ﷺ فعاب المسائل فقال: والله لآتين رسول الله ﷺ ولأسألنه فوجده قد أنزل عليه فدعا بهما فلاعن بينهما . . .

أقول: لم يعب رسول الله ﷺ أصل السؤال فإنه ممدوح وتركه عيب وإنما عاب قوله: فقتله.

وفيه أخرج البزاز عن حذيفة بن اليمان قال قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: لو رأيت مع أم رومان رجلاً ما كنت فاعلاً به؟ قال: كنت والله فاعلاً به شراً قال: فأنت يا عمر؟ قال: كنت والله قاتله فنزلت ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ . . .﴾ [النّور: ٦].

(١) وفيه أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن زيد بن نفيع أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: لو وجدت مع أهلك رجلاً كيف كنت صانعاً؟ قال: إذاً لقتلته ثم قال لعمر فقال مثل ذلك فتتابع القوم على قول أبي بكر وعمر ثم قال لسهيل بن البيضاء قال كنت أقول: لعنك الله فأنت خبيثه ولعنك الله فأنت خبيث ولعن الله أوّل الثلاثة منا يخرج هذا الحديث فقال رسول الله ﷺ تأولت القرآن يا بن البيضاء لو قتله قتل به ولو قذفه جلد ولو قذفها لاعنها، أقول «تأولت القرآن» و«لاعنها» دليل أنه كان بعد نزول آية الملاعنة.

(٢) روضة المتقين ١٠: ١٠٦ في الحسن كالصحيح عن أبي عمر عن أبي الحسن الحذاء قال كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فسألني رجل ما فعل غريمك؟ قلت ذاك ابن الفاعلة فنظر الي أبو عبد الله عليه السلام نظراً شديداً قال قلت له: جعلت فداك إنه مجوس أمه أخته قال: أوليس ذلك في دينهم نكاح؟

وفيه في القوي عن عمرو بن شمر قال كان لأبي عبد الله عليه السلام صديق لا يكاد يفارقه إذا ذهب مكاناً فبينا هو يمشي معه في الحذائين ومعه غلام له سندي يمشي خلفهما إذ التفت الرجل =

فاحشة أم آية رذيلة، فالأصل في المسلم العدالة وفي أفعاله الصحة إلّا إذا ثبت خلافها فستراً إلّا في موارد لزوم الشهادة أمّا ذا من متطلبات الإفساد على حدودها الشرعية.

فرعان: الأول: إذا نكلت عن الشهادات هل ترجم كما في الشهود أم لا ترجم؟ الظاهر هو الرجم لأن الشهادات هي بديلة الشهداء! اللّهم إلّا إذا كانت زوجته أمة لغيره فخمسون: نصف حد الحرة غير المزوجة.

الثاني: إذا رمى زوجته والزاني بها فإن أتى بشهود أربعة ثبتت عليهما، وإن لم يأت لا بشهود ولا الشهادات حدّ حدين للقذفين، وإن شهد الأربع والخامسة حدَّ لقذف الرجل دون زوجته، فلا يجوز قذف الزاني بزوجته إن لم يكن له شهداء مهما جاز قذف زوجته بشهاداته الخمس!

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾:

جواب لولا هو الواقع المرّ المظلم في جو الفاحشة والقذف بها، لولا فضل الله عليكم بمنعها والتنديد الشديد عليها، ولولا رحمته بفرض العذاب على مقترفيها، و«لو» تحيل ترك الفضل والرحمة فرضاً لها على نفسه تعالى حيث ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[1].

صحيح أن الحد عذاب على مستحقيه، ولكنه رحمة للجماعة المؤمنة ككلٍّ، وللمحدود أيضاً لكي يتأدب بأدب الله فلا يقترف حرمات الله!

= يريد غلامه ثلاث مرات فلم يره فلما نظر في الرابعة قال: يا بن الفاعلة أين كنت؟ قال: فرفع أبو عبد الله عليه السلام يده فصك بها جبهة نفسه ثم قال: سبحان الله تقذف أمه؟ قد كنت أرى أن؟ لك ورعاً فإذا ليس لك ورع فقال: جعلت فداك إن أمة سندية مشركة فقال: أما علمت أن لكل أمة نكاحاً تنح عني قال: فما رأيته يمشي معه حتى فرق بينهما الموت، وفي رواية أخرى إن لكل قوم نكاحاً يحتجزون به عن الزنا.

في كلٍّ من قصة مارية وعائشة خليط من الغث والسمين فإليكم إياهما باختصار

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢.

التشديد في النهي - فقط - عن الفاحشة وقذفها لا يغني وحده في صيانة النواميس والأعراض، حيث الألسنة زلقة، والأهواء والشهوات الجنسية حاضرة حاذرة، لا يكفي سياجاً عليها التخويف الأخروي، فالعقوبات الدنيوية بالنسبة لأمثال هذه الجرائم ضمانات وقائية لتطهير الجوّ وتداوم طهارته.

فترك الألسنة تزلق كما تهوى على الأبرياء بلا منعة إلّا تخويفاً عما بعد الموت، يترك المجال فسيحاً لتكدير الجو فتكويره عن أدبه الجماهيري، فتصبح الجماعة وتمسي وإذا بأعراضها مجرحة محرجة، وسُمعتها ملوثة مدنسة، وإذا بكلٍّ من الزوجين شاك في زوجه، وبكل فردٍ شاك في أصله ونسله.

لذلك فليجعل الفاحش والقاذف في زاوية بعيدة عن الخلق ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ﴾ وعن الخالق ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ ومعهما العذاب الحدّ يوم الدنيا، اللهم إلّا أن يتوب ويثوب إلى ربه ويصلح حاله.

كذلك وتحريم زواج الزانية والزاني بمسلم ومسلمة عزلة ناكبة بئيسة تزيلها التوبة فـ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١) وكما هنا وفي (٣٠) إلّا ذيلها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾:

الإفك هو المصروف عن وجهه عقيدة أو قولاً أو فعلاً عامداً عانداً، وهنا المقصود إفك القول: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾(٢) افتراءً على بيت الرسالة القدسية المحمدية والذين معه، ولا يعني «الإفك» هذا فرية واحدة تختلف

(١) سورة النور، الآية: ١٤.
(٢) سورة النور، الآية: ١٥.

فيها كلمة المسلمين بين مارية القبطية[١] وعائشة[٢]، بل هو جنسه الذي يشملهما وسواهما من كبيرة وصغيرة فـ ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ يجعله أعم منهما، فكبره مجموع ما يرويه الشيعة والسنة من عائشة ومارية حيث افتري عليهما، الأمر الذي كلف أطهر النفوس في تاريخ الإنسان آلاماً، كما كلّف الأمة الإسلامية تجربة دراسية من أشق التجارب.

---

(١) نور الثقلين ٣: ٥٨١ - القمي بإسناده عن زرارة قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول لما هلك إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حزن عليه حزناً شديداً فقالت عائشة: ما الذي يحزنك عليه؟ ما هو إلّا ابن جريح! فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام وأمره بقتله فذهب علي عليه السلام ومعه السيف وكان جريح القبطي في حائط فضرب على باب البستان فأقبل جريح له ليفتح الباب فلما رأى علياً عليه السلام عرف في وجهه الغضب فأدبر راجعاً ولم يفتح باب البستان فوثب علي عليه السلام على الحائط ونزل إلى البستان واتبعه وولى جريح مدبراً فلما خشي أن يرهقه صعد في نخلة وصعد علي في أثره فلما دنى منه رمى بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته فإذا ليس له ما للرجال ولا له ما للنساء فانصرف علي عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ! إذا بعثتني في الأمر أكون كالمسمار المحمى في الوبر أم أثبت؟ قال: لا بل تثبت - قال: والذي بعثك بالحق ما له ما للرجال وما له ما للنساء فقال: الحمد لله الذي صرف عنا السوء أهل البيت!
أقول: أصل الإفك في مارية ما عساه يقبل، إلّا إن في حديثه هذا أموراً عدة يجب أن تنزه ساحة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عنها: كيف يقبل الرسول قول امرأة في هكذا إفك ثم يبعث علياً لقتل المقذوف دون المقذوفة، رغم أنه لو ثبتت تلك الفاحشة فالمحصنة هي التي ترجم دون الزاني غير المحصن فإنه يجلد؟ وكيف لم يحدّ عائشة بدلاً عن جريح لقذفها إن كانت هي الآفكة؟ والآيات التالية لآية الإفك تدل بصراحة أنها نازلة بعد آيات الشهداء الأربعة وقذف الرامي ولأن سورة النور مترتبة الآيات كما هي نزولاً فتلك متقدمة على آية الإفك، ثم وهي تندد كأشد ما يكون بمن يظن شراً إذ يسمعه إفكاً بمؤمن أو مؤمنة ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النُّور: ١٥] وما أبعد ساحة الرسول عن هذه التخلفات التي هي بعيدة عن المتوسطين في الإيمان.

(٢) روايات متظافرة من طرق إخواننا السنة أن الإفك كان موجهاً إلى عائشة، وهي فيما تدل على ارتياب النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أمرها لما سمع الإفك عليها مردودة حيث الآيات تندد بالمرتابين من المؤمنين فيما يسمعونه من إفك فضلاً عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، فأصل الإفك إلى عائشة ثابت في السنة، يقبل منها كما تقول الآية، ويطرح ما تحيد عنه ساحة الرسالة القدسية.
وقد تولى الإفك عليها عبد الله بن أُبي ابن سلول ومعه نفر آخرون أصبحوا عصبة متعصبة في إذاعة إفكهم، وليس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليسكت عن ذلك أو يتشكك دونما شهادة، وقد كان عليه حدّهم فمن طبيعة الحال أنه حدّهم قبل نزول الآية إذ سبق الحد في آيات قبلها.

والعصبة جماعة متعصبة متعاضدة، لو أنها كانت على حق تتعصب له عن حجة وتتعاضد فنعماً هي، ولكنها تعصبت على إفك مبين ضد البيت الرسالي الطاهر الأمين، متعاضدة في إذاعته فإضاعتها فبئسما هي، ويا لها من خطر عظيم على ذلك الجوّ الطاهر، يُظلم الجوّ الإسلامي الباهر إلى غسق، ويَظلم المسلمين في ذلك الغسق.

الذين جاؤوا بالإفك عصبة، والإفك كِبره موجَّه إلى بيت الرسالة، وصغره إلى الذين معه، فليكن ذلك الإفك - على دركاته - شراً للمسلمين أجمع، إذ يدنس ساحة الرسالة القدسية بين الجماهير المؤمنة وسواها - ولكن - رغم أنه شر ما أشره في نفسه:

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ﴾ فإن الله يدافع عن الذين آمنوا كما دافع عن بيت الرسالة هذه الفضيحة، أن بيّن إفكهم ووضّح طهارة المفترى عليهما، وفضح العصبة المفترية.

﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فـــإن ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾!

فوزره عليهم وهم مفضحون، ثم يخفِّف عنكم من أوزاركم بما افتري عليكم مظلومين!

إنه خير لكم: «الكتلة المؤمنة» إذ يكشف عن الكائدين للإسلام في شخص الرسول ﷺ وأزواجه، ويكشف لكم عن المنهج القويم في مواجهة مثل هذا الأمر العظيم! ويبين الخطورة المحدقة بالجماعة المسلمة لو أطلقت فيها ألسنة الإفك والرمي، إذ تعدم حينئذ كل وقاية وتحرّج وحياء، وتلفّظ في كل دعاية وتجرّح لعناء.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم﴾ عصبة منكم جاؤوا بالإفك ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ﴾ حسب دركاته من كبره وصغره وعوان بين ذلك، والإثم وهو الأثر السيّىء، ولم يكن

في هذا العلاج العجال إلا لعصبة الإفك إذ حُدُّوا[١] وفضحوا وتميزوا عن سائر المؤمنين، فطهر بذلك جو الإيمان بعد كُدره بخائبة النفاق الخائنة!

فالجائي بأصل الإفك - ابن سلول - هو الذي تولى كبره، والذين تعصبوا معه من العصبة الملعونة الأولى، هم تولوا أدنى منه، حيث سمعوه منه وأصبحوا مثله عصبة الإفك: إذاعة جهنمية في المدنية كلها!.

روي أن عبد الله بن أبي ابن سلول ابتلي بالعمى، وهو شيء من عذابه في الدنيا بعد الحدّ، ثم في الآخرة عذاب عظيم! فإنه هو ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ فهو البادئ في إفكه فانخدع فيه جماعة كأضرابه فأصبحوا عصبة كحمنة بنت جحش وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة أمّن ذا، فأصبحوا عصبة يرأسهم بن أبي سلول الغادر الماكر، تلك العصبة المنافقة التي كانت من أولئك العصبات المعادية للإسلام، المتربصة به وبأهله ونبيه دوائر السوء خفية، حيث عجزت عن محاربته جهرة، فتوارت وراء ستار الإسلام ليكيدوه ويضربوا خناجرهم في قلبه من الوراء، ولقد أرجفت هذه العصبة المدينة قرابة شهر، وتداولت الألسنة إفكهم في أطهر بيئة على أطهر بيت من بيوتات الرسالات السامية، فكان حقاً على الله تنزيل هذه الآيات، تنديدات أكيدات مكررات شديدات!

وإن الإنسان ليدهش من تلكم المعركة الصاخبة التي خاضتها تلك العصبة الملعونة، كيف تمكنت من هذه الفرية الساقطة على بيت الرسول الطاهر الأمين، وعلّها أو أنها أضخم المعارك التي واجهها الرسول ﷺ طيلة حياته الرسولية.

لو استشار كل مؤمن عن ذلك الإفك لهداه فطرته، وساقته فكرته أنه إفك مبين!.

---

(١) في أحاديث الإفك أن النبي ﷺ دعاهم بعدما نزلت آيات الإفك فحدهم جميعاً...

فهذا تنديد شديد بالذين جاؤوا بالإفك، ومن ثم الذين سمعوه مندفعين غير دافعين:

﴿لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾:

فإنها تنديد بالذين سمعوا الإفك من عصبة اللعنة، وظنوا من ورائه سوءاً ولم يقولوا إنه إفك مبين! ترى ذلك الظن السوء يُمنع عنه المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم، فإن المفترى عليهم منهم رجالاً ونساءً، والأصل في المؤمن أن يظن به الخير ما لم يثبت شره؟ ولكن ماذا ترى في ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ ولم يكن إفكه مبيناً ظاهر الكذب للذين سمعوه؟ والله يندد بهم إن لم يقولوا!

لأن الأصل في القذف كذبه إلّا إقراراً من المقذوف، أم أربعة شهود ولم تكن، إذاً فهو إفك مبين: يبين إفكه إذ لا يملك برهاناً فـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[(١)].

ولأنه لو لم يكن إفكاً فليحدَّ الرسول ﷺ المقذوف والمقذوفة وقد نزلت آيته من قبل، ولم يحدّ ولا ارتاب في أمرها، إذاً فهو إفكٌ مبين يبين إفكه بما لم يحدهما الرسول ﷺ وإنما حدّ القاذف بما قذف!.

ولأن ساحة النبوة السامية وبيتها واجبة الحفاظ على كل مؤمن، فالجائي بما يكدرها ويقذرها - ولو كان صادقاً - هو آفك عند الله، وإذا كان الستر على سائر المؤمنين واجباً على سائرهم، فكيف يكون إذاً موقف البيت الرسالي، إذاً فهو إفك مبين يبين إفكه إذ يكدر ساحة الرسالة القدسية!

ولأن النبي ليس ليتزوج من تأتي بفاحشة مبينة أو سواها فـ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[(٢)] حيث تعم بيت

(١) سورة الحشر، الآية: ١٩. (٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

الرسول بأهله وبيت الرسالة بأهلها، وأقل طهارة في بيت الرسول هو الطهارة عن الفاحشة، إذاً فهو إفك مبين يبين إفكه إذ ينسب إلى الرسول ﷺ الزواج بفاحشة!

إذاً فلماذا هذا السقوط البعيد في تلكم الحمأة النكدة أن يسمعوا الإفك المبين ثم يظنوا بأنفسهم سوءاً، أو لا يظنوا خيراً، وامرأتا نبيهم الطاهر وصاحباه المفترى عليهم في زوجتيه هم من أنفسهم فـ ﴿لَوْلَآ . . . ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ فسواء أظننت بنفسك أنت شراً، أم بمؤمن هو نفسك، حيث تربط بينكما الأخوة الإيمانية!

أتراك مؤمناً - أم غير مؤمن - تظن بنفسك شراً، وحتى إذا كنت على شر، فكيف تظن أنت كمؤمن بمؤمن هو نفسك - حيث تربطكما رباط الإيمان - تظن به سوء دونما دليل، أو لا تظن به خيراً، ولقد انقسم المسلمون في قصة الإفك إلى أقسام تالية:

١ : - الذي تولي كبر الإفك حيث اختلقه بداية فـ ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٢ : - الذين تسمّعوه منه وأصبحوا معه عصبة الإفك ويشملهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ وله عذاب دون ذلك.

٣: - الذين سمعوه منهم ولم يظنوا خيراً، أو ظنوا سوءاً فأذاعوه ولم يقولوا هذا إفك مبين، وتشملهم ﴿لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ. . .﴾ و﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا. . .﴾[1].

٤ : - الذين لم يتكلموا به رغم ما سمعوه وظنوا سوءاً وما ظنوا خيراً فتشملهم ﴿لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ حيث تعم من تكلم به منهم ومن لم يتكلم!.

٥ : - الذين تسّمعوه وما تأثروا به لا بظن سوء ولا ظناً خيراً وقالوا هذا ﴿بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ فكذلك الأمر.

(١) سورة النور، الآية: ١٦.

٦: - هم ولكنهم ظنوا خيراً ولم يقولوا هذا بهتان عظيم، وكذلك الأمر.

٧: - هم ولكنهم قالوا: هذا بهتان عظيم، ولا تشملهم آية تندّد إلّا لمحة من ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ ألّا يحق حتى سماعه، فـ ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ من هؤلاء السبع وثامنهم بريءٌ تماماً دونما تنديد.

٨: - الذين لم يتسمعوه ولم يسمعوه، وإذا طرق سمعهم دافعوا عن المفترى عليهم، قائلين ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم وإفك مبين وهم خارجون عن أي تنديد ولكنهم قلة قليلة من أهل المدينة.

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾:

ترى أن للمجيء بالشهداء موضوعية لصدق الرمي؟ وقد يكذب الشهداء! أو يصدق الرامي الذي لم يأت بالشهداء، فكيف يكون الرامي دون شهداء كاذباً عند الله؟ والشهداء صادقون.

في الشهداء وشهادتهم شروط عدة قلمّا تتفق، وفيما إذا اتفقت فقليل كالعدم أن يتواطؤوا على الكذب، ولا سبيل عادياً لإثبات الفحشاء - بحيث يراعى فيها حرمة الكتلة المؤمنة، منعةً عن هكذا هتكٍ للعفاف الجماهيري، يراه أربعة شهداء، وحفاظاً على الحرمة الجماهيرية - لا سبيل هكذا عادياً إلّا شهادة الأربعة، والقلة القليلة من الكذب فيهم لا تحسب بحساب أمام ذلك السياج القويم على النواميس.

وفيما إذا يُقبل كل رمي أو بشهادة أقل منهم، فلا سياج على كثير من الرمي الكاذب، ولا على كثير من الفحشاء غير الظاهرة المتهتكة، فيكثر الظن السوء، ويكدّر الجوُّ الإيماني الظاهر الطاهر، ويتعرض الكثير إلى عقوبات كثرت عليهم الأكاذيب، فليكذّب الرامي إلا بشهادة الأربعة وإن

كان صادقاً في الواقع حفاظاً على الأهم، ومنه الحفاظ على السرائر وستر الخفيات من تخلفاتهم، والصدق فيما يأتي بالداهية الجماهيرية كذب وأخطر منه، فضلاً عما فيه الصدق قليلاً، كما إذا حُرِّرت الألسنة في رمي دون شهادة الأربعة.

فالمفروض على من يرمي - لو صح أن يرمى - أن يجيء مع رميه بأربعة شهداء، فإذا لم يأت بهم، مهما أتى بأقل منهم عَدداً أو عُدداً، أو لم يأت بشيء[١] ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ يجري عليهم حد القاذف ولا تقبل منهم شهادة أبداً ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

فرغم أن قصة الإفك شاعت في المدينة شيوعاً بالغاً وتقاذفتها الألسنة ولاكتها الأفواه، فهي عند الله كذب وإن شملت كل المدينة، إلّا أن يأتوا بأربعة شهداء شهدوا الفاحشة بأمِّ أعينهم، فالشهداء الأربعة فيهم الكفاية، فعلى المشهود عليه الحدّ ولهم فضلهم، ثم لا كفاءة في الجماهير المحتشدة دون شهود، فللمفترى عليه الاحترام وعليهم الحدّ الاخترام.

بإمكانية شخص واحد، كالذي تولى كبره منهم، أن يشهّر إفكاً لحد يشيع بين الجماهير فيكدِّر الجوَّ على مؤمن بريء كما افتعل، وليس بالإمكان أو قليل ما هو، أن يجتمع أربعة شهداء عدول على شهادة الزور ولا سيما على بيت الرسالة الطاهرة!

فكل رامٍ مؤمناً أو مؤمنة بسوء دون شهادة، سامعاً عمن سواه، أم شاهداً بشخصه دون شهود سواه، أو شهادات الزوج، هو عند الله كاذب فليكذب وليُحدَّ ولا تقبل شهادته إلّا بعد توبة نَصوح!

---

(١) عدداً هو الأربعة، وعدداً هي شروط الأربعة وشروط شهادتهم، فما اختلف الأربعة في زمان أو مكان أو كيفية الفحشاء حدوا مع القاذف، وإن اتحدوا وهم أقل من الأربع حدوا مع القاذف.

(٢) سورة النور، الآية: ٥.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾:

ظاهر الخطاب هنا للذين تلقّوه بألسنتهم دونما تثبيت، لا الذين جاؤوا بالإفك، فهناك ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾[1] هو ابن أبي ابن سلول، ثم الذين تأثروا بإفكه فأصبحوا معه عصبة الدعاية، ثم الذين سمعوه وظنوا شراً، ثم المؤمنون الصالحون الذين كذّبوا وقالوا هذا إفك مبين.

فالآية (١١) تشمل الثلاثة الأول، فإن «جاؤوا» هم العصبة و«منكم» مجموعة المسلمين و﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ قائد العصبة، والآية (١٢) تخص الثالثة و(١٣) خاصة بالعصبة، وهذه الآية وسائر الخطابات إلى (١٧) مثل (١٢) تعم السامعين المتأثرين، ثم لا ذكر بين هذه وتلك عن الفرقة الرابعة، مما يدل على مدى انتشار هذه الوقيعة بين مسلمي المدينة، اللهم إلّا قليل ذكروا في السنة، ورغم هذه الشهرة العجيبة بين المؤمنين! نرى هذه التنديدات المتتالية، وأنهم عند الله هم الكاذبون على مختلف دركاتهم في تناقل إفكهم.

وهذا درس للجماعة المؤمنة أن شيوع الإفك على مؤمن ليس دليلاً على اقترافه، اللهم إلّا باعترافه، بل هو دليل على كذبهم ما لم يأتوا بأربعة شهداء، «ولو شهد عليه سبعون قسامة فصدقه وكذبهم»[2] لا يعني إلّا أمثال هذه الشايعات غير الثابتات بالشهادة الشرعية.

لقد أفاض حيث خاض في حديث الإفك جمهرة المؤمنين، فاقتسموا إلى من أَفِك وقُبض عليه قبل التوبة فحدُّ القاذف كما قال الله، كالذي تولى كبره ونفر من عصبته، ومن أفِك وأخذ بعد التوبة فقد يعفى عنه، ومن لم يأفك مشارفاً له، ولو بقي الجو هكذا لابتلى في خوضه أن يأفك متأثراً بقولة

(١) سورة النور، الآية: ١١.

(٢) حديث ثابت عن الإمام الصادق عليه السلام.

الإفك أولاً، ثم بنقله عن الآفكين ثانياً، وإلى أن يأفك هو دون سناد إلى نقل ثالثاً، وهذه من خطوات الشيطان!

ولأن الإفك عند الله كذب، فنقله دون تكذيب كذبٌ وإن لم يأفك الناقل فضلاً عن أن يأفك، فقول القائل: يقولون إن فلاناً زنى، دون تكذيب، كذب، وهو مع التكذيب صدق محبور عند من شاع لديه الخبر، وصدق محظور عند من لم يُخبر، فإنه إشاعة عملية للفاحشة، إذ من الناس من يصدق الخبر ولا يصدق كذبه وكثيرٌ مّا هم، ومنهم من يعكس وقليل ما هم، فليس إذاً في نقل إفك مع تكذيبه لغير المخبر إلا ضرر.

وقد كان في هذه الآيات المنبهات المنددات فضلٌ من الله ورحمة في الدنيا، إن لم يصل أمر الخوض في بعضهم إلى عذاب الدنيا «الحد» وعذاب الآخرة، إضافة إلى الفضل والرحمة في تطهير الجو للجماعة المؤمنة.

﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هنا يعم في الدنيا والآخرة، حيث فضل الله ورحمته في الدنيا والآخرة، فإجراء الحد على القاذف وعلى من ثبتت عليه الفاحشةُ منعة عن عذاب الآخرة، وعن شيوع الفاحشة في الدنيا، وتحديد الرمي بتلكم الشروط الصعبة فضل من الله ورحمة في الدنيا حفاظاً على عرض الجماعة المؤمنة، والتشديد على مقترف الفاحشة رحمة في الدنيا ألا يُبتلى بها ثم لا تكون عنه سنة سيئة، ورحمة في الآخرة ألا يعذب بها إذ تركها، أم حدّ عليها!

لقد شملكم فضل من الله ورحمة في الدنيا والآخرة بما أنزل آيات القذف والفاحشة، شملتكم: إذ تلقونه... تلقياً في تنقّل كان يسوقكم إلى شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم في الدنيا والآخرة فـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[1] ولعنة الدارين عذاب عظيم حيث

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٧.

الإفك يؤذي قلب النبي الطاهر، ومن لعنة الدنيا حدُّها ومن لعنة الآخرة عذابها:

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾:

تلقي الإفك بالألسن - دون شهادة علم أو حضورٍ - محظور، أن يسمع إفكاً من أيٍّ كان، فما يلبث إلّا أن يتلقى ما سمعه بلسانه ليُسمع الآخرين كما سَمع، وهذا هو القول بالأفواه حيث لا يتجاوزها إلى علم، ولا يصدر عن قلب، وإنما تنقلاً عن ألسن الآفكين إلى أفواه المؤتفكين دون تثبّت، ومن ثم إلى أسماع الآخرين تكثيراً للقائلين، وتكديراً للجو على المؤمنين البريئين! ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ ! وكما يقوله النبي الكريم: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض»(١).

ليس لك أن تقول كل ما لك به علم قذفاً إلّا بشهود، فضلاً عما ليس لك به علم تلقياً كالبغبغاء بالألسن، فهل أنت إذاً إنسان؟ كلا! فـ «لا تدع اليقين بالشك والمكشوف بالخفي ولا تحكم على ما لم تره بما يروى لك عنه، وقد عظم الله عز وجل أمر الغيبة وسوء الظن بإخوانك المؤمنين، فكيف بالجرأة على إطلاق قول واعتقاد بزور وبهتان في أصحاب رسول الله ﷺ (٢) وزوجاته.

أوّل ما يتلقى القول ليس إلّا بالأسماع، ثم قد ينتقل إلى الألسن، فكيف ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ...﴾؟ إنه ما ألطفه تعبير عن لقلقة اللسان

---

(١) الدر المنثور ٥: ٢٥ - أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ وفيه أخرج الطبراني عن حذيفة عن النبي ﷺ قال: قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة.

(٢) مصباح الشريعة عن الإمام الصادق عليه السلام مستشهداً بالآية ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ...﴾ [النُّور: ١٥].

بالأقاويل دون أية حجة، حتى كأنها ما وصلت إلى الآذان، فتملأها العقول، وتتقبلها القلوب فتنتقل إلى الألسن أم لا تنتقل! فيقولون بأفواههم لا عن علم بعقل أم حسٍّ أمّاذا من أسباب العلم و«لسان العاقل وراء قلبه وقلب الجاهل وراء لسانه»[1].

لسان الإنسان آلة إذاعة له عما يعتقده، فإذ لا يتكلم إلّا تلقياً عن الألسن كأن لا وسيط هنالك حتى السمع، ليس هو إذاً لسان الإنسان، وإنما مسجلة تذيع كل ما سجل فيه!

تلقونه بألسنتكم فتقولونه بأفواهكم وليس لكم به علم، كفى به حماقة وجهالة، وأكثر بها وأفضِح إذ ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ أن تمسوا عِرض الرسول ﷺ ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ ما أعظمه! فإن الرسول ﷺ عند الله عظيم، فكرامته عند الله عظيمة، فالمس من كرامته دون علم عظيم على عظيم!

لقد حقت للقلوب أن تتقلب، وللأكباد أن تتفتّت، وللعيون أن تذرف دماءً بدل الدموع، وللأسماع أن تصّم حين تسمع أقاويل الإفك ملأَت جو المدينة المنورة هاتكة بيت الرسول الطاهر الأمين!

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾:

لم يكن لكم أن تسمعوا الإفك فضلاً عن الخوض فيه، وثم إذا ابتليتم بسمعه لم يكن لكم أن تتكلموا إلّا ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾.

فقد اقترفتم إثماً إذ سمعتموه، ثم إذ تلقونه بألسنتكم، وتركتم واجب القول ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ . . .﴾ ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ سبحانك اللهم! بعيد ساحتك أن تبعث

(١) حديث شريف عن الإمام الصادق عليه السلام.

رسولاً يتدنس بيته بالفاحشة، بعيد عنك ألا تدافع عن هذا البيت الطاهر إفك الفاحشة، فإن ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾!

وترى أن هذا الإفك بخصوصه بهتان عظيم لأنه مسٌّ من كرامة الرسول العظيم؟ كلّا! فإن كل إفكٍ بهتان عظيم مهما اختلفت دركاته حسب مختلف الظروف والدرجات لمن يوجه إليه:

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾:

حكم أبدي صارم على إفكٍ عارم من أيّ كان على أيّ كان وأيان دونما استثناء، والإفك في مفهوم واسع هو كل فرية بكل إثم أماذا، دون علم أو سلطان مبين، تقوله فتتناقله الألسن، فحتى إن كنت صادقاً فيما تقول دون أن تأتي بأربعة شهداء أم أية شهادة مقبولة، فأنت من ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾[1] فكيف إذا كنت لا تدري أم أنت كاذب، فتطيِّر هذه الوقيعة في مؤمن، فتحلِّق على جوِّ الإيمان الطاهر فتكدره.

فلأن الله عليم بما يخلّفه الإفك من تكدّر العيش وسلب الطمأنينة عن المؤمنين، ولأنه حكيم يحكم ويربط الانفصالات والانعزالات السوء، لذلك يبين ﴿ٱللَّهُ لَكُمُ﴾ هذه ﴿ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ لكي تهتدوا إلى صراط مستقيم، وتنضبطوا بضابط الأمن والإيمان الخُلقي الجماهيري لتبنّي مجتمع طاهر ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وكضابطة عامة هي سياج على كل التخلفات واللّاأخلاقيات في الكتلة المؤمنة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾:

(١) سورة النور، الآية: ١٣.

الفاحشة هي المعصية المتجاوزة إلى غير العاصي كالانحرافات الجنسية، أو المتجاوزة حدها، أو الكلمة الفاحشة كالإفك، أم أية فاحشة قولية أو عملية أم عقيدية!! ولشيوع الفاحشة في الذين آمنوا عوامل عدة، منها اقترافها جهاراً، يراها من يرى فيجسر على اقترافها وتتناقلها الألسن إلى من لم يرها فيجسر كمن رآها،! وهي أنحس المصاديق لـ ﴿أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾.

ومنها أن تنقل فاحشة تراها إلى غير من رآها، وهي خفية متسترة، فتهتك بذلك فاحشة سترها الله، وتشجِّع عليها من لم يطلع عليها و«العامل الفاحشة والذي يشيع بها في الإثم سواء»[1] وقد يكون آثم منه، و«لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ولا تطلبوا عوراتهم فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته»[2] فـ «من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعته أذناه فهو من الذين قال الله»[3].

ومنها أن تنقل فاحشة متجاهرة رأيتها، إلى غير من رآها فيتشجع عليها، دون أن يؤثر علمه في منعها، فغيبة المتجاهر جائزة فيما يتجاهر إذا أثرت في تركها أو لم تكن إشاعة لها في نقلها!

ومنها أن تنقل فاحشة لم تعلمها، فإنه فرية على بريء وإشاعة عليه ما يسقطه عن العيون، وتشجيع لمن يسمعها على اقترافها، ولا سيما إذا كان المفترى عليه عظيماً ذا مكانة بين المؤمنين فـ «كذب سمعك وبصرك عن أخيك» وإن شهد عندك خمسون قسامة وقال لك قولاً فصدّقه وكذّبهم ولا

(١) الدر المنثور ٥: ٢٤ - أخرج البخاري في الآداب والبيهقي في الشعب عن علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٢) الدر المنثور ٥: ٢٤ - أخرج أحمد عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ...

(٣) نور الثقلين ٣: ٥٨٣ ح ٦٣ عن أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام.

تذيعن عليه شيئاً تشينه به وتهدم مروءته فتكون من الذين قال الله...»[(١)] و«من بهت مؤمناً أو مؤمنة بما ليس فيه بعثه الله في طينة خبال حتى يخرج مما قال،... وهي صديد يخرج من فروج المومسات»[(٢)].

ترى هذه إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا قولة أو فعلة أم عقيدة فيما هو المحظور؟ فما على من يحبها ولا يشيعها؟ والنص: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ...﴾!

علّ الجواب أن إشاعة الفاحشة، ليست إلا عن حب كامن قل أو كثر، يدفع صاحبه إلى بثّها، وإشاعة الفاحشة محظورة لحد يحظر عن حبها وحتى إذا لم تشع! فأية وسيلة تشيع بها الفاحشة في الذين آمنوا، إن فيها العذاب الأليم في الدنيا والآخرة، اللهم إلّا من جاهل قاصر، ومن يعمل عملاً أو يقول قولاً يشيع به الفاحشة وإن لم يحبها أو يحب إشاعتها، فهو ممن يحب أن تشيع الفاحشة إلا قاصراً مطلقاً.

فإشاعة الفاحشة من المحرمات المغلّظة في الشريعة، سواءً أكانت بفعل الفاحشة جهرة، أم بنقلها على علم بها أم جهل، وسواءً أثرت في عملية الفاحشة بين المؤمنين فشيوعاً لمثل الفاحشة، أم لم تؤثر إلا تناقل الألسن

---

(١) المصدر ح ٦٢ في كتاب ثواب الأعمال بإسناده إلى محمد بن الفضيل عن أبي الحسن موسى ابن جعفر عليه السلام قال قلت له: جعلت فداك الرجل من إخواني بلغني عنه الشيء الذي أكرهه فأسأله عنه فينكر ذلك وقد أخبرني عنه قوم ثقات؟ فقال لي: يا محمد! كذب سمعك وبصرك عن أخيك... ثم استشهد عليه السلام بالآية وفيه ح ٦٥ عن أبي عبد الله عليه السلام «من قال في مؤمن ما لا رأته عيناه ولا سمعت أذناه كان من الذين قال الله»... وفي تفسير البرهان ٣: ١٢٨ - عن الكافي بإسناده عن الصادق عليه السلام قال: إن من الغيبة أن تقول في أخيك ما ستره الله عليك وإن البهتان أن تقول في أخيك ما ليس فيه، وفيه عن المفيد في اختصاصه قال الباقر عليه السلام إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال على المنبر والله الذي لا إله إلّا هو ما أعطي مؤمن قط خير الدنيا والآخرة إلّا بحسن ظنه بالله عز وجل والكف عن اغتياب المؤمن والله الذي لا إله إلّا هو لا يعذب الله عز وجل مؤمناً بعذاب بعد التوبة والاستغفار إلا بسوء ظنه بالله عز وجل واغتيابه للمؤمنين.

(٢) البرهان: ٣: ١٢٨ - الكافي عن أبي يعفور... قلت وما طينة خبالة؟ قال: صديد...

بالفاحشة، فإنها لفظة فاحشة، أم تؤثر في سوء ظن أو علم بالفاحشة فهذه عقيدة فاحشة، فيا لها من ضابطة صارمة عامة هي سياج مرصوص على شيوع الفاحشة في كتلة الإيمان، وحتى تناقلها عمن اقترفها فضلاً عن الأبرياء! وأقل من الكل حبها دون إظهارها وإشاعتها!

فالفاحشة خطوات: من فعلها جهاراً إلى اتّباعها، أو من إشاعة نقلها بين الجماهير، حتى تهون في النفوس، ومن ثم الهون في الواقع، أو من إفكها اختلاقاً على الأبرياء ولا سيما العظماء ذوو المكانة الإيمانية في النفوس، حتى تهون وتهون ومن ثم الواقع الجماهيري للنفوس.

والفاحشة هي القولة الفاحشة من اغتياب أو إفك أو فرية، والظنة الفاحشة، والعقيدة الفاحشة والفعلة الفاحشة دون اختصاص بالأخيرة.

و﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾ لا يخص الحد فإن الحب وبعض الإشاعة لا حدّ فيه، فقد يعمه والتعزير، وقد يحد أو يعزر دون إشاعة، وإذا حدّ أو عزّر أو تاب فلا عذاب في الآخرة! إذاً فـ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعم ذلك وغيره من نكبة تشملهم في عِرضهم حين يشيعون الفاحشة على الآخرين، أماذا من نكبات حاضرة العذاب في الدنيا، ثم وفي الآخرة عذاب أليم.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾:

﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾[1] ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2] لكان لكم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3]!

هذه خطوات شيطانية يتبعها ضعفاء الإيمان فتوردهم أجيج النيران فـ :

(١) سورة النور، الآية: ١٠.
(٢) سورة النور، الآية: ١٤.
(٣) سورة النور، الآية: ١٩.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾:

للشيطان خطوات إلى الدرك الأسفل، يخطوها رويداً خطوة خطوة، ويجّر ويمشّي فيها كل مستغفل قدر الحاجة من تمشية إلى ما يهواه من هوّات الضلالة، خطوات متخلفة مختلفة بمختلف جنبات الحياة، من اقتصادية يجعلها إلى إفراط رأسمالية وتفريط سوسيالية بلشوية تنحية عن الطريقة الوسطى المثلى التي تتطرقها الشرايع الإلّهية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾[1].

ثم خطوات أخرى لحمل المؤمنين على الفحشاء، من سيئة إلى أسوأ وإلى فاحشة، من نقل لها صدقاً أو كذباً إلى الألسن، النفوس، ومن ثم الواقع الخارجي وكما في آية النور.

وبصورة عامة له خطوات من قصيرة إلى طويلة وإلى أطول هي الدرك الأسفل في كل كارثة تخرج الجماهير عن كل سِلم وصلاحية من هذه أو تلك، أم وعقائدية أو سياسية أو ثقافية أمّاذا؟:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[2].

إذن فدخول المؤمنين كافة في السلم كافة يتطلب ترك المتابعة لخطوات الشيطان، ولكي تسلم الجماعة المؤمنة عن اللّاأمن والزعزعة في كافة الحقول الحيوية الفردية والجماعية، أمناً اقتصادياً وفي أعراضهم وعقائدهم وسياساتهم وثقافاتهم أمّاذا؟

هنا من خطوات الشيطان التسمّع إلى كل قوّال غير مبال بما قال أو قيل

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٨. (٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.

فيه، أم إلى كل مقال دون نظرة إلى صالحه وطالحه ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾[1] ومنه ما يسمعه، أهو زقوم للروح أم شفاءٌ؟ ومن ثم خطوة إلى تقبّلها وإن كان الظن السوء بمن قيل فيه أماذا؟ وخطوة ثالثة إلى تنقلها إشاعة بين الجماهير، حتى إذا أخذت موقفها فيهم وتمكنت - كأنها حق - بينهم، استهانوا في واقعها فاقترفوها وهو منهم، وهذه هي الرابعة من خطواته، حيث يمشي بأتباعه ولا يرضى منها إلّا هيه، أم إلى ثالثة أو ثانية ولا أقل من الأولى فإنها مدقّة باب الفحشاء والمنكر ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ مهما كانت خطواته الأولى سيئة صغيرة لا تُحذر.

قد يركّز الشيطان خطواته على إنسان يستعد أن يخطوها فإلى الفحشاء والمنكر، وقد يقتسمها بين أناسيّ، ليس كلٌّ ليخطوها كلًّا، فيحمّل على إنسان أوّل ليتسمع إلى قولة، ويحمل على ثان ليأخذ عنه تلك القولة الآفكة، ويحمّل على ثالث أن يذيعها، ويحمّل على رابع ليقترفها تدليلاً على مهانتها وإلى سائر الخطوات.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ تأييداً للمؤمنين وتنديداً بالآفكين، وتشديداً في شرعته بتهديد وتحديد القاذفين أمّن ذا ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ فمن مقترف للفحشاء والمنكر، أم مساعد لهما بإشاعة الفاحشة، ومن بريءٍ كأول العابدين تتناقل الألسن الإفك على بيته الطاهر، إذاً فما وقف حجر على حجرٍ في حرية الإفك والقذف حيث لا تبقي عرضاً ولا تذر!

ولأن الفحشاء والمنكر لا يختصان بالأمور الجنسية وأضرابها، فلتشملا كل فحشاء ومنكر ومن أنكرها وأفحشها هي العقائدية، التي يخطوها الشيطان ليورد متبعيه موارد الضلالة خروجاً عن ولاية الله ورسوله وولاية الأئمة[2].

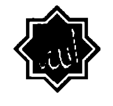
---

(١) سورة عبس، الآية: ٢٤.

(٢) كفاية الخصام ٥٣٦ - الأصبهاني الأموي روي عن علي عليه السلام بعدة طرق أن السّلم ولايتنا أهل البيت، ومن طريق الخاصة ينقل اثني عشر حديثاً تماثله معنوياً.

فالسّلم المأمور بالدخول فيه كافة التسليم لله بتوحيده طاعة وعبادة، والتسليم لرسوله رسالة ثم التسليم لأولي الأمر من بعده وهم عترته المعصومون إمرةً وإمامة، وهذا المثلث من السلم - ومرجعه واحد - هو المتكفل للوحدة العريقة بين الذين آمنوا، فـ ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ التي يخطوها في تقدم ولاية الله أو ولاية رسول الله أو ولاية أولي الأمر منكم، يخطو في انتقاصها أو انتقاضها.

ولا تظنوا أنكم تزكون أنفسكم دونما فضل من الله ورحمة مهما حاولتم في زكاتكم وإلى الذروة ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ بولاية تكوينية وتشريعية، حيث يشرّع ما يشرّع من سياجات صارمة على كل فاحشة، ثم يؤيد المتقين في تجنبها، وقطع ألسنة القذف والإفك عنها! ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ كل مقال ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل حال على أية حال.



﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ (٢٥) ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)﴾

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾:

﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ تلمح كصراحة أن المأمور بإيتائهم من ﴿أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كانت عليهم جرائم يحق لأولي الفضل منكم والسعة أن يعفوا عن جرائمهم وينفقوا عليهم، وبذلك تتصل الآية بما احتفت بها من قصة الإفك.

فقد كان يخيَّل إلى البعض أن الآفك والمشارك في الإفك - بما كذبه الله ولعنه - فعلى المؤمنين أن يقاطعوه إيتلاء: أن يحلفوا بمفاصلتهم، ويتركوهم على ما هم، ويقصروا في مساعدتهم[1] فجاءت الآية ناهية عن

(١) هذه معان ثلاثة للإتيلاء وكلها تناسب موقف الآية.

ايتلائهم آمرة بإيتاء أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله[١] فلأولي القربى حق القرابة، وللمساكين حق المسكنة، وللمهاجرين في سبيل الله حق المهاجرة، لا يأتليها إفكٌ وسواه، كما وأن حق الوالدين لا يقطعه حتى كفرهما!

فلا يحق لأولي الفضل مادياً ومعنوياً، ولأولي السعة بذلا لفضلٍ مالاً وحالاً، لا يحق لهم ايتلائهم، ولا سيما المحدودين منهم والتائبين إلى الله، فالله غافرهم ومتفضل عليهم، فتخلقوا أنتم بأخلاق الله أن تؤتوهم وتعفوا عنهم وتصفحوا ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾!

إنه «ما نقص مال من صدقة قطُّ، تصدقوا، ولا عفا رجل عن مظلمة إلا زاده الله عزاً فاعفوا يعزكم الله ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة يسأل الناس إلا فتح الله له باب فقر، ألا إن العفة خيرٌ»[٢].

فحتى لا يجوز لمن يجري عليه الحد أن يهتك زيادة عن أصل الحد لا بلفظه قول أم فظاظة فعل وكما كان الرسول ﷺ[٣] وأهل بيته الطاهرون

(١) الدر المنثور ٥: ٢٥ - أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: كان ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قد رموا عائشة بالقبيح وأفشوا ذلك وتكلموا فيها فأقسم ناس من أصحاب رسول الله ﷺ منهم أبو بكر ألا يتصدقوا على رجل تكلم بشيء من هذا ولا يصلوه، قال: لا يقسم أولو الفضل منكم والسعة أن يصلوا أرحامهم وأن يعطوهم من أموالهم كالذي كانوا يفعلون قبل ذلك فأمر الله أن يغفر لهم.

(٢) المصدر أخرج ابن المنذر عن أبي سلمة قال قال رسول الله ﷺ: . . .

(٣) المصدر أخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا في ذم الغضب والخرائطي في مكارم الأخلاق والحاكم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أبي وائل قال: رأيت عبد الله أتاه رجل برجل نشوان فأقام عليه الحد ثم قال للرجل الذي جاء به: ما أنت منه؟ قال: عمه قال: ما أحسنت الأدب ولا سترته وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم. . . ثم قال عبد الله: إني لأذكر أوّل رجل قطعه النبي ﷺ أتى رجل فلما أمر لتقطع يده كأنما تأسف وجهه رماداً فقيل يا رسول الله كأن هذا شق عليك؟ قال: لا ينبغي أن تكونوا للشيطان عوناً على أخيكم فإنه لا ينبغي للحاكم إذا انتهى إليه حد ألا يقيمه وإن الله عفو يحب العفو ثم قرأ ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُواۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ. . .﴾ [النّور: ٢٢].

ومن يحذو محذاهم يعملون[١]، وكما علي عليه السلام يقول عن قاتله: «إن أنا أبق فأنا ولي دمي وإن أفن فالفناء ميعادي وإن أعف فالعفو لي قربة ولكم حسنة فاعفوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم[٢] فما دام للغفران مجال، ألّا يُشجَّع المجرم على الجريمة، أم لا يجعله غير نادم بلا توبة، فلتعفوا ولتصفحوا ولكي يغفر الله لكم، غفراً عن غفر وأين غفر من غفر؟

يا لله من غفور رحيم، يغفر من استغفره ويرحم من استرحمه مهما جاء بإفك وفاحشة، ثم يأمر المقذوفين بالغفر والرحمة وينهاهم عن الايتلاء والنقمة، مما يعرفنا بُعد الآماد الغالية والآفاق العالية من كرم الأخلاق والسماحة في الأدب الإسلامي السامي، وبذلك يمسح على آلام الجماعة المؤمنة قاذفاً ومقذوفاً وعواناً بين ذلك، ويغسل من أوضار، ويخفف عن أوزار حمِّلت عليهم من خطوات الشيطان!

مع كل ذلك ولكيلا يهون الإفك بعدُ على الآفكين يكرِّر الكرة عليهم إن كرّروا وأصروا دونما توبة نصوح أو بعد توبة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾:

أترى المحصنات هنا هن العفيفات كما في ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ

(١) نور الثقلين ٣: ٥٨٣ ح ٧ عن نهج البلاغة من وصية له عليه السلام.

(٢) نور الثقلين ٣: ٥٨٤ ح ٧١ في كتاب المناقب في مناقب زين العابدين عليه السلام «وكان إذا دخل شهر رمضان يكتب على غلمانه ذنوبهم حتى إذا كان آخر ليلة دعاهم ثم أظهر الكتاب وقال: يا فلان فعلت كذا ولم أؤدبك؟ فيقرون أجمع فيقوم وسطهم ويقول لهم: ارفعوا أصواتكم وقولوا: يا علي بن الحسين ربك قد أحصى عليك ما عملت كما أحصيت علينا ولديه كتاب ينطق بالحق لا يغادر صغيرة ولا كبيرة فاذكر ذلّ مقامك بين يدي ربك الذي لا يظلم مثقال ذرة وكفى بالله شهيداً فاعف واصفح يعف عنك المليك لقوله تعالى: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ [النّور: ٢٢] ويبكي وينوح.

﴿يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾[1]؟ و﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ تكفي دلالة على أنهن العفيفات! فهن إذاً ذوات الأزواج، مما يزيد في خطر الإفك فيهن!

ومَن هن الغافلات من المحصنات المؤمنات؟ لعلّهن اللاتي يغفلن عن إفكهن فلا يدافعن عن أنفسهم، مما يزيد أهل الظِّنّة ظِنة فيهن، فزيادة ثانية في حظر الإفك فيهن، محظورات ثلاثة في رميهن تتطلب عذاباً ذا أبعاداً ثلاثة هي: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا﴾ - ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ - ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾! لأنهن مظلومات في أبعاد ثلاثة فقد يجسم التعبير بشاعة تلك الجريمة الآفكة في تصويرهن غافلات غير آخذات حذرهن من رمية الإفك، لأنهن مطمئنات بأنفسهن بريئات الطوايا، إذ ما أتين بشيء ولا تقارفنه حتى يحذرنه!

ترى أن مثلث العذاب لزام عليهم وإن أتوا بأربعة شهداء؟ طبعاً لا! فإن آيات الشهداء شملتهم من ذي قبل! إلّا أن وصفهن بالصفات الثلاث الحسنات في خطاب التنديد بالرامين مما يحيل شهادة الأربعة، كيف وهي قريبة الاستحالة على غير الشهيرات بالفاحشة، بل وحتى الشهيرات إلّا اللهيرات اللاتي يأتين الفاحشة متظاهرات على رؤوس الأشهاد بحيث يسمح بإمكانية رؤية الشهود كما يجب!

إن مثلث العذاب لزام لمن يعرف المرمية بعفة وإيمان وأنها ذات بعل، فلا شهودَ إذاً، وهل من توبة، والجريمة هي تلك الثقيلة، وآية الغافلات لم تستثن بالتوبة؟ أجل مهما كانت أصعب مما دونها حيث التوبات تُكلِّف من الصعوبات حسب دركات الخطيئات، وإذ تجوز وتجب التوبة عن أنحس الكفر وهي مقبولة بنصوص الآيات، فبأحرى تلك الجريمة فإنها فسق مهما كبرت، وآية التوبة عن قذف المحصنات تشمل كل قذف على كل محصنة مهما اختلفت الدرجات!

---

(١) سورة النور، الآية: ٤.

فلعنهم في الدنيا هو حدّهم وهو توبة عملية مهما عظم عذابه، ولعنهم في الآخرة هو عذابهم فيها إن لم يتوبوا أو لم تكمل التوبة، وعلّ عدم الاستثناء في هذه الآية بالتوبة رغم إمكانيتها وقبولها، لعظم الخطيئة كأن ليس عنها توبة، أو أن صاحب تلك الجريمة بعيد التوفيق عن التوبة، أو عن تكملة شرائطها حتى يصبح كأنه لا ذنب له... وترى ما هو يوم اللعنة الأخيرة بعذابها العظيم؟ إنها:

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥)﴾:

إن بقي ما كانوا يعملون، بلسان يتكلم بإفك، ويد بقلم أماذا تمدّ إلى إذاعته، ورجل تمشي إليه، أم أي عمل جارح بالجوارح، فإنها تشهد بما عملوا كلٌّ بحسبه، إذاعة لأصوات الأقوال وصور الأعمال، وسير الأحوال!

وأما بعد التوبة والإصلاح فلا تبقى حتى تشهد وإنما تمحّى، وكما الصالحات إذا ضاعت بإحباطها، وآية الشهادة هذه تشهد أن المعنيّين بسابقتها في رمي الغافلات هم غير التائبين، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له!

ترى ولماذا تشهد الجوارح؟ والله يعلم ما جرحت! وكيف تشهد ولا ألسنة لها إلا اللسان؟ ولماذا هذه الثلاث؟ ولا تختص بها الجوارح!.

شهادة الجوارح تعني تبكيت العاملين، وإلجامهم وإلزامهم باعترافهم حين يكذبون كل شاهد[1] فإنها تشهد كما عملت إذ سجلت فيها أقوالها

---

(١) الدر المنثور ٥: ٢٥ - أخرج أبو يعلى وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فجحد وخاصم فيقال: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول كذبوا فيقال أهلك وعشيرتك فيقول كذبوا فيقال احلفوا فيحلفون ثم يصمتهم الله وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم ثم يدخلهم النار، أقول ويشهد له ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥] وفيه أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن مردويه عن أبي أمامة سمعت رسول=

وأعمالها، فلا يتمكن المجترحون إنكارها: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١] ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾[٢] ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[٣] ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[٤]!

وأما هذه الثلاث، فلأنها أهم الجوارح أعمالاً، وهي المناسبة لسالف الإفك، فإن الجوارح كلها تشهد وتجمعها آية الجلود: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ...﴾[٥] إذ ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٦].

شهادة عينية لا تُرد مهما ردت شهادات أخرى، فإنها أصوات الأقوال وصُور الأفعال كأنه قالها وعملها الساعة، إذ سجلت كما قيلت وعملت بنفسها، دون الألفاظ الحاكية عنها، المخلوقة في هذه الجوارح! وقد أنطق

= الله ﷺ يقول: إني لأعلم آخر رجل من أمتي يجوز على الصراط رجل يتلوى على الصراط كالغلام حين يضربه أبوه تزل يده مرة فتصيبها النار وتزل رجله فتصيبها النار فتقول له الملائكة أرأيت إن بعثك الله من مقامك هذا فمشيت سوياً أتخبرنا بكل عمل عملته فيقول: أي وعزته لا أكتمكم من عملي شيئاً فيقولون له قم فامش سوياً فيقوم فيمشي حتى يجاوز الصراط فيقولون له أخبرنا بأعمالك التي عملت فيقول في نفسه أن أخبرتهم بما عملت ردوني إلى مكاني فيقول: لا وعزته ما عملت ذنباً قط فيقولون إن لنا عليك بينة فيلتفت يميناً وشمالاً هل يرى من الآدميين ممن كان يشهد في الدنيا أحداً فلا يراه فيقول: هاتوا بينتكم فيختم الله على فيه فتنطق يداه ورجلاه وجلده بعمله فيقول: أي وعزتك لقد عملتها وإن عندي العظائم المضرات فيقول اذهب فقد غفرتها لك.

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.
(٣) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧، ٨.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٤٩.
(٥) سورة فصلت، الآية: ٢١.
(٦) سورة فصلت، الآية: ٢٠.

الله كل شيء بما تلقّى من أعمال وأحوال، من أجواء وأشياء وأعضاء، شهود تحيط بالعاملين لا يقدرون على إنكارها ولا التفلت منها، سبحان الله العظيم!

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ إذ يُعطَون جزاءهَم حقاً عدلاً أو فضلاً ولا يظلمون فتيلاً «ويعلمون» بعد ما جهلوا وتجاهلوا يوم الدنيا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ إذ يبين كونه حقاً بآياته يوم الدنيا، ويبين حقه بما وعد يوم الأخرى، فلا خفاء ولا غشاء على حقه، فإنما غطاء يختلقها المجرمون: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1]!!

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾:

الطيبون والخبيثون هم المؤمنون المحصَنون رجالاً ونساءً، فإنه الجمع الخاص بذوي العقول، قد يخص الذكور، وقد يجمع إليهم الإناث كما هنا.

أترى الطيبات والخبيثات هن النساء غير المؤمنات المحصنات وغيرهن؟ وفي الأطيبين من كانت تحته خبيثة، كنوح ولوط أمّن هو؟ وفي الأطيبات من كانت تحت الأخبثين كامرأة فرعون أمن هي؟

فهل إن نبياً كنوح وامرأة مؤمنة كبنت مزاحم، يتخلفان عن هذه القاعدة الصارمة التي تعم كافة المؤمنين والمؤمنات؟!

أو ترى أن الطيبات والخبيثات هي الكلمات والعقائد والأفعال والافتعالات، فكل إنسان يعمل على شاكلته، فلا تكون العقائد ولا تصدر الأقوال والأفعال الطيبات إلا من الطيبين، ولا الخبيثات إلّا من الخبيثين،

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.

اللّهم إلّا لمماً وشذراً يتفلت هنا أو هناك؟ وقد تؤيده ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ تطهيراً لساحة الطيبين رجالاً ونساءً مما يقال فيهم من فرية وإفكٍ؟ والجمع السالم كما الطيبات مثل الطيبين لا يأتي لغير ذوي العقول!.

أم إنهما معاً معنيّان، فالخبيثات الزانيات وغير المؤمنات لسن إلّا للخبيثين الزانين أو المشركين، والخبيثون الزانون أو المشركون ليسوا إلّا للخبيثات الزانيات أو المشركات، وكما دلت عليه آية التحريم: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً...﴾[1] ويروى التدليل بها لآية الخبيثات عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام [2] وقد خصت الآية في هذا الوجه بخبث الزنا كما هنا، وبخبث الشرك نكاحاً وإنكاحاً بآية البقرة، وبخبث الكفر الكتابي إلّا في الزوجة بآية المائدة، أم وأي خبث آخر يسري من خبيث إلى طيب تعليلاً لحرمة نكاح المشرك بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾[3] وقد خصت في خبث الشرك بزوجات مشركات للبعض من أنبياء الله تعالى حيث أحلت لهم مهما حرمت في شرعة الإسلام!

ومن ثم الضابطة في الخبيثات والطيبات غير النساء إلا شذراً:

فالكلمات الطيبات هي للطيبين المؤمنين، ما قالوه أو قيل فيهم، والطيبون المؤمنون هم للكلمات الطيبات أن يقولوها أو تقال فيهم، والعقائد والأفعال الطيبات هي للمؤمنين أن يعتقدوها ويفعلوها، أو تعتقد فيهم ويفعل

(١) سورة النور، الآية: ٣.

(٢) في مجمع البيان الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء والطيبات من النساء للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من النساء عن أبي مسلم والجبائي وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قالا: هي مثل قوله: الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة. إلا أن أناساً هموّا أن يتزوجوا منهن فنهاهم الله عن ذلك وكره ذلك لهم.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢١.

لهم، والمؤمنون للعقائد والأفعال الطيبات، إذاً فمثلث الأقوال والعقائد والأفعال الطيبات هي للمؤمنين منهم وفيهم وإليهم.

ثم الكلمات والعقائد والأفعال الخبيثات هي لغير المؤمنين، منهم وفيهم وإليهم، كما أنهم لهذا المثلث الخبيث - إذاً فـ :

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المؤمنون ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ الخبيثون، من مثلث الخبيثات، كضابطة عامة في المؤمنين أن ليس ذلك منهم اللهم إلّا شذراً، ولا تقبل فريتها إليهم، اللّهم إلّا بشهادة، فالأصل في المؤمنين والمؤمنات البراءة مما يقال عليهم، وليس كذلك الأصل في غيرهم!

وحتى إذا تفلّتت منهم فالتة من خبيثة وإن كانت فاحشة فأولئك ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ وكما وعُدوا: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾[1] ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾[2] وهكذا إيمان من أفضل الحسنات!

فـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ ...﴾ وإن كانت تدل على معنى ثان للخبيثات، ولكنها لا تختص الآية به نفياً للأوّل، حيث اللفظ عام يصلح لهما، مهما كان شأن نزولها كلمات الإفك الخبيثات!

فهذه الآية تضاحي ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[3] في وجه، وتقرر ضابطة تجمع بين إخبار وإنشاء، أن ساحة الطيبين بريئة من التدنس بخبيثه تقال فيهم أم تُفعل، أو يقولون ويفعلون.

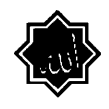
وقد تعني الآية تكريساً لكل ما هنالك من سلب وإيجاب حول الروابط

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.
(٢) سورة هود، الآية: ١١٤.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٤.

الجنسية والعلائق والرباطات الاجتماعية قولياً وعقيدياً وتطبيقاً في ذلك النطاق في هذه الآيات كلها، وما أجمله تكريساً من ضابطة صارمة! فالجنس مع الجنس يميل، حيث الزمالة إمالة لزميل إلى زميل.

«فلا تكونن ممن يقول في شيء إنه في شيء خاص» وسرِّح الآيات تسرح في دلالاتها الواسعة ما وافقت أدب اللفظ وحسن المعنى، والقرآن حمال ذو وجوه فاحملوه إلى أحسن الوجوه، وما أحسنه جمعاً بين محاسن الوجوه!.



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا

تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

الوقاية الإسلامية تعتمد على التربية كأصل، توسيعاً لمجالات الهداية وتضييقاً لفُرَصِ الضلالة، وفيما إذا لزم الأمر يعتمد على العقوبة حسماً لمادة الفساد وتنبيهاً للمفسدين، وتحريراً للصالحين عن أسرهم بأسرهم في كل عصر ومصر!

فليست العقوبة الدنيوية أصلاً تعتمد عليه الشريعة الإسلامية، وإنما هي سياجات تحافظ على جو الطهارة والحرية الإيمانية دون صدام، اللهم إلّا وثاماً والتحاماً بين الجماهير المؤمنة!

فلكل بيت أهله، ولكل أهل أهله، دونما تجاوز إلى بيت أو أهله حتى نظرة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

هنا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لا «المؤمنون» قد تلمح بشمولهم الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، والذين أسلموا منافقين، ضمن المؤمنين الحقيقيين، فالتكليف عام يشملهم كلهم، فهم مأخوذون به كلهم أجمعون!

ولقد جعل الله سكناً وستراً وأمناً على العورات والحرمات، وليست هكذا إلّا حين تكون حرماً آمناً لا يستبيحها أحد إلّا باستيناس من أهلها وسلام، فالدخول دون استيناس يسمح لأعين الداخلين أن تقع على عورات، وتلتقي بمفاتن تثير الشهوات، وتهيئ الفرص والمجالات لنظرات طائرة مستطيرة، فتحوّلها إلى علاقات فلقاءات آثمة، وهذه خطوات شيطانية أولاها الدخول في البيوت فجأة دون استئناس، وإلى آثام ومجالات لاتهامات.

ولقد كانوا في الجاهلية على تلك الهمجية، يدخل الزائر هاجماً فناجماً وسط العورات في الحالات التي يتأبّى كل إنسان أن يُرى عليها، فمن أجل الحفاظ على حرَم البيوت وحُرمَها وحرمة الداخلين إليها نزلت آية الاستيذان وما يليها تدريباً للذين آمنوا بذلك الأدب الإسلامي السامي.

﴿بُيُوتِكُمْ﴾ هنا هي البيوت الخاصة بكم، لا المشتركة بينكم وبين غيركم ولا ﴿بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ[١] أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ[٢] بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ﴾ فضلاً عن ﴿بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ وفضلاً عن ﴿مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ إذ قوبلت كل هذه البيوت في (٦١) النور ببيوتكم! اللهم إلّا بيوت أبنائكم[٣].

لذلك فرض الاستئذان على الولدان ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ... ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾[٤] فضلاً عما ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[٥]!

وإن بان البون بين استئذانهم هم من سكان البيت، وبين استئذان الأقارب ثم الأغارب، فمثلث الاستئذان باختلاف أضلاعه قرباً وبعداً موضوع على كل داخل على البيوت، كما الاستئناس يختلف هنا وهناك وهنالك!

---

(١) نور الثقلين ٣: ٥٨٦ ح ٨٥ بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يستأذن الرجل إذا دخل على أبيه ولا يستأذن على الابن قال: ويستأذن الرجل على ابنته وأخته إذا اكانتا متزوجتين، وفي التفسير الكبير ٢٣: ١٩٩ عن عطاء بن يسار أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: استأذن على أختي؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم نعم أتحب أن تراها عريانة؟

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) مجمع البيان وروي أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم استأذن على أمي؟ فقال: نعم - قال: إنها ليس لها خادم غيري أفأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: أتحب أن تراها عريانة؟ قال الرجل: لا، قال: فاستأذن عليها.

(٤) سورة النور، الآية: ٥٨.

(٥) سورة النور، الآية: ٥٩.

ثم و﴿غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ تعم بيوت المسلمين وسواهم، فلا يحق لمسلم أن يدخل بيوت الكفار لأنهم كفار إلا بعد استئناس، فأما السلام فقد يخص المسلمين وإن كان مسموحاً على غيرهم فيمن سوى المشركين، اللهم إلّا إخباراً بسلام أو دعاء أن يسلمهم الله من نكبة الشرك.

و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كنداءٍ تشمل المؤمنين كافة، تلحقها خطابات سلباً وإيجاباً كلها لزام الإيمان فـ ﴿لَا تَدْخُلُوا۟﴾ كتصريحه بتحريم الدخول ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[1].

ولأن السلام قبل الكلام»[2] ترى ماذا تعني ﴿تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ قبل ﴿وَتُسَلِّمُوا۟﴾؟ طبعاً لا تعني كلاماً مع أهل البيت، وإنما ﴿مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾[3] تسمعونهم تأكداً أن في البيت أهل ثم إخباراً أنك تقصد دخوله[4].

---

(١) الدر المنثور ٥ : ٣٨ - أخرج الفريابي وابن جرير من طريق عدي بن ثابت عن رجل من الأنصار قال قالت امرأة لرسول الله ﷺ : إني أكون في بيتي على الحالة التي لا أحب أن يراني عليها أحد ولا ولد ولا والد فيأتيني الآتي فيدخل علي فكيف أصنع؟ ولفظ ابن جرير وأنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي وأنا على تلك الحال فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . .﴾.

(٢) المصدر - أخرج الترمذي عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ؟ «السلام قبل الكلام».

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

(٤) الدر المنثور ٥ : ٣٨ أخرج ابن أبي شيبة والحكيم الترمذي وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أبي أيوب قال قلت يا رسول الله ﷺ أرأيت قول الله : ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧] هذا التسليم قد عرفناه فما الاستيناس؟ قال: يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة وتنحنح فيؤذن أهل البيت أقول: هذا من مصاديق الاستيناس الإخبار وليس كله فقد يخبر ويسلم ولا يرضون بدخوله! وكما رواه أبو أيوب عنه ﷺ قال ﷺ : الاستيناس أن تدعوا الخادم حتى يستأنس أهل البيت الذين يسلم عليهم، ومن الاستيناس الإخبار قولك: يا الله - سنة دائبة للمؤمنين تحمل ذكراً وإخباراً أن هنالك من يريد الدخول.
وفي التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٣ : ١٩٧ روى أبو هريرة قال قال رسول الله ﷺ : الاستئذان ثلاث: بالأولى يستنصتون وبالثانية يستصلحون وبالثالثة يأذنون أو يردون، وعن جندب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا استأذن أحدكم ثلاث فلم يؤذن له فليرجع.

ثم استيناساً طلب الأنس بأهله لكي تعرف رضاهم بدخولك، وأخيراً استيناسك إياهم لكي يأخذوا أهبتهم لتقبّل الداخل، ستراً لعورات وسداً لثغرات وتحضيراً لضيافة أماذا؟! فليس الاستئناس - فقط - الاستئذان، أذن أو لم يؤذن، وإنما تحصيل الأنس وهو إذن مؤنس، فإن أذن له تخجلاً دون أنس فلا إذن إذاً، وكثير هؤلاء الذين يؤذن لهم دونما أنس ورضى!

فالإيناس بشيء هو لمسه بوفاق ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ فليلمس الداخل بيتاً أن فيه أهلاً يوافقون دخوله على خبرتهم، ولمّا استكمل الاستيناس ولمّا يدخل، فالسلام على أهله ومن ثم الدخول، ويا لها صيغة مؤنسة ﴿تَسْتَأْنِسُواْ﴾ بدل «تستأذنوا» تعبيراً يوحي بلطف الاستئذان ولطف الطريقة التي يتطرقها الطارق، فيحدث في نفوس أهل البيت أنساً فاستعداداً لاستقباله، كلفته دقيقة لطيفة لرعاية أحوال النفوس، وتقديراً لظروف الناس في بيوتهم وما يلابسها من ضرورات لا يجوز أن يتحرج أهلوها أمام الطارقين ليل نهار.

وحين لا يسمح بدخول بيوت غير بيوتكم إلّا بعد استيناس وسلام على أهله، فبأحرى عدم السماح في النظر إلى عورات البيوت بعد دخول، فضلاً عما قبله وقبل الشرطين، فإنه محظور مؤكد آكد من محظور الدخول دون شرطية من دون نظر، لحدِّ «إذا دخل البصر فلا إذن له»[١] «فإذا نظر في قعر البيت فقد دخل»[٢] بلا إذن «فإنما الاستئذان من النظر»[٣].

---

(١) الدر المنثور ٥: ٣٩ - أخرج البخاري في الأدب وأبو داود عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: . . . وفيه أخرج ابن مردويه عن عبادة بن صامت أن رسول الله ﷺ سئل عن الاستئذان في البيوت فقال: من دخلت عينه قبل أن يستأذن ويسلم فقد عصى الله ولا إذن له.

(٢) المصدر أخرج الطبراني عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: من كان يشهد أني رسول الله فلا يدخل على أهل بيت حتى يستأنس ويسلم فإذا نظر. . .

(٣) المصدر - أخرج ابن أبي شيبة وأبو داود البيهقي في شعب الإيمان عن هذيل قال: جاء سعد فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن فقام على الباب فقال له النبي ﷺ هكذا عنك فإنما الاستئذان من النظر، وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن سهل بن سعد =

وقد كان الرسول ﷺ يستأذن ابنته الزهراء عليها السلام [(١)] فضلاً عن غيره وبالنسبة لغير الأقربين أترى الاستيناس الإذن والسلام لزام الداخل في غير بيته وإن كان بيت ولده أو بنته؟ آية البيوت تجعل ذلك البيت كبيت الوالدين إذ لا تذكره بين البيوت، فلا استئذان إذاً لهما اللّهم إلّا تحرزاً عن عورة غير مستورة!... وترى ذلك الاستيناس واجب الداخل على بيت فهل يجب بعده السلام؟ إنه أدب للداخل دون وجوب ولكنما الاستيناس الاستئذان واجب الداخل، والفارق الضرورة القاطعة في عدم وجوب البدو في السلام.

وإذا كان أصل الاستئذان من النظر فهل الذي لا ينظر أو الأعمى يستأذن؟ أجل من أجل الحصول على الرضا والتأهب! فالنظر أصل لا يستأصل سائر ما يجب له الاستئذان، وكما البيت الخالي عن أهل لا يدخل إلّا بإذن، ولا عورة فيه حتى ينظر إليها!

= قال: اطلع رجل من حجر في حجرة النبي ﷺ ومعه مدري يحك به رأسه فقال ﷺ: لو أعلم أنك تنظر لطعنت بها في عينك إنما جعل الاستئذان من أجل البصر، وأخرج الطبراني عن سعد بن عبادة قال: جئت إلى النبي ﷺ وهو في بيته فقمت مقابل الباب فاستأذنت فأشار إلي أن تباعد وقال: هل الاستئذان إلّا من أجل النظر؟

(١) نور الثقلين ٣: ٥٨٧ ح ٨٧ عن الكافي في القوي بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: خرج رسول الله ﷺ يريد فاطمة عليها السلام وأنا معه فلما انتهيت إلى الباب وضع يده فدفعه ثم قال: السلام عليكم فقالت فاطمة عليها السلام: عليك السلام يا رسول الله ﷺ قال: أدخل؟ قالت: ادخل يا رسول الله ﷺ قال ﷺ: ادخل ومن معي؟ قالت يا رسول الله ﷺ ليس علي قناع فقال ﷺ: يا فاطمة خذي فضل ملحفتك فقنعي به رأسك ففعلت ثم قال: السلام عليكم فقالت: وعليك السلام يا رسول الله ﷺ قال: أدخل، قالت: نعم يا رسول الله ﷺ قال: أنا ومن معي؟ قالت: ومن معك قال جابر فدخل رسول الله ﷺ ودخلت فإذا وجه فاطمة عليها السلام أصفر كأنه وجه جرادة فقال رسول الله ﷺ ما لي أرى وجهك أصفر؟ قالت: يا رسول الله ﷺ! الجوع فقال ﷺ: اللهم مشبع الجوعة ودافع الضيقة أشبع فاطمة بنت محمد ﷺ قال جابر: فوالله لنظرت إلى الدم ينحدر من قصصها حتى عاد وجهها أحمر فما جاعت بعد ذلك اليوم.

أترى إذا كان الاستئناس حاصلاً من قبل في زواياه فما على الداخل إذا؟ طبعاً ليس عليه إلا غير الحاصل حالة الدخول وهو الإخبار أنه يدخل والسلام، وإذا كانوا على خبرة فليس عليه بعد إلا السلام كأدب للداخل على بيت كالواجب وإن لم يجب!

«ذلكم» البعيد البعيد عن التعرض لأعراض المؤمنين ونواميسهم، القريب القريب وقاية لما يتوقون ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ جماهيري، خلقاً لجو الأمن والاطمئنان ويقابله: شر لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ واجب الأدب الجماعي عليكم كسيرة مستمرة تحلِّق على كل الحقول وتعقلها كلُّ العقول، سنة العشرة الإيمانية والأخوَّة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ المواعظ الربانية المتجاوبة مع الفطرة السليمة فتُطبقوها بين جماهيركم!.

ثم ترى إذا دخل بيتاً دون إذن أم بمنع من أهله، فكيف يعامل معه؟ قد يجب أو يجوز إخراجه مهما كلف الأمر، حيث الدفاع عن المال والعرض واجب حيثما بلغ الأمر.

وهل يجوز فقأ عين الناظر إلى عورة في بيت دون إذن الدخول أو نظر؟ اللّهم لا! فإن ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾(١) ولم يفقأ النظرُ حتى يُفقأ! وعلّه نعم، فإن هذه العين ذهبت حرمتها بهكذا نظر فإن فقئت عينه فهي هدر كما في الخبر(٢) ولكنما ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ تطارد هذا الخبر، فيعرض عرض الحائط أو يؤول، ولم يسبق لهكذا حدّ زمن الرسول ﷺ والأئمة أي أثر، فالرواية - إذاً - شاذة في بعدي مخالفة الكتاب وواقع الأثر.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٥.

(٢) الفخر الرازي ٢٣ : ١٩٨ روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «من اطلع في دار قوم بغير إذنهم ففقوا عينه فقد هدرت عينه، ومضى حديث سهل ابن سعد في قصة المدري إذ قال له ﷺ: لو علمت أنك تنظر إلي لطعنت بها في عينك إنما الاستئذان قبل النظر، وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: لو أن امرأً اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح.

وهل يجب الاستيذان أو يجوز إذا عرض على بيت خطر لا يمكن إزالته إلا بسرعة لا تسمح الاستيذان؟ كلا، فإنه أقل المحظورين الواجب اقترافه تحذراً عن الأخطر الأخطر!.

أو هل يجب إذا علم أن في بيتٍ تبييت خطر على دولة الإسلام أمّا ذا من خطر هو أخطر من الدخول فيه دونما إذن؟ هنا دوران الأمر بين المهم والأهم، فالأهم واجب، أم بين المتساويين فمخير!

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟﴾ تفريعة على استئناس بحاصله الأوّل: هل فيه أهل أم هو خال؟ فلأنه بعدُ غير بيتكم مهما لم تكن فيه عورة أم كانت ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ ممن بيده أمره أهلاً أو ولياً أو وكيلاً، حيث البيوت المسكونة لها عورات غير عورات أهلها، فإن لم تكن فهي بعدُ مِلك لأصحابها لا يجوز دخولها إلّا بإذن ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟﴾ عن أبوابها ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ ولمّا تدخلوا أم دخلتم، فليس الدخول - فقط - محظوراً، بل والوقوف على أبوابها حين لا يؤذن بدخولها، كما والدخول بإذن محدد بما لم يؤمر الداخل بالرجوع.

فإن في قصد أبواب الناس حالات ومجالات مختلفة الأحكام، ففيما تتأكد رضى أهل البيت أن تقصدهم أو تشك، تقصده باستيناس، فإما دخولٌ بشرطه أم رجوع عند فقده، فلا وقوف إلّا استيناساً.

وفيما تتأكد عدم الرضى فلا قصد إليها ولا وقوف، إذ لا يُسمح إلّا الدخول المأذون أو الاستيناس، ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟﴾ حيث الوقوف دون مبرّر على أبواب الناس مزرءة على الناس، فـ «هو» عدم الدخول و«هو» الرجوع قبل الدخول أو بعده، بإذن ودون إذن، «هو» فيهما ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ وفي

خلافه خلافها، فلا يصح لمؤمن أن يقف على باب ليس له دخولها فإنه موضع تهمة له ولأهل البيت! ولا يصح له البقاء في بيت دخله - وإن كان بإذن - إذا قيل ارجع بعد إذن، فضلاً عن غير إذن!

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من وقفة مسموحة أو محظورة أمّا ذا من أعمال ﴿عَلِيمٌ﴾ تواجهونه في أعمالكم دونما خفاء فلا خداع!

وعلّكم تتحرجون تجرّحاً من قيلهم ﴿ٱرۡجِعُوا۟﴾ ولكن لا، ارجعوا دون أن تجدوا في أنفسكم غضاضة ولا هزازة، ولا أن تستشعروا من أهل البيت نفرة الإساءة، فللناس أسرارهم وأعذارهم وظروفهم الخاصة، لو أنهم اختجلوا من طارق واستقبلوا دون استعداد تضايقوا متحرجين، وهل أنت كمؤمن ترضى تضييقاً على أخيك أن تدخل بيته، وهل أنت تقبل أن يدخلوا بيتك دون أهبة، لا، - إذاً - فارجع شاكراً لأهله كما كنت تدخل شاكراً، اللهم إلّا إذا كان قيلهم ﴿ٱرۡجِعُوا۟﴾ مهانة قاصدة دونما عذر، هنالك فارجع غير راجع إليهم إلّا إذا اعتذروا، فاقبل عذرهم كريماً لكي يقبل الله عذرك ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ﴾!

هذه هي البيوت المسكونة مهما لم يكن فيها أهلها، وأما غير المسكونة التي لكم فيها متاع؟ فـ :

﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

ماذا تعني ﴿بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٍ﴾؟ ومن ثم ﴿فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمۡۚ﴾؟ هل إنها بيوت لها أصحاب خصوص خربت فلا تسكن؟ وعدم السكن لخرابها لا يخرجها عن ملك أهلها! ولا يجعلها من بيوتكم فهي غير بيوتكم!

أم عامرة لا يحتاج أهلوها أن يسكنوها؟ وليس لزامه عدم الحاجة إلى بيعها أو إيجارها! وليست هي بيوتاً غير مسكونة بمجرد خلوّها عن أهلها! فإنها داخلة في الآية التي مضت ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا...﴾!

أم هي البيوت التي تركها أهلوها إعراضاً عنها لخرابها أو الاستغناء عنها؟ قد يجوز أن تعنيها الآية فيما تعنيه، ولكن العامرة منها ليست غير مسكونة، مهما تُركت لفترة طالت أم قصرت!

أو أنها البيوتات العامة التي لا تسكن، وإنما تدخل لاستراحة أو متاع، كالدكانات والخانات والحمامات والأرحية[1] أمّاذا من بيوتات ليس لها سكان خصوص، مهما كان لها أهل يملكونها، أم ليس لها أهل خصوص، من موقوفات عامة، أو أملاك خاصة جرت العادة على دخولها دون إذن فإنها كلّها بيوت غير مسكونة لكم فيها متاع: المتعة الاستراحة، كالفنادق والمثاوي والبيوت المعدة للضيافة منفصلة عن السكن الدائم، والخانات في الطريق، أو متعة الاستحمام والتخلي كالحمامات وبيوت الخلاء، أو متعة البيع والشراء كالدكاكين وبيوت التجارة، أو أية متعة من المتع المحلّلة فلا استئناس فيها ولا استئذان مهما كان في دخولها أجرة، أم دفع ثمن للمعاملة أمّاذا؟

فـ ﴿مَتَٰعٌ لَّكُمۡۚ﴾ يعم المتعة المجانية كما في الموقوفات العامة، أو ما فيها أجرة كالحمامات والسيارات، ويعم وجود متاع لكم من أموالٍ مودوعة فيها أماذا؟ أو المتعة المعنوية كالمدارس وأمثالها مما تمتّع علمياً كمشروعات عامة، دون اختصاص بمتاع دون متاع إلّا كونه حِلاً، ولا بيوت غير مسكونة دون بيوت، إلّا أن تكون خاصة بُيِّنت أحكامها في الآية التي قبلها!

لقد كان الرسول ﷺ والمؤمنون المخلصون معه ﷺ أوّل من تأدب

---

(١) الدر المنثور ٥: ٤٠ - أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان في حديث. . . فلما نزلت آية التسليم في البيوت والاستئذان فقال أبو بكر: يا رسول الله ﷺ فكيف بتجار قريش الذين يختلفون بين مكة والمدينة والشام وبيت المقدس ولهم بيوت معلومة على الطريق فكيف يستأذنون ويسلمون وليس فيها سكان، فرخص الله في ذلك فأنزل الله: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ﴾ [النّور: ٢٩] بغير إذن.

وفي نور الثقلين ٣: ٥٨٧ ح ٩٠ القمي عن الصادق عليه السلام هي الحمامات والخانات والأرحية.

بهذه الآداب لحدّ ما كان يدخل بيت ابنته الزهراء دون استئذان، وكان لا يتحرَّج إن لم يسمع جواباً كما حصل له في قيس بن سعد بن عبادة قال: زارنا رسول الله ﷺ في منزلنا فقال: السلام عليكم ورحمة الله فرد سعد رداً خفياً، قال قيس فقلت: ألا تأذن لرسول الله ﷺ؟ فقال: دعه يكثر علينا من السلام، فقال رسول الله ﷺ: السلام عليكم ورحمة الله فرد سعد رداً خفياً ثم قال رسول الله ﷺ: السلام عليكم ورحمة الله ثم رجع رسول الله ﷺ واتبعه سعد فقال: يا رسول الله ﷺ إني كنت أسمع تسليمك وأردُّ عليك رداً خفياً لتكثر علينا من السلام قال: فانصرف معه رسول الله ﷺ وأمر له سعد بغسل فاغتسل ﷺ ثم ناوله خميصة مصبوغة بزعفران أو ورس فاشتمل بها ثم رجع رسول الله ﷺ يديه وهو يقول: اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة...!

ترى سعداً خالف الواجب من إسماع الجواب واحترام الرسول ﷺ إذ خيِّل إليه بديله زيادة رحمة من كثرة سلامه ﷺ عليه، فلم يتحرّج الرسول ﷺ من ذلك حيث انصرف معه يدعو لآل سعد، وعلّه استغفاراً له من ترك الواجب واسترحاماً له إن كانت نيته صالحة مهما أخطأ في تلك المواجهة!.

فعلينا أن نتأدب بذلك الأدب الإسلامي السامي، فلا نطرق إخواننا في أية لحظة، إلّا في الأحوال المناسبة استيناساً من قبل باتصال هاتفي أو إعلام، ثم نتقيد بالوقت الذي يقرر لنا دون تقديم ولا تأخير، وإذا اعتذر منا ونحن وراءَ الباب فلا نتحرّج فنحرِّج أهل البيت ليفتحوا لنا كارهين.

ولكننا - مع الأسى - لم نتأدب حتى الآن بهذه الآداب، في الوقت الذي نرى غيرنا متأدبين بها! نطرق إخواننا في الأوقات غير المناسبة، في غسق الليل وغداء النهار وأوقات الراحة، فإن لم يفتحوا لنا أو لم يدعونا

إلى طعام أو مبيت تحرّجنا دون تقدير لأعذارهم أو تعذير لأقدارهم، والحق أن نوبخ أنفسنا في ذلك التخلف عن الأدب الجماعي!

وهنا تتجلى لنا الوصية العلوية المباركة: «الله الله في القرآن لا يسبقنكم بالعمل به غيركم» وقد سبقنا المتحضرون في قسم من هذه الآداب الجماعية، منزلية وسواها، ونحن نعتبرها آداباً إفرنجية فنتحذرها حذرنا من المكروهات أو المحرمات، فإذا قيل لأحدنا: لماذا الدخول دون إذن أو استيناس، قلنا له اتفرنجت بعد إسلامك! و«شر الإخوان من تكلف له» دعنا من هذه التكلفات والسنن الإفرنجية الكافرة!.

ويعد أدب الاستيناس لدخول البيوت كسياج على الحرمات، نجد سياجاً على سياج خارج البيوت أم أياً كان يحافظ على تفلّت النظرات أو تعمدها، حيث تثير الشهوات، كإجراء وقائي عن اللفتات والفلتات التي هي خطوة من خطوات الشيطان، فرب نظرة قصيرة تورث حسرة طويلة!:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ التَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ النِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾:

يبدو أنها أولى آيات الحجاب نزلت بالمدينة المنورة بعد ما ذاق البعض من المبتلين بالنظر وبال أمرهم[١] واختصاص الأمر بالأمر ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

---

(١) روضة المتقين ٨: ٣٥٢ روى الكليني في الموثق كالصحيح عن سعد الإسكاف عن أبي =

بالمؤمنين لا يعني انحصار وجوب الغض بهم وانحساره عن سواهم، بل لأنهم هم المتأثرون فعلاً عن أمر الله حيث آمنوا بالله، وسواهم مأمورون بالفروع كما هم مأمورون بالأصول، هنا بالفعل وهناك بالشأن.

﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ. . .﴾ فرضان مشتركان بين المؤمنين والمؤمنات ثم عليهن فروض ومحرمات أخرى ليست عليهم، فماذا تعني ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ. . .﴾ ﴿يَغْضُضْنَ. . .﴾ ﴿وَيَحْفَظْنَ﴾؟

«من» هنا ليس للتعدية حيث الغض متعد بنفسه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ. . .﴾[1].

أترى هي زائدة؟ وهي قولة زائدة! إذ لا زائدة في القرآن إلّا كسنة أدبية جميلة، وهي مطردة كالزائدة في خبر «ليس» وليس الغض كليس!.

أم لابتداء الغاية؟ وهو يتطلب انتهاءً لها وأين هي هنا!

أم للجنس غضاً لجنس الأبصار؟ والجنس لا يغض اللّهم إلّا أفراده! والعموم مستفاد من «المؤمنين وأبصارهم» دون حاجة إلى عنايته من الجنس!.

أم للتبعيض؟ وماذا يعني غض بعض الأبصار! حيث البصر إما مفتوح أو مغضوض ولا عوان بين ذلك!

= جعفر عليه السلام قال: استقبل شاب من الأنصار امرأة بالمدينة وكان النساء يتقنعن خلف آذانهن فنظر إليها وهي مقبلة فلما جازت نظر إليها ودخل في زقاق قد سماه ببني فلان فجعل ينظر خلفها واعترض وجهه عظم في الحائط أو زجاجة فشق وجهه فلما مضت المرأة فإذا الدماء تسيل على صدره وثوبه فقال: والله لآتين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولأخبرنه قال: فأتاه صلى الله عليه وآله وسلم فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له: ما هذه؟ فأخبره فهبط جبرئيل بهذه الآية ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ. . .﴾ [النّور: ٣٠].

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال مر رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في طريق من طرقات المدينة فنظر إلى امرأة ونظرت إليه فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلّا إعجاباً به فبينا الرجل يمشي إلى جنب حائط ينظر إليها إذ استقبله الحائط فشق إنفه فقال: والله لا أغسل الدم حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأعلمه أمري فأتاه فقص عليه قصته فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: هذا عقوبة ذنبك وأنزل الله هذه الآية.

(١) سورة الحجرات، الآية: ٣.

إن الغض هو الخفض والنقصان، فقد يكون تمام النقص كـ ﴿ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾(١) فلا يتكلمون إلّا همساً لا صوت له، وقد يكون بعضه كـ ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾(٢) ألا يرفعه عالياً فيزعج الآخرين، والغض من الأبصار كالثاني، فهل هو بألا يحدق البصر إلى ما لا يحلّ إليه النظر، فأمّا اللمحة واللمحات فلا بأس؟ وهذا لا يصح بالنسبة للعورات، حيث اللّمحة إليها ممنوعة كما النظرة! أو بأن يقتسم نظر البصر إلى محظور ومسموح، فلا يغضه عن كل منظور، ولا يفتحه إلى كل منظور، بل غضّ بكامله عن العورات، ومن ثم غضّ منه عن نظرة الشهوة إلى غير العورات، ثم لا محظور في الزاوية الثالثة. تنظر إلى وجه امرأة وتنظر هي إلى وجهك دونما تقصُّد شهوة ولا ريبة.

ولأن البصر هو العين التي تبصر، فالغض من البصر لا من العين قد يشمل الغضين، غمضاً عن المنظور إطلاقاً كالعورات ولواحقها، وغمضاً عن نظرة الريبة والشهوة، وغضاً دون إحداق حيث يرى دون شهوة إلى وجوه النساء، فهنالك للعين إحداق وغض وإطباق ولكلٍّ مجال، واقتسام النظر إلى هذه الثلاث غض لنظراتك ككل، وكسره عن النظرة المريبة غض، وغمضه عن العورات غض. ووجه ثان أن مفعول الغض محذوف معروف من «فروجهم وفروجهن» فليغضوا الفروج من أبصارهم غضاً كاملاً، ومهما كانت الفروج هي المعلومة من موضوع ﴿يَغُضُّواْ...﴾ ﴿وَيَحْفَظُواْ﴾ فعلى كل مؤمن ومؤمنة أن يغض من بصره نظراً إلى فروج الآخرين، وأن يغض فروجهم من بصره، كما عليه أن يحفظ فرجه عن نظر الآخرين فضلاً عن لمسهم وفعلهم، وأما غض النظر عن غير الفروج فلا دلالة في الغض من الفرج وحفظه عليه.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ٣.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٩.

ولأن الآية لا تذكر موارد الغض من الأبصار إلّا فروجهم وفروجهن، فهي القدر المعلوم من الغض المأمور به هنا وهناك، أن يغضوا من أبصارهم نظراً إلى عورات الرجال والنساء، وأن يغضضن من أبصارهن كذلك نظراً إلى عورات الرجال والنساء، وأن يحفظوا فروجهم ويحفظن فروجهن عن أن ينظر إليها، سياجاً وستراً ذا بعدين عن النظر إلى العورات(١) وقد فسر حفظ الفرج هنا بأنه عن النظر(٢) وإن كان يعمه والنظر(٣).

فلا إطلاق في فرض الغض من الأبصار فيما سوى العورات، أم والغض عن نظرة الريبة والشهوة هو بدليل السنة، فأما النظر دونهما إلى وجه المرأة للرجل أو الرجل للمرأة فلا يشمله الغض، ولولا آية الحجاب لم تكن آية الغض لتدل على حرمة النظر إلى غير العورات من مفاتن النساء، اللهم إلّا آية ﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾(٤) فإنها الناظرة إلى ما لا يحل، والنظرة عن شهوة لا تحل، وقد كان الرسول ﷺ يمنع عنها(٥).

---

(١) نور الثقلين ٣: ٥٨٩ ح ٩٤ من لا يحضره الفقيه قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصية لابنه محمد ابن الحنفية: «وفرض على البصر أن لا ينظر إلى ما حرم الله عز وجل عليه فقال عز من قائل: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ . . .﴾ محرم أن ينظر أحد إلى فرج غيره، وفيه ح ٩١ عن أصول الكافي في حديث طويل عن أبي عبد الله عليه السلام فقال تبارك وتعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡ﴾ [النور: ٣٠] فنهاهم أن ينظروا إلى عوراتهم وأن ينظر المرء إلى فرج أخيه ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١] من أن تنظر إحداهن إلى فرج أختها ويحفظ فرجها من أن ينظر إليها وقال: كل شيء في القرآن من حفظ الفرج فهو من الزنا إلا هذه الآية فإنها من النظر.

(٢) وفي متظافر الأحاديث من طريق الفريقين أن «كل آية في القرآن في ذكر الفرج فهي من الزنا إلا هذه الآية فإنها من النظر».

(٣) فإن حفظ الفرج في سائر القرآن هو حفظه عن الزنا، وهنا الحفظ لا يخصه بل يعمه والنظر، وتفسير الحفظ بخصوص النظر تفسير بمصداق يختلف عن الحفظ في سائر القرآن.

(٤) سورة غافر، الآية: ١٩.

(٥) في فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٣ : ٢٤٥ حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني سليمان بن يسار أخبرني عبد الله بن عباس قال: أردف النبي ﷺ الفضل بن=

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ...﴾:

الزينة هي الهيئة الخاصة من الزين والحسن، من ذاتية كجمال المرأة، أو عرضية تجمِّل غير الجميل منها أو تزيدها جمالاً، من ملابس جميلة ظاهرة ومستورة، فحرامٌ على المرأة أن تبدي زينتها وجمالها ذاتياً وسواها لغير من يحل له النظر إليها، وليس إبداء زينة إلّا المستورة بحجاب مّا.

وقد كانت لهن خمر قبل تمام الحجاب غير مضروب بها على جيوبهن، كما كانت لهن جلابيب غير مدناةٍ عليهن، فكان ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ يشمل جيوبهن الظاهرة كما تشمل وجوههن وأيديهن وزينتها العادية، ثم و﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ أخرجت جيوبهن عن الظاهرة حيث أصبحت بذلك الحجاب من الباطنة، فقيدت ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ بغير الجيوب، من الظاهرة الذاتية كالوجه واليدين والقدمين[1] والعرضية كالملابس الفوقية والأحذية والخاتم والسوار أمّا ذا من الظاهرة.

= عباس يوم النحر خلفه على عجز راحلته وكان الفضل رجلاً وضيئاً فوقف النبي ﷺ للذين يفتيهم وأقبلت امرأة من خثعم وضيئة تستفتي رسول الله ﷺ فطفق الفضل ينظر إليها وأعجبه حسنها فالتفت النبي ﷺ والفضل ينظر إليها فأخلف بيده فأخذ بذقن فضل فعدل وجهه عن النظر إليها فقالت: يا رسول الله! إن فريضة الله في الحج على عباده أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يستوي على الراحلة فهل يقضي عنه أن أحج عنه؟ قال: نعم».

(١) روضة المتقين ٨: ٣٥٢ في الصحيح عن مروك بن عبيد عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له: ما يحل للرجل أن يرى من المرأة إذا لم يكن محرماً؟ قال: الوجه والكفان والقدمان، وفي قرب الإسناد للحميري في الصحيح بإسناده إلى علي بن جعفر عن أخيه موسى عليه السلام قال: سألته عن الرجل ما يصلح له أن ينظر إليه من المرأة التي لا تحل له؟ قال: الوجه والكف وموضع السوار، والكافي بإسناده في الصحيح عن الفضيل قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الذراعين من المرأة هما من الزينة التي قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ قال: نعم وما دون الخمار من الزينة وما دون السوارين، وفي قرب الإسناد عن الرضا عليه السلام قال: إن أبا جعفر مرّ بامرأة محرمة وقد استترت بمروحة على وجهها فأحاط المروحة بقضيبه عن وجهها. =

والفرق بين ﴿وَلَا يُبْدِينَ﴾ الأوّل والثاني، أن الأوّل يستثني الزينة الظاهرة قبل الحجاب، ومنها الجيوب، والثاني يستثني من يجوز إبداء الزينة غير الظاهرة له، الطوائف الإثنى عشر بعد الحجاب بالضرب على الجيوب.

فالضرب بالخمر على الجيوب هو إسبال الخمر، وهي المقانع على فرجات الجيوب، لأنها خصاصات إلى الترائب والصدور، والثديِّ والشعور، وأصل الضرب من قولهم: ضربت الفسطاط، إذا أقمته بإقامة أعماده وضرب أوتاده، فاستعير هنا كناية عن التناهي في إسبال الخمر وإضفاء الأزر، ونكاية على المسترسلات الخمر، دون إسبال على فرجات الجيوب!

ولأن الحجاب المفروض لا يشمل الوجوه والأيدي وأمثالهما من الظاهرة لمكان الاستثناء، وأنها ظاهرة لضرورة الحياة العادية الجماعية، فهي إذاً مستثناة عن فرض الستر والحجاب، وليس لزامه جواز رؤية الرجال على أية حال، ولا حرمتها إلّا الرؤية المريبة المشهية بدليل السنة ولمحة

= وفي الوسائل ١٤: ١٤٠ ح ١٢ في العلل والعيون بأسانيده عن محمد بن سنان عن الرضا عليه السلام فيما كتبه إليه من جواب مسائله: وحرّم النظر إلى شعور النساء المحجوبات بالأزواج وإلى غيرهن من النساء لما فيه من تهييج الرجال وما يدعو إليه التهييج من الفساد والدخول فيما لا يحل ولا يحمل وكذلك ما أشبه الشعور إلا الذي قال الله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَاعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النُّور: ٦٠] فلا بأس بالنظر إلى شعور مثلهن.

وفي الدر المنثور ٥: ٤١ عن عكرمة في الآية قال الوجه وثغرة النحر، وعن سعيد بن جبير الوجه والكف، ومثله عن عطاء، وأخرج سعيد وابن جرير عن أبي جريح قال قالت عائشة دخلت على ابنة أخي لأمي عبد الله بن الطفيل مزينة فدخلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأعرض فقالت عائشة إنها ابنة أخي وجارية فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إذا عركت المرأة لم يحل لها أن تظهر إلا وجهها وإلا ما دون هذا وقبض على ذراع نفسه فترك بين قبضته وبين الكف مثل قبضة أخرى، وفيه أخرج أبو داود وابن مردويه والبيهقي عن عائشة أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال: يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وأشار إلى وجهه وكفه، وأخرج أبو داود في مراسيله عن قتادة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن الجارية إذا حاضت لم يصلح أن يرى منها إلا وجهها ويداها إلى المفصل.

الكتاب، وأما الرؤية عن غير شهوة فلا دليل على حرمتها من كتاب ولا سنة إلّا على عدمها[١].

وضرب الخمر على الجيوب لا يعني ضربها عليها وعلى الوجوه والأيدي إذ لم تذكر مع الجيوب حيث الخمر كانت لا تغطي الجيوب فتبدو مثيرة للناظرين، كما وأنها ليست لتستر على الملابس الفوقية، فإنها هيه، فليضرب بها على الجيوب الظاهرة وعنده كمال الحجاب!.

والباء في ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ للتبعيض حيث يعني ضرب بعض الخمر على الجيوب، القدر الذي يستر الجيوب إضافة إلى ما كانت ساترة غيرها، فلا وجه لإدخال الوجه في الضرب بالخمر إلّا لمن يخيّل إليه أن الوجوه كانت مستورة قبل الحجاب، ثم الضرب بالخمر على الجيوب حيث يعني قيد البعض منها على الجيوب حفاظاً دائباً عليها، إنه لا يناسب الوجوه حيث لا يمكن تقييدها بالخمر، اللهم إلّا بالأغطية، وليس هنا إلّا طرف من الخمر يضرب بها على الجيوب!

لا نجد في آيات الحجاب إلّا خمراً يضرب بها على الجيوب، وجلابيب تدنى عليهن منها، والخمر هي الأغطية التي كانت على رؤوسهن فأضيفت إلى الرؤوس الجيوب، لا الوجوه فضلاً عن الأيدي والأقدام، والجلابيب هي الأثواب الأوسع من الخمر ودون الأردية، أم هي الأعم منها ومن الأردية، ولا يقتضي إدناء الأردية - فضلاً عما دونها - ستر الوجه

(١) المصدر في الحسن عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النّور: ٣١] قال: الخاتم والمسكة وهي القلب وهما السوار، وفي القوي كالصحيح عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: الزينة الظاهرة الكحل والخاتم، وفي تفسير علي بن إبراهيم في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية: فهي الثياب والكحل والخاتم وخضاب الكف والسوار، والزينة ثلاث زينة للناس وزينة للمحرم وزينة للزوج فأما زينة الناس فقد ذكرناها وأما زينة المحرم فموضع القلادة فما فوقها والدملج وما دونه والخلخال وما أسفل منه وأما زينة الزوج فالجسد كله.

وصاحبيه، إلا مفاتن البدن والجيوب، فضرب الخمر على الجيوب يزيد حجاب الجيوب، والإدناء من الجلابيب عليهن يزيد حجاب مفاتن البدن، لا كل البدن حيث يشمل الوجه وصاحبيه لمكان «من» ولو قال «يدنين عليهن جلابيبهن» كانت هي الأردية ما كانت لتشمل الوجوه، فلأنها لا تغطى بالإدناء بل وبالغطاء المضروب عليها، ولكنه قال ﴿مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ تدليلاً على وجوب الستر أكثر مما كان، وعلّه يعني ما يعنيه ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ فالإدناء من الجلابيب كالضرب بالخمر يعني ستر الجيوب إضافة إلى سائر الستر الذي كان قبل ذلك الحجاب.

فأين تغطية الوجوه من آي الحجاب أو السنة، إلّا بقياس الأولوية ممن يحتاطون في الحجاب أكثر مما فرضه الله، وي كأنه تعالى خفيت عليه أولويتهم فخص الحجاب بغير الوجوه، فبدلاً من أن يقول «وليضربن بخمرهن على وجوههن وجيوبهن» أهمل ذكر الوجوه وخص الضرب بالجيوب!

إن هذه إلّا من التطفلات والتكلفات دون حجة من كتاب أو سنة، إلّا قياساً مردوداً بالكتاب والسنة، أم أولوية مطرودة، فليست جاذبية الوجوه أكثر من سائر أجزاء البدن ولا مثلها، وحتى إذا كانت مثلها أما ذا؟ فلماذا التكليف كله على النساء وحتى في التغطية المعسرة أو الحرجة، تلك إذاً قسمة ضيزى، فقد يكفيهن حجاب البدن كله إلّا ما ظهر منها بعد الضرب بالخمر وإدناء الجلابيب، ثم الباقي على الرجال ألا ينظروا إلى وجوههن عن شهوة وريبة، فإذا عرفَت أن رجلاً ينظر إليها عن شهوة تنهاه، فإن لم ينته غطت وجهها عنه أو ابتعدت نهياً عملياً عن المنكر، وكما في الرجل إذا نظرت إليه امرأة عن شهوة ينهاها، وإلّا تغطى أو ابتعد عنها، وأما إذا علمت أن في جماعة من الرجال من ينظر إليها عن شهوة ولا تعرفه، فما عليها أن تغطي وجهها إلا رجحاناً دون وجوب، إذ لا تعرف الآتي بالمنكر حتى تنهاه

ثم تغطي في آخر المطاف، وإنما الإثم على من ينظر، وكما الرجل إذا يعلم أن امرأة من النساء تنظر إليه ولا يعرفها، فهل عليه أن يغطي أو يخرج من جموع الناس، إذاً فواجب الانعزال عن الناس أو التغطية يشمل قبيلي الرجال والنساء، مهما كان الحكم بالنسبة للنساء أغلظ، وفرضه عليهن أحرز، فإن مفاتنهن أحرض.

ومن الحكمة الحكيمة في آية الأحزاب ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾[1] نزداد علماً أن ذلك الحجاب رمزٌ للعفاف، تعرف به صاحبته فلا تؤذى، فغير المحجوبة تؤذى، إذ لا تُعرف بعفاف حتى لا تؤذى، والمحجوبة لا تؤذى فإن حجابها دليل عفافها فلا تُتبع وتُلحق رجاء إجابتها للفحشاء، ولو لم تكن أدلة أخرى على فُرض الحجاب لصحت الفتوى بترك الحجاب لمن هي معروفة بالعفاف، فإنما فرض الحجاب دليلاً على العفاف وستراً لمفاتن المرأة، كما حرّم النظر المريب إلى المرأة وإلى وجهها، سياجات ثلاثة عن السقوط إلى هوّات الشهوات!

وقد عبر عن النظر المحدق المريب بزنا النظرة، فإنه خطوة إلى الفحشاء[2] وأما النظر دون ريبة ولا شهوة فلا محظور فيه مهما لم يكن

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٩.

(٢) الدر المنثور ٥: ٤١ - أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: إن الله عزّ وجلّ كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر وزنا اللسان النطق وزنا الأذنين الاستماع وزنا اليدين البطش وزنا الرجلين الخطو والنفس تمني وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه، وفي الوسائل ١٤: ١٤١ ح ١٦ عن عقاب الأعمال عن رسول الله ﷺ قال: من اطلع في بيت جاره فنظر إلى عورة رجل أو شعر امرأة أو شيء من جسدها كان حقاً على الله أن يدخله النار مع المنافقين الذين كانوا يتبعون عورات النساء في الدنيا ولا يخرج من الدنيا حتى يفضحه الله ويبدي للناس عورته في الآخرة ومن ملأ عينيه من امرأة حراماً حشاهما الله يوم القيامة بمسامير من نار وحشاهما ناراً حتى يقضي بين الناس ثم يؤمر به إلى النار وفيه اشتد غضب الله على امرأة ملأت عينها من غير زوجها أو غير ذي محرم معها.

مشكوراً، وأحاديث المنع عن اتباع النظرة النظرة غير ظاهرة في النظرة إلى الوجه، ولا أنها كل نظرة وإن كانت دون ريبة وشهوة والتذاذ[١].

فالأشبه عدم وجوب ستر المرأة وجهها ويديها عن غير المحارم، وعدم حرمة النظر إليها إلّا عن ريبة وشهوة! والأحاديث المدّعى دلالتها على وجوب ستر الوجه بين مؤولة وغير ظاهرة الدلالة على الوجوب، وعلى فرض الدلالة هي معارضة بأخرى فالرجوع إلى كتاب الله، ولا دلالة فيه إلّا على جواز إبداء الوجه والكفين[٢].

---

(١) المصدر ١٣٨ ح ١ عن أبي عبد الله عليه السلام النظرة من سهام إبليس مسموم وكم من نظرة أورثت حسرة طويلة، ورواه مثله عن عقبة وعن الكاهلي عنه عليه السلام النظرة بعد النظرة تزرع في القلب الشهوة وكفى بها لصاحبها فتنة، وعن السكوني عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام قال: أول نظرة لك والثانية عليك ولا لك والثالثة فيها الهلاك، وفي العيون عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تتبع النظرة النظرة فليس لك يا علي إلا أوّل نظرة أقول: القدر المتيقن من النظرة إلى العورة أو إلى سائر الجسد غير الوجه، أو النظرة المثيرة إلى الوجه.

(٢) في البخاري ج ٣: ٣٤ و١٠٢ وتاريخ الطبري ٣: ٦٧ عن عائشة فأصبح صفوان عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رآني وكان رآني قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه قال: «أظعينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخمرت وجهي بجلبابي» وفعل عائشة لا يثبت حكماً خلاف الكتاب والسنة إلا استحباباً في تغطية الوجه.

وفي الطبقات ٨: ٧٢ رأيت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر دخلت على عائشة وعليها خمار رقيق يشف عن جيبها فشقته عائشة وقالت: «أما تعلمين ما أنزل الله في سورة النور ثم دعت بخمار فكستها» وكستها هنا لا تعني إلا ستر جيبها كما تدل عليه آية النور.

وفي الفائق ٣: ٢٠ - مرط في حديث عائشة أنها قالت: لما نزلت هذه الآية انقلب رجال الأنصار إلى نسائهم فتلوها عليهن فقامت كل امرأة تزفر (تحمل) إلى مرطها المرحّل (كسائها الملون) فصدعت منه صدعة فاختمرن بها فأصبحن في الصبح على رؤوسهن الغربان ولا دلالة فيه على ستر الوجه! بل «على رؤوسهن الغربان» لا على وجوههن!

وفي الخصائص للنسائي ص ٢٠ عن جميع بن عمر قال دخلت مع أبي على عائشة يسألها من وراء حجاب عن علي عليه السلام وسؤال نساء النبي من وراء حجاب كما نص عليه في القرآن ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣] قد يختص بنساء النبي إن عنى الحجاب الشامل، أو يعني بـ «حجاب» ما فرضته آية الحجاب ولعله أشبه. =

ومهما يكن من شيء ففي إرسال البصر للنظر إلى وجوه النساء الأغارب دون قيد ولا شرط نكبة جماعية، وكما وفي إبداء النساء زينتهن إلّا ما ظهر منها، فالنظرة القاصدة الخائنة تثير، كما الزينة والنبرة تثير، ومن هذه الجاذبية من الجانبين سعار حيواني مجنون!

وهنالك قيلة عليلة[1] ممن هوى إلى شهوة الجنس لحد جعلها أصل الحياة بكافة جنباتها في رذيلة أو فضيلة، تقول: ألا سبيل إلى تنفيس وترويح الجنسين وتقليل الشبق المجنون عما في هذا البين إلّا إباحة النظرة، وطلاقة المحادثة، والخلطات الموسعة، والدعابة المرحة، والاطلاع على مواضع الفتنة المخبوءة، وقاية من الكبت الجنسي ومن العقد النفسية!

ولكنها بعدما افتعلت في بلاد الجنس والإباحية، المتفلتة من كافة القيود، وجدنا بعد ذلك كله أنه زاد في الطنبور نغمة أخرى، فقد انتهى إلى سعار مجنون لا يرتوي، وإلى تلهّف وتكالب بين الجنسين ومعهما الشذوذ الجنسي الذي لا يخلد ببال، كثمرة مباشرة لذلك الاختلاط الكامل!

هنا يتبين لأولي الحجى أن الطريق المأمون هو تقليل هذه المثيرات وغض النظرات، بحيث يبقى الميل الجنسي في حدوده الطبيعية مع تلبية

= وفي طبقات ابن سعد ٣: ٢٤٠ لما حضرت أبا سلمة الوفاة حضره النبي ﷺ وبينه وبين النساء ستر مستور فبكين، وهذا الستر علّه لئلا تتكلف النساء الحجاب فلا يدل على وجوب ستر الوجوه!

وأما ما نقل مستفيضاً عن أم سلمة قالت كنت عند النبي ﷺ وعنده ميمونة فأقبل ابن أم مكتوم وذلك بعد أن أمر بالحجاب فقال ﷺ: احتجبا فقلنا يا رسول الله ﷺ: أليس أعمى لا يبصرنا؟ فقال: أفعمياوإن أنتما؟ ألستما تبصرانه؟ فعليه سؤال أن الاحتجاب لا يمنع من الرؤية وإذا كانت الرؤية محظورة فغض البصر يكفيه، وإلا فليحتجب الرجال حتى لا يروا النساء، ومهما يكن من شيء فإبصار المرأة الرجل الأجنبي يحرم بالنسبة لأجزاء خاصة من بدنه، لا رأسه ووجهه.

(١) فرويد في فصل المشكلة الجنسية.

طبيعية، وهو المنهج الذي يختاره الإسلام لإنشاء مجتمع نظيف شريف، حيلولة عادلة دون هذه الاستثارات، وتعديلاً عادلاً للرغبات، وإبقاءً للدافع الفطري العميق بين الجنسين سليماً عن الهرج والمرج!

ليست النظرة عن شهوة محرمة - فقط - في الإسلام، ففي إنجيل (متى ٥ : ٢٧ - ٢٩) «قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن. وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه. فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها والقها عنك. لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضاءك ولا يُلقى جسدك كله في جهنم».

... فيا عجباً للمسيحيين كيف أصبحوا إباحيين في أمور الجنس لحد يستحلون أبشع ألوان التعري والدعارة، كأنها ليست محرمة في شريعة الناموس!

ثم وحرة النظر إلى غير المحارم تعني أموراً عدة: ١ - الحفاظ على حرمات المؤمنات، ٢ - حفاظهن والناظرين عن التأثر الجنسي فالتعسر إلى هوات الزنا وحرمة الشهوات، ٣ - ألّا يؤذين المؤمنات بملاحقة الذين في قلوبهم مرض من الرجال، والوسطى من هذه تعم المؤمنات وسواهن من النساء، فعند عدم الخوف هكذا يجوز النظر إلى غير المؤمنات، وإذا المؤمنة لا تحترم نفسها حين لا تستر كما يجب، ولا تنتهي إذا نهيت، جاز النظر إليها إلا في الوسطى وكما في صحيح الأثر بالنسبة لنساء البوادي حيث يصرح بجواز النظر: «لأنهن إذا نهين لا ينتهين».

غض البصر الحادق من جانب الرجل أدب نفسي ومحاولة للاستعلاء على الرغبة في الاطلاع على مفاتن المرأة إغلاقاً وسداً للخطوة الأولى من خطوات الشيطان، ومحاولة عملية للحيلولة دون إصابة سهم الشيطان، وحفظ الفرج من النظر، ثم الحفاظ على سائر الزينة هو محاولة ثانية لسد

الطريق على ذلك السهم المسموم، و«ذلك» الحفاظ في بعديه ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ رجالاً ونساء ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ والزينة في بُعديها لزام الأنوثة تكويناً وتشريعاً، فهي محللة للمرأة تلبية لفطرتها في حاجتها إلى التجمل وتجلية للرجال، ولكن لمن؟ لرجلها كزوجة له، ولمحارمها كمحارم كل على حدة، لحد لا يثير شهواتهم إلّا رجلها فإنها ممدوحة له، وممدوحة له ولهم كما يناسبها ويناسبهم، ممنوعة للأغارب ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ كما بينّا.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ فالجيب هو فتحة الصدر حيث كانت بادئة مفتوحة قبل كمال الحجاب، ولكي لا تفتح صدورهُن إلى صدورِهم منافذ الشهوة، أمرن بسدها «بخمرهن» ضرباً ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

وذلك التحشُّم من أفضل الوسائل الوقائية عن تجشّم العلاقة الجنسية الهرجة المرجة، يفرض في المجالات الخَطِرة ككل، ثم يستثنى في المحارم حيث لا تتجه ميولهم ولا تثور شهواتهم.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ...﴾:

أترى ﴿زِينَتَهُنَّ﴾ تشمل كل البدن بما عليها من زينة ظاهرة؟ فكيف يجوز إبدائها كلها حتى العورة لغير البعولة مثلهم على سواء؟ أو أنها تخص غير العورة إذ ليست هي من الزينة، بل هي سوءَة للناظر مهما كانت محور الشهوة للفاعل، فالعورات كلها خارجة عن الزينة في الرجال وفي النساء، وسنة إبداء الزينة في الجاهلية لم تكن تشمل عورات النساء وحتى الزانيات منهن، وإنما سائر البدن، فـ ﴿زِينَتَهُنَّ﴾ لا تعني فيما تعني العورات وجيرانها من الأفخاذ أمّا ذا، وجواز إبداء عوراتهن لبعولتهن مستفاد من أدلة أخرى![1].

---

(١) مضت رواية القمي في مراتب الزينة من قوله عليه السلام: والزينة ثلاث زينة للناس وزينة للمحرم =

نجد هنا اثنتي عشرة طائفة داخلة في استثناء الحلّ خارجة عن مستثنى الحرمة رجالاً ونساء، فغيرهم - أياً كانوا - خارجون عن نص الحلِّ إلى نص التحريم، اللهم إلّا في الضرورات التي تبيح المحظورات كإنجاء الغرقى، وعلاج المرضى، حيث تضاف إلى الحل بأدلة الحرج والاضطرار، وكذلك لمن يريد الزواج فله النظر إلى ما يُطمئِنه أنها تصلح للزواج(١) فينظر إلى شعرها ومحاسنها شرط أن تكون مستعدة للزواج به وهو مستعد للزواج بها، ولم يبق شرط إلّا شرطُ الجمال المرضي من الطرفين، فهذه النظرة داخلة في نطاق الاضطرار فمحدودة بما يرفع الحاجة الضرورية من النظرة، دون تعدٍّ عنها إلى غيرها تفنناً أو تلذذاً!(٢).

ثم اللهم إلّا أزواج بناتهن أو أمهاتهن، وأعمامهن وأخوالهن لمكان النص في آية التحريم: ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ...﴾(٣) ﴿وَأُمَّهَٰتُ

= وزينة للزوج فأما زينة الناس فقد ذكرناها «الثياب والكحل والخاتم وخضاب الكف والسوار» وأما زينة المحرم فموضع القلادة فما فوقها والدملج وما دونه والخلخال وما أسفل منه، وأما زينة الزوج فالجسد كله» أقول: وكون الجسد كله زينة لا يعني حقيقة الزينة وإنما حكمها في جواز الرؤية زينة وسواها من كل الجسد.

(١) كموثقة غياث في رجل ينظر إلى محاسن امرأة يريد أن يتزوجها قال لا بأس وصحيحة ابن سنان الرجل يريد أن يتزوج أفينظر إلى شعرها؟ قال نعم، وفي حسنة هشام وحفص وحماد وحسنة محمد عن الرجل يريد أن يتزوج المرأة أينظر إليها قال نعم، ومرسلة الفضل أينظر الرجل إلى المرأة يريد تزويجها فينظر إلى شعرها ومحاسنها؟ قال لا بأس بذلك إذا لم يكن متلذذاً، وعن محمد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن الرجل يريد أن يتزوج المرأة أينظر إليها؟ قال: نعم يشتريها بأغلى الثمن، وفي الخلاف للطوسي ٣: ٣٥٧ روى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: إذا طرح الله في قلب امرئ خطبة امرأة فلا بأس أن يتأمل حسن وجهها.

(٢) وإذا احتاج إلى النظر إلى عورة أم مثلها مما هي قريبة إليها فلتنظر امرأة موثوق بها نيابة عنه فيما يقبل النيابة.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢٣.

نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾[1] فإنه ينقض صرح الاستثناء الحاصر في الظاهر من آية النور ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا...﴾.

أترى لماذا لم يذكر أزواج البنات، أو الأمهات والأعمام والأخوال هنا وهم أقرب إليهن فأحرى بالذكر من ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أمّن ذا من بعض المذكورين في آية النور؟ علّه اعتماداً على آية النساء وهي أشمل، فليس القرآن ليذكر الأحكام إلّا تدريجياً، لا جمعياً، أو علّهم أحلّوا بعد آية النور، أم لأن الحكم فيهم حائر محور الرجال، وفي النور على محور النساء، أم هم معنيون بطيات المذكورين هنا كما يأتي.

وهل يجوز النظر إلى النساء غير المؤمنات؟ نعم حيث الأدلة كتاباً وسنة لا تشملهن، ومن السنة ما تدل على الجواز[2] أم هل يجوز النظر إلى غير المتحجبات من المسلمات؟ علّه نعم «لأنهن إذا نهين لا ينتهين»[3] اللّهم إلّا نظرة الشهوة، ولا سيما الناحية منحى الزنا أمّاذا من محرمات.

وإليكم الطوائف الاثنتي عشرة:

١ - ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أترى هم الأزواج بنكاح دائم أو منقطع، فلا تشمل الحلائل بغير الزواج، كالملك والتحليل؟ أم هم كل الحلائل أياً كانوا؟ ظاهر البعولة هو الثاني! وإلّا فلماذا لم تذكر الأزواج، والبعل في

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٣.

(٢) كرواية السكوني لا حرمة لنساء أهل الذمة أن ينظر إلى شعورهن وأيديهن، ومرسلة الفقيه «إنما كره النظر إلى عورة المسلم وأما النظر إلى عورة الذمي ومن ليس بمسلم فهو كالنظر إلى عورة الحمار، ومثلها مرسلة ابن أبي عمير «النظر إلى عورة من ليس بمسلم مثل نظرك إلى عورة الحمار» وابن أبي عمير ممن أجمعت العصابة على تصحيح ما يصح عنه.

(٣) هي رواية ابن صهيب «لا بأس بالنظر إلى أهل تهامة والاعراب وأهل البوادي من أهل الذمة والعلوج لأنهن إذا نهين لا ينتهين.

أصل اللغة هو المستعلي[١] وهو من الرجال بالنسبة للنساء المستعلي عليهن كنساء، وهو الاستعلاء في مُتعَ الجنس، إذاً فهم كل الحلائل من أزواج ومالكين والمحلَّل لهم من الإماء!

وزينتهن لبعولتهن لا تعني - فقط - ما تعنيه لسائر الاثني عشر، بل كل البدن بما عليها من زينة دونما استثناء!

٢ - ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾: الوالد ووالده أو والد الوالدة وإن علوا، فالجدود من طريق الآباء والأمهات تشملهم ﴿ءَابَآئِهِنَّ﴾ كذلك والآباء من الرضاعة لمكان الحرمة الدائبة بها، وصدق البنت بالرضاعة، وقد تشمل «الآباء» أزواج الأمهات إذ يطلق عليهم الآباء ولا سيما بمقتضى النص في النساء ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾[٢] فهل يعقل الحجاب لمن في حجرك؟ وهذا أبلغ صيغة في التعبير عن المحرمية وحرمة النكاح، إذاً فالآباء ثلاثة: صلبي ورضاعي والربيب، تشملهم ﴿ءَابَآئِهِنَّ﴾.

فلأن القرآن أنكر على سنة الأدعياء ثم أبقى سنة الرضاعة بشروط، وسنة الأبوة للربائب شرط الدخول، إذاً فهن بناتهم وهم آباؤهن إلّا في الميراث وكما لا ميراث في صلة الرضاعة.

ثم الأعمام والأخوال كذلك لم يذكروا، وعلّ ذكرهم فيمن حرّم عليهم نكاحهن في النساء كافٍ، فأصبح المحارم ستة عشر أربعة منهم في «النساء».

٣ - ﴿أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ تعني الوالد والجد ما على، لمكان الآباء

---

(١) ولأن المشركين كانوا يعتقدون في بعل علواً عليهم سموه بعلاً، وبعل الدابة هو المستعلي عليها، وبعل الأرض هي المستعلية على غيرها وبعل النحل هو فحلها وبني من لفظ البعل المباعلة والبعال كناية عن الجماع (المفردات للراغب الاصبهاني).

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٣.

دون الوالدين، حيث الوالد نصٌّ فيمن ولدك دون واسطة، وأما أن يعنيه ومن ولّدك بوسائط فبحاجة إلى قرينة، أو يعبّر بالآباء فمطلق أم عام!.

وهل تعم الآباء من الرضاعة؟ علّها نعم للإطلاق، ولكنها لا حيث النص ﴿وَحَلَـٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَـٰبِكُمۡ﴾[1].

٤ - ﴿أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ﴾ بلا واسطة أم بواسطة، أبناء الأبناء أم أبناء البنات مهما نزلوا، وسواء كانوا أبناءهن أو من الرضاعة بدليل قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾[2].

٥ - ﴿أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ وهكذا الأمر فيهم مهما نزلوا، أو من الرضاعة.

٦ - ﴿أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ﴾ من أب أو أم أم الأبوين، أترى تشمل ﴿إِخۡوَٰنِهِنَّ﴾ الإخوة من الرضاعة؟

علّه لا تحلل الحلائل من أبناء الرضاعة، فهن إذاً غير ذوات محرم لآباء أزواجهن من الرضاعة، ولا نصَّ في القرآن يحمل حكم الآباء من الرضاعة إلّا هذا، وحديث «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» لا إطلاق فيه يشمل مورد المصاهرة، وحرمة الحلائل ليست إلّا للمصاهرة[3] ولو كان مطلقاً لم يعارض نص الكتاب المحلل للحلائل من غير الأصلاب!

والقول أن «من أصلابكم» لإخراج الأدعياء قولٌ دعيٌّ، فإن صيغته «من غير أدعيائكم» و«من أصلابكم» تخرج غير الصلبي من الدعي والرضاعي، وليس من الفصيح ولا الصحيح ذكر الخاص لإخراج الأعم من الخارج به.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٣.

(٣) قد يقال إنه مطلق لأن هذه المصاهرة ليست إلّا من الرضاع و«يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب». يشمله.

إذاً فكما تحل حلائل الأبناء من الرضاعة، فتحرم - كذلك - عليهن إبداء زينتهن لآباء بعولتهن من الرضاعة، فالحرمة المؤبدة هي التي تجعل المرأة من المحارم في جواز إبداء الزينة، اللّهم إلّا في المفضاة المطلَّقة، والملاعنة التي ردت لعان زوجها الرامي لها بالزنا، فإنها تنفصل دون طلاق في حرمة أبدية وليست إذاً من المحارم!

وعله نعم حيث حرمت الأخوات من الرضاعة أبدياً ولزامها أنهن من المحارم ﴿وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ﴾[1].

٧ - ﴿أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ بينهم مهما نزلوا ولكن من النسب، وأما بنوهم من الرضاعة فلعلهم لا، فإن آية التحريم إنما حرمت الأخوات من الرضاعة، وأما بناتهن فلا، ولكنه نعم لصدق الأخوات فبناتهن بنات الأخوات ولعموم التنزيل في السنة «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب».

٨ - ﴿أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ كذلك الأمر من نسب أو رضاع، دون فصل أم بفصل، أبناء بنيهم أو أبناء بناتهم.

٩ - ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ تعني النساء المسلمات قريبات أو غريبات ما دمن مسلمات، وأما غير المسلمات فلا تبدي المسلمة زينتها لها إلّا ما ظهر منها، كما الرجال غير المحارم «فإنهن يصفن ذلك لأزواجهن»[2] وحتى إذا لم يصفن، حيث الآية مطلقة غير معللة، فغير نسائهن من النساء داخلة في النهي، وقد تكون الحكمة احتشامهن عن إبداء زينتهن لغير مِن يؤهل لرؤيتهن عليها حتى إذا لم تكن هناك نظرة سوءٍ ناقلة، وكما لا يجوز لأجنبي مسلم

(١) سورة النساء، الآية: ٢٣.
(٢) نور الثقلين ٣: ٥٩٣ ح ١٢٣ في من لا يحضره الفقيه روى حفص بن البختري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا ينبغي للمرأة أن تنكشف بين يدي اليهودية والنصرانية فإنهن يصفن ذلك لأزواجهن.

أن يرى منهن ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ﴾ وإن كانت نظرة مؤمنة أمينة، فبأحرى عدم الجواز لغير نسائهن!

١٠ - ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ ترى أنه كل مملوك لهن عبداً أو أمة لظاهر الإطلاق؟ والعبد أحرى بالحجاب عنه من النساء الأغارب، ولا سيما غير المؤمن! وقد وردت فيه روايات متهافتة[١] والرجوع إلى كتاب الله كما تفهمناه ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ تقيد الإطلاق إن كان بغير أولي الأربة من العبيد كسواهم! واختصاص الإماء بالذكر بعد نسائهن يعني شمولهن لغير المسلمات! وقد تكون ﴿مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ مطلقة كما هي في نفسها وان كانت مقيدة بالإماء فلتكن إمائهن وهي أخصر مما ملكت إيمانهن! وتتقيد في حل العبيد برؤية الشعر كما في متظافر الروايات[٢]

---

(١) الدر المنثور أخرج أبو داود وابن مردويه والبيهقي عن أنس إن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها وإذا غطت رجليها لم يبلغ رأسها فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال: «إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك» أقول يعني أنه من غير أولي الإربة من الرجال فلا إطلاق، ويؤيده ما أخرجه عبد الرزاق وأحمد عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال: إذا كان لإحداكن مكاتب وكان له ما يؤدي فليحتجب عنه، وعن مجاهد: لا ينظر المملوك لشعر سيدته، وعن عطاء سئل هل يرى غلام المرأة رأسها وقدمها؟ قال ما أحب ذلك إلا أن يكون غلاماً يسراً فاما رجل ذو لحية فلا، وعن سعيد بن المسيب قال لا تغرنكم هذه الآية ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ [النّور: ٣١] إنما عنى بها الإماء ولم يعن بها العبيد، وعن إبراهيم قال تستتر المرأة من غلامها، وما أخرج عن مجاهد كان العبيد يدخلون على أزواج النبي ﷺ يعارض رواية النهي عنه «لا ينظر المملوك»... وإنه خلاف نص الآية في اختصاصها بما ملكت أيمانهن، والعبيد هنا أعم منهم، وفي المجمع قيل معناه العبيد والإماء وروي ذلك عن أبي عبد الله، وهو مطروح بضعف السند ومخالفة المتن للكتاب والسنة.

(٢) ففي رواية البصري وابن عمار والهاشمي ومرسلة الكافي ورواية الفضل وأكثرها صحيحة عن أحدهما عن المملوك يرى شعر مولاته قال: لا بأس، والأخرى لا بأس أن يرى المملوك الشعر والساق، والثالثة المملوك يرى شعر مولاته وساقها قال: لا بأس والرابعة في المملوك لا بأس أن ينظر إلى شعرها إذا كان مأموناً، والمروي عن النبي ﷺ في قصة مملوك فاطمة لا يدل على أكثر من ذلك بل وهو أدل على اختصاص الحل بالشعر، قضية الضرورة =

فالعبيد غير أولي الإربة أو في النظر إلى الوجه والشعر، حل لهن وهو أشبه بالكتاب والسنة والفتوى، إذاً فلعبدها منها بعض ما للمحارم كالشعر وليس إلّا، اللهم ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ حيث يحل لغير المحارم ككل.

وهل يتقيد هذا الحل بعبد مؤمن؟ ظاهر الإطلاق كتاباً وسنة: لا، إلّا يكون مأموناً فحرامٌ وإن كان مسلماً!.

١١ - ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾.

الإربة فعلة من الإرب: فرط الحاجة المقتضي للاحتيال في دفعه، فهي هيئة خاصة من الإرب، فكل إرب حاجة وليست كل حاجة إرباً، كما أن كل إربة حاجة مفرطة، وليست كل مفرطة إربة، فهي هنا الحاجة المفرطة إلى الجنس، الدافعة إلى النظر الهادف المحدق إلى ذوات الجنس.

فليست الرجولة بنفسها مُنعة عن النظر إلى زينتهن، بل مع الإربة غير التابعة، فـ ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ هم الرجال الذين لا أصالة لهم في المجتمع، وإنما يعيشون حياة التبعية، أم لا أصالة لهم في جوٍّ خاص فيه نساء: تبعية خاصة هنا وإن كانوا أصلاءَ في غيره، ثم لا حاجة لهم مفرطة إلى الجنس تقتضي احتيالهم في دفعه، بنظرة مريبة أو لمسة وقبلة أو وطأة كغاية، إما لفقد الشهوة، أو قلتها، أو احتشام فيها عن نساء قضية التبعية، فليس إذاً ليشتهي المرأة المتبوعة، ولا يرى لنفسه منها إربته، ولا يخطر بخلده أن ينالها بشيء، تبعية آيسة عن مس كرامة من المتبوعة!

إما لفقد المعرفة من بلاهة أو جنون تتناسى فيهما الشهوة أم أنوثية المرأة، أم لخصاء أو عنن أمّاذا مما تصدق فيه حياة التبعية دون إربة من حاجة مفرطة إلى الاحتيال لدفعها.

= الدائمة، وكمل في صحيحة ابني عمار ويعقوب يحل للمرأة أن ينظر عبدها إلى شيء من جسدها غير متعمد لذلك.

فإذا لم يكن الرجل من التابعين وليست له إربة، أو كان ولكن له إربة، فهل هو بعدُ مَحرم؟

الأصل هنا عدم الإربة، والتبعية كمقدمة لعدم الإربة، فإن لم تكن له حاجة إلى النساء أبداً فهو مَحْرم إذ ليست له رجولة الجنس كالخنثى والعنّين وأمثالهما، وأما إن كانت له حاجة غير مفرطة وليس من التابعين حتى تمنعه عنهن التبعية فما هو بمحرم، والأصل هنا عدم المكنة من الغلبة الجنسية مهما كانت له شهوة أم لم تكن، وإن كان في محرمّية من له شهوة ممنوعة بالتبعية تردد، حيث الأصل في عدم الإربة استقلاله أمام التبعية، دون الإربة المنفية بالتبعية، إذ لا تمنع حينئذٍ عن نظرة الشهوة[١].

(١) الدر المنثور ٥: ٤٣ - أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي عن عائشة قالت كان رجل يدخل على أزواج النبي ﷺ مخنث فكانوا يعدونه من غير أولي الإربة فدخل النبي ﷺ يوماً وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة قال: إذا أقبلت أقبلت بأربع وإذا أدبرت أدبرت بثمان فقال النبي ﷺ: لا أرى هذا يعرف ما هاهنا لا يدخلن عليكم فحجبوه، وفي نقل آخر فقال ﷺ: لا أسمع هذا يعلم ما هاهنا لا يدخلن عليكم فأخرجه فكان بالبيداء يدخل كل جمعة يستطعم، وفي الكافي عن أبي عبد الله عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: كان بالمدينة رجلان يسمى أحدهما هيت والآخر مانع فقال الرجل ورسول الله ﷺ يسمع إذا فتحتم الطائف إن شاء الله فعليكم بابنة غيلان الثقفية، فإنها شموع بخلاء مبتلة هيفاء شنباء إذا جلست تثنت وإذا تكلمت غنت، تقبل بأربع وتدبر بثمان بين رجليها مثل القدح فقال النبي ﷺ: أراكما من أولي الإربة من الرجال، فأمرهما رسول الله ﷺ فغرب بهما إلى مكان يقال له العرايا فكانا يتسوقان في كل جمعة.

أقول: الشموع المزاح والمبتلة الجميلة القامة الخلق والهيف ضمر البطن ورقة الخاصرة، والشنب عذوبة في الأسنان، والثني رد بعض الشيء على بعض، والأربع اليدان والرجلان، والثمان هي مع الكتفين والأليتين، وإقبالها بأربع كناية عن سرعتها في الإتيان وقبولها الدعوة، وإدبارها بثمان كناية عن بطوئها ويأسها من حاجتها فيها.

وفي الكافي عن الباقر عليه السلام في تفسير غير أولي الإربة قال الأحمق الذي لا يأتي النساء، وعن الصادق عليه السلام الأحمق المولى عليه الذي لا يأتي النساء، والقمي هو الشيخ الفاني الذي لا حاجة له في النساء وفي صحيحة ابن بزيع عن قناع الحرائر من الخصيان فقال: كانوا =

فالشيخ الكبير الذي ليست له رغبة إلى النساء، أو الذي لا يقوم زبه، والخنثى والعنين، والأحمق والمجنون الذي لا يعرف أمر النساء وأمثالهم هم من مصاديق هذه الآية.

وأما الذي له حاجة إلى النساء ولكنه تمنعه مانع التبعية أمّاذا تمنعه من حاجته، فقد لا يكون هو من مصاديق الآية، حيث الإربة لعلّها أصل الحاجة المنفية، لا شدتها أو بروزها في ظروفها المقتضية، وإن كان بينه وبين ذي الإربة الفعلية الفعّالة بون بين!

فلأن الإربة بين معان خمسة: حاجة، وتوفر الحاجة، والفرج، والعضو الكامل، والعقل، لا يؤخذ من الثاني المتزايد إلا أصل الحاجة وتتأيد بالآية ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾[1] ثم سائر الخمسة، تعم كل إربة معنية: الحاجة الجنسية إلى النساء في أية مرتبة فالشيخ الفاني والعاجز الذي لا يستطيع الوطي هما من غير أولي الإربة، والفرج: فمقطوع الذكر والخنثى، هما من غير أولي الإربة، والعضو الكامل: فالذي لا يقوم زبّه لعنن أم لأية علة دائبة أو مؤقتة هو من غير أولي الإربة، والعقل: فالمجنون والأبله الذي لا يعرف النساء هما من غير أولي الإربة، وفي ذلك تجاوب متين بين الكتاب والسنة!

ثم ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ قد تعم من لا إربة له فيها وإن كانت له إربة في سواها، كما تعم من لا إربة له إطلاقاً، وزوج البنت قد يكون ممن لا إربة له في أم الزوجة وهو من التابعين، فـ ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ عنوان عام يشمل كل من لا حاجة له في النساء، إما لنقص في شهوة أو آلة، أم لاحتشام بالنسبة لمرأة، فالأعمام والأخوال وأزواج الأمهات وأزواج البنات قد تشملهم ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ إضافة إلى ثبوت عدم الحجاب عنهم بدليل تحريم زواجهم.

= يدخلون على بنات أبي الحسن ولا يتقنعن قلت فكانوا أحراراً؟ قال: لا، قلت فالأحرار يتقنع منهم؟ قال: لا.

(١) سورة طه، الآية: ١٨.

١٢ - ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

إنه لا تختص حرمة إبداء الزينة بما هو أمام البالغين، حتى يحل للطفل الظاهرين على عورات النساء كغير الظاهرين، أترى ما هو الظهور على العورات، أهو الاطلاع - فقط - عليها، دونما شهوة أو إمكانية عملية جنسية؟ وهذا يعم الأطفال منذ يميزون ذكورتهم والأنوثة، من خمس سنين أو ستة فما فوقها!

أم هو القدرة على العملية الجنسية؟ فلماذا ﴿لَمْ يَظْهَرُوا۟﴾ بدل «لم يقدروا»! وقد يقدر الطفل بشهوة أو دونها على الوطي، وهو بُعد لم يميز ما عند النساء عما عند الرجال!

الظهور هو الغلبة في العلم والعمل[1] فالطفل العارفون عورات النساء لماذا هيه، القادرون على أن يفعلوا فيهن، هم من أولي الإربة مهما لم يصلوا حد البلوغ والرجولة، فإنما يُعنى من الرجولة - في حرمة إبداء الزينة - الظهور على عورات النساء، لذلك يستثنى من الرجال غير أولي الإربة، ويلحق بالرجال الطفل الظاهرون على عورات النساء، وهم الطفل أولو الإربة، فالإربة هي الأصل الذي يتبنى الحرمة وسلب المحرمية، في الرجال أم الطفل، وفي سلبها - في أيٍّ كان - محرمية، وهو في الطفل الذين لا يثير جسم المرأة وزينتها فيهم الشعور بالجنس، كما في الرجال مهما اختلفت مراتب الإثارة!.

والزينة التي يجوز إبداؤها لهؤلاء ثلاث: ١ - كل البدن بملابسه وهو

(١) ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ [الكهف: ٢٠] فإنه لا يعني فقط الاطلاع فرب مطلع لا يقدر على الرجم، ولا العمل فرب قادر لا يعمل إذا لا يعلم موضعه. ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ...﴾ [التوبة: ٨] أي يغلبوا حيث يعنيهما ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣] أي يتكئون قادرين، لا فقط يعلمون ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣] أي ليغلبه فالأصل في الظهور الغلبة عملياً وهي بحاجة إلى غلبة علمية. فلا العلم فقط ولا الغلبة فقط يكتفى به لإيفاء معنى الظهور.

خاص بالبعولة، ٢ - ما دون العورة وجيرانها وأقاربها وهي للمحارم نسبياً أم سببياً أم رضاعياً، ٣ - شعر الرأس إضافة إلى الزينة الظاهرة أو وشيء من جيرانها وهي لسائر الطوائف الثمان، اللّهم إلّا الطفل غير الظاهرين، والإماء ولا سيما المسلمات منهن وبعض التابعين غير أولي الإربة، فلعلهم كالثانية أو يتلونهم، بما في كلٍّ من الطائفة الثانية والثالثة من مراتب قرباً وبعداً وأمنا وسواه، فإبداء الزينة في كلٍّ يقدّر بقدره، و﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا...﴾ لا تعني كل زينة في كلٍّ من الاثني عشر!

﴿...وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾:

... الضرب بالأرجل هو قوة المشي وشدته بحيث تسمع قعقعة خلخالها، أو ترى من زينتها الخفية بجلبابها فـ «يعلم» يعم علم السمع والبصر، وهو منفذ لإثارة الشهوة وإحضار الريبة، وأمّا صرف العلم بأن لها زينة خفية فغير محظور، وإنما إظهار زينة خفية سمعاً لها وإبصاراً أو شماً أمّاذا من خفيّة تظهر بالإبداء، وكضابطة عامة تستفاد من ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ﴾ كل مثير للشهوات ومجلب للنظرات، وحتى إذا كانت زينة ظاهرة غير ضرورية، أم حركات غير عادية تحت الحجاب التام دون إظهار لزينة، أم رائحة عطرية تجذب، أم صوت يغنج، أمّاذا من المثيرات غير الضرورية، إنها محرمة على النساء أن يبدينها، ومحرمة على الرجال أن يتعرضوا لها، إذا كانت مثل النظرة المثيرة، والنبرة المغيرة، وأما ما دون ذلك مما لا يتجنب فغير محظور ولا محبور، فسماع وسوسة الحلي أو شمام شذى العطر(١) قد يثير حواس أناس، ويهيج أعصابهم ويفتنهم فتنة جازفة جارفة لا يملكون لها

(١) استفاض عن النبي ﷺ قوله: «أيما امراة خرجت واستعطرت ليوجد ريحها فهي زانية وكل عين زانية».

رداً، والقرآن يسد الطريق على كل هذه المثيرات من الجانبين، لأن منزِّله هو الذي خلقهما، وهو الذي يعلم ما خلق وهو اللطيف الخبير.

﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وي كأن لجميع المؤمنين نصيباً قلّ أو كثر من هذه الإثارات والتأثرات الشهوانية، قلّما يخلو منها ذكر أو أنثى لهم الرغبات الجنسية، من خطوة إلى خطوة، من نبرة إلى نظرة وإلى شهوة وريبة وإلى ما لا تحمد عقباه، أعاذنا الله جميعاً من خطوات الشيطان.

والإفلاح هو شق الطريق إلى النجاح، ولا بدّ من توبة إلى الله ليتوب الله علينا في طريقنا الصعبة الملتوية، المليئة بالشهوات والإثارات، لعلنا نفلح حيث نُفلج الرغبات غير المشروعة، والطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، ولا متطرق فيها إلّا متزلقاً قل أو كثر، فلا بد من توبة إلى الله وإنابة دائبة إليه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾!

ثم التوبة ليست فقط عن معصية حاصلة[1] بل وعما قد تحصل لولا تسديد أو عصمة ربانية، وذلك للعدول وأولي التقى، ومن ثم توبة للحفاظ على روح العصمة! وتكاملها إلى القمة، كما كان لرسول الله ﷺ: «فإني أتوب إليه كل يوم مائة مرة»[2].

إلى هنا قدّمت علاجات وقائية مؤقتة سطحية ليست بالتي تجتث الثورة

(١) المصدر أخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي رافع أن رسول الله ﷺ سئل كم للمؤمنين من ستر؟ قال: هي أكثر من أن يحصى ولكن المؤمن إذا عمل خطيئة هتك منها ستراً فإذا تاب رجع إليه ذلك الستر وتسعة معه وإذا لم يتب هتك عنه منها ستر واحد حتى إذا لم يبق عليه منها شيء قال الله تعالى لمن يشاء من ملائكته إن بني آدم يعيرون ولا يغفرون فاخفوه بأجنحتكم فيفعلون به ذلك فإن تاب رجعت إليه الأستار كلها وإذا لم يتب عجبت منه الملائكة فيقول الله لهم أسلموه فيسلموه حتى لا يستر منه عورة، وفيه أخرج ابن المنذر عن عبد الله بن مغفل سمعت رسول الله ﷺ يقول: الندم توبة.

(٢) الدر المنثور ٥: ٤٤ - أخرج أحمد والبخاري في الأدب ومسلم وابن مردويه والبيهقي في=

النفسية الجنسية، وتحصن المتجاذبين عن أية تخلفات اللّمم أمّاذا، ولكي يحصل الحصان الجذري تخفيفاً لهذه الثورة، شرع مشروع الزواج ما طاب وتيسر دائماً أو مؤقتاً، كفريضة بالقدر الذي يحول دون تخلفات محتومة، وكمندوية تحول دون احتمالاتها القريبة والغريبة:

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ . . .﴾:

يأتي النكاح في سائر القرآن في ثلاثة وعشرين موضعاً بمختلف صيغه، أمراً ونهياً إنشاء، وإخباراً، تعني مطلق النكاح عقداً للزواج إلا بقرينة تدل على معنى الوطي عن عقد كـ ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾[1] فإن نكاح الزوج ليس عقده، بل وطأه عن عقده، أم تدل على انقطاع في عقده: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾[2] أم على دوام كالتي تقرن بطلاق أماذا من اختصاصات الدائم.

فـ ﴿وَأَنكِحُوا﴾ هنا تعم المنقطع كما الدائم، حيث المنقطع نكاح كما الدائم، فالأمر يعمهما حسب مختلف الظروف والإمكانيات والمتطلّبات، فلو لم تكن هناك دلالة خاصة من كتاب وسنة على مشروعية النكاح المنقطع لأفتينا بها سناداً إلى هذه المطلقات، وكما البيع دائم ومؤقت، بأحرى أن يكون النكاح دائماً ومؤقتاً.

ولأن التشريع نسخة متجاوبة مع التكوين، فلتكن شرعة النكاح كافلة

= شعب الإيمان عن أبي رافع قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: أيها الناس توبوا إلى الله جميعاً فإني. . . وعن حذيفة عن النبي ﷺ إني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة وأتوب إليه.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٤.

لقضاء وطر الجنس، ولا يقضيه النكاح الدائم حيث الأكثرية الساحقة من ذوي الإربة وذواتها لا يجدون نكاحاً، فليجبر بالنكاح المؤقت كضرورة جماعية دائبة بين المستضعفين، فحتى إن لم يكن دليل خاص أو عام من كتاب أو سنة على سماح هكذا نكاح لكنا نفتي به بحكم الضرورة، كيف والأدلة متوفرة متواترة على ذلك، وقولة النسخ خرافة وهراء والله منها براء!.

وهذه الآية من بينها هي اليتيمة في نوعها، آمرة بالإنكاح في متطلباته واجبة وراجحة، الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم، دونما تخوّف عن فقرهم حالاً أو استقبالاً لحمل النكاح ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وهذا حينما يجدون نكاحاً على فقرهم، ثم يأمر الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله ريثما يجدوه... فالناكحون والمنكوح لهم هم عوان بين الأمرين، ولكي يحصل لهم أمرٌ بين أمرين، لا يظلوا عُزَّباً يعذَّبون، ولا أن ينكحوا فقراء فيتعذبون ويعذّبون!

الأيامى جمع الأيّم وهو من لا زوج له ذكراً أو أنثى، كان تزوج قبل أم لم يتزوج[1] مهما كان غير المتزوج أولى، ولقرنهم بالصالحين من عبادكم وإمائكم فهم الأحرار، من أقارب وهم أحرى بالكفالة الولاية الخاصة، أم أغارب بولاية الكفالة العامة، فـ ﴿مِنكُمْ﴾ يعني من المسلمين أجمع إلّا الرقيق، والمخاطبون بالإنكاح طبعاً هم أولياء الأيامى من خاصة وعامة، وهذه - فقط - ولاية الإنكاح فلا تشرط فيها سائر الشروط في سائر الولايات، اللهم إلّا في البنت العزباء التي لم تتزوج قبل فـ «انكحوا» فيها تختص في ولاية الأب والجد ليس إلّا، على شروطها المذكورة بطيات آياتها.

---

(١) لسان العرب: والحرب مأيمة للنساء أي تقتل الرجال فتدع النساء بلا أزواج، وأمت المرأة إذا مات عنها زوجها أو قتل وأقامت لا تتزوج وفي حديث علي عليه السلام مات قيمها وطال يأيمها ورجل أيمان عيمان هلكت امرأته، وفي الحديث أن النبي ﷺ كان يتعوذ من الأيمة، والعيمة وهو طول العزبة.

ولأن الأمر وارد مورد الحاجة الجنسية، وفيما لا تكفي الوقايات السطحية من إخفاء الزينة وترك النظرة، فلا يعم كل الأيامى، وإنما ذوو الإربة اللازمة ففريضة، أو الراجحة فمندوبة، فلا فرض هنا مطلقاً، ولا رجاحة مطلقاً، فإنما المتطلبات على اختلافها تقتضي وتتقاضى أمر الفرض أحياناً وندبه أخرى، أم لا هذا ولا ذاك.

وهل الإعراض عن سنة النكاح في إربه الراجح محرم؟ مهما لم يحرم تركه دون إعراض؟ الظاهر نعم لأنه إعراض عما أمر به الله وعمل به رسول الله ﷺ كما يروى عنه «النكاح من سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني»[(١)].

أترى ماذا تعني ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ...﴾؟ هل هم المتقون؟ وليس فرض النكاح أو رجاحته بشرط التقوى، وهي لم تذكر للأيامى، بل وغير التقي أحرى بالنكاح لكيلا يطغى!

---

(١) في الوسائل ١٤ : ٣ عنه ﷺ قال: تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم غداً في القيامة حتى أن السقط يجيء محبنطئاً على باب الجنة فيقال له: ادخل الجنة فيقول: لا حتى يدخل أبواي قبلي، وفيه ٦ ح ١ قال أبو عبد الله عليه السلام: ركعتان يصليهما المتزوج أفضل من سبعين ركعة يصليها أعزب، وعنه عليه السلام قال ﷺ: رذال موتاكم العزّاب، و٨: ح ٩ علي بن الحسين المرتضى في رسالة المحكم والمتشابه نقلاً عن تفسير النعماني عن علي عليه السلام قال: إن جماعة من الصحابة كانوا حرموا على أنفسهم النساء والإفطار بالنهار والنوم بالليل فأخبرت أم سلمة رسول الله ﷺ فخرج إلى أصحابه فقال: أترغبون عن النساء؟! إني آتي النساء وآكل بالنهار وأنام بالليل فمن رغب عن سنتي فليس مني وأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المَائدة: ٨٧]، فقالوا: يا رسول الله ﷺ أنا قد حلفنا على ذلك فأنزل الله: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ...﴾ [البَقَرَة: ٢٢٥] ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ...﴾ [المَائدة: ٨٩].

وفي صحيح البخاري باب الترغيب في النكاح، عن أنس بن مالك يقول: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالّوها فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فقال أحدهم: أما أنا فأنا أصلي الليل أبداً وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً فجاء إليهم رسول الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني، وفيه =

أم هم الصالحون للزواج كفوأً رجالاً ونساءً؟ والصلوح له كما يجب شرط في كل نكاح دون اختصاص بغير الأحرار! أم هم المسلمون منهم؟ ولغير المسلمين نكاح كما لهم نكاح!

لأن ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ أمرَ بإنكاحهم للأحرار لأنفسهم، وفيهم مسلمون كما فيهم غيرهم، لذلك تُذكر من شريطة صلاح النكاح: الإسلام، فلا يَصلح كافرٌ لمسلمة ولا كافرة لمسلم، مهما صلح التناكح بين مسلم ومسلمة وكافر وكافرة، وإنكاح ﴿عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ يشمل هذا المثلث، وقيد «الصالحين» يخرج - فيما يخرج - غير المسلمين ﴿مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ في إنكاحهم للمسلمين منهم ومن الأحرار منكم، اللّهم إلّا كتابية لمسلم لآية المائدة: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾(١).

وأما ﴿ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ فشريطة صلاح الإسلام واردة في ﴿مِنكُمۡ﴾.

فإذا صلح عبدٌ أو صلحت أمة فالإنكاح - بينهما، أم هما بحر أو حرة - صالح، وأما الكافر فغير صالح إنكاحه بمسلمة، وأما بمثله فقد لا يشمله أمر الإنكاح حيث الصلاح هنا شرط الإنكاح كواجب أو راجح، مهما صح التناكح بينهما دون صلة بالموالي المسلمين، وإن رقية الكافر في حساب الإسلام كمدرسة داخلية عسى أن يسلم في جوّ إسلامي يعيشه ليل نهار، ومما يشوقه إلى الإسلام وعدُ النكاح، إن صلح بإسلامه، فمايز الإسلام

= عنه ﷺ قال: من استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، وفيه عنه ﷺ: يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء.
وقال رسول الله ﷺ: سيأتي زمان على أمتي لا يسلم لذي دين دينه إلا من يفر من شاهق إلى شاهق ومن حجر إلى حجر إذا لم تنل المعيشة إلا بمعاصي الله فعند ذلك حلت العزوبة قيل: يا رسول الله ﷺ أما أمرتنا بالتزويج؟ قال: نعم ولكن إذا كان ذلك الزمان فهلاك الرجل على يدي أبويه فإن لم يكن له أبوان فعلى يدي زوجته وجيرانه يعيّرونه بضيق المعيشة ويكلفونه ما لا يطيق حتى يوردنه موارد الهلكة.

(١) سورة المائدة، الآية: ٥.

﴿مِنكُمْ﴾ والكفر ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ يتطلب شرط الصلاح في أولاء دون هؤلاء!

وترى إذ يعني «الصالحين» المسلمين فلماذا الصالحين العام بدلاً عن نص المسلمين؟ علّه لأنه يعنيهم وصلوح الزواج من عبء تكاليف الزواج، فإذا لم تكن لهم نفقة مضمونة بتكسّب أماذا فتكففٌ على أبواب الناس، وتخجيل لكم أو حِملٌ عليكم، وهذا ليس صالحاً من الإنكاح! ومن ثم صلاحيات أخرى تسمح أو ترجح إنكاحهم من شرعية تعرف من كتاب وسنة، أو عرفية والإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره.

ولماذا يؤمر غير الأيامى أن ينكحوا الأيامى، والبالغ مبلغ النكاح بإمكانه ذلك، ولا سيما الذكران، دونما حاجة إلى الأولياء؟

لأن البالغين والبالغات في أكثريتهم الساحقة لا يستطيعون نكاحاً لفقر مالي أم عدم استقلالهم في حياتهم الجماعية، ولا سيما في النكاح الباكر، وهم أحياناً بحاجة ضرورية إلى النكاح أم راجحة، فلا بد لأوليائهم محاولة الإنكاح دونما تخوف من فقرهم الحالي فضلاً عن الاستقبالي لِحمل النكاح وعبئه، فنفقة النكاح من الواجب على الأولياء بحق المولّى عليهم، إلّا إذا كانوا هم أغنياء، فمن غير جهة المال!

﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ﴾ بالفعل إذ لا مال لهم وحتى للصداق وسائر متطلبات النكاح البدائية، فضلاً عن تداوم الإنفاق، فعليكم أنتم فعلية التكاليف، ومن ثم ﴿يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ «فالتمسوا الرزق بالنكاح»[1].

فـ ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ﴾ بعد ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَٰمَىٰ﴾ لزامه وجوب إنفاق الأولياء قدر الإمكان، فإن لم يتمكنوا منه ولا الأيامى و﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ

(١) الدر المنثور ٥ : ٤٥ - أخرج الديلمي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: التمسوا واخرجوا عن عائشة قال قال رسول الله ﷺ انكحوا النساء فإنهن يأتينكم بالمال، وعن جابر عن النبي ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو إليه الفاقة فأمره أن يتزوج.

نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فعدم وجدان النكاح يعم ما إذا لم يتمكن أحد منهما على الإنفاقات البدائية المفروضة فـ ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ منهم ولا من أوليائهم، أم لا يتمكن أحدٌ منهما للحصول على كفوءٍ «فليستعفف». . .

فمحاولة نكاح الأيامى مشتركة بينهما معاً، فإذ لا سبيل منهما «فليستعففوا» بتصبر أم صوم[1] وفي محاولة تحصيل المال ابتغاءً من فضله ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ كشرط أصيل لبداية النكاح، ومن ثم كما وعد الله ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ﴾ اتكالاً على الله، وكما كان يأمرهم رسول الله ﷺ[2].

ثم ﴿يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ليس وعداً من الله محتوماً فقد لا يغنيهم، وإنما يعدهم ترغيباً لهم وفي الأكثر يغنيهم «من فضله» حيث يسعون أكثر مما كانوا يسعون ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[3] ثم الله يزيدهم من فضله لسدّ ثغرة الأهل في نفقته.

على الأيامى النكاح وعلى أوليائهم إنكاحهم، فإن اشتدت الحاجة - كما يتفق نزراً - ولا سبيل إلى البقاء فالفراق جمعاً بين الأمرين نكاحاً

(١) صحيح البخاري قال رسول الله ﷺ: يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء.

(٢) نور الثقلين ٣: ٥٩٥ ح ١٢٠ عن الكافي عن إسحاق بن عمار قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام الحديث الذي يرويه الناس أن رجلاً أتى النبي ﷺ فشكا إليه الحاجة فأمره بالتزويج ففعل ثم أتاه فشكى إليه الحاجة فأمره بالتزويج حتى أمره ثلاث مرات فقال أبو عبد الله: هو حق ثم قال: الرزق مع النساء والعيال، وفيه عن رسول الله ﷺ من ترك التزويج مخافة العيلة فقد أساء ظنه بالله عزّ وجلّ إن الله يقول: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٢] وفيه ح ١٣٥ عن أبي عبد الله عليه السلام قال أتى رسول الله ﷺ شاب من الأنصار فشكا إليه الحاجة فقال له: تزوج فقال الشاب إني لأستحي أن أعود إلى رسول الله ﷺ فلحقه رجل من الأنصار فقال: إن لي بنتاً وسيمة (حسنة الوجه) فزوجه إياه قال: فوسع الله عليه فأتى الشاب النبي ﷺ فأخبره فقال رسول الله ﷺ: يا معشر الشباب عليكم بالباه (النكاح).

(٣) سورة النجم، الآية: ٣٩.

وفراقاً[(١)] وقليلٌ ما هو، وفي النكاح إحراز الدين[(٢)] وفي العزوبة الرذالة[(٣)] إلّا لغير أولي الإربة، أو الذين لا يخافون الفتنة من العزوبة!

وقد يعني ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ...﴾ إضافة إلى ترك النكاح ريثما يغنوا فينكحوا، استعفافهم بفعل النكاح حتى يغنيهم الله من فضله[(٤)] فمن لا يجد نكاحاً حتى الصداق أو الكفوء فاستعفاف تركه، ومن يجد الكفؤ والصداق ويخاف عيلة النكاح وفقره فاستعفاف بفعله حتى يغنيه الله من فضله، وكما قد يعم ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ من يُنكح ومن يُنكح له بكلا المعنيين، فمن لا يجد إنكاحاً فليطلب عفافاً للأيامى إن استطاع بإنكاحهم، وإن لم يستطع فبحملهم على العفاف بوسائله، كمن لا يجد لنفسه نكاحاً فليطلب عفافاً بأحد الوجهين كما يستطيع، فـ ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ يعم عدم وجدانه لأنفسهم وللأيامى سواهم، وجداناً مادياً أم سواه، فالمهم في هذا البين هو الاستعفاف للأيامى، منهم ومن أوليائهم، بفعل النكاح تحصيلاً للعفاف، أم في تركه تعفيفاً للنفس بوسائل أخرى.

فتحصيل وسائل العفاف عن التخلف الجنسي واجب جماعي كما يجب

---

(١) نور الثقلين ٣: ٥٩٥ ح ١٣٠ في الكافي بإسناده إلى عاصم بن حميد قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فأتاه رجل فشكا إليه الحاجة فأمره بالتزويج قال فاشتدت به الحاجة فأتى أبا عبد الله عليه السلام فسأله عن حاله فقال له: اشتدت بي الحاجة قال عليه السلام ففارق ثم أتاه فسأله عن حاله قال: أثريت وحسن حالي فقال أبو عبد الله عليه السلام إني أمرتك بأمرين أمر الله بهما قال الله عز وجل: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ...﴾ [النّور: ٣٢] وقال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾ [النّساء: ١٣٠].

(٢) المصدر ح ١٣٧ عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من تزوج فقد أحرز نصف دينه فليتق الله في النصف الآخر.

(٣) المصدر ح ١٣٨ عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: رذال موتاكم العزاب.

(٤) المصدر ح ١٥٤ عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ [النّور: ٣٣] قال: يتزوجوا حتى يغنيهم الله من فضله وفيه ١٥٢ في الحاصل بإسناده إلى زيد بن ثابت قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا زيد تزوجت؟ قلت: لا - قال: تزوج تستعف مع عفتك.

على الأفراد لتطهير الجو الإسلامي من الشذوذات الجنسية، من عفاف ذاتي بغض النظر المريب، وبإنكاح ونكاح قدر المستطاع، ثم بمحاولات أخرى تقضي على شبق الجنس، من صوم وابتعاد عن مثيرات للجنس أمّاذا؟

ومن السنن الضرورية للحيلولة عن التخلفات الجنسية النكاح المنقطع، لو لم يكن فيه نص لحكمنا بحله بمطلقات أدلة النكاح، كيف وفيه نص الكتاب ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾(١) ومختلف الحديث حول نسخه وبقاءه معروض على نص الكتاب فمرفوض نسخه، ومنسوخ قولة القائل به أياً كان، فـ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ...﴾(٢)!

المحور الرئيسي في هذه الأوامر الوقائية هو العفاف عن الشذوذ الجنسي مهما كلف الأمر، فأولو الإربة من الذكور والإناث، من الأيامى والصالحين من عبادكم وإمائكم، عليهم النكاح وعليكم إنكاحهم ما وجدوا ووجدتم إليه سبيلاً، وفي سبيل ذلك العفاف الجنسي عليهم العفاف الاقتصادي ما أمكن ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ﴾ حتى يغنيهم الله من فضله ومنه الكفاف بالنكاح المنقطع، وهذا استعفاف بالنكاح لما لا يجد نكاحاً كما يحب، ومن ثم استعفاف إذا لم يجد نكاحاً قط وإن منقطعاً وبعفاف اقتصادي صارم، وهذا هو الجانب السلبي في طلب العفاف بصوم أمّاذا من كواسر شبق الجنس.

فـ ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ كما تشمل مع الأيامى مَن أمروا بإنكاحهم، كذلك تشمل على هامش العفاف الجنسي، عفافاً اقتصادياً، كمقدمة ميسَّرة للجانب الإيجابي من الاستعفاف، وكذلك العفاف سلبياً إن لم يجدوا نكاحاً قط بأية

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

صورة منه، فـ ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ يشمل مطلق عدم الوجدان في أصله أو كما يناسبه ويجب، و﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ تعم الفضل في صورة النكاح من انقطاع إلى دوام، والفضل اقتصادياً أماذا؟

فالواجد المطلق للنكاح من يجده اقتصادياً وجنسياً، وشرفياً، وغير الواجد مطلقاً من لا يجده أياً كان، وبينهما عوان، يستعفف غير الواجد بصوم أما ذا، ويستعفف الواجد الناقص بما حضر ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾!

ومن النكاح الذي قد يعتبر غير موجود امرأة صخابة ولّاجة همازة تستقل الكثير ولا تقبل اليسير[1] كرب مقمع وغل قُمّل[2] وخضراء الدمن[3] أو شهبرة - لهبرة - نهبرة - هيدرة - لفوتاً[4] وإن كن فيما سوى الأول قد يصلحن لقضا الحاجة وكسر الشبق!

---

(١) نور الثقلين ٣: ٥٩٨ ح ١٤٦ في حديث عن أبي عبد الله عليه السلام في تعديد النساء وهن ثلاث: فامرأة ولود ودود تعين زوجها على دهره لدنياه وآخرته ولا تعين الدهر عليه وامرأة عقيم لا ذات جمال ولا خلق ولا تعين زوجها على خير وامرأة صخابة...
أقول وهذه الثلاث على الترتيب: شديدة السياح - كثيرة الدخول والخروج - العيابة الطعانة.

(٢) المصدر ح ١٥٠ عن جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عن علي عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم النساء أربع جامع مجمع وربيع مربع وكرب مقمع وغل قمل، أقول: وهن على الترتيب: كثيرة الخير مخصبة - التي في حجرها ولد وفي بطنها آخر - سيئة الخلق مع زوجها - هي عنده كالغل القمل وهو غل من جلد يقع فيه القمل فيأكله فلا يتهيأ له أن يحك منه شيء وهو مثل للعرب.

(٣) المصدر ١٤٥ في معاني الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إياكم وخضراء الدمن قيل يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما خضراء الدمن؟
قال: المرأة الحسناء في منبت السوء.

(٤) المصدر ١٥٤ - الخصال بإسناده إلى زيد بن ثابت قال صلى الله عليه وآله وسلم في حديث معه لا تتزوجن... قال زيد يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما عرفت مما قلت شيئاً وإني بأمرهن لجاهل، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ألستم عرباً؟ أما الشهبرة فالزرقاء البذية، وأما اللهبرة فالطويلة المهزولة وأما النهبرة فالقصيرة الذميمة، وأما الهيدرة فالعجوزة المدبرة، وأما اللفوت فذات الولد من غيرك.

﴿... وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ...﴾:

هل يعني شرط الخير - فقط - المال[1] أن تعلموا بإمكانية أدائهم مال الكتاب حسب الكتاب؟ والخير لا يختص بالمال مهما كان من الخير، فلو أريد منه فقط فليكن «مالاً» ثم المال ليس فيهم، بل لهم، فـ «إن علمتم لهم مالاً» حاضراً أم بتكسب! لا ﴿فِيهِمْ خَيْرًا﴾.

ثم وما لم يعلم المالك أنه يؤدي مال الكتاب ليس ليكاتبه بطبيعة الحال، فلا يحتاج إلى شرط! ثم وحتى إذا دفع كل المال نقداً فضلاً عن مقدّرة الآجال فلا يجوز تحريرهم ما لم يؤمنوا، حيث التحرير وجوباً وجوازاً مشروط بالإيمان ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[2] حيث الرقية في حساب الإسلام لا تعني أسر إنسان وحصره عن حريته ظلماً وزوراً حتى إذا دفع الخير المال يحرّر وإلّا فلا، فإنما هو ثقافة إجبارية إسلامية وتربية في مدرسة داخلية ريثما يؤمنوا فيُحرّروا بأسبابه: دية أو كفارة، أو دفعاً لقيمة كتابة وسواها - أو من بيت المال زكاة أماذا، أو أن خيراً هو الإيمان؟ ولا يكفي لوجوب المكاتبة مهما كان شرط جواز العتق، أو أنه الاطمئنان ألّا يصبح عيباً على مولاه وعبئاً على المجتمع، أن يلقي كلّه على الناس؟ وهذا رغم اشتراطه لا يكفي شرطاً، فليكن ﴿خَيْرًا﴾ خير الحال الإيمان والاطمئنان وخير المال[3] وفاءً بمال الكتابة، وإلّا فلا مكاتبة، فإن هذه المدرسة

(١) نور الثقلين ٣: ٦٠ ح ١٥٦ في تهذيب الأحكام عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: كاتبوهم إن علمتم لهم مالاً، وعن محمد بن مسلم عن أحدهما مثله.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٢.

(٣) المصدر من لا يحضره الفقيه عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: الخير أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويكون بيده عمل يكتسب به أو يكون له حرفة وعن الحلبي عنه عليه السلام قال: إن علمتم ديناً ومالاً.

الداخلية التربوية يقصد منها تحول المماليك الكفار إلى مسلمين أبرار حتى يصلحوا للدخول في متن الجماهير المسلمة أحراراً.

فحتى إذا لم يسطعوا على كل المال ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْۚ﴾ وأقلّه الزكاة، فإن من أهلها ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾[1] فإن دفعها لغيره أم لا تكفي وفاءً بكتابة فمن عنده كما يقدر ويكفي قضية الإطلاق في ﴿مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْۚ﴾ حيث الأموال كلها مما آتاه الله دون اختصاص بالضرائب، وهذا الإيتاء مساعدة لمن خدمكم لزمن وإكرام لمن أسلم عندكم أو هو مسلم، وترغيب له إلى مبادئ الإسلام، وتأكيد أن الإسلام لا يشجّع على تعبيد الناس إلّا كمدرسة داخلية لصالحهم...

وأفضله ما أضمر عليه في كتابه[2] فعلى المولى أن يكاتب مملوكه الذي علم فيه خيراً «وإن كان يسأل الناس ولا يمنعه من أجل أن ليس له مال فإن الله يرزق العباد بعضهم من بعض والمؤمن معان ويقال: المحسن معان»[3] وطبعاً السؤال غير المحرم كأن يسأل من مال الله ضرائب وسواها.

وهل عليه المكاتبة ولا مال عنده ولا هو قادر على تحصيل المال؟ ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ لا تشمل من لا مال له فليست المكاتبة إلا لأجل النجوم

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٢) المصدر ح ١٦٢ محمد بن مسلم عن أحدهما عليه السلام قال سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَءَاتُوهُم...﴾ [النّور: ٣٣] قال: الذي أن تكاتبه عليه لا تقول: أكاتبه بخمسة آلاف وأترك له ألفاً ولكن انظر إلى الذي أضمر عليه فأعطه، وفي الفقيه عن أبي عبد الله عليه السلام سمعت أبي عليه السلام يقول: لا تكاتبه على الذي أراد أن يكاتبه ثم يزيد عليه ثم يضع عنه ولكنه يضع عنه ما نوى أن يكاتبه عليه، وفي الدر المنثور ٥: ٤٧ أخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والديلمي وابن المنذر والبيهقي وابن مردويه من طريق عبد الله بن حبيب عن علي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: وآتوهم من مال الله، قال صلى الله عليه وآله وسلم يترك للمكاتب الربع.

(٣) المصدر في الكافي عن سماعة سألته عن العبد يكاتبه مولاه وهو يعلم أنه ليس له قليل ولا كثير قال يكاتبه وإن كان يسأل...

المقسّطة لدفع مال المكاتبة! ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾ ليست لتعني كل مال المكاتبة، اللهم إلا بعضاً كما يتمكن المكاتب ويكفي للمكاتب له، اللهم إلا إذا كان مال الله من الضرائب الكافية لثمنه.

ولماذا «آتوهم» بدل ألّا تأخذوا، أو تنقصوا من حق المكاتبة؟ لأن ذلك أدخل في المحبة، أن يرى المملوك عليه حقاً، ثم يُدفع إليه من هذا الحق ما هو ينتظره، فيدفع منه ما أخذه!

وهل يكفي من خير الرقيق الإيمان وإمكان دفع حق المكاتبة، وقد يصبح كلًّا على الجماعة المؤمنة، أو يلجأ إلى أحط الوسائل ليعيش ويكسب ما يقيم أوده، كوسيلة التكفف على أبواب الناس أو السرقة والخيانة، أم البغاء في الفتيات! كلا ثم كلّا أن يرضى الإسلام كلًّا هكذا وعبئاً وعيباً، فإنما الأمن مع الإيمان، كيلا تصبح حريته وصمة على كتلة الإيمان.

فكما ليس التخرج - فقط - من المدرسة والجامعة مرغوباً للجماعة المؤمنة، إلّا بكفاءة أمينة ثقافية وأدبية، كذلك وبأحرى للمماليك وهم أبعد من ذلك، فـ ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ يعني الإيمان الأمين والتربية الصالحة لحدّ يصلح أن يلج الجماعة المؤمنة في حرية التصميم والإرادة مادياً ومعنوياً! فكما أن عتقه يعني إسلامياً أن يعيش دور التربية الإسلامية، كذلك تحريره تخرُّج لمن يصلح أن يكون من ضمن الجماعة المؤمنة، ونعم ما يروى عن الرسول ﷺ في تفسير الآية «إن علمتم فيهم حرفة ولا ترسلوهم كلًّا على الناس»[1].

فإن كن فتيات لا تفتكروا أنهن بما يقدرن على البغاء أو بإكراههن

---

(١) الدر المنثور ٥ : ٤٥ - أخرج أبو داود في المراسيل والبيهقي في سننه عن يحيى بن أبي كثير قال قال رسول الله ﷺ : ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النُّور: ٣٣] قال: . . . وعن ابن عباس وعبيدة السلماني وقتادة وإبراهيم وأبي صالح ومجاهد وطاوس والحسن قالوا: أمانة ووفاء.

عليها، هن أموال فلا حاجة لهن إلى إيتاء مال، حيث البغاء ولا سيما في إكراه المؤمنات عليها ليس مالاً يصلح لأية معاملة فـ :

﴿... وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣)﴾:

صحيح أن البغاء محرمة بكل صورها وظروفها من مشركة أو مسلمة وعلى أية حال، ولكن أبشع صورها إكراه الفتاة المؤمنة على البغاء وهي تريد تحصناً.

وقد كانت سنة سيئة لئيمة بين الجاهليين احتراف الإماء للبغاء، حتى جاء الإسلام المانع من البغاء في الإماء وساير النساء، ولكنما الجاهلية ما كانت لِيُنسى سراعاً، فناشبة باقية منها أنهم اقتصروا على الاحتراف ببغاء الإماء، كأنهن لا حرمة لهن لأنهن إماء، وحتى إذا أسلمن، وقد كان لعبد الله بن أُبي جارية تدعى معاذة، فكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليواقعها إرادة الثواب منه والكرامة، فأقبلت الجارية إلى أبي بكر فشكت ذلك إليه فذكره للنبي ﷺ فأمره بقبضها فصاح عبد الله بن أُبي من يعذرنا من محمد يغلبنا على مماليكنا فنزلت الآية[1].

فـ ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ ليست شرطاً لحرمة الإكراه، فإن البغاء لا تحصل عند إرادة التحصُّن إلّا بالإكراه، وإنما تعني تغليظ الحرمة، فـ ﴿وَلَا تُكْرِهُوا﴾

---

(١) الدر المنثور ٥: ٤٥ - أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: كان لعبد الله... وفيه أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن أبي مالك في الآية نزلت في عبد الله بن أبي وكانت له جارية تكسب عليه فأسلمت وحسن إسلامها فأرادها أن تفعل كما كانت تفعل فأبت عليه، وفيه عن الزهري أن رجلاً من قريش أسر يوم بدر وكان عند عبد الله بن أبي أسيراً وكانت لعبد الله جارية يقال لها معاذة وكان القرشي الأسير يريدها على نفسها وكانت مسلمة فكانت تمتنع منه لإسلامها وكان عبد الله بن أبي يكرهها على ذلك ويضربها رجاء أن تحمل للقرشي فيطلب فداء ولده فأنزل الله الآية.

نهي خاص في أحرج ظروفه وأعوجه، فلا يفهم منه إن لم يردن تحصناً فلا بأس بإكراههن إذ لا يحصل فيه إكراه، فمثلها كمثل قوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوٰٓا أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾[1] إذ لا تختص الحرمة بالأضعاف، وإنما تعني إضعاف الحرمة في الأضعاف!

فنفس البغاء محرمة، وهي من المسلمة أشد، والإكراه عليها أشدُّ من الأشد، وابتغاء عرض الحياة الدنيا من هذه الدنية بالغٌ أشدُّه في الحرمة، حرمة مربعة تعنيها ﴿وَلَا تُكْرِهُوا...﴾ فيما تعني الأمة، ثم وخامسة إذ تشمل الحرة، فالفتيات تشملهما.

وهي محرمة على «من يكرهن» ولكن المكرهة عليها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ للمكرهة دون المكرِه، مما يدل على أن البغاء دون إكراه محرمة لا غفران بعدها دون شرط من حد وتوبة وإصلاح!

فـ ﴿مِنْ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ﴾ تعطف بالغفران إلى المكرهات، وإلّا فلتكن «من بعد إكراههم»! ثم البعد يخص الغفران بحالة الإكراه دون الاختيار، فقد جمعت الآية بين حل البغاء للمكرهة، وأغلظ الحرمة للمُكرِه، وأصل الحرمة للبغايا غير المكرهات!

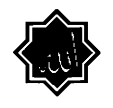
وذلك النهي المغلّظ كان جزءاً من خطط القرآن في تطهير البيئة الإسلامية، وإغلاق السبل القذرة للتصريف الجنسي، أياً كانت غايته، والصلة القريبة لهذا النهي بأمر المكاتبة، علّها الفكرة الخاطئة من بعض الموالي، من سماح البغاء أو الإكراه عليها توفية لنجوم الكتابة، حيث المال المحصّل من حرام - فضلاً عن حرام الإكراه على البغاء - لا يفي نجوماً للكتابة ولا لأي نجم أمّاذا؟

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٠.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤)﴾:

﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ حسب الحاجيات والمتطلبات طول الزمان وعرض المكان حتى القيامة الكبرى، ثم ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من أهل التقوى والطغوى، ومن ثم ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فيما أنزلنا من البينات ومثلاً وسواهما من ذكريات في القرآن.



﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي
زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا
شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ
يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ
عَلِيمٞ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا
بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ
ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾
لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ
حِسَابٖ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ
ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ
مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ
وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ
بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمۡ
تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ
مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ
وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ

ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾

الآيات الأربع الأولى مَثَلٌ للهداية الإلَهية على درجاتها، واثنتان بعدها مثل للضلالة على دركاتها، ثم الباقية بينات من الهدى أمثالاً للهدى العامة الشاملة لعامة الكون طوعاً أو كرهاً ولكن لا يفقهون!

وآية النور هي المحور الأصيل فيها، ليس لها مثيل بين آياتها التسع والأربعين بمختلف صيغها: النور - نوراً - نوركم - نورنا - نوره - نورهم - المنير - منيراً، عدد أبواب الجنة النور ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ...﴾!

في هذه الأنوار لا تجد إلّا أربعاً تحنُّ إلى المحسوس(١) والباقية لا تعني إلّا سواه من نور الهدى والهادي ونور الوحي، وآية النور هي الوحيدة في وجهات، منها توصيفه سبحانه بـ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أجل فيها نور الرب ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾(٢) ونور الله ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾(٣) ونور من الله ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾(٤) و﴿نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾(٥) حيث يجمعها مثلث النور: هدىً وهادياً ووحياً!.

---

(١) وهي ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥] ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦] و﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧].

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٩.

(٣) سورة الصف، الآية: ٨.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١٥.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٢٢.

وأما ﴿ٱللَّهُ نُورُ﴾ فليست إلّا ناصية لهذه اليتيمة المنقطعة النظير، ولذلك سميت سورتها نوراً وكما هي نورٌ بين السور وكلها نور: نورٌ على نور يهدي الله لنوره من يشاء!

﴿ٱللَّهُ نُورُ﴾ في إطلاقها دون إضافة كما «الله عليم» «الله قدير» «الله حي»: صفات ذاتية ثلاث، وكما «الله خالق» «الله رازق» أماذا من صفات فعلية، فذاته نور وفعله نور وصفاته نور ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ...﴾!

أترى أن توصيفه بـ«نور» يجعله كسائر النور؟ وتوصيفه بالوجود لا يجعله كسائر الوجود كما توصيفه بأنه شيء لا يجعله كسائر الأشياء! فالله باين الأشياء بينونة ذات وأفعال وصفات ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾[1] مهما تشابها في تحبير اللغات «لا هو في خلقه ولا خلقه فيه - لا هو من خلقه ولا خلقه منه»: تباعض الذات أو الصفات! فإنما إبداع وخلق لا من شيء، أو من شيء خلقه وأبدعه، لا من شيء ذاته فإنه ولادة، ولا من غيره إذ لا خالق غيره!

هنالك بونٌ بيّن بين ﴿ٱللَّهُ نُورُ﴾ و«النور الله» فالأول يعني حقيقة النور التي لا ظلام فيه ولا حدَّ ولا حدود، أزلي، أبدي، سرمدي، غني، بينه وبين سائر النور أبعد من البون بين سائر الظلمة والنور!

ولكنما الثاني قد يعني أن كلَّ نور هو الله، وحدة حقيقة النور بمراتبها كوحدة حقيقة الوجود! والآية هي الأول: ﴿ٱللَّهُ نُورُ﴾ لا كل نور، وإنما النور الإلّهي الذي لا مثيل له، مهما كان له مَثَل في صفات غير ذاتية وأفعال!

ولأن النور هو الظاهر بذاته المظهر لغيره، وهو بين مطلق ومحدود، سرمدي وسواه، غني وسواه، ما يناسب الله وما لا يناسب إلّا سواه، فمما

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

يعنيه ﴿اللَّهُ نُورُ﴾: أنه ظاهر بذاته رغم خفائه، ومظهر لغيره في أيٍّ من مراحل الظهور.

أترى بعدُ أنها صفة ذاتية له سبحانه كمثلث الصفات؟ وهو قبل غيره لم يكن إلّا ظاهراً لذاته لا مُظهِراً ولا مَظهراً لغيره، فلمن يُظهر غيره قبل خلقه؟ ألنفسه؟ وكل شيء ظاهر له في العلم دون إظهار! أم لغيره؟ وقد كان الله ولم يكن معه شيء! فإنما الإظهار بالخلق فظهور له لا بذاته كما عن الرسول ﷺ «نور إني أراه»[1] رؤية البصيرة معرفياً بعد رؤية البصر لدلالاته الآفاقية والأنفسية! «وقد خرق له في الحجب مثل سم الإبرة فرأى من نور العظمة ما شاء الله أن يرى»[2] فـ ﴿اللَّهُ نُورُ...﴾ كذلك الله عز وجل [3].

هو نور ومثَلَه نورٌ آخر، ولا مثيل له في نوريته كما في سواها من صفاته تعالى، إذاً فلا يعني ﴿اللَّهُ نُورُ﴾ ظهوره بذاته وهو مستحيل إلّا لذاته، وإظهاره لغيره وهو من صفات فعله لا ذاته!

فالنور إذاً هي من صفاته الفعلية، كما تعنيه ﴿نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فليس هو قبل السماوات والأرض نوراً إلّا ظهوراً لذاته دون أي إظهار! إلّا

(١) الدر المنثور عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: نور أنّي أراه، ورواه في م ايمان ٣٩١ ت تفسير سورة ٥٣، ٧ حم ١٥٧٢٥، ١٧١، ١٧٥.
وفيه ٥: ٤٧ - أخرج البخاري مسلم والنسائي وابن ماجة والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ إذا تهجد في الليل يدعو: اللهم لك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت قيام السماوات والأرض ومن فيهن أنت الحق وقولك حق ووعدك حق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والساعة حق اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت إلهي لا إله إلا أنت.

(٢) القمي بإسناد متصل عن الإمام الرضا عليه السلام في حديث.

(٣) فضيل بن يسار عن الصادق عليه السلام سألته عن قوله تعالى ﴿اللَّهُ نُورُ...﴾ [النور: ٣٥] قال: كذلك الله عز وجل ثم سألته عن ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ [النّور: ٣٥] فقال: محمد ﷺ.

أن يسمّى نوراً بمجرد ظهوره لذاته، وليس إلّا عبارة أخرى عن علمه الذاتي، فليست إذاً رابعة لصفات الذات! بل صفة فعل حيث يعرفه خلقه بالنورانية، ولذلك سمى نفسه فيما سمى «نوراً» «يا نور يا نور النور يا منور النور...» «اللهم إني أسألك بنور وجهك الذي أضاء له كل شيء» وأما «نور وجهك الباقي بعد فناء كل شيء» فهو ذاته النورانية حياةً وعلماً وقدرة، في ذاته، وإمكانية الظهور لمن سواه قبل فناء كل شيء.

وقد كانت تدعو فاطمة النور بدعاء النور قائلة: «بسم الله النور بسم الله الذي يقول للشيء كن فيكون بسم الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور بسم الله الذي خلق النور من النور بسم الله الذي هو بالمعروف مذكور بسم الله الذي أنزل النور على الطور بقدر مقدور في كتاب مسطور على نبي محبور»[1].

ولأن ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ في المصطلح القرآني هي صيغة التعبير عن الكون كلِّه بما فيه ومن فيه كما في سائر القرآن، إذاً فـ : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يعني أنه نوّر الكون كله، كصفة فعلية له سبحانه، لا ذاتية فإنها متحللة عن الكون، وهذه حِلّة الكون: السماوات والأرض!.

أترى إن الظلمات أيضاً نورَ كما النور نورٌ وقد ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾[2]؟ أجل إنها تحمل من النور نور الوجود، قبال النور التي تقابلها، حيث تحمل من الوجود وجود النور!.

فمن ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ تكوّنهما بعد مطلق العدم والعدم المطلق[3] حيث أوجدهما من مادتهما، كما أوجد لا من شيء، فالعدم

---

(١) سفينة البحار ٢: ٦١٧ دعاء النور لفاطمة عليها السلام عانو ١٩٣ وعالو ١٢٢ وى ج ٢١ أيضاً دعاء النور لها برواية للدلائل للطبري.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١.

(٣) مطلق العدم قد يناسب وجوداً مّا كما السماوات والأرض كانا موجودين في مادتهما الأولية إذ لا سماوات ولا أرض، والعدم المطلق لا يناسب أي وجود فهو إذا كان الله ولم يكن معه شيء.

المطلق ظلمات مطلقة لا حظّ لها من الوجود، فالإيجاد لا من شيء إنارة عن الظلمة المطلقة إلى نورٍ تجمع ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ حيث الوجود فيهما نور! «اللهم إني أسألك بنور وجهك الذي أضاء له كل شيء» فضوء كل شيء هو ضوء الوجود وتقديره وهدايته التكوينية!

ومن ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ الهداية التكوينية لزاماً وغير لزام[١] ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ﴾[٢] ثم هدى».

ومن ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ أنهما دالتان ببارع الصنع فيهما على خالقهما ومدبرهما، فهما ظاهرتان ومظهرتان!

ومن ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ الهداة إلى الله، الأدلاء على مرضاة الله بوحي من الله، وحملته الرسل المصطفون: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾[٣] وهي كلها ظاهرات بينات، مظهرة للخفيات، وهذه هداية تشريعية وشرعية.

إذاً فتكوينهما وتدبيرهما وهدايتهما تكوينية وتشريعية وشرعية، والتدليل بهما على خالقهما ومدبرهما، كل ذلك نورهما حيث أنار الله تعالى.

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ إضافة النور إليه دليل أنها لا تعني - فيما تعني - ذاته، كما دلت إضافتها إلى السماوات والأرض، فلو أنها من صفات ذاته السرمدية، فلماذا خصوص الإضافة إلى السماوات والأرض، فإنما ﴿ٱللَّهُ نُورُ﴾ قبل الخلق وبعده، وإنما هي من صفاته الفعلية، - دون الذاتية - كالخالقية والمدبرية وأنه الهادي بمظاهرها الثلاثة[٤].

---

(١) الهداية الأولى هي الضرورية الاضطرارية التي هي لزام كل كائن، والثانية هي التي قد تتحول باختيار السوء أمّا ذا؟

(٢) سورة السجدة، الآية: ٧.

(٣) سورة الحج، الآية: ٧٥.

(٤) تكوينية - تشريعية - شرعية.

وكما ليس لذاته مِثلٌ، كذلك ليس لأفعاله وصفاته، فليس - إذاً - لنوره الفعلي مِثلٌ فضلاً عن ذاته: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1] فهل ليس له مَثَل كما ليس له مِثلٌ؟ ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2] فإن المثل هو الآية، وفي كل شيء له آية، من أدنى فأدنى، ومن أعلى فأعلى، آية على ألوهيته وربوبيته وهدايته أمّاذا من شؤون رحمته الرحمانية والرحيمية.

أترى أن لنورانيته في التكوين والتشريع مَثَل كما لسائر إلهيته؟ آية له في التشريع والتكوين مثلاً، وإن لم يكن له مثلاً؟ اللهم لا، إذ لا يتمثل أحدٌ من خلقه فيهما فلا مكوّن سواه ولا مشرّع سواه، إلّا في هداية شرعية تمثّل هداه، فكل شيء مَثَل له آية على ربوبيته، ولا شيء مَثلاً في تكوينه وتشريعه، اللّهم إلّا على وحدته فيهما، إلّا في الهداية الشرعية، فوحيه تعالى وحَمَلته المعصومون هم مثل نوره فيها، دون تمثّل في تكوين ولا تشريع: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾[3] ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[4] ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾[5] ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[6]! ولأن المثل هو الآية، وفي الكون له مثلث الآية تكويناً وتشريعاً وشرعة، فقد يعمها ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ ولكنه في مثاله ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ يعني ثالث ثلاثة وهم حملة الشرعة بوحي الرسالة.

و﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ في هدايته الدلالية ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ وليس المثل هو المشكاة! بل هو آية نوره.

ف ﴿ٱللَّهُ نُورُ﴾ وجاه ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ لا يعني إلّا الهداية الشرعية، فكما الله

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٢) سورة الروم، الآية: ٢٧.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.
(٤) سورة القصص، الآية: ٥٦.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٢٨.
(٦) سورة الشورى، الآية: ٤٨.

«هادٍ لأهل السماوات وهادٍ لأهل الأرض»[(١)] كذلك الهداة - المعصومون - إليه بدلالته هم مَثَلٌ لنور هدايته، فقد «ضرب لكم مثلاً من نوره»[(٢)] لا كل الأمثال «فالنبي والأئمة صلوات الله عليهم من دلالات الله وآياته التي يهتدى بها إلى التوحيد ومصالح الدين وشرايع الإسلام والسنن والفرائض ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[(٣)] فقد «بدأ بنور نفسه»[(٤)] ثم مثّل مثلاً من نوره.

وحيث الأنوار الدلالية في هداية الخلق تختلف بين خليطة بظلمة وخليصة عنها هي نور الأنوار، هنا الله يضرب مثلاً من نور هدايته ليس نوراً على ظلمة، بل هو ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ ليس فيها ظلمة، حجة من الله في الدلالة التامة التي لا قصور فيها ولا نقصان يعتريها!

وكما لله أمثال في الكون، والكون كله أمثاله وآياته، دون مثل واحد، كذلك له أمثال في نور هداه، وهم الدعاة المعصومون - إليه، فلماذا ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ لا أمثال نوره؟

---

(١) نور الثقلين ٣: ٦٠٢ ج ١٧١ في كتاب التوحيد في آية النور عن الرضا عليه السلام.

(٢) المصدر ح ١٧٠ عن أبي جعفر عليه السلام حديث طويل فيه أن الله تعالى بعث إلى أهل البيت عليهم السلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من يعزيهم فسمعوا صوته ولم يروا شخصه فكان في تعزيته «جعلكم أهل بيت نبيه واستودعكم علمه وأورثكم كتابه وجعلكم تابوت علمه وعصا عزه وضرب لكم مثلاً من نوره».

(٣) المصدر ح ١٧٢ عن الصادق عليه السلام في الآية قال هو مثل ضربه الله لنا فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم...

(٤) المصدر ح ١٧٩ عن الباقر عليه السلام في الآية قال: بدأ بنور نفسه ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النُّور: ٣٥] مثل هداه في قلب المؤمن.

وفي سفينة البحار ٣: ٦١٥ القمي عن أبي خالد الكابلي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨] فقال: يا أبا خالد! النور والله الأئمة من آل محمد إلى يوم القيامة هم والله نور الله الذي أنزل وهم والله نور الله في السماوات والأرض والله يا أبا خالد لنور الإمام في قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة بالنهار وهم والله ينورون قلوب المؤمنين ويحجب الله نورهم عمن يشاء فتظلم قلوبهم والله يا أبا خالد لا يحبنا عبد ويتولانا حتى يطهر الله قلبه ولا يطهر الله قلب عبد حتى يسلم لنا ويكون سلماً لنا فإذا كان سلماً لنا سلمه الله من شديد الحساب وآمنه من فزع يوم القيامة الأكبر.

لأنه يعني هنا المثل الأعلى لنوره وهو الرسول محمد ﷺ فإنه يجمع كافة الأمثال النورانية فهو النبيون أجمع، وكافة الأمثال النورانية الإلٓهية مندكة في ذلك المثل الأمثل، فلذلك ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ لا «أمثال نوره» كما ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ لا «الأمثال العليا» فالكون كله أمثاله تعالى ولكنما العليا هو الرسول محمد الذي فاق العالمين في حمل الهدى الإلٓهية كما يمكن ويجب!

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ. . .﴾:

و﴿نُورِهِۦ﴾ في مثلث من الأنوار متتالية متعالية، فمحمدٌ هو نور الأنوار[1] وعترته المعصومون ويتلوهم النبيون أجمع، ومن ثم المؤمنون[2].

والمشكاة هنا هي مشكاة النبوة: مجمع الأنوار كلها ومصدرها: الرسول الأقدس محمد ﷺ! فإنه النبيون أجمع وهو الهداة والصالحون أجمع، والمشكاة هي الكوّة الزجاجية غير النافذة التي يوضع فيها المصباح، لتمنع شعلته عن الرياح، وتحصر نوره وتجمعه فيبدو قوياً متألقاً ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ تقيّة الريح، وتصفية النور، وزيادة التألق، لا سيما ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾: عظيم كثير النور، ثم المصباح داخل الكوكب الدري داخل المشكاة ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ فزيته من ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[3] وهي ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ لا كسائر الزيتونة شرقية وغربية وهي ليست بالتي ترام بل هي ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ فإنما الشرق أوسطية وهي أصلح زيتونة على وجه الأرض وأطيبها، وهي في صفائها لحد: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ إذاً فنورها ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

أترى لماذا يمثل النور المحمدي وهو نور الأنوار، بمثل هو أدنى منه

---

(١) نور الثقلين ٣ . ٦٠٣ ح ١٧٣ عن الصادق عليه السلام قال: مثل نوره: محمد.

(٢) المصدر ح ١٧٩ عن الباقر عليه السلام مثل نوره «مثل هداه في قلب المؤمن». . . .

(٣) الدر المنثور ٥ : ٥٠ - أخرج عبد بن حميد في مسنده والترمذي وابن ماجة عن عمران رسول الله ﷺ قال: ائتدموا بالزيت وادهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة.

بدرجات، والمَثَل أمثل - دوماً - من الممثل؟ لأن القصد هنا من المثل تقريب المحتد من النورانية المحمدية إلى أفكار من لا يعرفونه حق المعرفة، تمثيلاً من المحسوس لغير المحسوس، لأن المحسوس أقرب إلى معرفتهم، مهما كان غير المحسوس أعلى منه بما لا يُعد أو يُحد، فهنا تكفي من الأولوية واجهة الإحساس.

ثم الأولوية المطلقة في المَثَل، هي فيما إذا كانا مثلين، محسوسين أو غير محسوسين، وهذه سنة الله في تقريب الحقائق إلى الأذهان.

وترى أن المشكاة أحرى من الشمس مثلاً في هذه النورية؟ كلّا ولكنما الجهات المعنية من هذه النورية لا تعرف من نور الشمس الواحدة، بل من مشكاة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ. . .﴾ أنوار سباعية بعضها فوق بعض تقريباً للحالة النورية في روحه وصدره وقلبه أمّاهيه؟

وترى مثال مَثَل نوره مسبَّعاً من النور بمثلث المشكاة المصباح الزجاجة ومربع الشجرة المباركة - زيتونة - لا شرقية ولا غربية - يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار! فهو نور على نور ثنائياً وسباعياً، وهذه السَّبع تخترق دركات الظلمات إلى درجات أنوار الجنات.

نور زيت الزيتون كان أصفى نور يُعرف زمن نزول القرآن، إضافة إلى قدسية شجرته المباركة بالواد المقدس في الطور: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾(١) شجرة معمرة بكل أجزائها: زيتها وخشبها وثمرها، نوراً وإداماً وشفاءً!

ذلك المثل الأمثل الأعلى لنوره هو الرسول محمد ﷺ وقد مُثِّل له بمثال المشكاة والشجرة الزيتونة فـ «إن الله لم يضرب الأمثال للشجر إنما ضرب الأمثال لبني آدم»(٢) لكي يعتبروا بها الحق الممثّل.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٠.

(٢) نور الثقلين ٣: ٦٠٥ ح ١٧٦ في الكافي بإسناده عن إسحاق بن جرير قال سألتني امرأة أن =

فالمشكاة هي الروح المقدسة المحمدية، والزجاجة صدره، والمصباح قلبه الفؤاد حيث يتفأد بنور المعرفة الربانية، يوقد مصباح قلبه الفؤاد المنير من شجرة الرسالة القدسية الإبراهيمية ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾: يهودية ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾: نصرانية، يكاد زيت هذه الشجرة: الروح القدسي الرسالي في قلبه، يضيء بنور الوحي ولو لم تمسسه ناره: «القرآن» فناره نور على نور حيث مهبطها النور: القلب القدسي الفؤاد، يتقبل نور الوحي في قمة المجانسة!

قلبه المصباح أصبح زيتاً يُضيء لشدة صفائه، بما أخلصه بخالص الطاعة والتسليم لربه حتى أصبح ﴿أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[1] ثم اصطفاه ربه أن أسكن في قلبه وألقى الروح القدسي الرسالي، لحد يكاد يضيء بالوحي ولمّا يوحَ إليه، ثم أنزل على قلبه محكم القرآن في ليلة مباركة هي ليلة القدر، فكاد يضيء بمفصله ولمّا يوح إليه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[2] ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ . . .﴾[3]. فوحي القرآن[4] المفصل إليه نور على نور قلبه بالقرآن المحكم، كما وحي المحكم إليه نور على قلبه بالروح القدسي الرسالي، وكما إلقاء الروح إليه نور على قلبه بما أخلصه، ومربع النور في قلبه مستكن في صدره الذي شرحه الله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[5] ومخمس النور ما كن في روحه القدسي، ومسدس

= أدخل على أبي عبد الله عليه السلام فاستأذنت لها فأذن لها فدخلت ومعها مولاتها فقالت يا أبا عبد الله! أقول الله: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥] ما عنى بهذا؟ فقال أيتها المرأة إن الله . . .

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨١.

(٢) سورة طه، الآية: ١١٤.

(٣) سورة القيامة، الآية: ١٦.

(٤) المصدر ح ١٨٠ عن الإمام الرضا عليه السلام في حديث «قفلنا في كتاب الله عز وجل «كمثل مشكاة» المشكاة في القنديل فنحن المشكاة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ المصباح محمد ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ من عنصره ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا . . .﴾ لا دعيّة ولا منكرة ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ القرآن ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] إمام بعد إمام.

(٥) سورة الشرح، الآية: ١.

النور يعيش في بدنه النورانية الذي هو أشف وألطف من أرواح من سواه، أنوارٌ سبع تخرق الظلمات إلى النور المطلق حيث لا ظلام فيه إلّا أنه خُلق!
ز أحمد تا أحد يك ميم فرقست. همه عالم در آن يك ميم غرقست.

إنه ﷺ : ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ﴾: «يكادون أن يتكلموا بالنبوة وإن لم ينزل عليهم ملك»[١].

«ويكاد العلم يخرج من فم العالم من آل محمد من قبل أن ينطق به»[٢] و«يكاد العالم من آل محمد ﷺ يتكلم بالعلم قبل أن يسأل»[٣] وكما يقول

(١) المصدر ح ١٧٨ في روضته الكافي بإسناده المتصل عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل: ثم إن رسول الله ﷺ وضع العلم الذي كان عنده عند الوصي وهو قول الله عز وجل : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [النّور: ٣٥] يقول: أنا هادي السماوات والأرض مثل العلم الذي أعطيته ونوري الذي يهتدي به «مثل المشكاة فيها مصباح فالمشكاة قلب محمد والمصباح النور الذي فيه العلم... ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ فأصل الشجرة المباركة إبراهيم... ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ...﴾ [النّور: ٣٥] يكادُونَ....

(٢) المصدر ح ١٧٣ عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ صدر محمد ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌۖ﴾ فيه نور العلم يعني النبوة ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ﴾ علم رسول الله ﷺ إلى قلب علي... ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾... يكاد العلم... ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ﴾ [النّور: ٣٥] الإمام في أثر الإمام.

(٣) المصدر ح ١٧٤ عن الباقر عليه السلام في الآية قال: المشكاة نور العلم في صدر النبي ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ﴾ [النّور: ٣٥] الزجاجة صدر علي عليه السلام صار علم النبي ﷺ إلى صدر علي، علّم النبي علياً ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ...﴾ نور العلم ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ لا يهودية ولا نصرانية ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ...﴾ يكاد العالم... ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ﴾ إماماً مؤيداً بنور العلم والحكمة في أثر الإمام من آل محمد وذلك من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة فهؤلاء الأوصياء الذين جعلهم الله عز وجل خلفاءه في أرضه وحججه على خلقه لا تخلو الأرض في كل عصر من واحد منهم، وفي ملحقات الإحقاق ٣: عن ابن المغازلي في المناقب في كفاية الخصام من ٤٤ روى بسنده عن علي بن جعفر عليه السلام قال سألت موسى بن جعفر عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ...﴾ قال. المشكاة فاطمة والمصباح الحسن والحسين والزجاجة كأنها كوكب دري فاطمة بين نساء العالم يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية لا: لا يهودية ولا نصرانية - يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور - يوجد من فاطمة إمام بعد إمام يهدي الله لنوره من يشاء، ورواه مثله أبو بكر العلوي الحضرمي في رشفة =

صادقهم - وكلهم صادقون -: «أنا فرع من فرع الزيتونة وقنديل من قناديل بيت النبوة وأديب السفرة وربيب الكرام البررة ومصباح من مصابيح المشكاة التي فيها نور النور وصفوة الكلمة الباقية في عقب المصطفين إلى يوم المحشر».

فالمشكاة هو روح محمد ﷺ وفيها صدره وقلبه، وهي «قلب محمد ﷺ و«صدره»[1] فإنهما فيها، وكذلك «نور العلم في صدره»[2] كما المصباح القلب هو «النبوة»[1] لأنها بالروح الملقى إليه والوحي النازل عليه، هي في قلبه.

والشجرة الزيتونة الأصل زمناً هي الشجرة الرسالية الإبراهيمية وهي في الرتبة القمة الشجرة المحمدية، ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيۡتُونَةٍ لَّا شَرۡقِيَّةٍ﴾ يهودية[2] بلشوية اشتراكية، أو دعية[4] ﴿وَلَا غَرۡبِيَّةٍ﴾: نصرانية[2] إمبريالية رأسمالية، أو منكرة[4].

ولأن محمداً هو النبيون أجمع فالمشكاة في المثال هي النبيون أجمع وسائر المعصومين، فـ ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ في الهدى الخالصة غير الخليطة بسواها ﴿كَمِشۡكَوٰةٍ...﴾ في مسبّع النور الخارق لمطلق الظلمات ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾! كل في نفسه وكل تلو الآخر نبي بعد نبي و«إمام بعد إمام».

إن لـ ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ درجات عدة من أعلاها المحمدية ومعه المعصومون من عترته، ثم سائر الخمسة من أولي العزم، ثم سائر الرسل على درجاتهم،

= الصادي ٢٩ وصاحب كتاب المناقب الفاخرة في العترة الطاهرة.
وفي الدر المنثور ٥: ٤٩ - أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿زَيۡتُونَةٍ لَّا شَرۡقِيَّةٍ وَلَا غَرۡبِيَّةٍ﴾ [النّور: ٣٥] قال ﷺ: قلب إبراهيم لا يهودي ولا نصراني.

(١) المصدر ح ١٧٨ في أمالي الصدوق بإسناده إلى الإمام الصادق عليه السلام حديث طويل يقول فيه»....

(٢) المصدر ح ١٨٠ القمي عن الإمام الرضا عليه السلام ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٍ وَلَا غَرۡبِيَّةٍ﴾ [النّور: ٣٥]: لا دعية ولا منكرة.

(*) هذه الأعداد مكررة حسب مدلولات الروايات فلا تخلط.

ثم المؤمنون على درجاتهم، فكما أن هذا المثل ينحو منحى الأمثل، كذلك المؤمن يشمله على ضوئه المثل «فالمؤمن في خمسة من النور: مدخله نور، ومخرجه نور، وعمله نور، وكلامه نور، ومصيره يوم القيامة إلى الجنة نور»(١).

وقد تعني المشكاة كافة الرسالات الإلٓهية، وزيتها المضيء لمصباحها هو الرسالة المحمدية ﷺ فمصباحها هم أهل بيت العصمة، والزجاجة هي سائر الخمسة من أولي العزم عليهم السلام.

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ في كلٍّ من هؤلاء، وكل تلو الآخر ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ وهم السالكون سبل الهدى، كلٌّ قدر همته واهتمامه ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾:

أترى بماذا تتعلق ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ ظرفاً؟ هل ﴿اللَّهُ نُورُ﴾؟ وهو نور السماوات والأرض دون اختصاص ببيوت! وأن ذاته النور وصفات ذاته النور لا تحويها السماوات والأرض فضلاً عن بيوت! علّه ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ و﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ و﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ و﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ و﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ و﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ و﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فكل من هذه السبع تصلح متعلقاً به لذلك الظرف الظريف!

---

(١) المصدر ح ١٧٩ علي بن إبراهيم القمي عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام في الآية قال: بدأ بنور نفسه ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ مثل هداه في قلب المؤمن ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ والمشكاة جوف المؤمن والمصباح النور الذي جعله الله في قلبه... ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ يكاد النور الذي جعله الله في قلبه يضيء وإن لم يتكلم ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] فريضة على فريضة وسنة على سنة... فهذا مثل ضربه الله للمؤمن فالمؤمن...

فمثل نوره في بيوت، كمشكاة في بيوت، يكاد زيتها يضيء في بيوت، نور على نور في بيوت، يهدي الله لنوره من يشاء في بيوت، ويضرب الله الأمثال للناس في بيوت، والله بكل شيء عليم في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه. . . ![1]

وما هي هذه البيوت؟ أهي بيوت الله؟ وهي دون شرعة الله وهدايته ليست لترفع ويذكر فيها اسمه، وإن كان المسجد الحرام، إذ كان مجال المشركين، رجال تلهيهم كل شهوة فضلاً عن تجارة أو بيع عن ذكر الله!

أم هي بيوت الرسالات الإلٓهية وفي قمتها وقلبها بيت الرسالة المحمدية حيث تحوي الأنوار الأربعة عشر؟ أجل! فبيوت الله إنما تعمّر وترفع ويذكر فيها اسمه ببيوت الرسالات، فهي أفضل من المساجد، حيث الشرعة الإلٓهية تصدر من تلكم البيوت إلى المساجد وسواها، فبيت الرسالة المحمدية أفضل من المسجد الحرام فضلاً عن سائر المساجد، مهما كان المسجد الحرام أفضل من مسجد الرسول ﷺ إنها بيوتات الأنبياء والرسل والحكماء وأئمة الهدى[2] بدرجاتها، وبيت علي وفاطمة عليهما السلام من أفاضلها، وقد يسأل أبو بكر رسول الهدى يا رسول الله! هذا البيت منها لبيت علي وفاطمة؟ فيجيبه: نعم من أفاضلها»[3] أو «أفضلها».

---

(١) تلخيص مع تحرير عما حققه (هنشو) المكتوب عنه في مجلة (هاربر) الأميريكية ١٩٣٦ وكما نشرت في مجلات أخرى أيضاً.

(٢) نور الثقلين ٣: ٦٠٨ ح ١٨٤ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة في باب اتصال الوصية من لدن آدم بإسناده إلى محمد بن الفضيل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام: إنما الحجة في آل إبراهيم لقول الله عز وجل: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤] والحجة الأنبياء وأهل بيوتات الأنبياء حتى تقوم الساعة لأن كتاب الله ينطق بذلك ووصية الله جرت بذلك في العقب من البيوت التي رفعها الله تبارك وتعالى على الناس فقال: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦] وهي بيوتات الأنبياء.

(٣) الدر المنثور ٥ : ٥٠ - أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك وبريدة قال قرأ رسول الله ﷺ=

ليس بيت علي وفاطمة وسائر البيت لآل البيت عليهم السلام أدنى من بيوت الأنبياء ولا كبيوت الأنبياء بل من أفاضلها، ولأن الأفضل المطلق هو بيت الرسالة المحمدية - إذاً - فبيت علي وفاطمة من هذا المطلق وكذلك سائر العترة الطاهرة كما يقول عنهم تاسعهم: «خلقكم الله أنواراً فجعلكم بعرشه محدقين حتى من علينا بكم وجعلكم ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾!

= هذه الآية ﴿فِي بُيُوتٍ . . .﴾ [النُّور: ٣٦] فقام إليه رجل فقال: أي بيوت هذه يا رسول الله ﷺ! قال: بيوت الأنبياء، فقام إليه أبو بكر فقال يا رسول الله ﷺ . . .
وأخرجه مثله الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل (ح ١ ص ٤٠٩ ط بيروت) قال حدثني أبو بكر بن أبي الحسن الحافظ أن عمر بن الحسن بن علي بن مالك أخبرهم قال أخبرنا أحمد بن الحسن الخزاز أخبرنا أبي عن حصين بن مخارق عن بحر السلمي عن أبي داود عن أبي برزة قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿فِي بُيُوتٍ . . .﴾ [النُّور: ٣٦] وقال: هي بيوت النبي ﷺ قيل: يا رسول الله أبيت علي وفاطمة منها؟ قال: من أفضلها، وأخرج نص المذكور في الدر المنثور بسندين متصلين عن أنس بن مالك وبريدة قالا قرأ رسول الله ﷺ: . . . ومثله العلامة البدخشي في «مفتاح النجا» ص ١٣ مخطوط عنهما قالا قرأ رسول الله ﷺ: . . . وفيه «بيت علي وفاطمة» بدون اللام، وابن حسنويه يروي في در بحر المناقب ١٨ مخطوط عن ابن عباس قال: كنت في مسجد رسول الله ﷺ وقد قرأ القارئ ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ﴾ [النُّور: ٣٦]. . .
فقلت: يا رسول الله ما البيوت؟ فقال: بيوت الأنبياء وأومأ بيده إلى منزل فاطمة عليها السلام وروى الثعلبي في الكشف والبيان مخطوط عن أنس وبريدة قالا: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقام إليه أبو بكر فقال: يا رسول الله هذا البيت منها يعني بيت علي وفاطمة؟
قال: نعم من أفاضلها. ورواه مثله الأمر تسري في أرجح المطالب ٧٥.
وفي نور الثقلين ٣: ٦٠٧ ح ١٨١ عن تفسير القمي عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: هي بيوت الأنبياء وبيت علي منها، وفيه ١٨٥ عن روضة الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام عن الآية قال: هي بيوت النبي ﷺ، وفيه عن كتاب المناقب ح ١٨٢ أبو حمزة الثمالي في خبر «لما كانت السنة التي حج فيها أبو جعفر محمد بن علي عليه السلام ولقيه هشام بن عبد الملك أقبل الناس يتساءلون عليه فقال عكرمة من هذا عليه سيماء زهرة العلم؟ لأخزينّه فلما مثل بين يديه ارتعدت فرائصه وأسقط في أيدي أبي جعفر عليه السلام وقال: يا بن رسول الله ﷺ لقد جلست مجالس كثيرة بين يدي ابن عباس وغيره فما أدركني ما أدركني آنفاً فقال له أبو جعفر عليه السلام: ويلك يا عبيد أهل الشام إنك بين يدي بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه.

ومن ثم بيوت الله على ضوء أنوار الوحي من بيوت الأنبياء، هي أيضاً من ﴿بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ...﴾ ﴿وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾(١) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾(٢) ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾(٣).

فالبيت هو محل البيتوتة الرياحة، إن بدنياً فبيت حجر وشجر ومدر(٤) بمن فيه من نساء أمّن ذا ممن يساعدون في تلك الرياحة، وإن روحياً معنوياً فبيت هداية وتربية، وقد تعنيه ﴿فِى بُيُوتٍ﴾ فإنه مثل لنور الهدى، فليس بيت النبي ﷺ كمسكن لأهله من هذه البيوت، ولا أهله النساء أهل بيته إلّا من القبيل الأول، فإنما الثاني محّال معرفة الله ومنازل سر الله، ومساكن بركة الله، بيوت حلّ فيها أهل الله، فإنما هم هم أهل الله(٥) وقد أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه من مساجد وبيوت الأنبياء، ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٤.
(٣) سورة الجن، الآية: ١٨.
(٤) نور الثقلين ٣: ٦٠٨ ح ١٨٦ في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: وصل الله طاعة ولي أمره بطاعة رسوله وطاعة رسوله بطاعته فمن ترك طاعة ولاة الأمر لم يطع الله ولا رسوله وهو الإقرار بما أنزل من عند الله عزّ وجلّ: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] والتمسوا البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه فإنه أخبركم أنهم ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ...﴾ [النّور: ٣٧].
وفيه ١٩٠ عن الكافي عن أبي حمزة الثمالي قال قال أبو جعفر عليه السلام لقتادة من أنت؟ قال: أنا قتادة بن دعامة البصري فقال له أبو جعفر عليه السلام: أنت فقيه أهل البصرة؟ قال: نعم - فقال له أبو جعفر عليه السلام: ويحك يا قتادة إن الله خلق خلقاً من خلقه فجعلهم حججاً على خلقه فهم أوتاد في أرضه قوّام بأمره نجباء في علمه اصطفاهم قبل خلقه، أظلة عن يمين عرشه قال: فسكت قتادة طويلاً ثم قال: أصلحك الله والله لقد جلست بين يدي الفقهاء وقدامهم فما اضطرب قلبي قدام واحد منهم ما اضطرب قدامك فقال له أبو جعفر عليه السلام: أتدري أين أنت؟ بين يدي ﴿بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ...﴾ [النّور: ٣٦] فأنت ثم ونحن أولئك فقال قتادة: صدقت والله جعلني الله فداك والله ما هي بيوت حجارة ولا طين».
(٥) المصدر السابق نفسه.

وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾! فهل هم - إذاً - نساء النبي أمّن ذا من أهل بيت المسكن بدنيّاً؟ كلا! إنهم هم المعنيون بآية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[١] وتصديقه في مواصفاته وأهله:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ فمن رَفع المساجد تعميرها لعبادة الله، وتطهيرها وإبعاد كل قذارة عنها وكلّ ذكر فيها إلّا ذكر الله، وإن الصلاة فيها تعدل مضاعفات في غيرها أمّاذا من ميّزات؟

ومن رفع بيوت الأنبياء أنها تقصد كقبلة للمقبلين السائلين وقد تعنيه ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾[٢] وكما الكعبة البيت الحرام قبلة المصلين ومطاف الطائفين.

بيوت السكن البدنية لا تحتاج في رفعها إلى إذن، فإنما هي بيوت الهداية لا ترفع إلّا بإذن، فليس لأيّ بيت دعوى الدعوة إلى الله، وأن يُقصد للسؤال عن شرعة الله، إلّا ما أذن الله، وهي بيوت النبوة والوحي حيث لا تصدر إلّا عن الله، ولا تدعو إلّا إلى الله، معصومة عن القصورات والتقصيرات، تلقياً لوحي الله وإلقاءً، وتطبيقاً لشرعة الله، فلذلك ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ على سائر البيوت رفع النار على المنار والشمس في رابعة النهار، مهما كانت بناياتها متواضعة، و﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ تلمح أنها بيوت قبل رفعها، فهي ترتفع بشرياً بجهود متواصلة مستطاعة كأفضل ما يمكن، ثم الله يأذن برفعها في عصمة إلّهية!

فبيت النبوة رفيعة على بيت الخلافة، وهي رفيعة على سائر بيوت العلم على درجاتها، وبيوت العلماء رفيعة على سائر البيوت، رفعة الرتبة والدرجة حيث تقصد للسائلين عن شرعة الله!

ف ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ إذن تكويني حيث جعلها معصومة عن الخطأ، ومن ثم تشريعي حيث جعل لها الولاية الشرعية على الآخرين...

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣. (٢) سورة يونس، الآية: ٨٧.

ثم ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ كذلك الأمر، فذكر اسم الله زماناً ومكاناً ومكانة وكيفية بحاجة إلى إذنٍ من الله دون فوضى كما يريده الذاكرون الله في مثلث القلب واللسان والأركان، تجمعها شرعة الله في كل دقيق وجليل فـ «لا قول ولا عمل ولا نية إلا بإصابة السنة».

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ...﴾ ترى الغدو والآصال هما - فقط - الإصباح والإعصار؟ ولا يخصهما التسبيح لا في المساجد ولا في بيوت الأنبياء؟ علهما - بما أنهما ركنا النهار - يعنيان ليل نهار، أم لأن الغدو جمع الغُدوة والغداة تعني من أول النهار، فهي إذاً تسبيحة مستمرة منه إلى الآصال، وهي جمع الأصيل: القاعدة، ولأن العصر قاعدة النهار نهاية وقاعدة الليل بداية، فالغدو منذ الإصباح حتى الإعصار، والآصال هي منذ الإعصار حتى الإصباح، فالغدو والآصال تعنيان أصلي الأوقات بما بينهما، فالمعنى: ليل نهار، تسبيحاً في سائر درجاته.

أو ﴿رِجَالٌ﴾ هل هم الذكران فقط دون الإناث؟ وفيهن فاطمة الصديقة ومريم ابنة عمران عليها السلام! أم يعنيهما تغليباً لقبيل الرجال كما في ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[1] وقد شملت فاطمة الصديقة! فالرجال الموصوفون هنا أكثر عدداً وأكمل عُدداً من نسائهم بأوصافهم، أم تعني رجولة التسبيح بالغدو والآصال رجالاً ونساءً وأطفالاً، فيحيى الذي أوتي الحكم صبياً، وصاحب الأمر عليه السلام الذي ولّي أمر الأمة وهو ابن خمس، وجدّه الجواد عليه السلام وهو ابن تسع، هم من ﴿رِجَالٌ﴾ وأرجلهم تسبيحاً، كما وفاطمة الصديقة ومريم الصديقة وأضرابهما هن من ﴿رِجَالٌ﴾ وأرجلهم تسبيحاً، فـ ﴿رِجَالٌ﴾ تعني رجولة التسبيح لا - فقط - الذكورة!

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

وقد تعني كما تعنيه ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾(١) و﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾(٢) ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾(٣).

وقد تعني ﴿رِجَالٌ﴾ - فقط - هنا وهناك، دون أناس، سنة التستر في النساء مهما كن معصومات، وأن نور الهدى لا تظهر منهن على رؤوس الأشهاد كما يظهر من الرجال، فلا نبوة ولا إمامة ولا مرجعية ولا قضاء ولا أي منصب جماهيري يؤتى لهن وإن كانت فاطمة الصديقة أمّن هي؟.

﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ حيث يعيشون ذكر الله، ويتعاملون في ذكر الله، ومهما كانت لهم تجارة أو بيع أمّاذا من الأشغال الدنيوية، فهي ليست لتلهيهم ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ فلا يلتهون عن واجبهم تجاه الله: ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ ولا عن واجبهم بأمره تجاه الخلق: ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾، إذ ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

وفي مقابلة ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وهي أفضل ذكر الله، و﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ وهو ذكر عملي لله، في مقابلتهما بـ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إشعار لموقفهم تجاه الله بذكرين: عام يعم الغدو والآصال على أية حال، في أحوال وأقوال وأفعال، وذكر خاص يعني الصلاة للخالق والزكاة للخلق! ولماذا البيع بعد التجارة وهي تشمله؟ لأن البيع أربح تجارة، فالربح فيه يقين ناجز، والربح في سائر التجارة - من شراء أماذا - مستقبل قد يحول دونه حاجز، فهو في الإلهاء أدخل، فعدم إلهائه عن ذكر الله أعضل، فقد تعني ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ...﴾ ألّا ملهى لهم في تجارة من سهل وعضل، من محتمل الفائدة ولا مقطوعها، ملهى لهم عن ذكر الله، فهم في شُغُل عن كافة الملهيات، لا يلتهون بها في

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٨. (٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٤٦.

شغلها أو تركها، فإن كان إلهائه لزاماً تركوه كخاصة الملهيات، وإن لم يكن لزاماً تغلّبوه، فـ ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ...﴾ أي ملهٍ عما يتوجب عليهم من ذكر الله، وهم يعيشون ذكره دائبين، ومن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة!

فهم هنا يقلّبون قلوبهم عما سوى الله إلى الله، وأبصارهم عن الملهيات إلى آيات الله، فلا ترى بصائرهم وأبصارهم إلا ما يذكّرهم الله: «ما رأيت شيئاً إلا وقد رأيت الله قبله وبعده ومعه وفيه» ولا تحنّ قلوبهم إلى شيء، ولا تكنُّ إلّا حبّ الله ومعرفته، ولأنهم يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار، فهم يقلّبونها هنا كيلا تتقلب هناك، فهم وافدون إلى ربهم متقلبين إليه ومنقلبين وكما أمروا «موتوا قبل أن تموتوا»!

فالأبصار هي التي تبصر أنوار الهداية الإلَهية بصراً وبصيرة، والقلوب هي التي تتلقى تلك الأنوار، وهؤلاء الرجال هم أصول تلك الأنوار، إذ هم ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ فليكونوا دائبين في ذكر الله، حيث أذن الله لبيوتهم أن ترفع ويذكر فيها اسمه!

ولأن القيامة ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾(١) بروزاً للحقائق كما هيه، فقد تعني تقلب القلوب والأبصار - فيما تعنيه ـ: أن قلوباً فَرِحة من الكفار تتقلب إلى قرحة، كما قلوب قَرِحة للمؤمنين تتقلب فَرِحة، وتتقلب أبصار منفتحة إلى الشهوات، منغمزة عامية، أو شاخصة خاشعة، وأبصار خاشعة من خشية الله، منغمزة عن حرمات الله، تتقلب منفتحة ناظرة ناضرة.

ثم قلوب خاوية عن اليقين تتقلب إلى يقين، إذ تكشف الغطاء عن أبصارها، دونما فائدة إلّا إثبات الحجة وخوض اللّجة، وأبصار أبصرت إلى الدنيا - دون أن تُبصر بها - فعميت، تتقلب هناك بصيرة تبصر ما عمّيت عليها.

(١) سورة الواقعة، الآية: ٣.

وقلوب المؤمنين تتقلب إلى يقين أعلى، وأبصارهم إلى بصائر أظهر وأسمى، تقلبات وتقلبات ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(١)! فهناك تقلّب لأحوال القلوب من الخوف والرجاء، والسرور والعناء، إشفاقاً من العقاب، ورجاءً للثواب، والأولى صفة أعداء الله، والأخرى صفة أولياء الله.

وكما تقلّب الأبصار من تكرير لحظ الكافرين إلى مطالع العقاب وتكرير لحظ المؤمنين إلى مطالع الثواب.

ثم وليست الرجولة ترك البيع والتجارة، إنما هي ألّا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله «وإن للذكر لأهلًا أخذوه من الدنيا بدلاً، فلم يشغلهم تجارة ولا بيع عنه يقطعون به أيام الحياة، ويهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين، ويأمرون بالقسط ويأتمرون به، وينهون عن المنكر ويتناهون عنه قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها، فشاهدوا ما وراء ذلك، فكأنما اطلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه وحققت القيامة عليهم عذابها فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا، حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس ويسمعون ما لا يسمعون»(٢).

وكما أن نورهم أضوأ الأنوار، كالشمس في رابعة النهار في مثلث الذات والأفعال والصفات، كذلك جزاؤهم بين العالمين عند رب العالمين هو أحسن الجزاء:

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾:

هنالك تقديمات لهم إلهية وبشرية كأحسن ما يمكن، ليجزيهم الله أحسن

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٢) نور الثقلين ٣: ٦١٠ ح ١٩٢ عن نهج البلاغة عند تلاوته عليه السلام ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ...﴾ [النّور: ٣٧].

ما عملوا، فـ ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ... يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ... نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ... فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ... يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ... يَخَافُونَ... تَتَقَلَّبُ...﴾[1] ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ ذلك نور أوّل في الجزاء، ثم ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ نور ثان، فجزاؤهم نور على نور كما هم نور على نور!.

وماذا تعني ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾؟ هل هو الجزاء الأحسن مما عملوا؟ ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ يعنيه! ثم ولا يعنيه إلّا الأحسن مما عملوا لا أحسن ما عملوا، حيث الجزاء بالعمل وليس نفس العمل: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾[2] فإنه قبول للعمل الأحسن لا الجزاء فإنه فعل الرب؟ ثم الجزاء يعم الحسن دون اختصاص بالأحسن؟.

أم يعني أن أعمالهم هي الأحسن وجاه العالمين فإنهم رجال بيت النور، وأحسن ما عملوا هو جزاؤهم حيث الجزاء هو العمل بظهور حقيقته ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3] بفارق أن السوء يظهر قدره عدلاً والحسن بمزيد من فضله رحمة زائدة.

ثم العمل الأحسن قد يكون مطلق الأحسن كما لرجال النور، أم نسبياً كما ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[4] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ

---

(١) إذاً فجزاؤهم هو عن ثمانية كعدد أبواب الجنة.

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ١٦.

(٣) سورة الطور، الآية: ١٦.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٧.

نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾[1].

فجزاء الأحسن هو الأحسن، وجزاء الحسن هو الحسن ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ ثم جزاء السيّىء والأسوأ هو هو دونما زيادة فإنه خلاف فضله وعدله!

رجعة إلى آية النور:

ترى ماذا أراد الله بهذا مثلاً والشمس أمثل الأمثال لأنوار الهدى، فهي أخصر تعبيراً وأشمل تفسيراً لمدى هذه الأنوار؟

أنوار الهدى في أهلها ولأهلها أنور من الشمس في رابعة النهار، فالشمس آفلة كل يوم ومكوّرَة أخيراً، ونور محمد ﷺ والمحمديون لا أفول لها ولا تكدير ولا تكوير، ونور الشمس محدودة بمنظومتها وتلكم الأنوار تعم كافة المنظومات فإنها هدىً للعالمين منذ وجدوا إلى يوم الدين فـ :

«إن الله كان إذ لا كان، فخلق الكان والمكان، وخلق نور الأنوار الذي نورت منه الأنوار، وأجرى فيه من نوره الذي نوّرت منه الأنوار، وهو النور الذي خلق منه محمداً وعلياً عليهما السلام، فلم يزالا نورين أوّلين إذ لا شيء كوّن قبلهما، فلم يزالا يجريان طاهرين مطهرين في الأصلاب الطاهرة حتى افترقا في أطهرين عبد الله وأبي طالب عليهما السلام»[2].

وكيف تمثّل المشكاة بسراجها، وهي محدودة، تمثّل أنوار الهدى أكثر من الشمس في رابعة النهار؟ إن مشكاة كهذه لا وجود لها في الكون إلّا مثالها في الهدى، فأين الزجاجة التي كأنها كوكب دريٌّ؟ وأين الزيت الذي يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار؟

(١) سورة التوبة، الآيتان: ١٢٠، ١٢١.

(٢) سفينة البحار ٣: ٦١٦ - الكافي عن أحمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن عمر بن علي بن أبي طالب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: . . .

ثم و«يوقد» المضارعة توحي باستمرارية الإيقاد، ولا استمرار لوقود الشمس ولا أي سراج! و«يكاد» موحية باستمرارية هذه الحالة المشرقة الذاتية، ولا ضوء لأي زيت فضلاً عن أن «يكاد» بالاستمرار، والممثل له هو زيت الزيتونة، أهل بيت الرسالة المحمدية، بقلوبهم المنيرة بنور العصمة البشرية لحد استطلبت العصمة الإلٰهية القمة، فأولاها الزيت الذي يكاد يضيء، وثانيتها نارها ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾!

وكما الممثّل له هنا منقطع النظير، كذلك المثال إلّا في البعض من أمثاله «مشكاة - مصباح - زجاجة - زيت» ولكن أين مشكاة من مشكاة، ومصباح من مصابيح، وزجاجة من زجاجة، وزيت من زيت؟ لذلك لا نجد لمثل نورهم مثالاً خُلِق بجنبهم، اللّهم إلّا تصويراً لهذه بتحوير.

ومن التأويل لذلك المثل ما يروى عن أمير المؤمنين تطبيقاً له بأهل بيت الرسالة المحمدية عليهم السلام [(١)] إنهم الأنوار الأربعة عشر، ثم خمسة، ثم واحد

---

(١) عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال دخلت مسجد الكوفة ورأيت علياً عليه السلام يكتب بإصبعه متبسماً، قلت: ما يضحكك يا مولاي؟ قال: تعجباً ممن يتلو هذه الآية وهو يجهل الحقيقة التي تحويها، قلت: ما هي؟ قال عليه السلام: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾... فـ ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أنا في زجاجة ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ﴾ الحسنان ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ علي بن الحسين عليه السلام ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ محمد بن علي عليه السلام ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ جعفر بن محمد عليه السلام ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾ موسى بن جعفر عليه السلام ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ علي بن موسى عليه السلام ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ﴾ محمد بن علي عليه السلام ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ علي بن محمد عليه السلام ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ حسن بن علي عليه السلام ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ القائم المهدي عليه السلام ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

وفي مدينة المعاجز عنه عليه السلام أن ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم و﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ فاطمة عليها السلام ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ الحسن عليه السلام ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ الحسين عليه السلام ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ﴾ علي بن الحسين ﴿دُرِّىٌّ﴾ محمد بن علي ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ جعفر بن محمد ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ موسى بن جعفر ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ علي بن موسى ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ﴾ محمد بن علي ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ علي بن محمد ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ حسن بن علي العسكري =

هو محمد ﷺ، ولعل خماسية النور في الآية توحي للخمسة الطاهرة، فإنهم القاعدة الوسطى لهذه الأنوار، مهما انتهت في وسطاها وأخراها إلى أولاها «محمد» ﷺ فـ «أولنا محمد - وآخرنا محمد - وأوسطنا محمد - وكلنا محمد ﷺ!»!

ولكنما ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ تعني فقط نور التكوين والتشريع وهما لله! و﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ هم الهداة الذين يمثلون نور الهداية الإلَهية في ولاية شرعية، و﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾ هما وحيٌ على قلب، ثم هدىً تلوَ هدى و﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾ هو الهدى المتمثلة في رسول الهدى وأئمة الهدى، وسائر الهدى كونياً وشرعياً، دلالةً وإيصالاً أمّاذا من درجات الهدى وجنباتها!

رسول الهدى وهو بكله نور يسأل ربه نوراً مما يدل على شاسعة النور وكما يروى عنه ﷺ قوله: «اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي بصري نوراً وفي سمعي نوراً...»(١) و«أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور بصري»(٢).

= ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [النُّور: ٣٥] حجة الله المهدي عليه السلام.

أقول: رموز هذه التطبيقات إن صحت عن المعصوم لا يعرفها تماماً إلّا المعصوم.

وفي ملحقات إحقاق الحق ١٤: ٣٦٩ في كتاب مناقب أمير المؤمنين لابن المغازلي الشافعي بسند متصل عن علي بن جعفر قال سألت أبا الحسن عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ...﴾ قال عليه السلام:

المشكاة فاطمة عليها السلام والمصباح الحسن، والزجاجة الحسين ﴿كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ قال كانت فاطمة كوكباً درياً من نساء العالمين ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ﴾ الشجرة المباركة إبراهيم ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ «لا يهودية ولا نصرانية» ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ﴾ قال: يكاد العلم أن تنطق منها ولو لم تمسسه العلم أن تنطق منها نار ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾ منها إمام بعد إمام ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ قال: يهدي الله عز وجل لولايتنا من يشاء.

(١) في دعوات ٩، م مسافرين ١٨١ - ١٨٧ - ١٨٩. د تطوع ٣٦ مت دعوات ٣٠ حم ١ - ٢٨٤ - ٣٤٣ - ٣٥٢ - ٣٧٣. (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي).

(٢) نور الثقلين ٣: ٦٠٥ ح ١٧٩ القمي عن جعفر بن محمد عليه السلام في الآية قال: بدأ بنور نفسه ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾: مثل هداه في قلب المؤمن ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ والمشكاة جوف المؤمن=

ثم السماوات والأرض: الكون المخلوق كله - هو نورٌ من جهات شتى، حيث تدل دلالة صافية ضافية على مكونها ومدبرها، فإنها آياته مهما خفيت أو جلت: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1]؟

ثم المادة بحذافيرها هي تراكيب من نور، فقد استطاع البشر بعد تحطيم الذرة أن يلمس إشعاعات منها منطلقة لا قوام لها إلّا النور، ولا مادة لها إلّا النور، فذرة المادة مؤلّفة من كهارب واليكترونات تنطلق عند تحطيمها في هيئة إشعاع قوامه هو النور، إذاً فما هي حالة المادة إلّا بسطاً من الذرة وإلى المادة الأمِّ، حيث التركيب فيها ثنائيٌّ كأبسط ما يمكن في المادة؟ إنها أمّ النور ونور النور، فمادة الكون ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾ وكما الهداية الإلّهية نور على نور وأين نور من نور؟

ويحق لنا القول: إن الكون كله بمادته ومعناه يفسر آية النور، فأصل الكون نور أخرج عن ظلمات العدم: إيجاد المادة الأولية لا من شيء، والمادة من البداية إلى النهاية نور تدليلاً على مكونها وتركباً من إشعاعات،

= والقنديل قلبه والمصباح النور الذي جعله الله في قلبه ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ قال: الشجرة المؤمن ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: على سواد الجبل لا غربية لا شرق لها ولا شرقية لا غرب لها إذا طلعت الشمس طلعت عليها وإذا غربت غربت عليها ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ يكاد النور الذي جعله الله في قلبه يضيء وإن لم يتكلم ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾ فريضة على فريضة وسنة على سنة ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ يهدي الله لفرائضه وسننه من يشاء ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٢٥] فهذا مثل ضربه الله للمؤمن ثم قال: فالمؤمن يتقلب في خمسة من النور مدخله نور ومخرجه نور وعلمه نور وكلامه نور ومصيره يوم القيامة إلى الجنة نور قلت إنهم يقولون مثل نور الرب؟ قال عليه السلام سبحان الله ليس لله مثل قال الله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ﴾ [النحل: ٧٤].

أقول: مواضيع من هذا الحديث لا ينطبق على كتاب الله أو يخالفه مثل انكار المثل لله ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ...﴾ [الروم: ٢٧] إلا أن يعني مثل المثل!

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

وتجهزاً بقوانين تربِّيها، واستعداداً تربوياً للهداة إلى الله، ووحياً إلى قلوبهم دلالة الطريق وهدى إلّهية - وكلها إلّهية - إيصالاً إلى المطلوب: مسبع النور في السماوات السبع والأرضين السبع وما فيهن وما بينهن!

لنأخذ من المادة النور ما نعرفه ونألفه: قطرة من الماء نكبِّرها تحت المكبرة إلى (١٥) سنتيمتراً، فتصبح كثيرة الارتجاف، ظاهرة عليها ألوان قوس قزح، ثم إلى (١٧٠ سم) لا نرى فيها إلّا الماء، ثم إلى مائة ميل فحينئذ تظهر جواهر الماء الصغيرة، وكل جوهر منه صغير أصبح كالجوزة حجماً وقطره ٥/٢ سم، وهذا يعني أن جوهر الماء لا يمكن قسمته إلى قسمين كل منهما ماء، ولا تحليله إلّا إلى العناصر التي تركب منها، وهذا هو الجوهر المائي في حده الأدنى الذي لا يقبل القسمة إلى جزءين مائيين، بل إلى عناصر أخرى ليست ماءً وهما الأوكسيجين والإيدروجين، وذلك الجوهر المائي المكبَّر لو أمسكناه وجدناه أشبه بالحجر صلابة لاتحاد الأوكسيجين بالإيدورجين اتحاداً قوياً لا يمكن انفصاله إلا بأعمال كيماوية.

هنا نجعل قطر القطرة - رابعة - مائة ألف ميل، فقطر كل جوهر مائي من النقطة المذكورة أكثر من أربعين قدماً بعد أن كان ٥/٢ سم، وهذا التكبير لا يفيدنا أمراً إلا أننا نرى كل جوهر مائي مؤلفاً من ثلاثة جواهر:

الأوكسجين في الوسط والإيدروجين يمنة ويُسرة، وهذه الثلاث لحد الآن جواهر فردة لم نستطع حتى الآن تقسيمها، أن تبقى بعد الانقسام كما هي، وإنما إلى أقسام أخرى علناً سوف نعلمها، وهي تشبه خلأً ومسافات لا مادة فيها، وجواهر الأوكسيجين الوسطاني كقنديل في المركز تحيط به دوائر ست تبعد عنه (٢٠) قدماً والجواهران من الهيدروجين حوله هما دائرتان من النور، قطر كل منهما سبعة أقدام، تدوران حول مركز من النور، ولكي نعرف كيان الجزءين نكبِّر نقطة الماء هذه خامسة ألف مرة أخرى،

فتصبح أكبر من فلك الأرض حول الشمس، فيصبح قطر الجوهر المائي ثمانية أميال، وهنا نرى أن دوائر الأوكسيجين والإيدروجين ليست إلّا خطوطاً وهمية من النور، ترسمها نقطة صغيرة من النور، تدور حول مركزها في الثانية الواحدة ستة آلاف مليون مليون دورة، وهذه النقطة الدائرة هي الكهربائية السالبة ومركزها النوري (الكهرباء الموجبة) وهذه الدوائر التي رسمتها النقطة في الذرتين ما هي إلا كالدوائر التي ترسمها شعلة نحركها نحن بسرعة فترسم دائرة بحسب ما ننظرها نحن، وليس في الواقع إلّا شعلة.

وصلنا حتى الآن إلى نور الذرة، فماذا ترى نور أجزاء الذرة إلى المادة الفردة الأولى التي ما عرفناها حتى الآن ولن نعرفها بعد الآن، فإنما عرفنا أنها كلّها أنوار ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ...﴾!

والجواهر المائية التي في نقطة واحدة من الماء (٥) أمامها (٢٠) صفراً أي خمسمائة ألف ألف ألف ألف ألف ألف جوهر مائي، وهذا العدد العظيم من النقط المائية ليس مندمجاً كلًّا ولا مصمتاً، فهناك أبعاد شاسعة بينها كالتي بين الكواكب والشمس والأرض بالنسبة لأحجامها...

إذن فقطرة الماء هي نُقَط من النور تدور بعضها حول بعض، وهكذا جميع العناصر في الكون - إذاً فالسماوات والأرض كلها ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾![1].

أجل وليست الذرات بأجزائها المعروفة حتى الآن إلّا كهارب سلبية وإيجابية وخنثى، فالعالم كله كهارب وكله نور، مهما خفي عنا نوره إلّا على ضوء نور العقل والعلم والوحي ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ...﴾!

(١) تلخيص مع تحوير عما حققه (هنشو) المكتوب عنه في مجلة (هاربر) الامريكية ١٩٣٦ وكما نشرت في مجلات أخرى أيضاً.

نحن الآن في الشوط الثامن من التعرف إلى نور الكون، فمن المشاعل إلى مصابيح الزيت، إلى قناديل الشمع، إلى زيت البترول، إلى الغاز الذي هو خلاصة الفحم المحترق الجاري في الأنابيب لإنارة المدن، إلى خلاصة المادة الكحولية المسماة (اسبيرتو) أي بخارها الذي يغشى عادة بغشاء يحفظ ضوؤه، إلى ضوء الكهرباء الذي عم أقطار الأرض، وإلى الإشعاعات الذرية وفوق البنفسجية أمّاذا ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ...﴾!

ثم إن النور المشكاة هي مثل المؤمنين بمراتبهم أعلاهم فيها الرسول محمد ﷺ وذووه ثم سائر الخمسة ثم سائر الرسل ثم سائر المؤمنين بمراتبهم وإليكم مثل الكافرين:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾:

بعد مثل النور لأهل النور هنا مثلان لمن لم يجعل الله له من نور: برّي ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ...﴾ وبحري ﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ...﴾ مشهدأن رئيسيان من مشاهد الظلمات للذين كفروا.

في المشهد الأول يرسم أعمالهم في واقعها المضاد لما يزعمونها يوم القيامة ﴿كَسَرَابٍۭ﴾: مظهر ماءٍ جار[1] ﴿بِقِيعَةٍ﴾: أرض مكشوفة مستوية على ضوء الشمس، حيث يبصرها الرائي من بُعدٍ كأنها تتلمع ماءً مائجاً صافياً هائجاً، يحسبه كل راء ماءً، ولا سيما الظمآن: شديد العطش الذي يفتش

---

(١) السراب ما يتراءى للعين وقت الضحى الأكبر في الفلوات شبيه الماء الجاري يقال: سرب الماء يسرب سروباً إذا جرى فهو سارب كـ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرّعد: ١٠] أي ماش فيه.

عن ماءٍ، فغير الظمآن لا يجيئه إذ لا يحتاجه وقد لا يعرف خطأه، والعطشان غير الظمآن قد لا يجيئه، ولكنما الظمآن يجيئه حتماً متوقعاً ريّه، فيفاجئ خلاف ما يتوقع، فالظم آن السائر وراء الشراب يتوقع هناك الشراب، يصله فلا يجد إلّا السراب، مفاجأة مذهلة لم تخطر ببال، وقد تتقطع عندها الأوصال فتورث الخبال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـًٔا﴾ وجده في تخيّله من بُعد! ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾: عند السراب الذي هو لا شيء، وعنده نفسه حيث لم يأت بشيء، صفر اليد عن كل شيء يصلح لحضور الرب ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾ في حُسبانه بعمله الحابط ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ دون تباطوء في أصل الحساب، ليس «فوجد الله عنده» وجداناً له بإدراك حسي فما فوقه، إنما وجداناً لحضوره حيث لا يجدون موئلاً سواه، وقد كانوا غيَّباً عنه يوم الدنيا فهم في غفلة منه وغفوة يعملون ما يشاؤون كأن لا إله، ثم كشف عنهم غطاءهم يوم الأخرى فوجدوا الله عند أعمالهم بسرابها حاضراً حاذراً موفياً حسابهم سريعاً دون إمهال!.

فلأن أعمال الذين كفروا لا تهدف إلّا شهوات الحياة الدنيا وزهواتها، وهم يزعمونها هادفة نافعة رغم أنها حابطة زائفة زاهقة، فهي إذاً كسراب بقيعة الدنيا، يحسبه ظمآنها ماءَ الحياة رغم أنها بلاء الممات، وهو يعيش ذلك الحسبان البعيد البعيد ما دام غارقاً في تلكم اللذات وحياة الخيالات، فهو من الأخسرين ﴿أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾[1] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ إذ جاءت سكرة الموت، فيرى من أعماله غير ما كان يراه إذ كانت على بصيرته غطاءٌ:

﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾[2] ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ

(١) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤. (٢) سورة ق، الآية: ٢٢.

﴿شَيْـًٔا﴾ في واقعه، رغم ما وجده أصل الحياة في حسبانه ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾: عنده نفسه وعند عمله الحابط الهابط، فلا يملك هنالك أحد شيئاً إلّا الله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾(١) ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ خلاف حسبانه ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ رغم ما كان يحسبه ألّا حساب لا بطيئاً ولا سريعاً!.

فأعمال الذين كفروا حابطة ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾(٢). وهي عليهم حسرة يوم يرونها كما هيه: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾(٣) فإن ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾(٤).

ولأن الإنسان يوم القيامة ليس إلّا أعماله، فإنها هو وهو هيه، فالذين كفروا هم بأعمالهم كرماد اشتدت به الريح، وكسراب بقيعة هم حابطون كما أعمالهم ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾(٥).

والحبط ليس إلا في الأعمال الحسنة فإن السيئات باقية، فآية السراب تجعل حسناتهم كسراب بقيعة يوم القيامة، وآية الظلمات تجعل سيئاتهم ما تجعل، فحسناتهم حابطة كسراب وسيئاتهم ثابتة كظلمات!

إن الذين كفروا يسارعون بأعمالهم التي يحسبونها خيراً لهم إلى شرٍّ لهم وهم غافلون بقصور التقصير، يقدِّمون أعمالهم التي هي عدوٌّ لهم، بكل سرعة وحماقة، ثم يقدمون إليها فيرونها عليهم عذاباً ما لهم من محيد!

هذا المشهد الأوّل يبرز خيبتهم في اليوم الآخر، ثم المشهد الثاني يجعلهم في ظلمات متراكمة متراكبة، فإن كان المؤمن متقلباً في خمسة من النور مدخلاً ومخرجاً وعلماً وكلاماً ومصيراً، فالكافر يتقلب في خمسة من الظّلم!

---

(١) سورة غافر، الآية: ١٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦٧.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ١٨.
(٥) سورة الكهف، الآية: ١٠٥.

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ أو هذه للتقسيم[١] انقسامة لحالتهم إلى قسمي الآخرة كالأول والدنيا كالثاني. . . ﴿كَظُلُمَٰتٍ﴾ متراكمة متراكبة فلا شمس مضيئة، ولا قمر منيراً ولا أنجم زاهرة ولا سُرُج، والليل غاسق، ظلمة مطلقة لا نور فيها، فهم أعمالهم كسراب أو كظلمات[٢]!.

وكما آية النور مثلث بمسبّع النور تخلصاً عن الظلمات السبع، كذلك آية الظلمة هذه تمثيلة بمسبع الظلمة، فـ ﴿كَظُلُمَٰتٍ﴾ تعني غاسق الليل، بلا قمر، ولا نجوم، ثم ﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ المتردد أمواجه ظلمة رابعة ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾ خامسة ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ سادسة ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ سابعة ﴿ظُلُمَٰتٌۢ﴾ سبع ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ولا تتصور ظلمة فوقها فإنها لا نور فيها فـ ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾ من هذه الأمواج أو فيها ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ فإن فاصل النور أياً كان هو الذي يسمح للإبصار، فإذ لا نور فلا إبصار، حتى يده التي هي أقرب الأشياء إليه، ليس أنه - فقط - لا يراها بل ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ فقد لا يراها إذ لا نور، ولكنه يكاد يراها لنور يأتي، ولكنما الكافر صد عن نفسه كل نور فليس ليرى حتى يده.

فالذين كفروا هم خارجون ومُخرَجون عن كافة الأنوار آفاقية وأنفسية، فلا يرون حتى أنفسهم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾[٣] ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[٤] ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾[٥].

في آية الظلمات السبع ثلاثة أنواع من الظلمات: ظلمة البحر اللجي

(١) خيّر أبح قسّم بأو وأبهم واشكك وإضراب بها أيضاً نُمي.
(٢) أو هذه تعطف إلى سراب: أعمالهم كسراب أو كظلمات.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.
(٥) سورة المطففين، الآيتان: ١٤، ١٥.

بأمواجه، وظلمة السحاب، وظلمة غاسق الليل، كما للكافر ظلمات ثلاث في القول والعقيدة والعمل خلواً من كل نور، وحتى في حسناته إذ لا ترتبط بمعدن النور.

ولماذا «يده» دون رجله أماذا من جوارحه؟ لأنها أقرب ما يراه منها، فإذ لا يراها فهو مسدود عن كل رؤية، كفر غاسق وظلمة مطلقة منقطعة عن نور الهدى، وضلال لا يرى فيه الرائي أقرب معالم الهدى! أو لأن اليد تعبير عن أعماله الحسنة على كفره، فلا يكاد يراها يوم الأخرى لأنها حابطة غامرة!

آيات الله البينات كلها نور، وحتى آيات الظلمات إذ تبين موقف النور من الظلمات، ومن مواقف النور في آية الظلمات أنها قد تكون حرزاً من حرق أو غرق أو سرق أو إفلات دابة من صاحبها، أو ضالة أو آبق[1] أماذا من حاجيات لا سبيل إليها من أسباب ظاهرة!

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ أترى إذا لم يجعل الله نور الهدى للذين كفروا فما ذنبهم إذ لا يهتدون؟ إن الله جعل لهم نور الفطرة والعقل كآيات أنفسية، وجعل له نور الرسالة وسائر الآيات الآفاقية، ولكنهم زاغوا عنها ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[2] فلا يعني سلب الجعل السلب المطلق،

---

(١) نور الثقلين ٣: ٦١١ ح ١٩٧ عن الكافي في الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: والذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالحق وأكرم أهل بيته ما من شيء يطلبونه من حرز من حرق... إلا وهو في القرآن فمن أراد ذلك فليسألني عنه قال: فقام إليه رجل فقال يا أمير المؤمنين أخبرني عن الآبق، فقال: اقرأ ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ... - إلى قوله - وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] فقرأ الرجل فرجع إليه الآبق، وفيه في من لا يحضره الفقيه عن عبد الله بن يعفور عن أبي عبد الله عليه السلام قال: اكتب للآبق في ورقة أو في طاس «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ يد فلان مغلولة إلى عنقه إذا أخرجها لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور» ثم لفها واجعلها بين عودين ثم القها في كوة بيت مظلم في الموضع الذي كان يأوي فيه.

(٢) سورة الصف، الآية: ٥.

وإنما سلبه بعد إثباته، فإذ لم يهتدوا به سلبه الله عنهم و﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌۖ...﴾(١) ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾(٢) فنور التكوين من الفطرة والعقل، ونور التشريع ككل شرعة، ونور الإيصال إلى هدى التشريع، كل ذلك ليست إلّا من الله فـ ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾(٣).

وقد يشمل «الذين كفروا» في مثله الأول، المتظاهرين بالإسلام وهم كفار، والمضلّلين في عقائدهم وأعمالهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، فهم يرونها حسنة وهي كسراب بقيعة، ثم المثل الثاني يختص بالكفر المطلق.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾:

هنا وفي الأسرى ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن...﴾: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ...﴾(٤) وفي سائر القرآن «يسبح أو سبح ما...»(٥) ففرق بينهما بـ«من» و«ما» فهذا يعم تسبيح الكون أجمع بما فيه ومن فيه، تكوينياً حيث يدل بكمال صنعه على كمال صانعه وهو للكون كله، واختيارياً وهو يخص بعض الكون، ولكن «من» قد تعني ذوي العقول وأضرابهم في شعور التسبيح كالطير أماذا من حيوان سوى

(١) سورة البقرة، الآية: ٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤٣.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.
(٥) سبّح لله ما في السماوات وما في الأرض ٦١: ١ و٥٩: ١ والأرض ٥٧: ١ يسبح له ما في السماوات وما في الأرض ٦٢: ١ و٦٤: ١ والأرض ٥٩: ٢٤.

الإنسان والملك والجان، أو أنها تعني كما تعنيه «ما» كما في الأسرى ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ. . .﴾[(١)]؟ فـ ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ. . .﴾[(٢)]!

وقد يتأيد عموم «من» هنا مثل «ما» بأنها لو عنت تسبيح الاختيار القاصد من ذوي العقول الخصوص لما شملت إلّا المؤمنين، وظاهر ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استغراقه للكلّ، والكافر لا يسبح باختيار وإيمان، وإضافة الطير قرينة أخرى أنه الكل، فمؤمنهم العالم ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ﴾ وتسبيحه، وغيرهم يسبح كمن يعلم، فـ «كل» ممن في السماوات والأرض والطير أمّن ذا ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ مهما اختلفت مراتب العلم والصلاة والتسبيح، فالكون محراب شاسع تصلي فيه الكائنات لربها وتسبح، ولكنما الإنسان الغافل المتجاهل قد يترك تسبيح المختار وصلاته عن إيمان ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[(٣)]!

و﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قد تعني الرسول ﷺ ومن يعنيه من ذويه، فهم يرون علم اليقين وعينه وحقه أن الكون كله يصلي ويسبح لله، يرون ما يراه سواهم من تسبيح التكوين تدليلاً على المكون، وما لا يراه سواهم مما ﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[(٤)] وكما يرون صنوف الصلاة والتسبيح! ولا تعني الرؤية هنا إلّا بالغ العلم والمعرفة كل حسب مستواه ومقتضاه.

فـ ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ. . .﴾ من ذا الذي يرى تسبيحها وصلاتها الجماعية في صفيفها ودفيفها إلّا من يوحى إليه مثل داود: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾[(٥)] ومن ذا الذي يعلمها أنها تعلم صلاته وتسبيحه؟

(١) سورة الحجر، الآية: ٢١.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩.

و«كلّ» هنا تعم من في السماوات والأرض ومنهم الطير، حيث تذكر كمثال لكل الحَيَوان، مهما اختلفت صلاتهم وعلمهم لصلاتهم وتسبيحهم!

أترى ﴿عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥ﴾ تشمل من يعلمها ولا يصلي كالكفار من الجنة والناس؟! اللّهم لا! لمكان «يسبح» فهو إذاً علم العمل ويخص الصلاة والتسبيح عن علم، فلا يعم التسبيح التكويني فإنه ليس عن علم.

تعال معي لننظر إلى الطير صافات في صلوات وتسبيحات بعد ما رأينا صلواتنا في جماعات، نحن نعبد ربنا في صلوات ثابتات وأحياناً في تسبيحات وتحميدات بحركات دورانية دورية كالطواف أم بيضوية كالسعي أماذا.

والطير صافات في صفوف متحركة جوية تسبح ربها وتصلي في مختلف السرعة، أسرعها فيما نعرف حتى الآن حشرة (سفنوميا) وهي في أمريكا الجنوبية والشمالية وبعض أنحاء أوروبا، فهي تقطع في الساعة ٨١٥ ميلاً، فإن جناحيها يدوران كل ثانية بضع آلاف المرات... لو أتيح للإنسان يطير مثل هذه الحشرة لحلّق الكرة الأرضية في (١٧) ساعة![١].

وقد تعني في دلالة بدلية طولية كل مَن بإمكانه أن يرى كما يسطع وأقله تسبيح التكوين تدليلاً على خالق، ثم تسبيح الشعور بما أوحاه كما في آية الأسرى، ومن ثم تسبيح التكليف، وكلٌّ تلو الآخر مزيد لنور المعرفة الإلهية، ولا يُحرم أي عاقل مكلف من رؤية مّا لتسبيح مّا للكون الذي يراه قدر ما يراه.

تسبيح الكون كله تدليلاً على خالق سبحان هو نورٌ في الكون كله ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ...﴾ وتسبيح الشعور وشعور كل تسبيح هما من نور الوحي: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾!

---

(١) كشفها (تشارلس تونسند) البحاثة الأميركي الشهير كما في تفسير الجواهر ج ١٢ : ٣٤.

فهنالك رؤية شاملة لتسبيح الكون قبل الوحي، تشمل كل عاقل، ورؤية بالوحي كما في آية الإسراء، ورؤية مع الوحي كما للرسل، وكذلك كان أوّل العابدين، إذا مشى سمع تسبيح الحصى تحت قدميه، ومعه داود ومن معه يرتل مزاميره فتؤوب معه الجبال والطير! ثم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ قد يخص أفعال العقلاء المختارين من تسبيح وسواه، أو وأفعال الكافرين الذين هم أعمالهم كسراب أو كظلمات، أو يعمهما وكل كائن في فعل التسبيح أياً كان أم أي فعلٍ كان.

ولماذا لا يسبح له «مَن وما» ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؟ ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ «أيا كان وأيان ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ في الختام!

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾:

هنالك نخطو خطوات معرفية إلى بارئ الكون من إزجاء سحاب إلى تأليفه إلى جعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله، أم بَرَداً ينزل منه، صورتان تختلفان بسيرة واحدة من مختلف السحاب! ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ أيها الرسول ثم كل من يرى ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا﴾ فالإزجاء هو الدفع للانسياق، والقلع شيئاً فشيئاً[1] كما ﴿يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ والسحاب فَعالٌ من السَّحب: الجرّ، فالسحاب المزجى هو أبخرة المياه الأرضية المزجاة إلى جو السماء.

إن حرارة الشمس - وأيّة حرارة - تبخِّر المياه فوق الأرضية، ولأن الأبخرة خفيفة، تُزجى وتُسحب بجاذبية السماء، وهذه العملية الفزيائية تعني

(١) إزجاء السير في الإبل هو الرفق بها حتى تسير شيئاً فشيئاً، وكذلك أبخرة الماء الصاعدة المزجاة إلى السماء، ومنه ﴿بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ [يوسف: ٨٨] قليلة.

إزجاء السحاب، ولأن الله هو المحوِّل في كل تحويل والمحوِّر في كل تحوير، فهو الذي يزجي سحاباً، ليس كصدفة عمياء غير قاصدة، بل هو سحب وإزجاءٌ قاصد!

أترى أن مجرد إزجاء السحاب من مختلف الأبخرة يكفي لتكوُّن سحاب يمطر وَدقاً أو مطراً أو بَرَداً؟ كلّا! فهناك التأليف بينه ليُنشئ سحاباً ثقالاً، حيث الأبخرة المتفرقة والخفيفة لا تنزل ودقاً فضلاً عن بَرد: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾(١).

هنالك الرياح تجمع بين كُتَل البخار المسحبة المُزجاة، فتجعله ركاماً: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ...﴾(٢).

والسحاب الثقال هي التي تحمل الماء لركامها، إزجاءً ثم تأليفاً ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ سحاباً ثقالاً! وكل هذه عمليات قاصدة هادفة، ونحن نرى الأفعال ولا نرى الفواعل الطبيعية فضلاً عن الفاعل الإلٓهي أو ملكوتاً من فعله.

وهناك ثقل أوّل للسحاب وتحت ضغوط الرياح وبرودة الهواء أماذا من معدات، ينتج نزول الأمطار: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ كأنها غرابيل تغربل وَدْق المطر، كما يتراءى لرائي الأرض! والودق هو بداية المطر، أوّل ما ينزل من غرابيل السحاب كأنه غبار المطر براعة استهلاله، ثم المطر، فالودق هو بداية المطر ومناديه، ثم تنضم أجزاؤه فتصبح قطرات بعد الغبرة، وبسرعة بعد الفترة، ومن ثم إذ تكاثفت السحاب بركام واندغام أكثر، وفي برودة أوفر، أصبحت كجبال البرد: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ...﴾.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.

إن مشهد السحاب الضخمة الكثيفة التي تغربل ثلجاً وبرداً هو مشهد الجبال حقاً، فمهما كانت لا تتراءى لناظر الأرض جبالاً، فإنها ترى لراكب الطائرة التي تحلق فوقها أو تسير بينهما، ترى جبالاً بضخامتها ومساقطها وارتفاعاتها وانخفاضاتها، صورة هائلة لهذه السحاب لم يكد يراها الناس إلا بعد ركوب الطائرات.

ولكنما الطائر القدسي المحمدي الذي حلّق على الكون كله ليلة المعراج ببصره، وأحاط به علماً ببصيرته، إنه كان يراها دون طائرة: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ. . .﴾[1]!.

إن نازل السماء من هذه السحاب وَدقٌ ومطر وثلجَ وبَرَد كلّها من الأبخرة المزجاة المسحبة من المياه فوق الأرضية، وقد يعم البرد الثلج وليس في القرآن بعد الودق والمطر إلّا البَرَد!

فـ ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ هي تلك التي تحمل البرد وهي السحاب الثقال تشبيهاً بالجبال بكثائف أطوادها ومشارف هضابها، والضمير في «فيها» عائد إلى السماء دون الجبال، و«من برد» تتعلق بـ «وينزل»[2] إنه ينزل من السماء - من جبال فيها هي السحاب البردية - يُنزل مِن برد: بعضه لا كله، فلو نزل كله لكانت الإصابة أخطر والفادحة أكثر، ولكن ﴿يُنَزِّلَ. . .﴾ ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ جنسه، ثلجاً أماذا، وبعضه لا كله! «فيصب به» البرد «من يشاء» إصابته عذاباً أو تأديباً، امتهاناً أو امتحاناً. . . ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ صرفه عنه فلا امتهان ولا امتحان، فالبردُ - إذاً - كعذابٍ قل أو كثر، يصيب الأشجار والأثمار والأبنية وأصحابها، وقد تصبح كرصاص تجرح أو تقتل لكبرها وشدة وقعتها!

---

(١) سورة النجم، الآية: ١٨.

(٢) فليس من برد تعني - فقط - جنس الجبال، فإنها ليست برداً كما السحاب الممطرة ليست مطراً ثم لا متعلق - إذاً - لـ - «ينزل» فماذا ينزل من جبال فيها من برد، والأولى الجمع بينهما: إن من برد تتعلق بـــ - «ينزل» كما تتعلق بكائن حيث توضح جنس الجبال.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ والسنا هو الضوء الساطع، فساطع الضوء من برق السحاب[(١)] الودق، والمطر والبَرَد، يكاد يذهب بالأبصار، لشدة الالتماع وسرعة الإيقاع!.

أترى ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ هي المستكنة في السماء المختلفة عن سحاب الودق المطر؟ والبرد يتحول في الأرض ماءً! وليس نازل السماء إلّا صاعد الأرض دون زيادة أو نقيصة اللّهم إلّا في طوفان نوح! ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى...﴾[(٢)] فللأرض ماؤها المخصوص بها، ما يتبخر منها ويرجع وما يتبقى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾[(٣)] ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾[(٤)] حيث ترجع أماناتها الأبخرة دون إبقاء ودقاً ومطراً وبرداً![(٥)].

وصيغة الإصابة والصرف في البرد دليل أنه نقمة دون رحمة، ولكنما الثلج الرخو في الأكثر رحمة إذ لا إصابة فيه وقعاً ولا واقعاً إلا سترةً على أشجار ومخازن فوق الأرضية للمياه، فمهما يشمله البرد في أصله ليس ليشمله في إصابته وفصله أو أنه لا يشمل الثلج الرخو أصلاً.

ويا للبرد: - بندقية العذاب - من أشكال هندسية عجيبة شتى تحير العقول، يرتفع البخار في الجو فيصبح كالهباء ثم تتجمع أجزاؤه لما فيه من

---

(١) الضمير الغائب في برقه لا يصلح رجوعاً إلا إلى محور الكلام (السحاب) وأما الودق والبرد أما ذا فلا، والسحاب اسم جنس جمعي واحده سحابة فقد يرجع إليه - كما هنا - ضمير الواحد باعتبار اللفظ، أو الجمع باعتبار المعنى كالسحاب الثقال.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٤.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١٨.

(٤) سورة الطارق، الآية: ١١.

(٥) لم يأت الودق والبرد في القرآن إلا هنا، والمطر في (٨) مواضع والذي يعني مطر الماء في موضعين ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ [النساء: ١٠٢] ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] ولم يكن ممطراً! وإنزال الماء من السماء نجده في آيات كثيرة وهو يشمل الثلاثة.

نداوة فينزل كالعهن المنفوش أحياناً، أو تتجمع باندغام أكثر في ضغط الرياح فينزل برداً أخرى إذ تروج أجزاؤه بمصاكة الرياح، أو ينزل ماءً ثالثة حيث البرودة في الجو أقل من هذه وتلك، والرطوبة أكثر، أو عمود النزول أطول، فهذه إضبارة مثلث نازل السماء حسب مختلف الظروف، والأصل واحد هو البخار دون أن تكون هناك في السماء مياه غير هذه الأبخرة الأرضية، تمطر، أم جبالٌ من بَرَد تَهطِر!.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾:

آية التقليب هذه يتيمة لا مثيل لها في القرآن، ففي آيات الليل والنهار قد يأتي اختلافهما (٢: ١٦٤) وأخرى وخِلْفتهما (٢٥: ٦٢) وثالثة إيلاج كلّ في الآخر (٣: ٢٧) ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾[1] وخامسة ﴿ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾[2] ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾[3] ثم لا نجد تقليباً لهما إلّا هنا فماذا يعني تقليبهما؟

قلب الشيء هو صرفه عن وجه إلى وجه زماناً أو مكاناً، صورياً أو ماهوياً أما ماذا من وجه، فتقليبه هو كثرة قلبه عِدّة وعدُّة بمختلف الوجوه، من تقليب في مكان حيث الليل يسلخ منه النهار كما النهار يسلخ منه الليل، فكلٌّ يأتي مكان الآخر خِلفة واختلافاً، وهذا من خلفيات تقليب الكرة الأرضية، ومن تقليب زمني إذ ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾[4] تقصيراً من أحدهما فتطويلاً في صاحبه، وهو من خلفيات الحركة البيضوية للأرض فتحصل منها الفصول الأربعة حيث يقتضي مختلف الودق

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٢) سورة يس، الآية: ٣٧.
(٣) سورة المزمل، الآية: ٢٠.
(٤) سورة الحج، الآية: ٦١.

والإمطار، وفي الشتاء الثلج والبرد، فكلٌّ من هذه الأربع فصلٌ فالأخيران شتويان، ومهما عم الأولان كل الفصول، ولكنهما في الصيف قليل، ثم يكثر أن خريفاً ثم ربيعاً وفي الشتاء غزير كثير، وهذا مما يربط آية التقليب بآية الودق والبرد! فآية التقليب تعني ما تعنيه سائر الآيات وزيادة تعم كل تغيير وتحوير في الليل والنهار بما يحملهما من أرضهما، تقليب مقدّرٌ قاصد دون هرج ومرج وفوضى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التقليب الحكيم الهادف ﴿لَعِبْرَةً﴾ يُعبر بها إلى القدرة الحكيمة لمقلبهما ﴿لِأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ الذين يبصرون بهما فيبصِّرانهم، لا إليهما فيعميانهم كما الدنيا كلها: «من أبصر بها بصرته ومن أبصر إليها أعمته»!

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾:

هنا خلق كل دابة من ماء ولا تشمل كل حي، وفي الأنبياء ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾(١) شاملة غير الدواب، من سابح البحر وطائر الجو طيراً، وطائر السماء ملائكة أمّن ذا من كائن حيٌّ، بحياة نباتية أو حيوانية أو إنسانية أو جنية أو ملكية، وكل حي أياً كان وأيّان، إلّا الميّت كالجمادات مهما كانت لها حياة التسبيح بحمد ربهم، ثم وفي هود يعتبر الماء - وهو المادة الأم وهي تعم الماء وسواه من كائن - يعتبره مادةً لخلق الكون أجمع: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ...﴾(٢) (٣) ولا

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

(٢) سورة هود، الآية: ٧.

(٣) إنما عبر هنا عن المادة الأولية بالماء إذ لا خبر عن حقيقة هذا الماء فلا اسم موضوعاً يعرفه، فاستعير لفظة الماء إذ تحمل حقيقة تشابه المادة الأولية في مسانخة الأجزاء وهي معروفة لدى الكل، فمن المعلوم أن ذلك الماء ليس ماء السماوات والأرض لأن ﴿كَانَ﴾ يضرب إلى=

تصريحة في القرآن بخصوص خلق دابة أو حيّ من ماء إلّا الإنسان: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾[(١)] ولكنه - كما الماء المادة الأولى - ليس الماء المعروف، بل ﴿مَّاءٍ دَافِقٍ﴾[(٢)] و﴿مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾[(٣)].

فماء الكون أجمع يشمل ماء كل حي وسواه، وماء الحياة يشمل كل دابة وسواها من حي، مياه ثلاثة أولاها المادة الأُمّ، وثانيتها مادة الحياة، وثالثتها مادة الدواب، أترى أن الأخيرين واحدٌ هو الماء، فلماذا خصت هنا كل دابة دون كل حي كما هناك؟ علّه لأن ماء الدواب هو المني مهما كان أصله الماء، وأما الملائكة فلا مني في خلقهم إذ لا تناسل بينهم، وأما الطير فهي وإن كانت من ماءِ المني، ولكنها - إلّا ما شذ - تخلق من بيض مهما حصلت من مني، وأما الدواب فلا بيض في خلقها إلا توالداً من مني يُمنى!

فأحياء الكون من دابة وسواها مخلوقة من ماء ككلٍّ، ولكنما الدواب تخلق من ماء المني مهما كان أصله الماء، دون غير الدواب إلّا نذراً.

وقد تلمح التنكر في «من ماءٍ» أنه غير الماء الذي جعل منه كل حيٍّ أو يعمه، كما التعريف في «من الماء» لمحة إلى أنه الماء المعروف، أن جعل كل حي منه كما أن بقاءه به!

ثم ﴿خَلَقَ﴾ هنا و«جعلنا» هناك لمحة ثانية إلى الفرق بين الماءين، فالخلق هو التقدير، والجعل البسيط كما هنا هو الإيجاد، فقد قدر كل دابة ولادة من ماءٍ، كما جُعل كل حيٍّ - تكويناً يعم الولادة - من الماء!

= ماض قبل خلق السماوات والأرض، وكان عرشه يعني وكان بناؤه في خلقه السماوات والأرض على الماء، خلقهما منه.

(١) سورة الفرقان، الآية: ٥٤.

(٢) سورة الطارق، الآية: ٦.

(٣) سورة السجدة، الآية: ٨.

فالأحياء ذات أصل واحد هو الماء، والدواب ذات أصل واحد من ماءٍ، والكل مع سائر الكون ذو أصل واحد سمي ماءً هو المادة الأم، فلا أصل للكون أياً كان إلّا مثلث الماء، فلا مجرد عن المادة إلّا خالق الكون! والكون بروحه وجسمه ينتهي إلى الماء إذ ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ﴾ في خلق السماوات والأرض بما هما الكون المخلوق أجمع، كان ﴿عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾: المادة الأم، فكل شيءٍ سوى الله، من جماد ونبات وحيوان وإنسان وجان وملائكة أمّن ذا وماذا، إنها مخلوقة من «الماء» دونما استثناء، فأين التجرد في روح وسواه والكل من مواليد الماء؟

إذاً فآيات الخلق والجعل من الماء هي من دلالات المادية الشاملة لما سوى الله من جسم وروح، وكما آيات أخرى وروايات وأدلة عقلية تدلنا على مادية الروح أياً كان، وبحثه الفصل تجده في آية الروح ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾[١] [٢].

ولماذا «منهم» هنا ثلاث مرات راجعاً إلى ﴿كُلَّ دَآبَّةٖ﴾ و«هم» يعني ذوي العقول؟ إنه لتغليب ذوي العقول من إنس وجنٍ أمَّن ذا؟ تشملهم ﴿كُلَّ دَآبَّةٖ﴾.

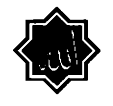
تذكر هنا من صنوف الدواب أقسام ثلاثة «على بطنه - على رجلين - على أربع» ثم يشار إلى سائرها الزائد على أربع بـ ﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ﴾ معللاً بالقدرة المطلقة الإلَهية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾. ابتداءً بـ ﴿مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ﴾ كالزواحف، لأنها أعجب مشياً إذ تمشي دون أرجل ثم ﴿مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ﴾ وسطاً في العجاب مع أنه أمتن المشي ثم ﴿مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ﴾ وهو

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.
(٢) وكما في آية الزوجين والأزواج وأمثالهما وآية الإنشاء في سورة الحج.

أمكنه وأركنه، وكلما ازدادت الأرجل نقص العجاب من ناحية وازداد من أخرى، كالتي تمشي على ألوف الأرجل!.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦)﴾:

هذه الآيات المبينات هي المنزلة هنا وفي سائر القرآن، فإن آياته كلها مبينات تبين الحق كما يحق، فمن شاء اهتدى بها ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى﴾ إيصالاً إلى الحق بعد اهتداء الدلالة ﴿مَن يَشَآءُ﴾ وهو من يشاء الهدى بآياته البينات ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.



﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ
ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ
إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾
أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ
أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾
وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾
وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ
مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ
فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ
وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ
أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ
لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ
وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

ليس الإيمان لعبة يتلهى بها في مقال، إنما هو تكيّف في النفس انطباعاً في القلب، حالاً واقعية تظهر في مقال وفي أعمال، فأما القول - آمنا - فقط فهو لفظ الإيمان دون واقعه، وأما عقد القلب دون ظهور في عمل فهو حال الإيمان ولمّا يستكن في القلب، وإلّا فأين عمل الإيمان؟ فإن له صورة الظاهر كما له سيرة الباطن.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَبِٱلرَّسُولِ﴾ الذي أرسله[1] ﴿وَأَطَعْنَا﴾ الله في محكم كتابه ﴿وَأَطَعْنَا﴾ الرسول فيما أرسل به من سنته الجامعة غير المفرقة، فهم يدعون مثلث الإيمان المستخلص في ثالث أضلاعه: ﴿وَأَطَعْنَا﴾ ولكن ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ بعد تلك المقالة ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الدعوى ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتولون ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث التولي عن طاعة الله والرسول يكذب دعوى الإيمان، فإنما الإيمان هو الطاعة على درجاتها فدرجاته، ثم لا يكون إلّا دعوى الإيمان! بنفاق، أم ارتياب بعد إيمان، أم ضعف في إيمان! ومهما كان ضعيف الإيمان مؤمناً ولكن ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على حد قولهم ﴿. . . وَأَطَعْنَا﴾ حيث عصوا، فلم يقل «بمؤمنين» إذ فيهم قليلو الإيمان! وإنما ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الخصوص في ﴿وَأَطَعْنَا﴾ ومن توليهم عن طاعة الله ورسوله:

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

الرسول ﷺ هو الحاكم بينهم بما أراه الله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ

---

(١) وإنما فصل الرسول بالباء للفصل بين الإيمانين أصالة ورسالة، ولكي لا يظن أنهما في درجة واحدة أم هما واحد، رغم الوحدة في الاتجاه.

﴿بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾[1] وقد أراه الله حكمه بوحي القرآن والسنة، فـ ﴿لِيَحۡكُمَ﴾ المفرد مع سابق ذكر الله ورسوله، يعني حكم الرسول، بالدعوة إلى الله دعوة إلى كتابه، والدعوة إلى الرسول دعوة إلى سنته، والحاكم بالكتاب والسنة بينهم هو الرسول إذ الله لا يوحي إليهم، فـ ﴿إِذَا دُعُوٓاْ . . .﴾ ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ عن حكم الله والرسول الذي يحكم به الرسول، هم معرضون عن حكم الرسول إذ يرون الحق عليهم في ميزان الحق، ثم هم أولاء ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ في قضيتهم ﴿يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ الرسول ﴿مُذۡعِنِينَ﴾ بطاعة الله وصدق الرسول، مذعنين بحكمه، وفي الحق لا يأتون إلى الرسول إذ لا يأتون إلّا إذا وافق حكمُه هواهم! فهم إذا يأتون هواهم، دون هداهم.

وقد أنزل الله هذه الآيات تنديداً بهؤلاء المتولين العصاة فقال الرسول ﷺ: «من كان بينه وبين أخيه شيء فدعاه إلى حكم من حكام المسلمين فلم يجب فهو ظالم لا حق له»[2].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٥.

(٢) الدر المنثور ٥: ٥٤ - أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن قال: إن الرجل كان يكون بينه وبين الرجل خصومة أو منازعة على عهد رسول الله ﷺ فإذا دعي إلى النبي ﷺ وهو محق أذعن وعلم أن النبي ﷺ سيقضي له بالحق وإذا أراد أن يظلم فدعي إلى النبي ﷺ أعرض وقال: انطلق إلى فلان فأنزل الله ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ﴾ [النور: ٤٨] - إلى قوله - ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: ٥٠] فقال رسول الله ﷺ: من كان نبيه . . .

وفيه أخرج الطبراني عن الحسن عن سمرة قال قال رسول الله ﷺ من دعي إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لا حق له، أقول يعني به سلطان المسلمين: من له سلطة شرعية عليهم من حكام الشرع والقضاة أمّن ذا من أجهزة الدولة العادلة الإسلامية إلا إذا تأكد أن هذا السلطان ظالم فالتحاكم إليه تحاكم إلى الطاغوت!.

وفي نور الثقلين ٣: ٦١٥ ح ٢١٠ عن تفسير القمي حدثني ابن أبي عمير عن ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نزلت هذه الآية في أمير المؤمنين عليه السلام وعثمان وذلك أنه كان بينهما منازعة في حديقة فقال أمير المؤمنين عليه السلام نرضى برسول الله ﷺ فقال عبد الرحمن بن=

ولماذا يتولى هذا الفريق فيعرض عن حكم الرسول ﷺ إلّا إذا كان لهم الحق؟:

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

= عوف لا تحاكمه إلى رسول الله ﷺ فإنه يحكم له عليك ولكن حاكمه إلى ابن شيبة اليهودي فقال عثمان لأمير المؤمنين عليه السلام: لا نرضى إلا بابن شيبة اليهودي فقال ابن شيبة لعثمان: تأمنوا رسول الله على وحي السماء وتتهموه في الأحكام؟ فأنزل الله عز وجل على رسوله ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ [النور: ٤٨] - إلى - ﴿الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٥٠] ثم ذكر أمير المؤمنين عليه السلام ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ [النور: ٥١] ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

وفي التفسير الكبير ٢٤: ٢٠، قال مقاتل: نزلت هذه الآية في بشر المنافق وقد خاصم يهودياً في أرض وكان اليهودي يجره إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهما وجعل المنافق يجره إلى كعب ابن الأشرف ويقول: إن محمداً يحيف علينا وقال الضحاك نزلت في المغيرة بن وائل كان بينه وبين علي بن أبي طالب أرض فتقاسما فوقع إلى علي منها ما لا يصيبه الماء إلا بمشقة فقال المغيرة: بعني أرضك فباعها إياه وتقابضا فقيل للمغيرة: أخذت سبخة لا ينالها الماء فقال لعلي عليه السلام: اقبض أرضك فإنما اشتريتها إن رضيتها ولم أرضها فلا ينالها الماء فقال علي عليه السلام: بل اشتريتها ورضيتها وقبضتها وعرفت حالها لا أقبلها منك ودعاه إلى أن يخاصمه إلى رسول الله ﷺ فقال المغيرة: أما محمد فلست آتيه ولا أحاكم إليه فإنه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف علي فنزلت هذه الآية، وقال الحسن: نزلت هذه الآية في المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان ويسرون الكفر.

وفي تفسير الألوسي ١٨: ١٩٤ - أخرج ابن المنذر وغيره عن قتادة انها نزلت في المنافقين وروى عن الحسن نحوه وقيل نزلت في بشر المنافق دعاه يهودي في خصومة بينهما إلى رسول الله ﷺ ودعا هو اليهودي إلى كعب بن الأشرف ثم تحاكما إلى رسول الله ﷺ فحكم لليهودي فلم يرض المنافق بقضائه ﷺ وقال: نتحاكم إلى عمر فلما ذهبا إليه قال له اليهودي: قضى لي النبي ﷺ فلم يرض بقضائه فقال عمر للمنافق: أكذلك؟

فقال: نعم! فقال: مكانكما حتى أخرج إليكما فدخل وخرج بسيفه فضرب عنق ذلك المنافق حتى برد وقال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله تعالى ورسوله فنزلت وروي هذا عن ابن عباس».

أقول: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ...﴾ ﴿وَإِذَا دُعُوا...﴾ [النور: ٤٨] لا يناسب شخصاً واحداً سواء أكان عثمان أو البشر أو المغيرة، فقد تعنيهم الآية وأضرابهم دون اختصاص بشخص دون آخرين.

هذا الترديد التقسيم يقرر موقف ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم...﴾ ﴿دُعُوٓاْ﴾ أنهم جماعة بين من ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نفاقاً كبشر المنافق، أو غير نفاق حيث نفي عنهم ذلك الإيمان، المناسب لنفاق خلواً عن أي إيمان، أم إيمان ناقص، وقد ردف المنافقون بالذين في قلوبهم مرض فهم أخص منهم ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ...﴾[1] ومن ﴿ٱرْتَابُوٓاْ﴾ بعد الإيمان كمالغيرة ابن وائل، ومن ﴿يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وله بعض الإيمان كمن لا نسمّيه.

فالمتولي عن حكم الرسول المعرض عنه بعد دعوى الإيمان والطاعة ليس إلّا منافقاً في قلبه مرض، أم مرتاباً بعد إيمان، أم قليل الإيمان حيث يخاف أن يحيف الله عليه ورسوله ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾ ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بحق الإيمان المدّعى منافقاً، وبحق الإيمان الكائن مرتاباً بعده، وبحق الإيمان الباقي خائفاً حيف الله ورسوله نقصاً في الإيمان، وهم الظالمون بحق الرسول ﷺ وبحق مَن نازعوه في حقهم، ولم يرضوا بحكم الرسول حيث يحكم بالعدل!

و«بل» هنا إعراض عن توليهم الإعراض بمثلث الأعراض التي حالت دون الطاعة لرسول الهدى، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يعني - فقط - المعرضين، لا كل الذين يَقُولُونَ ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ فمنهم الصادقون الصالحون، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ لا كلهم فلا يعمهم مثلث التنديد و﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾!

لقد كانوا على علم ألا يحيف الله ورسوله عليهم ولا يحيد عن الحكم الحق فيهم، إذ لا ينحرف الرسول مع الهوى حتى ينجرف ويتردى، إن كانوا مؤمنين، ولكنهم لمرض في قلوبهم: نفاقاً أم ضعف الإيمان، أو ارتياب بعد الإيمان، خافوا أن يحيف الله عليهم ورسوله، بل ليس هذا أو ذاك سبباً لخوف الحيف ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾!

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٠.

فـ «بل» هذه إعراض في وجهيه، إلى سبب واحد هو الظلم، سواءٌ أكان في قلوبهم مرض أو ارتياب أو خوف أم لم يكن، فحتى المشرك بالله لا يعرض عن حكم الله خوف الحيف فضلاً عن الموحِّد مهما كان منافقاً أمن ذا؟ فإنما هو الظلم الكامن في قلوبهم يدفعهم إلى الإعراض عن حكم الله!

ترى أليست هذه الثلاث من الظلم حتى يعرض عن سببيتها إلى الظلم؟ علّه يعني أعمق الظلم وأحمقه، أنهم خلواً من هذه الثلاث يعرضون عن حكم الله ظالمين، تعدياً عن طور الإيمان المدّعى، وأنهم على واحدة من هذه الثلاث ظالمون فإن الكل ظلم، فإنما الظلم لا سواه هنا وهناك يدفعهم إلى الإعراض عن حكم الله! فلا حكم إلا لله أصالة وإلّا لرسول الله رِسالة، والتحاكم إلى غير حاكم الله تحاكم إلى الطاغوت أياً كان، وإن مدعياً للإسلام يتردى رداءه ويتحكم أُمته! ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾[1]!

إن حَكَم الله بحكمه فهو الوحيد البريء عن خوفة الحيف، لأنه العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة، وخلقه في ميزان عدله سواء، وليس في شرعته إلّا سيادة القانون الحق دون سائر السادة، وقيادة القانون الحق دون سائر القادة، ولا حماية ولا مصلحية إلّا العدالة المطلقة التي لا يسطع لها إلا الله.

فإذا كان الله هو العدل حقاً، فالذي يحيد عن حكم الله إلى سواه هو الظالم حقاً ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وليس الله وليس رسول الله، ولا كل من يحكم بحكم الله، فإنما هم المعرضون عن حكم الله!

قضية الإيمان الصادق ألّا يقدَّم بين يدي الله ورسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[2] فالمقدّمون بين يدي الله ورسوله هم

(١) سورة النساء، الآية: ٦٠.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١.

المنافقون مسلمين كانوا أم سواهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[1] فالمنافقون كما الكافرون ملة واحدة وأما المؤمنون:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

إنما السمع والطاعة بعد القول ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ هو قاعدة الإيمان وفائدته، فعند تقلب الأحوال يعرف جواهر الرجال، وعند الامتحان يكرم المرءُ أو يهان.

فالقول «آمنا. . .» هو قولة الإيمان صورة لفظية، وعقد القلب به هو صورته المعنوية ولمّا يصل إلى سيرته، فـ - ﴿إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ هنا تتبين سيرة الإيمان بسريرته: ﴿أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ عملياً في تجربة الإيمان، بعد فلاحهم في حال ومقال!

ثم لا يفوز بفلاحه هذا بعد القول: سمعاً وطاعة، إلّا بمثلث الطاعة الخشية التقوى: ١ - ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، ٢ - ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾، ٣ - ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ - ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾!

فالخطوة الأولى هي الفلاح: شق الطريق الصعبة الملتوية إلى المقصود، ثم الثانية هي الفوز: الظفر بالخير مع حصول السلامة دنياً وعقبى، فالقول: سمعنا وأطعنا إفلاح تعبيداً للطريق، وطاعة الله ورسوله وخشية الله وتقوى الله، هي اجتياز بسلامة إلى الخير المقصود، كما الفلّاح يفلح الأرض شقاً وإعداداً للبذر، ثم يبذر بسلامة ويحصد، إفلاحاً ففوزاً تلو بعض!

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٣.

وهكذا نرى آيات الإفلاح والفوز أن الثاني بعد الأوّل ومن مخلفاته: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[١] ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[٢] فالزحزحة عن النار إفلاح وتسوية للطريق إلى الجنة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٣] وعلّ «ذلك» هو الرضوان أم هو الكل، وكل ذلك فوز نتيجة الإفلاح ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٤].

وأما الإفلاح فهو التعبيد لطريق الفور ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[٥] والتحلية هي بعد التزكية ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَٰٓأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٦] ﴿وَتُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٧].

هنالك «كان» في قول المؤمنين ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ تضرب إلى عمق الماضي تلميحاً أن ذلك قضية الإيمان بطبيعته، فالمتخلف عنه متخلف عن الإيمان الصالح مهما كان له إيمان! ثم ﴿وَإِذَا دُعُوٓا...﴾ تعم دعوة أحد المتنازعين، أم أي داع إلى الله، أو داعي الله أو داعي رسول الله، ثم الطاعة - وهي واقعها - بعد القول ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ومن ثمّ الخشية مع الطاعة ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ تحكيماً لرباط الطاعة، وأخيراً «ويتقه» تقوى في الطاعة الخشية والخشية الطاعة، أن تستخلص في الله دون سواه، هذه الثلاث زادٌ فائز صالح في الطريق الفالح، اللهم اجعلنا من المفلحين الفائزين.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٧٢.
(٤) سورة الصف، الآية: ١٢.
(٥) سورة الشمس، الآية: ٩.
(٦) سورة المائدة، الآية: ١٠٠.
(٧) سورة النور، الآية: ٣١.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ مبلغ ﴿جَهْدَ﴾ هم في ﴿أَيْمَانِهِمْ﴾ فلم يتركوا صيغة بالغة في القسم مبالغة إلّا أقسموا بها: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ من أموالهم[1] وإلى الجهاد في سبيل الله، خروجاً مفروضاً.

﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾ فلا حاجة إلى إقسام بأيٍّ من الأقسام، فيما لكم سبيل إلى تطبيقه دون إقسام، فإنما الواجب عليكم ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ لدى الجميع، معروفة في الكتاب والسنة لا تحتاج في توكيدها إلى إقسام ولا في تطبيقها إلى أمر بعد أنّ أمرها معروف، ثم لتكن معروفة لا منكرة كما ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ...﴾[2] ولكن طاعتكم معروفة لدينا أنها منكرة، إن تركتموها حيث لا تخرجون رغم ما تعدون، أم أطعتم على غير الوجه الذي تؤمرون، إذ لا تزيدون في الخروج إلّا خبالاً ووبالاً:

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾[3].

---

(١) الدر المنثور ٥: ٥٤ - أخراج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أتى قوم النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله لو أمرتنا أن نخرج من أموالنا لخرجنا فأنزل الله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ...﴾.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨١.

(٣) سورة التوبة، الآيات: ٤٤-٤٧.

فمثلث المعنى من ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ هنا معنية، وما ألطفها تعبيراً آمراً ناهياً ساخراً متهكما متحكماً! فـ ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ عن المنافقين محرمة، و﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ لدى المؤمنين واجبة قدر المستطاع وإلى حد الكمال في خروج المهدي عليه السلام لحد «يصبح أحدكم وتحت رأسه صحيفة عليها مكتوب ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾[1]».

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾:

هنا يؤمر الرسول أن يأمر بطاعة الله - طبعاً في كتابه - وبطاعة الرسول - طبعاً في سنته وفي أحكامه الرسالية، ولم يقل «وأطيعوني» حيث لا يطرح نفسه مطرح الطاعة إلّا كرسول، ويفصل طاعته عن طاعته وهما واحد، إشعاراً بأصالة الأولى ورسالة الثانية، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[2].

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن طاعة الله أو طاعة الرسول أو طاعتهما ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ من تبليغ رسالته ودلالته البالغة حسب المستطاع، فـ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾[3] وصولاً إلى الحق ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4] وليس عليه وزرهم إن تولوا ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾[5] ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[6].

---

(١) نور الثقلين ٣: ٦١٦ ح ٢١٣ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى عبد الله بن عجلان.
قال: ذكرنا خروج القائم عليه السلام عند أبي عبد الله فقلت له: وكيف لنا أن نعلم ذلك؟ فقال: يصبح أحدكم...
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٧٢.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٥٢.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ من طاعة الله والرسول بدلالته ﷺ وما حمِّلتم من أوزاركم إن عصيتم، أترى إذا تأمّر على المسلمين من يعصي الله فهل يحاسب المؤمَّر عليهم بحسابه أو يحاسب بحسابهم؟ كلّا، فعليه ما حمّل من العدل، وعليه الوزر إن ترك العدل، كما عليهم ما حمّلوا من طاعة في العدل ومن تخلف في الظلم، فلا يجوز الاصطبار على الإمرة الظالمة إلّا تقية، أو هجمة قاضية وكما أجمله الرسول ﷺ بلفظ الآية حين سئل:

«أرأيت إن كان علينا أمراء من بعدك يأخذونا بالحق الذي علينا ويمنعونا الحق الذي جعله الله لنا نقاتلهم ونبغضهم؟ فقال ﷺ: عليهم ما حمّلوا وعليكم ما حمّلتم[1] ولقد حمِّلت الرعية طاعة رعاتها في الحق وعصيانها في غير حق، ولكنما الرسول لا يأتي إلا بالحق! ويقول الرسول ﷺ: «يا معاشر قراء القرآن اتقوا الله عز وجل فيما حملكم من كتابه فإني مسؤول وإنكم مسؤولون، إني مسؤول عن تبليغ الرسالة وأما أنتم فتسألون عما حملتم من كتاب الله وسنتي»[2].

ولقد «أدى ما حمل من أثقال النبوة»[3] فعلينا أن نؤدي ما حمِّلنا من أثقال السمع والطاعة والدعوة.

ولقد فصل خليفة الرسول ﷺ ما أجمله هو بقوله: «قد جعل الله لي

---

(١) الدر المنثور ٥: ٥٤ - أخرج ابن جرير وابن مانع والطبراني عن علقمة بن وائل الحضرمي عن سلمة بن يزيد الجهني قال قلت: يا رسول الله أرأيت... وعن جابر سئل إن كان علي إمام فاجر فلقيت معه أهل ضلالة أقاتل أم لا ليس بي حبه ولا مظاهرة قال قاتل أهل الضلالة أينما وجدتهم وعلى الإمام ما حمّل وعليك ما حمّلت، وفيه أخرج البخاري في تاريخه عن وائل أنه قال للنبي ﷺ إن كان علينا أمراء يعملون بغير طاعة الله تعالى؟ فقال: عليهم ما حمِّلوا وعليكم ما حمِّلتم.

(٢) نور الثقلين ٣: ٦١٦ ح ٢١٥ عن أصول الكافي بإسناد عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ...

(٣) المصدر ح ٢١٥ في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في خطبة طويلة في وصف النبي ﷺ وفيها «وأدى...

عليكم حقاً بولاية أمركم ولكم عليّ من الحق مثل الذي لي عليكم، فالحق أوسع الأشياء في التواصف وأضيقها في التناصف، لا يجري لأحد إلّا جرى عليه، ولا يجري عليه إلّا جرى له، ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلقه، لقدرته على عباده، ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه، ولكنه جعل حقه على العباد أن يطيعوه وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلاً منه وتوسعاً بما هو من المزيد أهله، وأعظم ما افترض الله سبحانه من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي، فريضة فرضها الله سبحانه لكلّ على كلٍّ، فجعلها نظاماً لألفتهم وعزاً لدينهم.

فليست تصلح الرعية إلّا بصلاح الولاة، ولا تصلح الولاة إلّا باستقامة الرعية، فإذا أدّت الرعية إلى الوالي حقه وأدى الوالي إليها حقها عز الحق بينهم وقامت مناهج الدين واعتدلت معالم العدل وجرت على أذلالها السنن فصلح بذلك الزمان وطُمع في بقاء الدولة ويئست مطامع الأعداء.

وإذا غلبت الرعية واليها أو أجحف الوالي برعيته اختلفت هنالك الكلمة وظهرت معالم الجور وكثر الإدغال في الدين وتركت مناهج السنن فعمل بالهوى وعطّلت الأحكام.

وإن من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس أن يظن بهم حب الفخر ويوضع أمرهم على الكبر، وقد كرهت أن يكون جال في ظنهم أني أحب الإطراء واستماع الثناء، ولست بحمد الله كذلك، ولو كنت أحب أن يقال ذلك لكرهته انحطاطاً لله سبحانه عن تناول ما هو أحق به من العظمة والكبرياء وربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء فلا تثنوا عليّ بجميل ثناء لإخراج نفسي إلى الله وإليكم من التقية في حقوق لم أفرغ من أدائها وفرائض لا بد من إمضائها، فلا تكلموني بما تُكلَّم به الجبابرة ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالاً في حق قيل

لي، ولا التماس إعظام لنفسي، فإنه من استثقل الحق أن يقال له، أو العدل أن يعرض عليه، كان العمل بهما أثقل عليه، فلا تكفّوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل فإني لست في نفسي بفوق أن أخطىء ولا آمن ذلك من فعلي إلّا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني، فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره، يملك منا ما نملك من أنفسنا وأخرجنا مما كنا فيه إلى ما صلحنا عليه، فأبدلنا الله بعد الضلالة بالهدى وأعطانا البصيرة بعد العمى»[1].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

نرى إجمالاً من هذا الوعد الصدق في آية مكية حينما الأخطار حادقة والأشرار مسيطرة على عاصمة التوحيد، فدين الله في تقية والديّنون في تخوّف لا يأمنون على أنفسهم شيئاً، والمشركون مسيطرون على بيت الله وعاصمة الإسلام، نراها تعد المضطرين المستضعفين الداعين خلافة الأرض: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[2] ولكنهم ما لمسوا في العهد المكي طرفاً من ذلك الوعد!

ثم نرى في هذه المدينة تفصيلاً لذلك الوعد، علّه يشير إلى الوعد المكي ﴿وَعَدَ﴾ على تبدّل لـ ﴿ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ بـ «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» وفيهما لمحة باهرة أن اضطرار المؤمنين العاملين الصالحات ينتهي إلى خلافة الأرض شرط ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾ لا فقط في المقال، فإنه واقع لهم

---

(١) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه.
(٢) سورة النحل، الآية: ٦١.

على أية حال دون واقع لوعدهم، بل وفي الحال والأعمال أن يصبحوا دعاة: إيماناً حركياً وعملاً صالحاً حركياً يزعزع عروش الضلالة ويتبنى عرش الحكم الحق، فاستخلافاً لهم في الأرض، وتمكيناً للدين المرتضى وأمناً بعد الخوف، وعبادة لله خالصة دون إشراك.

ذلك هو الإيمان النشيط البنّاء إذ يستغرق النشاطات الإنسانية بأسرها، إخراجاً لها عن أسرها وحصرها، وتحريراً لها، إعلاناً وإذاعة شاملة في مختلف صور الأعمال، جهاداً في سبيل الله، وتحقيقاً لخلافة الله على الأرض، دون إبقاءٍ على ما تهوى الأنفس إلّا هواه، متجهاً بكله إلى الله: بميول الفطرة - أشواق القلب - لفتات الروح قضاء على كافة الفلتات.

لقد قضى المسلمون الأولون عهدي الرسول ﷺ مكياً ومدنياً في تخوف واضطراب واضطرار، تصبّراً على كل أذىً ولظى في مكة، وخائفين في المدينة «يُمسون في السلاح ويصبحون في السلاح فصبروا على ذلك ما شاء الله ثم إن رجلاً من الصحابة قال: يا رسول الله! أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح؟ فقال رسول الله ﷺ: «لن تصبروا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم ليست فيه حديدة»! وأنزل الله هذه الآية فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فأمنوا ووضعوا فيه السلاح[1]. ولما نزلت قال ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسنا

(١) الدر المنثور ٥: ٥٥ - أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده وعبادته وحده لا شريك له سراً وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة فقدموا المدينة فأمرهم الله بالقتال وكانوا بها خائفين يمسون...

وفيه أخرج ابن المنذر والطبراني في الأوسط والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل والضياء في المختارة عن أبي بن كعب قال لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة فكانوا لا يبيتون إلّا في السلاح ولا يصبحون إلا فيه فقالوا: أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله فنزلت...

والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب»[1].

فهل الآية تعني - فقط - تلك الفترة القصيرة بعد فتح مكة حيث وضعوا السلاح وأمنوا في الجزيرة العربية؟ وهي واعدة استخلافهم في الأرض، لا - فقط - في أرض الجزيرة!

إنها تعنيها فيما تعنيه من خلافة المؤمنين على درجاتها، وتشهد له ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إذ لم تسبق في الأرض كلها خلافة وسلطة إيمانية إلّا زمن النبيين داود وسليمان ولم تشمل كل المعمورة، وخلافة ذي القرنين كذلك الأمر!

خلافة الإيمان وسلطته على أرض فضلاً عن الأرض تتطلب شروطاً ليست هي - فقط - الإيمان وعمل الصالحات، بل هي بشروطهما وشروط آفاقية لا تتحقق إلّا بشرطي صلوح الإيمان والعمل الصالح الحركيين، وإجابة إلهية لهؤلاء المضطرين، ولا ظرف صالحاً لهذه الإجابة إلّا اكتمالاً في عِدة وعُدة لكتلة الإيمان: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[2]!

إن وعد الله مذخور لكل قائم على شروط الإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة إلى يوم القيامة، وإنما يبطئ النصر والاستخلاف والأمن والتمكين في الأرض لتخلُّف شرط أو شروط في جانب من جنباته الفسيحة، أو في تكليف من تكاليفه الضخمة حتى إذا انتفعت الأمة بالبلاء وجازت الابتلاء وتطلبت مضطرة إلى الله - بعد توفية الشروط - فهنالك الإجابة التامة «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» تحقيقاً لمربع الوعد كقوائم أربع لعرش الحكومة الإسلامية العالمية!

---

(١) الدر المنثور ٥ : ٥٥ - أخرج أحمد وابن مردويه واللفظ له والبيهقي في الدلائل عن أبي بن كعب قال: لما نزلت على النبي ﷺ وعد الله الذين آمنوا... قال: بشر...

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.

ليس على الذين آمنوا إلّا ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾: على القادة المسلمين ما حمّلوا وعلى المسلمين ما حمّلوا، فإذا تحمل كلٌّ ما حمّل من فرائض الإيمان، فهنالك يتحقق النصر بإذن الله وخسر هنالك المبطلون.

إن إرادة الله في وعده - هذه - المؤمنين، دائبة طيلة الرسالات وكتلات الإيمان: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾[1].

ولكنما المصداق الأهم والأتم لذلك الوعد إنما يتم ويطمُّ في الأمة الإسلامية كما تعنيهم آية النور هذه وآية الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ۝١٠٦ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾[2] وآية الأعراف ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3].

في طيّات الرسالات الإلّهية انتصارات بدرجاتها للمؤمنين حسب الفاعليات والقابليات، ولكنما الخلافة المطلقة في الأرض للذين آمنوا وعملوا الصالحات، ووراثتها وسلطتها وتحقيق أمنها وزوال خوفها بتمكين الدين المرتضى لم يتحقق لحد الآن، اللّهم إلّا في مستقبل منير حيث يقوم حفيد البشير النذير، فيحقق بالمؤمنين معه الصالحين البغية القصوى لهذه الرسالة والرحمة العالمية، فهنالك الحياة ﴿ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[4] مهما كانت حياة السلطة قبلها لغير المتقين، وهنالك تتحقق رحمة الرسول محمد

(١) سورة القصص، الآيتان: ٥، ٦.
(٢) سورة الأنبياء، الآيات: ١٠٥-١٠٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.
(٤) سورة هود، الآية: ٤٩.

للعالمين في شاسعة عالم التكليف، وهنالك يرث الأرض عباد الله الصالحون، وهنالك تتم إرادة المن الشامل على الذين استضعفوا في الأرض وتطم حين يجعلهم أئمة الأرض ويجعلهم الوارثين!

إن المصداق الصادق المكين الأمين لذلك الوعد ليس إلّا في ذلك المستقبل المنير وكما استفاضت الرواية فيه عن الرسول ﷺ وعترته الطاهرين.

لقد ثبت عن الرسول ﷺ قوله: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يلي رجل من عترتي اسمه اسمي يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً».

والخليفة عمر لما يستشير الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لانطلاقه لقتال أهل الفارس حين تجمعوا للحرب يقول له: «إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقلة وهو دين الله الذي أظهره وجنده الذي أعزه وأيده حتى بلغ ما بلغ وطلع حيث طلع ونحن على موعود من الله تعالى حيث قال عز اسمه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ...﴾[1]».

إن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ ليسوا هم - فقط - مؤمني زمن الرسول ﷺ ولا - فقط - الرسول ﷺ وخلفاؤه المعصومون عليهم السلام فضلاً عن سواهم، فإن عموم اللفظ يأبى الاختصاص! والتعبير عن الرسول ﷺ

(١) نقله في نهج البلاغة عنه عليه السلام وتمامه بعد الآية: والله منجز وعده وناصر جنده ومكان القيّم في الإسلام مكان النظام من الحرز فإن انقطع النظام تفرق وربّ متفرق لم يجتمع والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع فكن قطباً واستدر الرحى بالعرب واصلهم دونك نار الحرب فإنك إن شخصت من هذه الأرض تنقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهمّ إليك مما بين يديك وكان قد آن للأعاجم أن ينظروا إليك غداً يقولون: هذا أصل العرب فإذا قطعتموه استرحم فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك وطمعهم فيك، فأما ما ذكرت من عددهم فانا لم نقاتل فيما مضى بالكثرة وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة.

وذويه يفوق هكذا تعبير! وهكذا جزاء لكامل الإيمان والعمل الصالح يعم كتلة الإيمان أياً كان وأيان، فالوعد إذاً يعم المجموعة المؤمنة[1] لا المسلمين أجمع، فإن ﴿مِنكُمْ﴾ تبعّض المخاطبين المسلمين إلى «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» وسواهم، آمن ولم يعمل كما يصلح، أو عمل ولم يؤمن كما يصلح، أو ترك حقهما إلى ضآلة لا تتحرك أماذا؟

هذه المجموعة الصالحة لوراثة الأرض ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾[2] ولخلافة الأرض ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ...﴾ بمن يقودهم من الرسول وعترته المعصومين، ومن حذى حذوهم من الولاة الصالحين، هم جميعهم لا بد لهم من يوم تتحقق فيهم هذه الوعود الأربعة، ففيه رجعة من محّض الإيمان محضاً، ورجعة هؤلاء الأكارم لتحقيق القواعد الأربع لعرش الخلافة الإسلامية الكبرى:

١ - ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أترى ما هذه الخلافة؟ أهي خلافة الله فيها، أن يخلفوا الله في أرضه؟ ولا خليفة لله بهذا المعنى ولا نائب ينوبه فإنه دائب في ربوبيته في سماواته وأرضه! ولا بد بين الخليفة والمستخلف عنه من مسانخة في ذات وصفات وأفعال، فيخلفه في شأن من شؤونه إذا مات أو عجز أو انعزل أو عزل نفسه، ولا مسانخة بين الله وخلقه على أية حال، ولا عزل أو انعزال لشأن من شؤون الألوهية حتى تصح الخلافة عنه لأيّ كان!

أم خلافة النبوة أو الإمامة إذ يقرر الله كلاً منهما لخلف بعد سلفه، فكل

---

(١) ملحقات إحقاق الحق ١٣ : ٣٢٨ في تفسير العياشي أن علي بن الحسين قرأ آية ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥] قال: والله هم محبون أهل البيت يفعل الله ذلك بهم على يد رجل منا وهو مهدي هذه الأمة، وفيه عن إسحاق بن عبد الله عن الإمام زين العابدين عليه السلام قال: هذه الآية نزلت في القائم المهدي عليه السلام وفيه عن العلامة الشيخ هاشم بن سليمان في المحجة على ما في الينابيع ص ٤٢٥ ط إسلامبول وروي عن الباقر والصادق عليهما السلام أنها نزلت في القائم وأصحابه.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

رسول خليفة الله إذ جعله الله خليفة مَن سبقه، وكل إمام خليفة الله كذلك؟ وليس المؤمنون الموعودون خلفاء الله بهذا المعنى إلّا الرسول والأئمة المعصومون أصالة، والولاة الصالحون تحت إمرتهم! ولم تكن للرسل السابقين هذه السلطة العالمية حتى يخلفهم الرسول وعترته المعصومون!

إنها خلافة الأرض عمن سيطروا عليها طول الزمان وعرض المكان من سلطات الجور وولاته، سلباً لهذه السلطات الزور والغرور، وإثباتاً للسلطة الإيمانية للذين آمنوا وعملوا الصالحات كلٌّ على قدره وحدّه:

فقيادة الرسول مكان مناوئي الرسالة، وقيادة الأئمة من آل الرسول مكان المغتصبين طول حياتهم وزمن الغيبة، وسائر القيادات والمكانات لسائر المؤمنين الصالحين مكان سواهم، فلا تبقى سلطة جائرة إلّا ويخلفها سلطة عادلة، فالمؤمنون - إذاً - كلهم مستخلفون عمن سواهم، وكما هم يرثون الأرض عمن سواهم ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ فلا يبقى دور ولا كور إلّا للصالحين، حسب القابليات والفاعليات، وحسب الضوابط دون الروابط، فالإمام المهدي عليه السلام بمن معه من أصحابه الخصوص والعموم من الثلاثمائة وثلاثة عشر، ومن العشرة آلاف ومن سائر الصالحين معه، يستخلفهم الله في الأرض على درجاتهم وقابلياتهم لخلافة الأرض، فالمهدي يخلف كل زعماء التاريخ، وأصحاب ألويته يخلفون سائر أصحاب الألوية في التاريخ، وجنوده يخلفون كل الجنود في التاريخ، وكل ذي منصب حتى زمن المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف يخلف مثيله الباطل في سائر الزمن.

وهل ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ تنظير لهم بمن قبلهم على سواء؟ ولم تسبق خلافة إيمانية عالمية قبلهم! إنه لا يعني إلّا أصل الخلافة دون قدرها، فكما كان للذين آمنوا وعملوا الصالحات من قبلهم دور الخلافة الإيمانية، كذلك تكون لهم، وأين خلافة من خلافة؟

٢ - ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ دينهم المرتضى لهم هو الإسلام: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾[١] وتمكين الدين لا نراه إلّا هنا دون سائر القرآن لسائر الأمم، فدين الله كله تام مكين ولكنما التمكين يعني تثبيته دون تزعزع، لا في أصله نسخاً أو تحريفاً، ولا في سلطته وتطبيقه، فمن مخلفات ذلك الاستخلاف للذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات، تمكين دينهم المرتضى لهم ليحكموا به صارماً قاطعاً ثابتاً لا يتخلف ولا يُتخلف عنه.

وكما مطلق الاستخلاف في الأرض يقتضي الاستخلاف المطلق دون سلطة أخرى أمامه، كذلك تمكين الدين، لحد لا يبقى سواه دين، وكما وعده الرسول الأمين: ﴿هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[٢] ﴿. . . وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[٣] فعند ذلك ترتفع فتنة الاختلاف في الدين وكل فتنة ولكنه بحاجة إلى جهاد ودفاع صارم ومقاتلة دائمة: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾[٤] وعند ذلك يكون ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾[٥] ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُۚ﴾[٦] وهنالك يقام الدين دون تفرّق عنه ولا فيه: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ﴾[٧].

٣ - ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ﴾ أمنٌ صارم بعد خوف عارم، وتقية دائمة طول الرسالات الإلٓهية، فبعد خوف دائب على دين الله والديّنين، داخل المجموعة المؤمنة من جهل أو فسق أو نفاق وأي خلاف وتخلف هو لزام كل أمة، وخارج المجموعة المؤمنة من الذين يتربصون بهم دوائر

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٣.
(٣) سورة النساء، الآية: ٧٩.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٣٩.
(٥) سورة النحل، الآية: ٥٢.
(٦) سورة الزمر، الآية: ٣.
(٧) سورة الشورى، الآية: ١٣.

السوء، نرى أمناً خالصاً لا خوف فيه، حيث الخلافة الوحيدة الإيمانية، والدين الممكّن المرتضى، ضيّقاً كلّ مجالة من مجالات التقية والتخوف، فهنالك تزول التقية إلى مجالات التقوى المطلقة، فلا عذر لأي عاذر في تخلُّفه عن دين الله، من جهل حيث العلم يحلّق على الأجواء، ومن خوف وتقية أمّاذا من علل يِلجأ إليها العاذرون!

هنالك يتبدل خوف الإيمان إلى أمنه، أمن الإيمان وخوف اللّاإيمان، ولا نجد الأمن المطلق إلى تمكين للدين مطلق وإلى استخلاف في الأرض مطلق إلّا هنا دون سائر القرآن وسائر الأمم!

٤ - ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ عبادة خالصة لله ليس فيها أية شائبة من أي شركٍ، رغم سائر العصور إذ ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾[1] فمهما كان هناك ضروب من الشرك قصوراً أو تقصيراً، اختياراً أو اضطراراً في عصور التقية، فلا شرك في ذلك العصر المنير، لا في حكم الله إذ لا حاكم إلا كتاب الله، ولا في عبادة الله ولا أي تخضّع إلّا لله وفي الله، توحيداً صارماً يحلِّق على كافة الجنبات وكافة الأجواء بمثلث الخلافة التمكين الأمن المطلقة!...
﴿وَمَن كَفَرَ﴾ كفراناً ففسقاً، أو نكراناً فكفراً، وأعلام الحق ظاهرة، وسلطته قاهرة! فـ ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ عن خالص التوحيد إلى سواه ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ الحكم الإلَهي الوطيد الوحيد بزوال كل سلطة وكل دين وكل خوفة حين لا تبقى تقية ولا أية عاذرة في التخلف عن خالص التوحيد - ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله، وبواعث خالص الإيمان كائنة، ودوافعه زائلة، وآيات الله بينة! فسق عارم لا يبرره أو يخفف عن وطأته أي مبرر، فهو الدرك الأسفل من الفسق.

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

فالناس إذاً بين مؤمن مخلص وهم الأكثرية الساحقة المطلقة حينذاك، وبين فاسق أو كافر وهم القلة القليلة لا يقدرون على شيء من الإفساد وتكدير الجوّ، إلّا تقية عن خلافة الإيمان!

نرى كلًّا من الوعود الثلاثة الأول في بعدين من التأكيد: لام التأكيد ونون التأكيد، ناحية منحى سيادة الدين الحق ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ وعُود أربعة منقطعة النظير في تاريخ الرسالات، فمهما شاركهم في استخلافهم في الأرض الذين من قبلهم في أصله، فلا مشاركة في الثلاثة الباقية، وهذه الأربعة هي قواعد عرش الخلافة الإسلامية آخر الزمن بقيادة القائم المهدي من آل محمد عليهم آلاف الصلوات والتحية! وعلى حد قول الرسول ﷺ: «زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي منها»[1] فـ «لا يبقى على الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز أو ذل ذليل إما أن يعزهم الله فيجعلهم من أهلها وإما أن يذلهم فيدينون بها»[2].

ذلك اليوم ليس من أيام الرسول ﷺ ولا أيام علي عليه السلام فضلاً عن الثلاثة[3] وأنما هو يوم المهدي المنتظر المنتصر حيث «يظهر الله دين نبيه

---

(١) نور الثقلين ٣: ٦٢١ ح ٢٢٧ في جوامع الجامع قال ﷺ زويت... (أي جمعت...).

(٢) المصدر فيه روى المقداد عنه ﷺ قال:...

(٣) المصدر ص ١٦٧ ح ٢١٩ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سدير الصيرفي عند أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل يذكر فيه إبطاء نوح وسببه ويقول فيه: «وكذلك القائم فإنه تمتد أيام غيبته فيصرح الحق عن محضه ويصفو الإيمان من الكدر بارتداد من كانت طينته خبيثة من الشيعة الذين يختص عليهم النفاق إذا أحسوا بالاستخلاف والتمكين والأمر المنتشر في عهد القائم قال الفضل: فقلت يا بن رسول الله ﷺ فإن هذه النواصب تزعم أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي عليه السلام فقال: لا يهدي الله قلوب الناصبة متى كان الدين الذي ارتضاه الله ورسوله متمكناً بانتشار الأمر في الأمة وذهاب الخوف من قلوبها وارتفاع الشك من صدورها في عهد واحد من هؤلاء وفي عهد علي عليه السلام مع ارتداد المسلمين والفتن التي كانت تثور في أيامهم والحروب التي كانت تنسب إليهم بين الكفار وبينهم.

على يديه على الدين كله ولو كره المشركون»[١] وهل يوجد في ذلك اليوم غير من أسلم؟ آيتا الإلقاء والإغراء[٢] تثبتان تداوم العداوة والبغضاء بين اليهود والنصارى إلى يوم القيامة، إذاً فهم موجودون يوم القائم دون سلطة، فإنهم - إذاً - تحت السلطة الإسلامية، لا دور لهم إلا حالة الذمة والتقية، وهالة الذلة العارمة.

ولا تدلنا آية الوعد إلّا إلى سلطة عالمية إيمانية، دون زوال الكفر عن آخره، وإنما زوال سلطته، فما دام الإختيار باقياً ودوافع الشهوات آفاقية وأنفسية باقية، ثم لا حمل وتسير على الهدى، لا يعقل اجتماع الناس جميعاً على الهدى ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ. . .﴾[٣] استحالة الجمع، إذ ليس الله ليحملهم على الهدى، ثم هم لا يهتدون جميعاً ما دامت عوامل الضلالة باقية، مهما شملت عوامل الهداية الباهرة مشارق الأرض ومغاربها.

---

(١) المصدر ح ٢٢١ في كتاب الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه. . . ويقترب الوعد الحق الذي بينه الله في كتابه بقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ. . .﴾ [المائدة: ٩] وذلك إذا لم يبق من الإسلام إلا اسمه ومن القرآن إلا رسمه وغاب صاحب الأمر بإيضاح العذر له في ذلك لاشتمال الفتنة على القلوب حتى يكون أقرب الناس إليه أشد عداوة له وعند ذلك يؤيده الله بجنود لم تروها ويظهر دين نبيه». . .

وفي ملحقات الإحقاق ١٤: ٤٧٣ عن ابن حيان الأصفهاني في أخلاق النبي ٢٠٧ قال أبو بكر ابن مؤمن الشيرازي في رسالة الاعتقاد عن عبد الله بن مسعود قال: اختص الولاية في القرآن بثلاث - إلى قوله - وبعلي حيث قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. . . يعني آدم وداود ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ يعني الإسلام ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ يعني أهل مكة أمناً في المدينة ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ يعني بولاية علي بن أبي طالب وخلافته ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ١: ٤١٢ بإسناده عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعن القاسم بن عوف قال سمعت عبد الله بن محمد يقول: هي لنا أهل البيت.

(٢) هما قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ٦٤] ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٣٥.

«اللّهم وضاعف صلواتك ورحمتك وبركاتك على عترة نبيك العترة الضائعة الخائفة المستذلة، بقية الشجرة الطيبة الزاكية المباركة، واعل كلمتهم وافلح حجتهم، واكشف البلاء واللّأواء وحنادس الأباطيل والغم عنهم وثبت قلوب شيعتهم وحزبك على طاعتهم ونصرتهم وموالاتهم، وأعنهم وامنحهم الصبر على الأذى فيك، واجعل لهم أياماً مشهودة وأوقاتاً محمودة مسعودة توشك منها فرجهم، توجب فيها تمكينهم ونصرتهم، كما ضمنت لأوليائك في كتابك المنزل فإنك قلت وقولك الحق: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾[1] وهنالك بشارات في كتابات النبيين بشأن الوعود الأربعة تحقيقاً في القائم المهدي عليه السلام مذكورة بميّزاته الخاصة ودولته المباركة، سردناها في «رسول الإسلام في الكتب السماوية»[2] وإليكم منها نماذج عدة:

في كتاب صفيناه ٣: ٩ عن الأصل العبراني «كي آزْ إهبُوخْ إلْ عَميم سافاهْ بَرورا لِيَقروا كولام بِشِمْ يِهُواه لَعابْدُوا شِخِمْ إحادْ».

٩ - «لأني أجعل للشعوب شفة نقية ليدعو جميعهم باسم الرب وليعبدوه بكتف واحد».

ولم يأت حتى الآن هكذا دور تجمع فيه الأمم على عبادة الله، إلّا في ذلك المستقبل المشرق حيث ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[3]!

ومثله ما في أشعياء ٤٥: ٢٢ - ٢٣ عن الأصل العبراني: «بَنوُ إلَى

(١) في مصباح شيخ الطائفة من زيارة الحسين المروية عن أبي عبد الله عليه السلام.
(٢) ص ٢٠٥ - ٢٥٨، تحوي هذه الصفحات بشارات بمختلف اللغات عن مختلف كتابات السماء فراجع.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٩.

وَهيوا شَعوُ كُل أَفِصْ أَرِضْ كِيْ أَنّي إل وَإن عُودبي نيشعَنى يا صايبي صَداقاه دابارْ وِلايا شُوبْ كي لي يتجرّع كُل بِرِخْ يَتَشابع كُل لاشُونْ».

«توجهوا إلي فأخلصوا يا جميع أقاصي الأرض فإني أنا الله وليس آخر. بذاتي أقسمت ومن فمي خرج الصدق كلمة لا ترجع: إنها ستجثو كل رُكبة لي وبي سيقسم كل لسان».

وفي أشعياء ١١: ١ - ١٠ «ويخرج قضيب من جذر يسيَّ وينمو فرع من أصوله ويستقر عليه روح الرب روح الحكمة والفهم وروح المشورة والقوة وروح العلم وتقوى الرب (٣) ويتنعم بمخافة الرب ولا يقضي بحسب رؤية عينيه ولا يحكم بحسب سماع أذنيه (٢) بل يقضي للمساكين بعدل ويحكم لبائسي الأرض بإنصاف ويضرب الأرض بقضيب فيه ويهلك المنافقين بنفس شفتيه (٤) ويكون العدل منطقة: حقويه والحق حزام كشحيه (٥) فيسكن الذئب مع الحمل ويربض النمر مع الجدي ويكون العجل والشبل والمعلوف معاً وصبي صغير يسوقها (٦) ترعى البقرة والدُّب معاً ويربض أولادهما معاً والأسد يأكل التبن كالثور (٧) ويلعب المرضع على جُحر الأفعى ويضع الفطيم يده في نفق الأرقم (٨) لا يسيئون ولا يفسدون في كل جبل قدسي لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغمر المياه البحر (٩) وفي ذلك اليوم أصل يسي القائم راية للشعوب إياه تترجى الأمم ويكون مثواه جيداً» (١٠).

وهذه الآيات تحمل اختصاصات للقائم المهدي باسمه ولدولته دون حاجة إلى إيضاحات!

وفي دانيال ١٢: ١ - ١٣ «وفي ذلك الزمان يقوم ميكائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك ويكون وقت ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك

(*) راجع «رسول الإسلام» ٢٣٩ - ٢٤٣ تجد تفصيل هذه البشارة بأيآتها وتفسيراتها.

الزمان وفي ذلك الزمان ينجو شعبك كل من يوجد مكتوباً في الكتاب (١) وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون بعضهم للحياة الأبدية وبعضهم للعار والرذل الأبدي (٢) ويُضيء العقلاء كضياء الجلد والذين جعلوا كثيرين أبراراً كالكواكب إلى الدهر والأبد (٣) وأنت يا دانيال أغلق على الأقوال واختم على الكتاب إلى وقت الانقضاء إن كثيرين يتصفحون ويزداد العلم (٤)... طوبى لمن ينتظر ويبلغ إلى ألف وثلاثمائة وخمسة وثلاثين يوماً (١٣) وأنت اذهب إلى الانقضاء وستستريح وتقوم في قرعتك إلى الأبد» هنا

«القائم» يقوم في أضيق الأوقات التي مرت على البشرية منذ تكونها «وينجو من يوجد مكتوباً في الكتاب» من الصالحين. ويرجع عن الموت بعضهم للحياة وبعضهم للعار، وكما في أحاديثنا «من محض الإيمان محضاً ومن محض الكفر محضاً»

وفي«رؤيا يوحنا اللّاهوتي كما في الأصل السرياني» ٢: ٤٦ - ٢٨ «دَهابْ دِكالِبْ وْهَابْ وناطِر هَلْ خرتْا لِبْلِخَني دِيَّ بِتْ يَبِنْ قَتْوُه هُكمَ هَلْ طايبي (٢٦) وَبِتْ مارغي لوُن بِخُطْرا وأَخْ مَنْ دِكُوزَ چي (٢٧) بِتْ طُوخْطِني أَخْ دِأُوبْ أَنَا قُوبِلِّي مِنْ بِبَي وَبِتْ يَبِنْ قَتِي لِكَوْكَبْ دِمَوْرِس»

«ومن غلب وحفظ أعمالي إلى المنتهى فإني أوتيه سلطاناً على الأمم». فيرعاهم بعصاً من حديد وكآنية من خزف يتحطمون. كما أوتيته من خالقي وأعطيه كوكب الصبح. من له أذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس». فـ «يرعاهم بعصاً من حديد» هو قيام صاحب الأمر بالسيف، اللهم عجل فرجه وسهل مخرجه واجعلنا من أصحابه وأنصاره.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ
ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ
وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ
جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ
ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ
كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٩﴾ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا
فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۢ بِزِينَةٖۖ وَأَن
يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٦٠﴾ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا
عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ
بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ
بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ
أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ
صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا
دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا
ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ
يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ

وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾

مثلث من الأحكام والآداب الجماعية، داخل البيت وبيوت الأهلين وبيت الرسالة القدسية، آداب دائبة تأخذ بها الكتلة المؤمنة وتنتظم بها علاقاتها، في الحياة البيتية الصغيرة، ومجالاتها الجماعية الكبيرة في حدٍّ شاسع مع قائد الأمة ورائدها على حدّ سواء في أصولها مهما اختلفت الدرجات، فللبيت شأنه ولسائر البيوت شؤونها ولبيت الرسول ﷺ شأنه كقيادة علياً:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾:

هنا في آية سالفة نهي الذين آمنوا عن دخول بيوت غير بيوتهم إلّا باستيناس وسلام، وهنا يؤمرون باستئذان غيرهم من ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ﴾ حيث الأمر أياً كان لا يوجّه - فيما يوجه - رأساً إلى الذين لم يبلغوا الحلم، فليؤمر البالغون أن يأمروهم، ولكن الذين ملكت أيمانهم - وهم أعم من البالغين وسواهم - يقتسم أمرهم بين أمرهم إن كانوا

بالغين، والأمر بأمرهم إن لم يكونوا بالغين، فكيف أمروا بأمرهم على سواء؟

علّهم لأن البالغين منهم كغير البالغين من غيرهم، هم بحاجة إلى أمر الأولياء حتى يأتمروا بأمر الله، فكما غير البالغ منا لا يبلغه أمر الله فيؤثر، إلا بوسيط الولاية، كذلك الذين ملكت أيمانهم، إضافة إلى أن من بالغيهم كافرين لا يحملون أمر القرآن دون وسيط.

ومن ثم لأن الحفاظ على العورات واجب الطرفين، فعلى صاحب العورة الرقابة عليها تستراً، كما على الواردين رقابة عليها استئذاناً، فليؤمر الأولياء بالأمر على أية حال، وكما أمروا للذين بلغوا الحكم «وإذا بلغ الأطفال منكم الحكم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم...»!

تنزل الآية بمناسبات عدة حصلت لرجل من المهاجرين وآخر من الأنصار أمّن ذا حفاظاً على العورات، إذ كان الذين ملكت أيمانهم والذين لم يبلغوا الحلم يدخلون في الأوقات كلها بلا استئذان، لمكان حلّ النظر لآية ﴿وَلَا يُبْدِينَ...﴾ ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ...﴾ ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾[1] وكانت المفاجأة في رؤية العورة لأوقات تكشُّفها الخاصة مما تزعج المؤمنين، فأمروا أن يأمروهم بالاستئذان في أوقات ثلاثة هي في الأكثر عورات ثلاث، كيلا تقع أنظارهم على عوراتهم، وهذا أدب يغفله أو يتغافله الكثيرون في حياتهم المنزلية، مستهينين بآثاره النفسية والعصبية والخلقية، وي كأن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السادة! وإن مدّت فلا هوادة! أو أن الصغار لا ينتبهون لهذه المناظر، وعلم النفس اليوم أثبت، وشرعة الإسلام قبل اليوم أثبتت: إن بعض المشاهد المثيرة المغيرة في الطفولة تؤثر في الحياة كلها، وقد يصابون عنها بأمراض

(١) سورة النور، الآية: ٣١.

نفسية يصعب علاجها، أو اندفاعات جنسية قد تعمل فيهم في حالة الطفولة انحرافات جنسية تظل دائبة إلى ردحٍ من عمر البلوغ قلّ أو كثر!

ولكي يبقى البيت طاهراً، ويبقى الأطفال والمماليك بسلامة الأعصاب والمشاعرِ والصدور والقلوب، ونظافة التصورات والتصرفات، لذلك تنزل الآية آمرة الأولياء أن يأمروا بالاستئذان حفاظاً على كرامتهم أنفسهم وإياهم، أمراً ذا بعدين يتضمن مصلحة ذات بعدين ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾.

أترى من هم ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾؟ أهم العبيد - فقط: لمكان ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مذكراً؟ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أيضاً مذكر ولا يختص بالرجال، بل الدخول دون إذن على النساء أحرج، فهو إلى الإذن أحوج! والتغليب في ﴿ٱلَّذِينَ﴾ سيرة دأبته قرآنية إلّا لقرينة، وهنا القرينة تؤيد فتؤكد العموم، فـ ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾، - تلمح بموضوعية ملك اليمين ذكراً أم أنثى! وأن دخول الإماء دون إذن علّه أقبح من دخول الرجال أم هما سواء!

وتصدّق من الروايتين المتعارضين الموافقة لعموم القرآن[1] والثالثة القائلة أنهم خصوص الإماء مطروحة لمخالفة القرآن، ثم ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ وإن كانت تشمل كل الذين لم يبلغوا الحلم منهم حتى الصغار الذين لا يميزون، ولكنها مخصصة بالمميزين من صغارهم كما في غير المملوكين!

---

(١) نور الثقلين ٣: ٦٢٢ ح ٢٣٢ - الكافي عن الفضيل بن يسار عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قيل: من هم؟ فقال: المملوكون من الرجال والنساء والصبيان الذين لم يبلغوا... وفيه عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: هي خاصة في الرجال دون النساء، قلت: فالنساء يستأذن في هذه الثلاث ساعات؟ قال: لا ولكن يدخلن ويخرجن... وفي الدر المنثور ٥: ٥٦ عن ابن عمر في الآية قال هو على الذكور دون الإناث، وفيه عن ابن عمر هو للإناث دون الذكور يدخلون بغير إذن، ومثله ما عن أبي سلمة عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم نزلت في النساء أن يستأذنّ علينا، وفيه أخرج الحاكم وصححه عن علي بن أبي طالب في الآية قال: النساء فإن الرجال يستأذنون، أي على أية حال، أقول: المرجع هو عموم الآية والثلاثة الأخيرة التي تخصص الإذن بالنساء خلاف نص الآية، والمخصصة بالرجال خلاف عمومها!

فهل ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ تشمل الصغار غير المميزين كما تشمل المميزين، شمولاً لأبناء سنة وبناتها ومقاربي الحلم ومقارباته على حدٍّ سواء؟ والطفل إلى أربع أو خمس وقبل أن يميز لا حرمة لنظرته! ولا يقال له «لم يبلغ الحلم» كما لا يقال لابن عشرين لم يبلغ الأربعين، فإنما هو المقارب لبلوغ الحلم من عشر فما فوقها، أو المميز أياً كان، فإنه مقارب الحلم ولما يبلغه، فالتميز مرقاه الحلم ومرآته، إن في الذكر أو في الأنثى مهما اختلفت سنيّ المقاربة للحلم.

وإنما واجب الاستئذان ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ وهي ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ فذلك الوجوب يتبع موارد العورات، ولقد كانت ثلاث مذكورات، فإن تبدلت إلى غيرها أم زادت أو نقصت عدتها تبدلت موارد الوجوب أم زادت أو نقصت، حيث الحكم معلّل يتبع علته حيثما حلّت.

فإذا لم تكن لكم عورات كما الأعزب والعزباء، ثم لا عرية لكم تتكشف فيها عورات فلا استئذان، والحكم بعلته وارد مورد الأغلب فيتبع موارد العورة أو مظنّتها.

فـ «إن رجلاً قال يا رسول الله ﷺ استأذن على أمي؟ قال: نعم - قال: إني معها في البيت! قال: استأذن عليها، قال: إني خادمها أفأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: أفتحب أن تراها عريانة؟ قال: لا قال: فاستأذن عليها»(١).

١ - ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ فإنه من أوقات النومة والاستراحة، وفيه لمحتان، إحداهما أنه ينبغي أن تصلي الغداة عند الفجر، فلم تُسمَّ الغداة الشاملة بين الفجر وطلوع الشمس، وإنما الفجر، والثانية ألّا نومة بعد صلاة الفجر وإلّا لم تتخصص العورة بما قبلها وتؤيده الروايات.

---

(١) الدر المنثور ٥: ٥٧ ابن جرير والبيهقي في السنن عن عطاء بن يسار أن رجلاً قال يا رسول الله . . .

٢ - ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ والظهيرة هي التي يؤتى بها ظهراً وبعدها تعود النومة، وفيه لمحة إلى رجاحة النوم من الظهيرة، وأنها يؤتى بها عند الظهر إلّا عند العذر، وأن صلاة العصر ليست بعدها دون فصل وإلا كان النص «من العصيرة» دون «الظهيرة» فهي تبين أن الاكثرية الساحقة حين نزولها كانوا يصلون الظهيرة عند الظهر ثم يضعون ثيابهم لنومة - وطبعاً - بعد الغداء، ثم يصلون العصر، ولولا أن هذه فريضة أو سنة مرضية متّبعة لما صدقتها الآية، إذ تبنّتها ثانية العورات الواجب فيها الاستئذان، والظهيرة في جماعة على تحسّبٍ لزمن الرجوع إلى بيوتهم قد تتطلب ساعة ثم الغداء والنومة لا أقل من ساعتين فما زاد، فلا تصلى العصر - إذاً - إلّا بعد ثلاث ساعات بعد الظهر وما زاد.

ثم الاسمان يدلان على اختصاص كلٍّ بوقته ظهراً وعصراً، - فهل إن دقائق أم ساعة بعد الظهر عصرٌ حتى تصلى العصر، أم إن ساعات بعد الظهر ظهر حتى تصلي الظهر؟ فمهما دلت الأدلة على رخصة في تقديم أو تأخير، ليست هذه إلّا عند العذر من رمضاء أو مطر أو مرض أو سفر أو تعب، وأما في سواها حيث لا عسر ولا حرج فلماذا تقديم العصر أو تأخير الظهر؟ فعلى أقل تقدير ليس في تأخير الظهر أو تقديم العصر إلّا ذنب مغفور! وقد جمع الرسول ﷺ بين الصلاتين أحياناً[1] للتدليل على أصل الجواز.

---

(١) وسائل الشيعة ٤: ٢٠٢ ح ٥٥٦ فقيه عبد الله بن سنان عن الصادق عليه السلام أن رسول الله ﷺ جمع بين الظهر، والعصر بأذان وإقامتين وجمع بين المغرب والعشاء في الحضر من غير علة بأذان وإقامتين، ومثله في التهذيب الفضيل وزرارة عن أبي جعفر عليه السلام عنه ﷺ وعن زرارة عن أبي عبد الله مثله بإضافة قوله عليه السلام وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليتسع الوقت على أمته، وعن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن رسول الله ﷺ صلى الظهر والعصر مكانه من غير علة ولا سبب فقال له عمر وكان أجرأ القوم عليه:
أحدث في الصلاة شيء؟ قال: لا ولكن أردت أن أوسّع على أمتي، وعن ابن عباس قال جمع رسول الله ﷺ بين الظهر والعصر من غير خوف ولا سفر فقال: أراد ألا يحرّج على أحد من =

٣ - ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ﴾ بعدما صليتم المغرب وتعشّيتم وتحضّرتم للنومة، وهذه لمحة لفصل بين المغرب والعشاء، فلو كانت السنة الجمع بينهما، أو هو مسموح في غير عسر أو حرج، لم تكن عورة النومة بعد العشاء، ثم العشاء لا تصدق بعد المغرب دون فصل، ولأن ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ﴾ لا عورة إلا للنومة، ولا ينام الأكثرية الساحقة إلّا بعد ساعات مضت من الليل يقضون فيها حاجاتهم الليلية قبل النوم، إذاً فالسنة المتّبعة هي تأخير العشاء، إلى ما قبل النوم مهما لم يجب إلّا أصل الفصل قدر ما تصدق العشاء وكما يروى عن الرسول ﷺ قوله: لولا أن أشق على أمتي لأخرت العشاء إلى نصف الليل»، إذاً فالفصل بين كل صلاتين من الظهرين والعشاءين ضابطة ثابتة حسب القرآن والسنة إلّا عند الضرورة أم أية عاذرة أم دون عذر على كراهية، اللهم إلا في جماعة فإنما فضلها أكثر من الفصل كما في روايات عدة.

ومن حِكَم الفصل أن الصلوات الخمس هي أركان الذكر، فلتوزّع على أركان الأوقات المفصولة بعضها عن بعض، حتى يطم ذكر الله في الأوقات كلها، ويتم أمر الذكر في أمره: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾[1].

وكما الحفاظ على الصلوات فرض: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾[2] كذلك الحفاظ على أسمائها: صلاة الفجر والظهر والعشاء، والعصر والمغرب، وأما صلاة الغداة بدل الفجر أو العتمة بدل العشاء فلا، وكما يروى عن

= أمته، وفي آخر أراد التوسع لأمته، أقول: وقد تواتر الجمع هكذا عنه ﷺ معللاً ودون تعليل، وكلها تدل على سنة الفصل المتعوّدة زمنه، وإنما جمع أحياناً تدليلاً على أصل الجواز بعلة ودون علة.

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤١، ٤٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

النبي ﷺ: «لا يغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم قال الله ومن بعد صلاة العشاء وإنما العتمة عتمة الإبل»(١) ولأن «الاستئذان من أجل النظر»(٢) فلا استئذان لمكفوف البصر، كما لا يجوز النظر قبل الدخول، ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾ هذه، ولأجل ذلك فرض الاستئذان على الداخلين ممن ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم، فضلاً عن الذين بلغوا الحلم.

﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ﴾ ففيهن دونما استئذان جناح عليكم وجناح عليهم، أترى كيف الجناح على الذين لم يبلغوا الحلم وهم غير بالغين؟ علّه يعني الجناح العائلي تخلفاً عن أمركم بأمر الله، وأما جناح البالغين فهو تخلف عن أمر الله!

ولماذا ليس جناح بعدهن وقد تتكشف عورات في غيرهن؟ لأنكم ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ قضية الضرورة والحاجة البيتية، فالاستئذان على كل حال حرج للطوافين على بعض، ثم لا حرج للداخلين البيوت أن يستأذنوا على أية حال، ولذلك أمروا باستيناس وسلام على أية حال: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ...﴾(٣)!

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ فلأنه عليم بنياتكم وطوياتكم وحالاتكم، حكيم فيما يأمركم وينهاكم، كذلك الواضح الناصح يبين لكم الآيات!

---

(١) الدر المنثور ٥: ٥٧ - أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال...

وفيه أخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: لا تغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم العشاء فإنما هي في كتاب الله العشاء وإنما يعتم بجلاب الإبل.

(٢) نور الثقلين ٣: ٦٢٢ ح ٢٣٣ في أمالي شيخ الطائفة بإسناده إلى الزهري أنه سمع سهل بن سعد الساعدي يقول: اطلع رجل في حجرة من حجر النبي ﷺ ومعه مدري يحك بها رأسه فقال ﷺ: لو أني أعلم إن تنظر لطعنت به في عينك إنما جعل الاستئذان من أجل النظر.

(٣) سورة النور، الآية: ٢٧.

أترى آية الاستئذان يُعمل بها؟ قليل ما هم العاملون بها! وقد «ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بها، آية الاستئذان هذه وآية النساء: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ...﴾(١) وآية الحجرات: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(٢) (٣).

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾:

لقد سبق النهي عن إبداء الزينة للنساء أمام غير المحارم إلّا ما ظهر منها ﴿...وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾(٤) منعاً لإثارة الشهوات، وهنا تستثنى من هذا الحكم القواعد من النساء دون تبرج بزينة، فمن هنّ قواعدهن اللاتي لا يرجون نكاحاً؟

كلّ من الرجل والمرأة له قيام في رجولة أو أنوثة وله قعود، ومن اختصاصات الأنثى الحيض والولادة وجاذبية الجنس ومقدماته الملذّة، فالقواعد من النساء هي اللاتي يقعدن عما يرغب من النساء في جاذبية الجنس، قد يئسن من المحيض ورغبات الرجال، فارغات النفوس عن عشرة الرجال، وفارغات الأجسام من إثارة الرجال، قعدة ذات بعدين، أم قعدة عن بُعد الإثارة فلا يرغب فيهن الرجال مهما بقيت رغبتهن في الرجال، ولكنهن لا يرجون نكاحاً إذ لا يرغب فيهن الرجال، حيث النكاح من فاعلية الرجال والنساء تبع لها!

فقد تكون قاعدة عن ميّزات الأنوثة ولكنها تحب عشرة الرجال وفعلهم

(١) سورة النساء، الآية: ٨.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.
(٣) الدر المنثور ٥: ٥٦ - أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ترك الناس...
(٤) سورة النور، الآية: ٣١.

فيها، ولكن الرجال لا يرغبون فيها، فهي ممن لا يرجون نكاحاً، كالتي لا تحب عشرتهم كما لا يحبونها، فهما على سواء من القواعد اللاتي لا يرجون نكاحاً.

وأما التي لا تحب عشرة الرجال ولكن الرجال يحبونها، فليست هي من القواعد ما دامت فيها جاذبية الأنوثة إذ هي في حالة رجاء النكاح وإن لم ترغب في الرجال، فمهما قعدت هي ليست لتُقعد قومة الرجال، والمهم هنا زوال إثارة الجنس، بخلاف التي تحبهم ولا يحبونها إذ لا إثارة فلا ترجوا نكاحاً.

فالركن الركين في هذا الحكم ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ لزوال جاذبية الأنوثة، مهما رغبن في الرجال أم لا يرغبن، أو رغب فيهن الرجال لمال أو منال أمّاذا دون جاذبية جنسية، أم لم يرغبوا حيث لا مال ولا منال، وإنما رجاء النكاح فقط من قبلهن عن جاذبية الجنس هو الموضوع للحكم ليس إلّا!

فالراغبة في النكاح ولا راغب إليها، أو التي يُرغب في نكاحها لسبب غير الجاذبية، هما والتي لا تَرغب ولا يُرغب فيها على حد سواء في أنهن ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ وعلّه سواء في ذلك الشائبة الهرمة الدميمة العرمة أمن هي؟ ما دامت هي من اللاتي لا يرجون نكاحاً»!

أترى «لا يرجون» تختص بغير ذوات الأزواج؟ و«نكاحاً» هنا الفائدة الجنسية؟ وهي منفية فيهن وإن كن ذوات الأزواج! فهن إذاً من لا جاذبية جنسية فيهن من أزواجهن، أو غيرهم[1]!.

(١) نور الثقلين ٣: ٦٢٢ ح ٢٣٤ في عيون الأخبار في باب ذكر ما كتب به الرضا عليه السلام إلى محمد ابن سنان في جواب مسائله في العلل «وحرم النظر إلى شعور النساء المحجوبات بالأزواج إلى غيرهن من النساء لما فيه من تهيج الرجال وما يدعو التهيج إليه من الفساد والدخول فيما لا يحل وكذلك ما أشبه الشعور إلا الذي قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَالْقَوَاعِدُ... ثِيَابَهُنَّ﴾ [النّور: ٦٠] غير الجلباب فلا بأس بالنظر إلى شعور مثلهن، أقول علّه يعني الجلباب الذي ليس تحته ساتر فإن ثيابهن تشمل الثياب الفوقانية وشهد له الحديث الآتي.

﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ...﴾ تفريع على «لا يرجون» فهي هي العلة للحكم يدور معهما حيثما دارت، أترى ﴿ثِيَابَهُنَّ﴾ هي كل ثيابهن حتى الساترة لعوراتهن؟ والثياب هي الملابس الفوقانية التي تلبس على الدثار، وهي على الشعار المباشرة للأبدان! ومن الفوقانية الخُمر والجلابيب، وقد أمرت النساء بضرب خمرهن على جيوبهن، وإدناء جلابيبهن عليهن ستراً للصدور والثغور والشعور، والمسموح لوضعه من ثيابهن ليس أكثر من خمرهن وجلابيبهن شرط أن تكون تحتها ساتر نسائي لا فقط ساتر العورة![1].

﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَتٍ بِزِينَةٍ﴾ وليس الوضع هو الإبقاء على الخمر والجلابيب دون ضرب أو إدناء، ومختلف الأحاديث هنا ترجع إلى الآية فتقبل المطلقة الموافقة لها وتحمل غيرها عليها[2].

فهؤلاء القواعد لا حرج عليهن أن يضعن ثيابهن الخارجية الخاصة بالحجاب المفروض دون تبرّج بزينة وتظاهر بها كالبُرج، فالبراج هو الظهور المعتاد لزينة، وهو محرم على غير القواعد إلّا ما ظهر منها وحلٌّ لهن، والتبرج وهو التكلّف لإبراز زينة من محاسن البدن أو ما يتزين به من زينة،

(١) حيث الملابس النسائية ثلاثة، شعار ودثار متعدد للنساء فوق الشعار، وملابس للحجاب من خمر وجلابيب وچوادر.

(٢) منها السابق المقيد بغير الجلباب، ومنها المقيد بالجلباب كما رواه القمي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: تضع الجلباب وحده، ومثله ما رواه محمد بن مسلم عنه عليه السلام في الآية ما الذي يصلح لهن أن يضعن من ثيابهن؟ قال الجلباب أقول: قد يعني ما إذا كان تحت الجلباب ثوب ساتر فلا يجوز وضع الساتر أو أي ثوب تحت الجلباب وأما الخمار فلا ريب في جواز وضعه بل هو الأولى ويدل على ذلك ما رواه القمي عنه عليه السلام أنه قرأ ﴿أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ [النُّور: ٦٠] قال الجلباب والخمار إذا كانت المرأة مسنة، وفي أخرى رواه عنه عليه السلام قال: الخمار والجلباب قلت بين يدي من كان؟ قال: بين يدي من كان غير متبرجة بزينة فإن لم تفعل فهو خير لها والزينة التي يبدين لهن شيء من الآية الأخرى.

هذا التكلف على القواعد حرامٌ كما على غيرهن. ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ ألّا يضعن ثيابهن، وأما التبرج فمحرم عليهن على أية حال ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ مقالاتهن ومقالات الرجال والنساء فيهن ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهن.

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)﴾:

الآيات (٥٨ : ٦١) استثناءات عما مضت من واجب الاستيناس لدخول بيوت غير بيوتكم، وواجب التحجّب للنساء عن غير المحارم وسائر التصرفات المحرمة في بيوت غير بيوتكم.

آية البيوت هذه تنزل بمناسبات عدة تنفي الحرج - مطلقاً - عن الأعمى والمريض والأعرج، ثم تنفي الحرج في الأكل من بيوت عن غير الثلاثة، وبأحرى عنهم أيضاً، والحرج ينفى عن هؤلاء في الجهاد في آية الفتح: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[١] كما ينفى عن ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ﴾[٢] ثم ينفى الحرج في الدين على أية حال: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾[٣] [٤].

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١٧. (٢) سورة التوبة، الآية: ٩١.

(٣) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٤) وكما نفي في باب الطهارة ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

والحرج هو حالة ضيق فوق الطاقة، نفسياً أم سواها، تستأصل الطاقات كلها لحد يضيق كل مدخل ومخرج: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[1] [2].

والعسر هو دون الحرج، وهما منفيان في التكاليف غير الموضوعة على عُسر أو حرج، بل لا عسر أو حرج فيما يتعسر منها أو يتحرج، فإنها أهم من مصلحة اليسر في الحياة أو البقاء فيها كقتال من يستطيعه في سبيل الله، فإنه يقدم على استئصال نفسه، إبقاء على دين الله، وليس يرفع العسر عن التكاليف الموضوعة على العسر كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد والدفاع والخمس والزكاة أمّا ذا من عسر حالي أو مالي أو مقالي، وإنما العسر المرفوع يخص ما فيه يسر وفيه عسر كالصوم على صحة أو مرض فعسره مرفوع!

وكما لا حرج على الأعمى والمريض والأعرج في الجهاد إذ لا يأتون فيه بشيء أثمن من حياتهم، كذلك لا حرج عليهم في مواكلة مَن سواهم، رغم ما كانوا يَتَحرجون عنها أو يُتحرج عنهم، أو عن مصاحبتهم إلى بيوت أقاربهم، كما كان من سواهم متحرجين عن الأكل من هذه البيوت إلّا بدعوة أو صراح الإذن ولا سيما بعد ما نزلت آية ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ. . .﴾[3] فأصبحوا في حساسية مرهفة حذراً أن يقعوا في فخ النهي فيلموا بالمحظور مهما كان بعيداً، فنزلت آية البيوت نافية لاحراج مِن ذويها المحتاطين[4].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

(٢) راجع تفسير آية الفتح ج ٢٦: تجد فيه بحثاً فقهياً عن الحرج.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢٩.

(٤) نور الثقلين ٣: ٦٢٤ في تفسير القمي في رواية عن أبي جعفر عليه السلام في الآية وذلك أن أهل المدينة قبل أن يسلموا كانوا يعزلون الأعمى والأعرج والمريض أن يأكلوا معهم، كانوا لا يأكلون معهم وكان الأنصار فيهم تيه (تكبر) وتكرّم فقالوا: إن الأعمى لا يبصر الطعام والأعرج لا يستطيع الزحام على الطعام والمريض لا يأكل كما يأكل الصحيح فعزلوا =

ومن قضية الرباط بين ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ وبين ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا...﴾ نتلمح بيناً أن ﴿أَن تَأۡكُلُواْ﴾ تشملهم مع ﴿أَنفُسِكُمۡ﴾ فلا حرج في استصحابهم معكم في هذه البيوت لأنهم فقراء، ولا في تركه دون تأنّف: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ﴾!

فنفي الحرج عن مواكلة واستصحاب هؤلاء لفقرهم أو مخافة نقصان أو مزيد في أكلهم، ثم نفيه عن أكل مَن سواهم من هذه البيوت لقرابة أو صداقة أو ملك لمفاتحها، زوايا أربع لمربع حلّ الأكل دون إذن، لا يسمح في سواها إلّا بإذن.

فلأن الأكل دون رضى صاحب الأُكل محرمٌ لأنه أكلٌ بالباطل، والأكل بصريح الإذن أو علمه حِلٌّ لأنه ليس بالباطل، فالأكل دون إذن ولا منع من صاحب الأُكل لا يدخل في ضابطة السماح، حيث الحل الحق منوط بإذن صاحب الحق وهو هنا مشكوك والأصل في مال المسلم عدم حلّه إلا برضاه[1].

لذلك فآية الحلِّ لا تأتي بما هو واضح الحل من الأكل المأذون إذ ليست فيه مظنة الجناح حتى تنفيه «لا جناح»! ولا أن الحل يخص هذه الموارد، ولا بواضح الحرمة من الأكل الممنوع، إذ فيه كل جُناح، بل تأتي موضحة لما بينهما في هذه الزوايا الأربع أنها حلٌّ كما في صُراحِ الإذن،

= طعامهم على ناحية وكانوا يرون عليهم في مؤاكلتهم جناح وكان الأعمى والأعرج والمريض يقولون لعلنا نؤذيهم إذا أكلنا معهم فاعتزلوا عن مواكلتهم فلما قدم النبي ﷺ سألوه عن ذلك فأنزل الله الآية.

(١) الآية ﴿لَا تَأۡكُلُواْ...﴾ والنبوي المشهور «المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»، وفي آخر المسلم لا يحل ماله إلا عن طيب نفس منه، وفي رواية الحسين المنقري عن خاله من أكل من طعام لم يدع إليه فكأنما أكل قطعة من النار، وفي أحاديث الحسن عن صاحب الزمان عليه السلام لا يحل لأحد أن يتصرف في مال غيره بغير إذنه فكيف يحل ذلك في مالنا (المستند للنراقي ج ٢ ص ٣٩٦).

بدليل شاهد الحال، ولحق الفقر في الثلاث، والقرابة أو الصداقة أو ملك المفاتيح للباقين «فهؤلاء يأكل بغير إذنهم» «ما لم تفسده»(١).

هذه الحلية العوان بين صُراح الإذن والمنع تتكفل جانباً عميقاً من التكاليف الجماهيرية بين الفقراء وسواهم، وبين الأقارب الأنسباء وسواهم، وبين الأصدقاء ومن يملك مفاتح لما فيه أُكل، فلا يتحرجْ الآكل من هذه البيوت نظرة صريح الإذن التي ربما كانت تهتكاً للجانبين، أو حرجاً، ولا يحرّجْ صاحب الأكل عن هكذا عشرة أخوية محبَّبة.

ففي الإذن الصريح أو تأكدّه يحل الأكل من أي بيت دون هذه الخصوص، وفي المنع الصريح أو تأكده يحرم الأكل مهما كان من هذه الخصوص، وفي الحالة العوان الأكل حَرِجٌ ممنوع إلّا من هذه الأربع، ولأن منعه فيها مُحرج، والعادة جارية فيها على عدم الاستئذان، بل وفي غيرها، ولكن الشرعة القرآنية العادلة تختص الحل بهذه المذكورات في آية البيوت!

ثم ﴿أَن تَأْكُلُوا﴾ هنا و﴿أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ آخر الآية نفي لجناح الأُكل من هذه البيوت والمواكلة مع هؤلاء الثلاث ومواكلتهم معهم في هذه البيوت أم سواها، حيث كان التحُّرج في كُلّ من هذه وتلك سارياً، وكل هذه من موارد نزول الآية(٢).

فالأكل ثلاثة، أكل يفسد إن لم تأكله، وهو حلّ أينما كان فتضمن ثمنه إن لم يكن من هذه البيوت، أو كان ولا يرضي صاحبه، ولا تضمن إن كان منها وأنت لا تعلم عدم رضا صاحبه.

---

(١) نور الثقلين ٣: ٦٢٦ ح ٢٥١ عن الكافي عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: هؤلاء الذين سمى الله عزّ وجلّ في هذه الآية يأكل بغير إذنهم من التمر والمأدوم... وفيه ح ٢٥٧ من محاسن البرقي عنه عليه السلام في ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ [البَقَرَة: ١٩٨] قال: بإذن وبغير إذن.

(٢) وفي المصدر ح ٢٥٤ عن الكافي عن زرارة قال: سألت أحدهما عن هذه الآية قال: ليس عليكم جناح فيما أطعمت أو أكلت مما ملكت مفاتحه ما لم تفسده، وفي محاسن البرقي في هذه الآية «بإذن وبغير إذن» أقول: ولا خلاف في هذا الحكم، والحلّ قول واحد!

وأكلٌ لا يفسد وهو مدّخر لأحوال خاصة لا يأكله صاحب البيت فكيف بغيره، وهذا لا يحل أكله حتى من هذه البيوت لظهور أعلام عدم الرضى، أم لأن العادة ما جرت على أكله كسائر الأكل.

ثم أُكُلٌ مهيأ للأكل لصاحب البيت أم سواه، وهذا يحل من هذه البيوت إن لم تعلم رضى صاحبه، ومحرم من غيرها حتى يعلم الرضا، والأصل في ذلك كله الآية والروايات[1] فـ ﴿أَن تَأۡكُلُواْ﴾ تعم ما يفسد ليومه وما لا يفسد، وفي اختصاص الحل بما يفسد يزول اختصاص هذه البيوت إذ يعمها وسواها، ثم ﴿أَن تَأۡكُلُواْ﴾ جارية مجرى المعتاد من الأكل ومن الأُكُل، فلا يأكل أكثر من المعتاد، ولا شيئاً خارج الاعتياد، وإذا لم يكن أُكلٌ في بيت مسموح الأكل منه، فلا يجوز أخذ ثمنه واشترائه وإن أكله فيه.

وهل يجوز أخذ الأُكل من البيت وأكله خارج البيت؟ «الأكل من» يعم الأكل فيه أم في سواه، ولا سيما إذا لم يأكله في البيت، فأما أن يأخذ معه بعد أكله ليأكله خارج البيت ففيه تردد أشبهه عدم الجواز للأصل.

وهل له أن يتصدق منها بعد أكله أم قبله؟ الظاهر لا لأنه ليس أكلاً بل إيكال، ﴿أَن تَأۡكُلُواْ﴾ لا تشمله، والروايتان المتعارضتان في تصدّق الزوجة، تصدَّق منهما الموافقة لظاهر الآية[2].

تستعرض هذه الآية إحدى عشر بيتاً، ملحوظة فيها إلى دقة الأداء اللفظي والترتيب الموضعي، وما ألطفه دمجاً لبيوت الزوجين والأولاد بما

---

(١) صحيحة زرارة هؤلاء الذين سمى الله تعالى في هذه الآية يأكل بغير إذنهم من التمر والمأدوم وكذلك تطعم المرأة من منزل زوجها بغير إذنه فأما خلاف ذلك من الطعام فلا، والرضوي «ولا بأس للرجل أن يأكل من بيت أخيه وابنه وأمه وأبيه وصديقه ما لا يخشى عليه الفساد من يومه مثل البقول والفاكهة وأشباه ذلك».

(٢) وهما رواية جميل للمرأة أن يأكل وأن يتصدق وللصديق أن يأكل من منزل أخيه ويتصدق، ورواية علي عن المرأة لها أن تعطي من بيت زوجها؟ قال: لا إلا أن يحلّلها.

نزلوا في «بيوتكم» وكما عُنِيت من «بيوتكم» في ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ إذ لا نرى في هذه البيوت بيوتهم وهم أحرى في سماح الأكل منها من سائر البيوت! وسماح الأكل من بيتك نفسك لم يكن لوقت مّا حرجاً حتى ينفى عنه الحرج في ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ...﴾ ﴿مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾! بل العناية الأصيلة هنا في نفي الحرج إلى بيوت الزوجين والأولاد المنفصلة عن بيوتكم، قد ضمها الله وأدغمها في بيوتكم دون أن يفصلها عنها مهما فصل بيوت الوالدين وسائر الأقارب وأضرابهم.

فالأكل من هذه البيوت دون إذن ولا منع مسموحٌ على سواء كما الأكل من بيتك نفسك، وأما الأكل مع المنع أو عدم الرضا فلا إلّا للوالد من مال ولده فـ «أنت ومالك لأبيك»[١] فـ «إن أطيب ما يأكل المرء ما كسبه وإن ولده من كسبه»[٢] «يأخذ من ماله ما احتاج إليه مما لا بد منه»[٣] دون إضرار ولا سرف، نفقة أو غيرها، قدرها أو ما زاد.

وكذلك للوالدة والزوجة والأولاد قدر النفقة الواجبة، ثم ما زاد غير مسموح مع المنع إلّا إذا كان عواناً بين الإذن والمنع كسائر البيوت.

أترى المسموح هو الأكل فقط؟ وهنالك تصرفات متعدِّدة أخرى هي أهون من الأكل! إنه الأكل فما دونه بأولوية قطعية، دون ما فوقه من أخذ ملابس أماذا من حاجيات، أم أية تصرفات ليست كالأكل، والتي هي كالأكل أو دونها ليست هنا إلّا المعتادة، دون الشاذة الخارجة عن الحاجة

---

(١) المصدر ٦٢٧ ح ٢٥٦ المجمع عنه ﷺ أن أطيب...

(٢) نور الثقلين ٣: ٦٢٤ ح ٢٤٦ عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ لرجل: أنت ومالك لأبيك ثم قال أبو جعفر عليه السلام: وما أحب أن يأخذ من مال ابنه إلا ما احتاج إليه مما لا بد له منه أن الله لا يحب الفساد.

(٣) المصدر السابق نفسه.

المتعوَّدة، فهذه هي القدر المعلوم المستفاد من الآية، وما سواها باقية تحت الحظر كضابطة.

٢ - ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾ وهم آباؤكم وإن علوا، وكما أن بيوتكم شملت ما شملت، كذلك بيوت آبائكم من أزواجهم وأولادهم المتحدين في أمهاتهم أو المختلفين، فظاهر أنها لا تعني فقط بيوت الآباء التي تعيشون فيها معهم، فإنها بينة الحل وداخلة في «بيوتكم» ولا بيوتهم الخاصة بهم، فالأكل من بيوت نساء الآباء حلٌّ لأنها من بيوت الآباء، كما الأكل من سائر البيوت المتصلة بالآباء، المحددة هنا.

٣ - ﴿أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ كذلك الأمر، كنتم معهن أو منفصلين، مطلّقات عن آبائكم فمزوجات أم لا ما صدقت أنها بيوت أمهاتكم، وكذلك بيوت أولاد أمهاتكم من غير آبائكم لأنها بيوت الأمهات.

٤ - ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ﴾ كذلك الأمر، فبيوت أولادهم وزوجاتهم وآبائهم أو أمهاتهم إن اختلفوا في أب أو أم، كل هذه من بيوت إخوانكم.

٥ - ﴿أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ﴾ كذلك الأمر، فبيوت أولادهن وأزواجهن وآبائهن وأمهاتهن هي من بيوتهن.

٦ - ﴿أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ﴾ دون فصل أو أعمام آبائكم أو أمهاتكم ومهما علوا، وكل بيت يحسب من بيوتهم من زوجات وأولاد وإخوة وأخوات قد لا يكونون من أعمامكم.

٧ - ﴿أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ﴾ كذلك الأمر وعلى سواء.

٨ - ﴿أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ﴾ دون فصل ومهما علوا.

٩ - ﴿أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ كذلك الأمر، ما صدق النسبة في البيوت موسعة كما تبينها الآية، دون البيوت الخاصة بهؤلاء وهؤلاء، أترى أنهم فقط الأنسباء، وأمّا هم من الرضاعة فلا؟ علّه لا، لظهورها في الأنسباء،

وغيرهم باقون في أصالة الحظر خروجاً عنها بالقدر المعلوم! وعلّه نعم لمكان آية الرضاعة ورواياتها حيث ألحقتهم من الرضاعة إلى الأنسباء فتشملهم هذه العناوين إلّا بقرينة صارفة وهو الأشبه والأول علّه أحوط[١].

١٠ - ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ ولماذا تركت هنا البيوت؟ لعدم اختصاص الحل هنا بالبيوت، فكل ما ملكتم مفاتحه من بيوت وحوانيت وبساتين ومخازن أماذا؟ يحل لكم الأكل منها، والمفاتح جمع مفتح: الباب، دون خصوص المفتاح، فما ملكتم مفتاحه إذ خوِّل إليكم فتحُه وكالة[٢] أو عارية أو إباحة، يحلّ لكم الأكل منه، اللّهم إلّا أمانة فإن طبع الأمانة الحفاظ الكامل وعدم التصرف إلّا أنْ يسمح ظاهر الحال، ومما ملكتم مفاتحه بيوت المولّى عليهم - إلّا الأيتام - وكذلك ما يجده الإنسان في داره ولا يعلم أنه منه، ولكنه داخل في «بيوتكم» وكذلك بيت الأولاد مهما كان من بيوتكم فهو مما ملكتم مفاتحه.

١١ - ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ علّه لم تذكر هنا البيوت للفصل بما لا يخص البيوت، أو لآن الأكل من أُكُل الصديق لا يختص بيته، والصديق هنا جمع ويأتي مفرداً، وهنا الصداقة الملحقة بالقرابة، بل القريب حبيب إذا كان صديقاً![٣] فـ «من عظم حرمة الصديق أن جعله من الأنس والثقة والانبساط وطرح الحشمة بمنزلة النفس والأب والأخ والابن»[٤].

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ علّ «كم» هنا

(١) فالأبوان من الرضاعة وكذلك الباقون داخلون في هذه العناوين.

(٢) نور الثقلين ٣: ٦٢٧ في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النّور: ٦١] قال: الرجل يكون له وكيل يقوم في ماله فيأكل بغير إذنه.

(٣) نور الثقلين ٣: ٦٢٦ ح ٢٥٠ عن محمد الحلبي قال: سالت أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية قلت: ما يعني بقوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النّور: ٦١] قال: هو والله الرجل يدخل بيت صديقه فيأكل بغير إذنه.

(٤) المصدر ح ٢٥٣ في جوامع الجامع عن الصادق عليه السلام . . .

يعني الثلاث الأوَل وأنفسكم وأهالي هذه البيوت فلا عليكم أن تأكلوا جميعاً الثلاثة، أم دون أهاليها[(١)]، الاثنان، أم كلٌّ على حده،ةولا عليكم أنفسكم في غيره هذه البيوت أن تأكلوا مع الثلاث جميعاً أو أشتاتاً، فقد كانوا يتحرّجون الأكل وحدهم، أمن هذه البيوت وليس فيها أهلوها.

في هذه البيوت الإحدى عشر يجوز الأكل دون إذن، شرط عدم المنع أو العلم بعدم الرضا، ولا يجوز في غيرها إلّا بإذن مرضي أو رضًى، فالداخل بيتاً غير هذه التي ذكرت لا يجوز له الأكل إلّا برضى وقدرها، ولا يكفي تقديم الطعام شاهداً على رضا إلّا بشهادة الحال، حيث العادة المستمرة أحياناً تُلجئُ على تقديم طعام أمّاذا دون رضًى، فليس الإذن إلا كشفاً عن رضًى قد يحصل دون لفظ أو عمل، وقد يأذن لفظاً أو عملياً وشاهد الحال يدل على عدم الرضا، فحذار حذار عن هكذا أكلٍ لأموال الناس بالباطل رغم الإذن وليس فيه رضًى! فـ «لا يحل أكل مال امرىءٍ مسلم إلا عن طيبة نفسه» أن تحرزها بأية وسيلة، اللهم إلّا في هذه البيوت الإحدى عشر فيكفي لحلّه عدم العلم برضى وسواها!

﴿... فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾:

آية سالفة في أدب لدخول بيوت أمرت بالاستيناس مع أهلها وسلام عليهم ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ﴾ أدباً قبل الدخول.

---

(١) المصدر ح ٢٤٣ في حديث المؤاخاة... فكان بعد ذلك إذا بعث رسول الله ﷺ أحداً من أصحابه في غزاة أو سرية يدفع الرجل مفتاح بيته إلى أخيه في الدين ويقول له خذ ما شئت وكل ما شئت فكانوا يمتنعون من ذلك حتى ربما فسد الطعام في البيت فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ﴾ [النّور: ٦١] يعني إن حضر صاحبه أو لم يحضر إذا ملكتم مفاتحه.

وهذه تأمرنا بسلام على أنفسنا بعد الدخول في كل بيت مسموح الدخول، وهذه البيوت أعم من تلك، إذ تشمل بيوتكم أنفسكم، كان فيها أهلوكم أم لم يكونوا، كما تشمل سائر البيوت من الإحدى عشر أم سواها، بيوت المسلمين أم سواهم، فالصيغة الجامعة للسلام فيها ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ فالبيوت هنا غيرها هناك، وسلامها غيره هناك.

هنا ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ بدل «أهلها» هناك، و«أنفسكم» تعم أنفسكم إن لم يكن فيها أهل ولا أهلوكم، وكذلك أهليكم إن كانوا فيها فإنهم من أنفسكم، وكذلك الإحدى عشر فهم في رتبة ثالثة من «أنفسكم» ثم وسائر المسلمين في رابعة هم «من أنفسكم» فإنما المؤمنون إخوة، بعضهم من بعض، ثم إذا كان فيها من لا يستحق السلام فسلام على أنفسكم كالأوّل[(١)] مهما اختلفت صيغ السلام في «علينا وعليكم».

السلام مع الاستيناس قبل الدخول هو من عند أنفسكم إخباراً أنك في هذا الدخول سلم لأهله لا حرب، وهو المعنى العام للسلام، ولكن السلام بعدهما وبعدما دخلت هو سلام ثان ليس منك، بل ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ وأنت هنا رسول السلام من عند الله دعاء لـ ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ في أجوائه الخمسة وظروفه تعني: سلمنا الله مما لا يسلم لنا ولا يصلح.

في الصورة الأولى والأخيرة تقول: «السلام علينا من عند ربنا»[(٢)] وفي الثانية - حيث فيها أهلك - تقول كما كان يقول الرسول ﷺ إذا دخل بيته:

---

(١) الدر المنثور ٥: ٦٠ عن أبي مالك إذا دخلت بيتاً فيه ناس من المسلمين فسلم عليهم وإن لم يكن فيه أحد أو كان فيه ناس من المشركين فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

(٢) نور الثقلين ٣: ٦٢٧ ح ٢٥٩ القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: يقول: إذا دخل الرجل منكم بيته فإن كان فيه أحد يسلم عليهم وإن لم يكن فيه أحد فليقل: السلام علينا من عند ربنا يقول الله عز وجل . . . وفيه في كتاب الخصال فيما علم أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه من الأربعمائة باب ما في معناه.

«السلام علينا من ربنا التحيات الطيبات المباركات لله سلام عليكم»[(١)] أو السلام - أو - سلام الله عليكم[(٢)] وفي سائر البيوت كالعادة وأفضلها «سلام الله علينا وعليكم».

فربنا السلام ومن عنده السلام وإليه يرجع كما يبدأ السلام ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ وهي كما تعتبر المسلمين أنفسهم مثل بعض[(٣)] كذلك تأمر ضم أنفسنا إلى أنفسهم في سلام من عند الله! وهذه سنة دائبة للداخلين في بيوت خلاف ما اختلقه ذوو الأنفة والكبرياء أن السلام إنما هو أدب الصغير للكبير وارداً ومورودا عليه، وكان الرسول ﷺ يسلم على كل صغير وكبير لحد لم يستطع أحد أن يسبقه في سلام.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾:

أدب جماعي مفروض على الأمة، ينظم الكتلة المؤمنة، ينبع من

---

(١) الدر المنثور ٥: ٥٩ وأخرج البيهقي في الشعب وضعفه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان إذا دخل بيته يقول: . . .

(٢) المصدر وأخرج الحاكم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: إذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلها.

(٣) نور الثقلين ٣: ٦٢٧ ح ٢٥٨ في كتاب معاني الأخبار بإسناده عن أبي الصباح قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية فقال: هو تسليم الرجل على أهل البيت حتى يدخل ثم يردون عليه فهو سلامكم على أنفسكم، وفي الدر المنثور ٥: ٥٩ - أخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: للإسلام ضياء وعلامات كمنار الطريق فرأسها وجماعها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وتمام الوضوء والحكم بكتاب الله وسنة نبيه وطاعة ولاة الأمر وتسليمكم على أنفسكم وتسليمكم إذا دخلتم بيوتكم وتسليمكم على بني آدم إذا لقيتموهم.

الإيمان بالله ورسوله، لا مجرد القوانين المتحكمة عليهم كحزب من الأحزاب، فإنما ينبع من المشاعر والعواطف الإيمانية، ومن أعماق الضمائر المؤمنة، ثم تنعكس مستقرة في حياتهم كتقليد متَّبع، وإلّا فهي الفوضى والهرج المرج.

إنه ليس الإيمان بالله ورسوله - فقط - في مظاهر الصلوات والزكوات وأضرابهما من عبادات، فهناك واجبات جماعية جماهيرية لا تأمن الجماعة المؤمنة إلا برعايتها.

هناك أمور فردية تخص أشخاصهم، ليس في الإخلال بها إلّا إضرار بأشخاصهم، وهنالك أمور جامعة بينهم، تجمع في جمعهم مصالحهم في مختلف مصلحياتهم، يجب عليهم الشخوص إليها، حيث الشخوص عنها إضرار بالمجموعة وعنده الطامة الداهية عليها!

فهذه الآية تعريفة بالمؤمنين جامعة للعلاقات الفردية والجماعية، تتبنيّان الإيمان الصادق بالله ورسوله، فإما أن تكتفي بالعلاقات الفردية تركاً للجماعية، أو تتركها إلى الجماعية، فهذا نقصان في الإيمان أم فقدان لأصل الإيمان، كما في الذاهبين عن أمر جامع نفاقاً حيث يتركون رفاقهم دونما ضرورة في تركهم[1] بغير استئذان أم باستئذان نفاق: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ

(١) الدر المنثور ٥: ٦٠ - أخرج ابن إسحاق وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن عروة ومحمد ابن كعب القرظي قالا: لما أقبلت قريش عام الأحزاب نزلوا بمجمع الأسيال من بئر رومة بالمدينة قائدها أبو سفيان وأقبلت غطفان حتى نزلوا بتغمين إلى جانب أحد وجاء رسول الله ﷺ الخبر وضرب الخندق على المدينة وعمل فيه وعمل المسلمون فيه وأبطأ رجال من المنافقين وجعلوا يورون بالضعيف من العمل فيتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد منها يذكر ذلك لرسول الله ويستأذنه في اللحوق لحاجته فيأذن له فإذا قضى حاجته رجع فأنزل الله في أولئك المؤمنين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ...﴾.

أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾[١] فالاستئذان يخالف أصل الإيمان، حتى يتبين فيه الصادق العاذر عن الكاذب الغادر ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً. . .﴾[٢].

هنالك استئذانان اثنان: ١ - للخروج إلى أمر جامع، ٢ - للخروج عنه بعد الاستجابة، فالأوّل محظور إلّا للمعذور مالاً أو حالاً، فلا سبيل عليهم ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾[٣] في مال أو حال أو فيهما، ثم الثاني محبور حيث الاستجابة إلى أمر جامع ونفس الاستئذان لبعض أمرهم من شهود صدقهم، إلّا إذا أضر إذنهم بالأمر الجامع في محاسبة ولي الأمر!

المنافقون ما كانوا ليحضروا إلى أمر جامع، وإذا حضروا نفاقاً وعرض النبي ﷺ في خطبته بهم وعابهم نظروا يميناً وشمالاً، فإذا لم يروا أحداً انسلّوا وخرجوا ولم يصلوا!

و«أمر جامع معه» كقائد يقود الأمة، يعم جامع الرأي كشورى أماذا؟ وجامع العمل كجهاد أو جمعة أماذا؟ أم أي جامع يجمع مصالح الجماعة المؤمنة على درجاتها راجحة إلى واجبة، والآية تتهدد ترك الواجبة، فلا ذهاب عنها حتى يستأذنوا قائدهم الرسول ﷺ كما هو نص الآية، أم أولي

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٢) سورة التوبة، الآيات: ٤٣ - ٤٦.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٩٣.

الأمر منهم المعصومين والفقهاء العدول كما يستفاد منها، فإنهم خلفاؤه في انتصابات خاصة أو عامة.

من شروطات الإيمان ﴿لَمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ ولكنهم فيم يستأذنونه؟ إنما ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ من شؤونهم الإيمانية التي قد تربو على بقائهم في أمرهم الجامع، وقد لا! فهنالك الخيار للقائد موازنة بين مصلحة البقاء، أو الخروج ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ وهو طبعاً لا يشاء الإذن إلا في رجاحة مصلحة أو تساويها[1] ولأن الكون معه على أمر جامع كضابطة عامة هو أرجح، لذلك يأمره بعد إذنه ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بل ولأن الاستغفار لا يحض مورد العصيان ولا ترك الأولى فعلّه يؤمر بالاستغفار لهم طلباً لغفر سيئات لهم جزاءً لما استأذنوا وتكريماً لهم! وليس الرسول ﷺ ممن يأذن بجناح حتى يكون الاستغفار عن جناح الإذن، ولو كان - ولن - فليستغفر لنفسه لماذا أذن، لا للمأذون المعذور لماذا أذن! وهنا «استغفر لهم»! وهذه لمحة لطيفة إلى أصالة المصلحة الجماعية فيما عارضتها مصلحة فردية، ليتعوّد المؤمنون رعايتها! والذي يستأذن الرسول أو يدعوه لشأن من شؤونه ليس له أن يجعل دعاءه كدعاء البعض بعضاً:

﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾:

ترى وماذا يعني هنا دعاء الرسول ﷺ؟ دعائهم إياه أن يوقروه في

---

(١) نور الثقلين ٣: ٦٢٨ ح ٣٦٣ القمي قال: نزلت في حنظلة بن أبي عياش وذلك أنه تزوج في الليلة التي كان في صبيحتها حرب أحد فاستأذن رسول الله ﷺ أن يقيم عند أهله فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النّور: ٦٢] فأقام عند أهله ثم أصبح وهو جنب فحضر القتال واستشهد فقال رسول الله ﷺ رأيت الملائكة تغسل حنظلة بماء المزن في صحائف فضة بين السماء والأرض فكان يسمى غسيل الملائكة.

دعائهم ويعزروه، امتلائهم لأقوالهم وأحوالهم وأعمالهم من توقيره كنبي لا كمؤمن مثلهم، وهي لفتة ضرورية أدباً بارعاً أمام النبي المؤدّب المعلم، فكل فلتة عامدة أو جاهلة عن هذه اللفتة فلتة عن صالح الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾[(١)].

وهذا صحيح في نفسه ومؤيد بآيات الحجرات هذه وروايات[(٢)] ولكنما التنديد بالتسلّل والتحذير عن مخالفة أمره قد يحوّل دعاء الرسول إلى دعائه إياهم لأمر جامع. لا دعاءهم إياه، إنه إذا دعاكم إلى أمر جامع فعليكم إجابته كرسول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ وعليكم المقام معه في أمره إلّا أن تستأذنوه لبعض شأنكم فليأذن لمن شاء!

أم وهو دعاؤه عليهم إذا تمادوا في عصيانه، فلا يستهينوا دعاءه لاستجابته من فوره[(٣)]؟ فكذلك الأمر! أم تعني ﴿دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ﴾ مثلث الدعاء[(٤)] فلا تُجعل كدعاء بِعضكم بعضاً أياً من الثلاث، فله موقعه بالقمة الرسالية داعياً إياكم ومدعوا أو داعياً عليكم، فلا تسوّوا بينه وبينكم، فإن له موقعاً عند الله وعند الناس لا يسامى أو يقاس بسائر الناس.

---

(١) سورة الحجرات، الآيات: ٢-٤.

(٢) نور الثقلين ٣: ٦٢٨ ح ٢٦٣ في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: يقول: لا تقولوا يا محمد ولا يا أبا القاسم لكن قولوا يا نبي الله ويا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٣) في الدر المنثور ٥: ٦١ عن ابن عباس في الآية يقول: دعوة الرسول عليكم موجبة فاحذروها.

(٤) أي: دعاءه إياهم ودعاءهم إياه ودعاءه عليهم، فهو من إضافة المصدر إلى مفعوله وفاعله وفي فاعله بتقدير «على» ودون تقدير، ولفظ الآية صالح لهذا الجمع، واختصاص موردها بدعائه إياهم لا يخصصها، فإنما المتبع عموم اللفظ أو إطلاقه لا خصوص المورد وإن كان في نفس الآية.

تقول الصديقة فاطمة الزهراء سلام الله عليها: «لما نزلت ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ...﴾ هِبتُ رسول الله ﷺ أن أقول له: يا أبه! فكنت أقول: يا رسول الله ﷺ! فأعرض عني مرة أو ثنتين أو ثلاثاً ثم أقبل علي فقال: يا فاطمة! إنها لم تنزل فيك ولا في أهلك ولا في نسلك أنت مني وأنا منك، إنما نزلت في أهل الجفاء والغلظة من قريش، أصحاب البذخ والكبر، قولي: يا أبه! فإنها أحيى للقلب وأرضى للرب[1] لقد كانت هناك تسللات عن أمره وتستمر، و﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ وسلُّ الشيء من الشيء نزعُه بلطف واحتيال بحيث يخفى، فالتسلل هو التكلف في ذلك، واللواذ هو الملاوذة الاستتار التجاءً بالغير، فالمتسللون لواذا هم المنتزعون عن أمر جامع أمّاذا من أمر، في تستر والتجاء بأي ملجأٍ في انستارهم، ويكأن الله لا يعلم تسلّلهم!

فقد كان المنافقون يتسللون لواذاً عن كل أمر جامع يستصعبون المقام عليه من جامع الجهاد إلى جامع الجمعة وإلى أي جامع، «فكان منهم من يثقل عليه الخطبة والجلوس في المسجد، فكان إذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق إلى جنبه يستتر به حتى يخرج فأنزل الله ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ...﴾[2] وهكذا التسلل عن الجهاد أماذا، ويا لحقارة الجبن والذل في

---

(١) المصدرح ٢٦٥ في كتاب المناقب القاضي أبو محمد الكرخي في كتابه عن الصادق عليه السلام قالت فاطمة عليها السلام... أقول: أنه ﷺ يعني هذا الشأن من نزولها لا كل شأن لنزولها وأظهرها دعاءه إياهم، فهذا تفسير بمصداق خفي يخفى على الأكثرين كدعائه عليهم، والمقصود من «أهلك ونسلك» هم الأئمة المعصومون الإثنا عشر، أولهم أهلها والباقون نسلها، فلأنهم من رسول الله كما هي نفسها، ورسول الله ﷺ منهم فليخاطبوه: يا أبه - أو أبي أو جدي، وفي الدر المنثور ٥: ٦١ عن ابن عباس في الآية قال: كانوا يقولون يا محمد يا أبا القاسم فنهاهم الله عن ذلك إعظاماً لنبيه فقالوا: يا نبي الله يا رسول الله، وأخرجه مثله عن مجاهد قال: أمرهم الله أن يدعوه يا رسول الله في لين وتواضع ولا يقولوا يا محمد في تجهّم، وعن قتادة وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن مثله.

(٢) الدر المنثور ٥: ٦١ وأخرج أبو داود في مراسيله عن مقاتل قال: كان لا يخرج أحد لرعاف =

هذه الحركة البئيسة التعيسة، فإن كان عين الرسول لا تراهم فالله يراهم!

وهذا تخلف عن أمر النبي ﷺ ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تحذير رهيب وإنذار رعيب على من يخالفون عن أمره: الرسول ﷺ، ولماذا «عن أمره» والأمر مقابل النهي، ومخالفتهما محظور على سواء لا الأمر فقط، والآية تجمعهما نهياً: لم يذهبوا - وأمراً: حتى يستأذنوه! ثم وهذا الأمر لا يتعدى إليه بـ «عن» بل «يخالفون أمره»!

علّه لأن ﴿أَمْرِهِ﴾ هنا يعني أمره الجامع، والمخالفة عن أمره الجامع هي الخروج عنه دون إذن، وهو مخالفة النهي: الخروج - والأمر: وجوب الاستئذان، وليس مخالفة كل أمره تخلُّف فتنة وعذاباً أليماً، وإنما أمره الجامع لمصالح المسلمين، فكلما كان الآمر أعلى محتداً، والأمر أعلى مصلحة ملزمة، كان التخلف عنه أشد فتنة وعذاباً أليماً، فتنة تضطرب فيها المقاييس وتختل الموازين وينتكص النظام فيختلط الحق بالباطل والطيب بالخبيث والشاغل بالعاطل، وتفسد أمور الجماعة وحياتها، فهي فتنة شقاء للمجموعة حيث التخلف عن أمر جامع يضر بالمجموعة.

ثم و﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة قدر ما أفسد على الجماعة المؤمنة، أترى أن أصل التحذير لا يشمل مخالفة أي أمرٍ من أمره جامعاً وسواه؟ أجل إذ لم يخص بأمره الجامع، وإلا كان حق التعبير «عن الأمر» أو «أمره الجامع» فمخالفة أمره ﷺ لأنه أمره محظور، وعن أمره الجامع أشدَّ حظراً.

هنا نستوحي أن مخالفة أمر الرسول ﷺ أياً كان محظور، إذا فطبيعة

= أو إحداث حتى يستأذن النبي ﷺ يشير إليه بإصبعه التي تلي الإبهام فيأذن له النبي ﷺ يشير إليه بيده، وكان من المنافقين من يثقل عليه...

الحال في الأمر هي الوجوب إلّا إذا قامت قرينة على سواه كما في مندوبات الأمر، أو الأمر عقيب الحظر أمّاذا من قرائن، وهذه هي قضية الأمر في كل أمرٍ من كل آمر، حيث الأمر دفعٌ إلى الفعل، ولا يعني الدفع إلّا إياه مائة في المائة، أما السماح في الترك مع رجاحة الفعل فلا تقتضيه صيغة الأمر إلّا بقرينة.

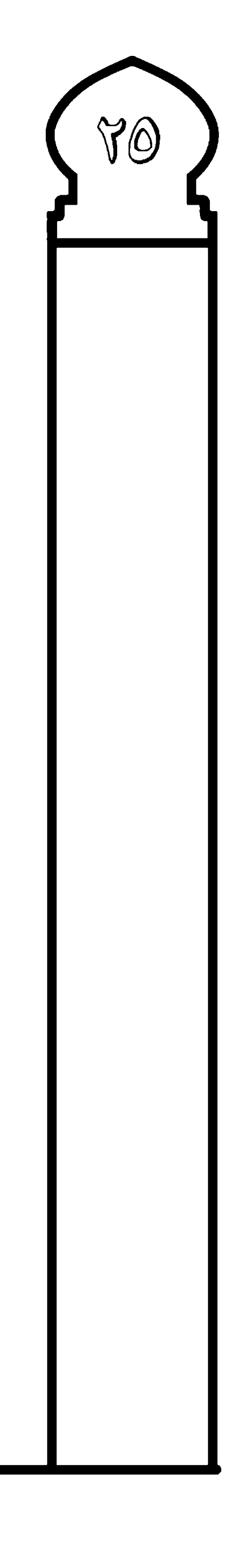
فلا حجة لمن يترك الأمر لأنه علّه لأصل الرجحان مع جواز الترك، حيث الأمر بنفسه تحريض على الفعل، فلا يحمل جواز الترك، إلّا لقرينة قاطعة، متصلة أم منفصلة، وكذلك الأمر في النهي طبقاً عن طبق.

وختاماً لهذا التحذير وختماً للسورة تأتي تنبيهة عامة للغافلين، ما تعنيه ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[1]:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾:

ألا إن ملكيته الحقيقية لما في السماوات والأرض وأنتم منهما، تقتضي أنه ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من حاجيات الحياة التكاملية حيوانية وإنسانية، فيقضيها بقضاء تكويني وتشريعي في نشأة الحياة الدنيا، و﴿يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ وجاه الشرعة الإلٰهية كفراً ونفاقاً أو إيماناً، وفي مدى تطبيقها وخلفياتها سلباً وإيجاباً، و﴿يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ ماذا حملتم وعملتم ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ إنباء الإعلام بالشهود العلمية والعينية، وإنباء الجزاء ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ في أولاكم وأخراكم، وعن عقبة بن عامر قال: «رأيت رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية وهو جاعل إصبعيه تحت عينيه يقول: «والله بكل شيء بصير»[2].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.
(٢) الدر المنثور ٥: ٦٢ وأخرج أبو عبيد في فضائله والطبراني بسند حسن عن عقبة بن عامر...



سُورَةُ الفُرْقَانْ



وآياتها سبع وسبعون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِي لَهُۥ
مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ
وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا
يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا
يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ
إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ
أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾
قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا
﴿٦﴾ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ
أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ
تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا
رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا
يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ
جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ﴿١٠﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ

بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾»

«تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾»:

إنها «سورة الفرقان» حيث هي بازغة بتنزيل الفرقان، وكل سور القرآن فرقان مهما اختلفت أسماؤها، فإنها يجمعها أنها كلها فرقان ومن الفرقان «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ»(١).

وإن في «الْفُرْقَانَ» لهذا العبد الفقير ذكريات حملتني على تسمية هذا

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

التفسير بالفرقان، وأن أقيم ردحاً من الزمن في منزل وحي الفرقان ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾(١).

والفرقان - على ما يروى - كأنها نزلت سورتها كصورتها الآن وقد نتلمح من قراءة الرسول ﷺ لها كما هي، ألّا تكفي سورة بعد الفاتحة إلّا بتمامها، وإن كان نسيان آية منها للرسول خلاف النص: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾(٢) فذلك النسيان - إذاً - نذره في بوتقة النسيان(٣).

ولا تنافي مكية ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ بتمامها آية تحريم الزنا فيها، فإنها من أوّليات المحرمات في التشريع الإسلامي كما الخمر وأضرابهما.

وهل الفرقان هو القرآن المفصل كله كما تلمح له ﴿نَزَّلَ﴾ المؤشرة للتدريج؟ ولم ينزل بعدُ القرآن المدني وقسم من المكي! وتقول الروايات إنه الحكم الواجب العمل به دون المتشابه!(٤).

﴿نَزَّلَ﴾ الماضي تشمل المنزّل من المفصل في المستقبل كما مضى،

---

(١) أخذت خيرة بالقرآن لهذه التسمية المباركة فطلعت ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان: ١] وأخذت خيرة أخرى للمقام في مكة المكرمة في هجرتي إلى الله من بأس الطاغوت الإيراني «شاه» عليه لعنة الله، فطلعت ثانية ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان: ١] ويا له وفقاً لهذا التوفيق ما أوفقه، والحمد لله أولاً وأخيراً، وأرجو منه أن يوفقني لإكمال الفرقان كالفضل ما يحبه ويرضاه - آمين.

(٢) سورة الأعلى، الآية: ٦.

(٣) الدر المنثور ٥: ٦٤ - أخرج ابن الأنباري في المصاحف عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ صلى الصبح فقرأ سورة الفرقان فأسقط آية فلما سلم قال: هل في القوم أبي؟ فقال أبي ها أنا يا رسول الله، فقال: ألم أسقط آية؟ قال: بلى، قال: فَلِم لم تفتحها علي؟ قال: حسبتها آية نسخت، قال: لا ولكني أسقطتها، أقول ما لهذا الرسول يحتاج فيما ينساه - ولا سمح الله - إلى أبي، وكأنه أحفظ منه، رغم انهُ ﷺ كان أحفظ الحفاظ على الإطلاق بما أقرأه الله.

(٤) تفسير البرهان ٣: ١٥٥ محمد بن يعقوب عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن سنان عمن ذكره قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن القرآن والفرقان هما شيئان أو شيء واحد؟ فقال: القرآن جملة الكتاب والفرقان المحكم الواجب العمل به.

حقيقة فيما نزل، وتحقيقا فيما سوف ينزّل، حيث المستقبل المتحقق الوقوع يعبر عنه بالماضي، وهكذا الأمر في سائر التعبير عن تنزله في سائر القرآن[١].

ثم القرآن كله فرقان محكماً ومتشابهاً، وعلّ اختصاصه في الحديث بالمحكم اختصاص بغير الراسخين في العلم، الذين لا يفهمون متشابهه في نفسه، وبإرجاعه إلى محكمه، وأما الراسخون فالقرآن كله لهم فرقان، على درجاتهم في تفهم الفرقان.

ولأن الفرقان فعلان من الفرق، اسم مصدر مبالغ في الفرق، فهو القرآن البالغ في فرقه بين الحق والباطل.

ولذلك يعبر عنه ككل بالفرقان: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[٢] ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾[٣].

كما وهو البالغ في فرقان التنزيل نجوماً طائلة: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[٤].

إذاً فالقرآن فرقان كله في البعدين، وأولهما أولاهما حيث يفرق فرقاً واضحاً لا ريب فيه بين كل حق وباطل، طول الزمان وعرض المكان، ومن فرقه فارق التعبير فصاحة وبلاغة وحتى في موسيقاه عن سائر التعبير، وأنه الفرقان المعجزة الوافية بنفسه دون سائر الوحي، والفارق بين حق المروي

---

(١) المصدر ابن بابويه بإسناده عن يزيد بن سلام أنه سئل رسول الله ﷺ فقال لِمَ سمي الفرقان فرقاناً؟ قال: لأنه متفرق الآيات والسور نزلت في غير الألواح وغيره من الصحف والتوراة والإنجيل والزبور أنزلت كلها جملة في الألواح والورق، أقول: وهذا وجه آخر في كون الفرقان هو القرآن كله.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ٣، ٤.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.

من السنة وباطله، فرقان في منهجه ومبلجه فلا يشبه أي منهج إلهياً وسواه، حيث يمثل عهداً جديداً منقطع النظير عن كل بشير ونذير، جديداً في المشاعر، ينتهي به عهد الطفولة، ويبدأ به عهد الرشد بأشده، وينتهي به عهد الخوارق المتعوَّدة، ويبدأ به عهد المعجزة العقلية والعلمية أما هيه، وينتهي به عهود الرسالات الموقوتة.

ولأنه هكذا فرقان فـ ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ فرقان الرسول ورسول الفرقان، فرقانان متجاويان في كل زمان ومكان. . .

﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ دون رسوله، لأنه بعبوديته القمة يستاهل ذلك التنزيل، ثم ويُرسل للعالمين نذيراً بذلك التنزيل، وما أحلاها صيغة العبودية وصبغتها، بسابقتها للرسالة وسابغتها، فلا تصوغ الرسالة إلّا بعد صبغها كاملة متكاملة، كافلة متكافلة، فمن ثم هي آهلة سائغة للرسالة بالفرقان ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، هذا، وكما هو عبده في إسرائه ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾[1] وفي دعائه ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ مثلث من قمة التكريم، في أهم أدواره الرسالية دعاءً وهي مخ العبادة، وعروجاً لمقام التدلي، وتنزيلاً للفرقان!

﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ دون قومه - فقط - أم والعرب فحسب، أم عالمي زمنه، أم لردح من الزمن، وإنما ﴿لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ من الجنة والناس - أمّن هم - أجمعين، في كل زمان ومكان، ولأن العالمين جمع لعالم ذوي العقول، فلأقل تقدير هناك عالم ثالث لا نعرفهم، وقد تشير إليهم آيات العالمين، وآية الشورى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۢ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾[2].

و﴿لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ حيث تشمل الطول التاريخي والعرض الجغرافي لذوي

(١) سورة الإسراء، الآية: ١.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٩.

العقول دونما استثناء، يصبح دليلاً بجنب سائر الأدلة لكون هذه الرسالة السامية هي الشاملة الخاتمة للرسالات الإلّهية أجمع، والجمع المحلى باللّام يستغرق كافة مصاديقه دونما استثناء.

فالعالمين أجمعين سواء أكانوا في السماوات أم في الأرضين تشملهم هذه النذارة الأخيرة، وكما تلمح له ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ. . .﴾[١]. إذاً فسعة هذه النذارة هي ملك السماوات والأرض!. وكما ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[٢] في خلق الإنسان في أحسن تقويم، كذلك ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ حيث الفرقان في أحسن تقويم، أحسن تقوم في التدوين لأحسن تقويم في التكوين.

وترى ﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ بشخصه وجهاً بوجه في سنّي دعوته الثلاث والعشرين؟ وذلك غير واقع ولا ميسور! فإنما الهدف في تبنّي هذه الرسالة القرآنية هو النذارة لكل العالمين بمن معه من حملة رسالته وبلاغها إلى يوم الدين.

ولقد أدى هو واجبه الرسالي في عهديه المكي والمدني، وصنع - بإذن الله - على ضوئها حملة لها على طول الخط، والمحور الركين الأمين على مرّ الزمن هو الفرقان والفرقان فقط.

ولماذا - فقط - ﴿نَذِيرًا﴾ لا «نذيراً وبشيراً» أو «بشيراً»؟ لأن البشارة ليست إلّا لمن يتقبل الدعوة، فخاصة بالمؤمنين، والنذارة تعم العالمين أجمعين، ناكرين ومصدقين، ولا تجد البشارة في سائر القرآن إلّا خاصة دون النذارة.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

﴿ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ. . .﴾:

﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ۝٢﴾:

إذاً فلتشمل دعوة القرآن ملك السماوات والأرض، ولتملك السماوات والأرض، كما سوف تتحقق وتطبَّق على العالمين أجمعين زمن القائم المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ منذ الأزل، قبل الزمان وبعد الزمان - إذاً - فلن يتخذ ولداً حتى الأبد طول الزمان وبعده، حيث اتخاذ الولد ليس إلّا لحاجة، فإذ لم تكن قبل فلن تكون بعد.

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ لا ذاتاً ولا اتخاذاً، فلن يكون - إذاً - له شريك في الملك.

وكيف يتخذ ولداً أم له شريك في الملك ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ ما زعمتموه ولداً وسواه، شريكاً وسواه، ولن يكون المخلوق الفقير الذات إلى خالقه ولداً له أو شريكاً، لا في الخلق إذ هو مخلوق، ولا في تقدير الخلق فإنه هو الذي قدره تقديراً فهل المخلوق المقدّر يناحر الخالق المقدّر!

﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ تختص به وتحصر حقيقة ملك الكون ككل دونما استثناء، حصراً وملكاً حقيقيين، فلا ينتقل عنه إلى ولد يتخذه أو شريك يُدعى له. . .

والمُلك الحقيقي يلازم المِلك الحقيقي وهما لزام المَلِك الحق دون زوال ولا انتقال.

وترى ﴿كُلَّ شَيۡءٖ﴾ تشمل أفعال العباد بجوانح أم جوارح؟ وهذا جبرٌ رافع للتكليف! قد يقال: لا، حيث الأفعال غير الأشياء، فإنها مواد

الخلقة، والأفعال صادرة عنها كمصادر تسييراً أو تخييراً. وقد يؤيده «خلق» الماضي، الضارب إلى بداية الخلق، ولكن الخلق في مثلث الزمان يخصه و﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[١] يعم الماضي، و﴿كُلَّ شَيۡءٖ﴾ يعم كل كائن سواء من ذوات وصفات وأفعال، وخلقه لشيء الأفعال الاختيارية لا ينافي الاختيار، حيث الإذن تكويناً في كل فعل - كما في سواه من أشياء - يخصه تعالى، طالما للمختار اختيار مقدمات لما يريد، فـ «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين».

ثم ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ بعد ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ تفريعاً عليه، تجعل الخلق مقدراً حينه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾[٢] ومقدراً بعده ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾[٣]. فالأوّل تفريع في تأخر رتبي، والثاني في تأخر زمني، فالخلق مقدر بتقدير العليم الحكيم في بُعديه.

إذاً فلا فوضى في أصل الخلق، ولا في تقديره بعد الخلق، فـ ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ۝٩﴾[٤].

أجل! «وإن تنظيم الخلق بهذه الدقة البارعة الفائقة التصور، فلو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بضعة أقدام، لامتص ثاني أكسيد الكربون الأوكسجين، ولما أمكنت حياة للنبات!

ولو كان الهواء أرفع كثيراً مما هو، فبعض الشهب التي تحترق الآن في الهواء بالملايين، كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية، وهي تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلاً في الثانية، وكان بإمكانها أن تشعل كل شيء قابلاً للاحتراق، ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض، ولكانت العاقبة مرّوعة، وأما الإنسان فاصطدامه

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٦.
(٢) سورة القمر، الآية: ٤٩.
(٣) سورة الطلاق، الآية: ٣.
(٤) سورة الرعد، الآيتان: ٨، ٩.

بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة كان يمزقه إرباً بمجرد حرارة مروره. . .»[١].

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ③﴾:

آلهة قاحلة، عاجزة، خاوية زاهلة عن كافة شؤون الألوهة وبدايتها الخلقة وهم ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾!.

ولا ذباباً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[٢] ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ثم ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ مهما يضرون بأنفسهم أو ينفعون، فإنّ ملك الضر والنفع شيء وواقعه بما يحاولون شيء آخر، فقد يحاولون في ضر لأنفسهم ولا يضرون، أم في نفع ولا ينفعون، فإنهم مسيّرون كما هم مخيرون، فـ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ . . .﴾[٣].

هنالك معاكسة في شروطات الألوهة بين الله والذين اتخذوهم من دونه آلهة، ومنها أن الله ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٤] وهم ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ فضلاً عن أن يملكوا لمن سواهم.

والله ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ وهم ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

فأين آلهة من إله، وآلهة كعابديها أم هي أدنى، وإله واحد قهار بيده ناصية كل شيء.

---

(١) العلم يدعو إلى الإيمان ترجمة محمود صالح الفلكي.

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٣. (٣) سورة يونس، الآية: ١٠.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤)﴾:

أكذَب فرية في تأريخ الرسالات: إن القرآن إفك مفترى! فإذا كان الكذب المفترى على الله يفوق كل كتابات الله، السالفة، ويفوق كل كتابة من أي كاتب، فهل الآفك به فوق خلق الله وفوق الله؟!

قالوا ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ فرية عليه ﴿ظُلْمًا وَزُورًا﴾ لا تقوم على أساس إلّا العناد والخوف على مراكزهم الاجتماعية المستمدة من سياستهم الدينية، يجنح بهم إلى هذه المناورات الزور، يطلقونها في أوساط الجمهور، الذين قد لا يميزون بين الغث والسمين والخائن والأمين، ولكنه الفرقان يفرق بين حق الوحي وباطل الزور لمن ألقى السمع وهو شهيد.

أترى من هم ﴿قَوْمٌ آخَرُونَ﴾؟ أهم قوم من العرب العرباء؟ وليس هو بشخصه قوماً حتى يكونوا هم قوماً آخرين! أم هم قوم غير العرب، فهو من قوم العرب، وأعانه على قرآنه قوم آخرون غير العرب؟ وكأنهم هم! كسلمان وأصحابه الفرس: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾(١).

ذلك الفرقان المبين الذي عجز عن الإتيان بمثله، أو سورة من مثله، العرب العرباء، هل هو من اختلاق أمي أعانه عليه قوم آخرون من الفرس، سلمان وصحبه، أم ﴿قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ هم أهل الكتاب إذ هم كما الفرس لم يكونوا من العرب؟ أم هم من العرب، وعلّ ﴿قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ تعنيهما، وعلى آية حال ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾.

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

فيا حماقى البهتان، إن كان هذا القرآن إفكاً افتراه محمد بمن أعانه من قوم آخرين، ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[(١)] بل ﴿... بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾[(٢)] لكي تتغلبوا عليه إبطالاً لحجته، وإغراقاً في لجته ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾[(٣)] فإن ملامح ربوبية الكتاب فيه لائحة، وحياً من الله لا سواه.

ثم وقولة أخرى من الناكرين يكدرون بها الجو الجاهلي ضد القرآن:

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾:

الأساطير هي الأوهام والخرافات المختلقة المتسطرة، التي تتنقل في نوادي التفكه واللّهو، فمن المشركين من يعتبرون الفرقان من أساطير الأوّلين، من كتابيين وسواهم، اكتتبها محمد بمن أعانه، فأصبحت كتاباً تملى عليه بكرة وأصيلاً لكيلا ينساه.

وترى كيف يكتب أساطير وغير أساطير من لم يكن يقرأ أو يكتب: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[(٤)]، وهنا الجواب كلمة واحدة:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾:

برهان قاطع لا مرد له على وحي القرآن، دليلاً فيه نفسه، فاستدلالاً به نفسه، فإنه الحجة الوحيدة غير الوهيدة على وحيه الصارم: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حيث الفرقان يتحدث عن سرِّ السماوات والأرض تكويناً وتشريعاً، في تجاوب مكين أمين متين بين كتابي التدوين

(١) سورة هود، الآية: ١٣.
(٢) سورة يونس، الآية: ٣٨.
(٣) سورة السجدة، الآية: ٣.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

والتكوين، إذاً فالكاتب واحد هو الله الواحد القهار ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[1].

فكما أن رسول الوحي على بينة في أقواله وأفعاله وتصرفاته أنه رسول الوحي: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾[2] فبأحرى كتاب الوحي المتحدى به على الجن والإنس، هو بيّنة بنفسه على أنه وحي، دونما حاجة إلى بينة أخرى.

فأين الكتاب الذي يحوي على سر السماوات والأرض وأين أساطير الأوّلين؟ بل وأين هو وكل سرّ يعلمه العلماء في مشارق الأرض ومغاربها طول الزمان وعرض المكان، فإن كان كتاب سرّ السماوات والأرض من أساطير الأولين، فما هو - إذاً - سائر الكتابات التي تعجز عن ظاهر العلن فضلاً عن باطن السر.

قضية الفرقان هي من القضايا التي قياساتها معها، فكل سرّ في الكائنات يظهر على تقدم العقل والعلم في عجلتهما العاجلة والآجلة، نراه مكشوفاً في القرآن باهراً لا ريب فيه، أفلا يدل ذلك على أنه ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وترى ما هي الصلة بين هذا التعقيب وذلك التقديم؟ هي أن رحمته الواسعة اقتضت إنزالاً لكتاب السر، إماماً لراحلة العالمين في التكشف عن أي سر في السماوات والأرضين، كما اقتضت الترحم على الناكرين لوحي القرآن، إمهالاً لهم رويداً، وهم يرتكبون أكبر الخطايا والظلامات الزور بحق القرآن ورسول القرآن، بتلك الدعوى

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٢) سورة يس، الآية: ١٦.

المتهافتة، ومن قبل كانوا يصرون على الإشراك بالله، ولكن باب التوبة - مع كل ذلك - مفتوحة بمصراعيها، والرجوع عن الخطيئة مهما كانت كبيرة، فالذي يعلم السر في السماوات والأرض، فيعلم ما يسرون وما يعلنون ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ منذ خلق الخلق وقبله ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أترى ﴿ٱلسِّرَّ﴾ الكائن في القرآن يعم الأخفى؟ قد يكون!: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[1] فـ ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ هنا يعم السر وأخفى كما هناك أسرّ من السر العادي.

هذه من دعاياتهم الظالمة الزور الغرور على القرآن، ومن ثم على رسول القرآن:

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾:

ويكأن رسول الله إلى البشر مستحيل كونه من البشر فيأكل الطعام ويمشي في الأسواق كسائر البشر، وقضية الحجة القاصمة أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم، قطعاً لأية عاذرة في اختلاف الجنس: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى...﴾[2].

وحتى لو كان رسول البشر ملكاً أم نذيراً مع الرسول البشر لما كان يظهر لهم إلّا بصورة البشر: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[3].

إن هؤلاء المقلوبة قلوبهم، المتحللين عن عقولهم، يعاكسون أمر حجة الله، فيستبدلون الحجة من رسول البشر، بغير حجة أم هي أدنى كرسول

---

(١) سورة طه، الآية: ٧.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩.

الملك، وإنه اعتراض كعاذرة لهم، مكرور على طول خط الرسالات، كيف يمكن أن يكون فلان ابن فلان الذي عشناه منذ الطفولة عائشاً عيشنا، آكلاً أكلتنا وماشياً في الأسواق مشيتنا، كيف يمكن أن يكون هو رسولاً من عند الله إلينا؟!

وهم في ذلك الاستغراب العجاب ينزِّلون من شأن الإنسانية إلى درجة الحيوان، حيث ينظرون إليه من المنظر المادي، متغافلين الروح العالية المتعالية التي تطير به إلى أعلى آفاق الكمال، فلا عجب - إذاً - أن يختار الله رسولاً من جنسه، حجة له عليه، وهادياً إليه.

وإنه الحكمة البالغة الإلَهية، أن يبعث إلى البشر واحداً منهم يحس ما يحسون، ويتذوق مواجدهم التي يتذوقون، ويعاني تجاربهم التي يعانون، مدركاً لآمالهم وآلامهم، عارفاً نوازعهم وأشواقهم، عالماً ضروراتهم وأثقالهم وأشغالهم، فيسير بهم خطوة خطوة إلى ما صار هو عليه، ولكي تكون حياته هو البشر - بحركاته وأعماله - صفحة معروضة لهم ينقلونها سطراً سطراً، ويحققونها حرفياً، حيث تهفو إلى تقليدها نفوسهم.

فلو كان ملكاً ما فكروا في عمله، ولا في تقليده، حيث المفاصلة بينه وبينهم في جنس الطبيعة وطبيعة الجنس، هذه المفاصلة تعذرهم عن أن يكونوا مثله، ويمثلوا أمثاله، وهذه خلاف الرحمة الإلَهية، أنه على قصور الحجة يتطلب منهم سلوك المحجة التي يحملها رسول ليس من جنسهم!.

وعاذرة لهم ثانية لو صدق الرسول البشر، أنه لا بد له من ميّزة في مال، حتى يتميز عنا في حال:

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾:

لقد خلطوا وتخبطوا في الشروط الآهلة للرسالة، فخيّل إليهم أنها هي

شروط الفرعنة، حاصرين كافة الأهليات في الحيونات والماديات، ويكأن الله ناظر إلى رغباتهم في شروطات الرسالات، فهم الذين يقررونها دونه:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾[(١)] [(٢)].

ثم ولأنه بشر، ولم يلق إليه كنز، ولا جنة يأكل منها، وهو يدعى هذه الرسالة - إذاً - فهو مسحور:

﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ ومن هؤلاء الظالمين بحق هذه الرسالة السامية من فتح باباً في صحيحه: إن النبي ﷺ سحر[(٣)].

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾:

إذ اتهموك بالإفك مرة، ومثلوك برواة الأساطير أخرى، وشبهوك بالمسحورين ثالثة أماهيه.

أمثال مضروبة عليه، ضاربة إلى ظاهر من الحياة الدنيا، تغافلاً عن الأخرى ﴿فَضَلُّوا۟﴾ في الأمثال كما ضلوا عن صاحب الأمثال ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ للقضاء عليه، ولا التخلص عن حجته القارعة البارعة.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾:

﴿إِن شَآءَ﴾ في موقف التشكك يحول هذه القصور والجنات إلى الحياة الدنيا، وليس ليشاء الله له ذلك حيث موقف الرسالة يختلف عن زخرفات

(١) سورة الزخرف، الآيتان: ٣١، ٣٢.
(٢) البحث المفصل حول ميزات الرسالة في الإسراء على ضوء هذه الآية فراجع.
(٣) لقد أشبعنا البحث حول نكران ذلك النكير في سورة الفلق فراجع.

الحياة الدنيا وزهراتها، ثم ﴿إِن شَآءَ﴾ في واقع الحق من مشيئته يعم جنات الأخرى وقصورها، وقد شاءها لعباده الصالحين، وهو من أصلح الصالحين.

فليست هذه المشيئة الثانية مفروضة عليه إلّا بما وعد، ولا الأولى مرفوضة لديه إلّا بما وعد ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾(١).

ذلك الجواب الحاسم عما هرفوه فيما خرفوه، ولكن المخاطَب هنا هو النبي ﷺ دونهم، ولا حتى في «قل» تلميحاً أن هؤلاء الحماقى لا يستحقون حتى خطاباً في جواب!.

ولماذا في جنات ﴿جَعَلَ﴾ ماضياً وفي «قصوراً» «يجعل» مستقبلاً، وهما معاً جزاء الشرط؟ علّه للتصريح بما تلمحناه أن المشيئة الإلٓهية فيها متحققة يوم الأخرى، وهي غير محتومة عليه لا في الأولى ولا في الأخرى، وإنما رحمة منه في الأخرى بما كتب على نفسه الرحمة، وتزهيد له في الدنيا كما زهد فيها، وأبدله الله عنها في الأخرى «وإذا منازله فوق منازل الأنبياء فقال رضيت»(٢).

ليس نكرانهم لقرآن الرسول ورسول القرآن بحجة لديهم، أو ريبة:

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢١.

(٢) الدر المنثور ٥: ٦٣ - أخرج الواحدي وابن عساكر من طريق جرير عن الضحاك عن ابن عباس قال: لما عير المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة قالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق حزن رسول الله ﷺ لذلك فنزل جبرائيل فقال: إن ربك يقرئك السلام ويقول وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ثم أتاه خازن الجنان ومعه سفط من نور يتلألأ فقال: هذه مفاتيح خزائن الدنيا فنظر النبي ﷺ إلى جبرائيل كالمستشير له فضرب جبرائيل إلى الأرض أن تواضع فقال: يا رضوان لا حاجة لي فيها فنودي أن ارفع بصرك فرفع فإذا السماوات فتحت أبوابها إلى العرش وبدت جنات عدن فرأى منازل الأنبياء وعرفهم وإذا منازله فوق منازل الأنبياء فقال رضيت، ويروون أن هذه الآية أنزلها رضوان تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من تلك الآية، وفيه أخرج جماعة عن=

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾:

ذلك التكذيب داؤهم العضال، وما دواؤهم إلّا سعير، جهنم يصلونها وبئس المصير.

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾:

أترى أن لسعير النار عين ترى من مكان قريب فضلاً عن بعيد؟ أجل لها عين[1] كما تناسبها، وهذه هي رؤية المعرفة بين النار وأهليها، فإنها من حصائل أعمالهم، وقد برزت بحقائقها سعيراً، فمهما اختصت صفة الرؤية بمن يشعر وله عين ناظرة، فالنار - التي هي أعمالهم التي قدموها - ترى وقودها، رؤية السر علانيته.

فقبل الرؤية هذه، علّها ليس لها تغيّظ وزفير، وإنما إعداد لاستقبال أهليها، فـ ﴿إِذَا رَأَتْهُم...﴾ ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ فالغيظ هو أعلى منازل الغضب، والتغيظ أعلى من الغيظ، فهو ثالوث من الغضب، والزفير هو الاضطرام والاهتياج، فذلك التغيظ والزفير إعلان من بعيد لاجتياح لهم قريب، كأنها تتحامل عليهم لكي تجذبهم إليها لأقرب وقت ممكن.

فيا لهذا التشخيص الشخيص من علوٍّ في فن التحضير للحوادث المستقبلة كأنها حاضرة الآن، ولا سيما بخلع الحياة وتجسيمها على ما ليس من شأنه الحياة، من الأشياء والمعاني والحالات النفسية، يرتفع بالصور والمشاهد إلى قمة الإعجاز في التعبير، بما يبث فيها من عنصر الحياة.

= خيثمة قال: قيل للنبي ﷺ إن شئت أعطيناك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم يعط نبي قبلك ولا يعطاه أحد بعدك ولا ينقصك ذلك مما لك عند الله شيئاً وإن شئت جمعتها لك في الآخرة؟ قال: اجمعها لي في الآخرة فأنزل الله تبارك الذي...

(١) المصدر أخرج الطبراني وابن مردويه من طريق مكحول عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعداً من بين عيني جهنم قالوا يا رسول الله ﷺ: وهل لجهنم من عين؟ قال: نعم أما سمعتم الله يقول: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾، فهل تراهم إلا بعينين.

فهنا سعير متسعرة متغيظة متزفرة، تراهم وتتحدث معهم، متميزة من النقمة عليهم وهم إليها سائرون، مشهد رهيب رعيب يزلزل الأقدام وترهب القلوب! وطبعاً هم ليسوا ليقدموا إليها بطبيعة الحال، فإنما اجتذاباً منها فإلقاء فيها.

﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ۝١٣﴾:

﴿مَكَانٗا ضَيِّقٗا﴾ في السعير عذاباً فوق العذاب، حيث السجن عذاب، وضيقه عذاب فوق العذاب، ومن ثم ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ بأيديهم وأرجلهم في السلاسل والأغلال ﴿أُلۡقُواْ مِنۡهَا﴾ مقرّنين ﴿مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ﴾ ومع الشياطين ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾: «وقيضنا لهم قرناً». تقرّناً فيه من قرن العذاب وقرانه ما لا يُحسب له حساب... «والذي نفسي بيده إنهم ليستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط»(١).

﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ والثبور هي الويل الهلاك الفساد، فـ ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ﴾ في مقرّن العذاب ﴿ثُبُورٗا﴾: واويلاه، واهلاكاه، واثبوراه(٢) وافساداه، انفلاتاً عن أي اصطبار: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾(٣) ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾(٤).

دعوا ثبوراً متحسبين أن هناك سامعاً لدعائهم ولات حين مناص، وقد فات يوم خلاص، بل يسمعون في تهتك ساخر مرير سافر:

---

(١) الدر المنثور ٥: ٦٤ - أخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أسيد أن رسول الله ﷺ سئل عن هذه الآية، قال:...

(٢) المصدر بسند صحيح عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: إن أوّل من يكسى حلة من النار إبليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من بعده وهو ينادي يا ثبوراه ويقولون يا ثبورهم حتى يقف على النار فيقول يا ثبوراه...

(٣) سورة الطور، الآية: ١٦.

(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٢١.

﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾:

حيث العذاب ليس واحداً، بل هو كثير، فليعيشوا ثبوراً كثيراً، وتصبراً مريراً.

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾:

﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ هي الجنة الخالدة الأبدية ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[1] دون خلود النار المختلف باختلاف أهل النار، فإن له نهاية أبداً وغير أبد قضية العدل، وتلك الجنة ليست لها نهاية قضية الفضل ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً﴾ بفضل الله كما وعد، ﴿وَمَصِيرًا﴾ تلو مسيرهم.

﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ كما يصح ويصلح، حيث الكل هناك يعرف قَدَره وقدره، فلا يشاء فوق قدره ﴿خَٰلِدِينَ﴾ فيها وفيما يشاءون ﴿كَانَ﴾ الخلود هنا وهناك ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا﴾ حيث كتب على نفسه الرحمة ﴿مَّسْـُٔولًا﴾ أن لو لم يقع لأهله، كان آهلاً للسؤال: رب قد وعدتني وها أنا عبدك التقي كما أمرتني! أم ﴿مَّسْـُٔولًا﴾ بما سأله عباده الصالحون فأجابهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾[2] كما وسأله لهم الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾[3] وهو القائل ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ حيث وعد الاستجابة لصالح الدعاء، فقد دعوا فليستجب، وكما كتب على نفسه الرحمة.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾:

---

(١) سورة هود، الآية: ١٠٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٤.

(٣) سورة غافر، الآية: ٨.

وهل ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعم كافة المعبودين من أصنام وطواغيت، أو الصالحين من ملائكة ونبيين؟ والطواغيت هم الدُّعاة إلى أنفسهم، فكيف يسمح لهم ذلك الكذب في اليوم الذي لا يسمح لأي كذب! : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[١] ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾[٢].

والأصنام الجامدة لا قيلة لها حتى تقول قولتها، فيبقى - حينئذ - الصالحون ﴿قَالُوا سُبْحَٰنَكَ﴾ أن ندعي من دونك ألوهة، أم نقبل أن نُعبد من دونك، فـ ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ﴾ نحن ﴿مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ نعبدهم، فكيف نتخذ أنفسنا أولياء نُعبد من دونك؟

إذاً فلماذا التعبير عن أصلح الصالحين العقلاء بـ «ما»؟ علّه إخراجاً لهم عن أية مكانة حتى العقل، فضلاً عن كونهم معبودين، إظهاراً لواقع حالهم في ذواتهم لولا رحمة من الله.

أم أن الله يستنطق الأصنام فتقول ما هي في كيانها وطبيعتها، فـ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ...﴾[٣] وأما الطواغيت فلا سبيل إلى قولتها هذه الكذب في يوم الصدق.

﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ﴾ وإنما هم ضل السبيل: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾[٤].

---

(١) سورة المرسلات، الآية: ١٥.
(٢) سورة المرسلات: ٣٥.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.
(٤) سورة المائدة، الآيتان: ١١٦، ١١٧.

﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ . . .﴾ ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ مُتَعِ الحياة الدنيا وزهرتها، فالتهوا بها ﴿حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ المذكور في فِطَرهم، والمعقول بعقولهم، والجائي به رسلهم، نسوه نسيان التغافل التناسي ﴿وَكَانُواْ﴾ قبله وبعده ﴿قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ هلكى عن إنسانيتهم، مسامحين عما فطروا عليه وعقلوه وأرسل به إليهم، إذاً فهم في بورٌ كما كانوا في الأولى بوراً.

﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ﴿١٩﴾﴾:

فيا ويلاه أن المعبودين من دون الله يكذبوا عبدتهم في يوم الله ﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا﴾ لهم عما يكذّبون ﴿وَلَا نَصۡرٗاۚ﴾ لأنفسهم عليهم وعلى العذاب المحدق بهم ﴿وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ﴾ في الأولى شركاً وهو الظلم الكبير ﴿نُذِقۡهُ﴾ في الأخرى ﴿عَذَابٗا كَبِيرٗا﴾.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴿٢٠﴾﴾:

تعقيب عام إجابة شاملة عن شطحات المتعنتين لشروطات الرسالة، أن كافة الرسل قبلك كانوا بشراً مثلك في كل متطلبات البشرية: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[١] فلو كنت ملكاً لكنت بدعاً من الرسل، الأمر الذي يخرق إجماع الرسل وسنة الرسالة وهو مادة الريبة في رسالتي، فإما أن تنكروا الرسالات البشرية كلها، فإنكاراً لأصل الرسالة الإلٓهية، إذ لم يرسل غير البشر، أو تصدقوا رسالتي التي هي تعقيبة خاتمة للرسالات كلها.

وليس هذا الجواب تحويلاً للاعتراض من شخصه إلى كافة الرسل من قبله، حتى يرجعوا قائلين: وكذلك الرسل من قبلك! إذ كان قولهم ﴿مَالِ

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٩.

هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ خاصاً بهذا الرسول، كأنه بدع من الرسل في كونه بشراً، فتخطى في الجواب عن نفسه الشريفة إلى كافة الرسل ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ...﴾.

ثم لو عمموا الاعتراض كما عمموه في مجالات أخرى، فالجواب ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ﴾ ولذلك يكذبون بأنبياء الساعة، و﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ و﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾[١] جواباً محلّقاً على كافة الاعتراضات الواقعة أو المحتملة، حيث يقضي عليها كلها، مع ما في سائر الآيات، كـ ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾[٢].

﴿...وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً﴾ فالبعض الرسل فتنة للبعض المرسل إليهم، والكفار منهم فتنة للرسل، وكما هم فتنة للمؤمنين والمؤمنون فتنة لهم، كما والرسل بعضهم لبعض فتنة، فاختصاص المسيح بالولادة دون أم أصبح فتنة لسائر الرسل في قياس الناس، واختصاص محمد ﷺ بين الرسل بآيته المعجزة الخالدة في قرآنه فتنة لسائر الرسل كذلك، وكما هم بآياتهم غير الكتابية فتنة لهذا الرسول في قياس الناس: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾[٣] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ...﴾[٤].

﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ على هذه الفتنة والامتحان أيها المفتتنون، فالصبر في سبيل الله هو زادها إلى معادها، صبراً للرسل على جهالات المرسل إليهم وتطاولاتهم وتخلفاتهم، ودوائر السوء التي يتربصون بهم، وصبراً للمؤمنين على أذى الكفار، وصبراً للمرسل إليهم كافة على هذه الفتنة الملتوية الطائلة، فالصبر مفتاح الفرج.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٨.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.
(٤) سورة القصص، الآية: ٤٨.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بك وبسائر المرسلين وكافة المرسل إليهم، فربك منحك من الصبر وزان سائر الصبر لسائر المرسلين، فإن حملك أثقل، وقومك أهبل، فليكن صبرك قدر صبرهم كلهم ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾(١).

﴿بَصِيرًا﴾ بما أعطاكم من الفِطَر والعقول، ﴿بَصِيرًا﴾ بمن يصبر أو لا يصبر في كل الحقول ﴿بَصِيرًا﴾ بالحكمة العالية في هذه الفتنة المتواصلة طول خط التكليف على خيوط الرسالات، ﴿بَصِيرًا﴾ بالبداية و﴿بَصِيرًا﴾ بالنهاية ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ !

هذه فتنة ربانية متعالية تتطلب الصبر، فويل لمن لا يصبر وكما يروى عن الرسول ﷺ: «ويل للعالم من الجاهل وويل للسلطان من الرعية، وويل للرعية من السلطان، وويل للمالك من المملوك، وويل للشديد من الضعيف، وللضعيف من الشديد، بعضهم لبعض فتنة ثم قرأ آية الفتنة»(٢).

فهذه فتنة تعم العالمين أجمعين خيراً وشراً وكله من الله خير: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(٣).

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٤: ٦٥ - ٦٦ روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ: . . . وفي الدر المنثور ٥: ٦٦ - أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن رفاعة بن رافع الزرقي قال قال رجل يا رسول الله ﷺ كيف ترى في رقيقنا أقوام مسلمين يصلون صلاتنا ويصومون صومنا نضربهم؟ فقال رسول الله ﷺ توزن ذنوبهم وعقوبتكم إياهم فإن كانت عقوبتكم أكثر من ذنوبهم أخذوا منكم، قال أفرأيت سبنا إياهم؟ قال: يوزن ذنبهم واذاكم إياهم فإن كان أذاكم أكثر اعطوا منكم، قال الرجل ما أسمع عدواً أقرب إليّ منهم فتلا رسول الله ﷺ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠] فقال الرجل: أرأيت يا رسول الله ﷺ ولدي أضربهم، قال: إنك لا تتهم في ولدك فلا تطيب نفساً تشبع ويجوع ولا تكتسي ويعرو.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

تتمة سورة الحج

سورة المؤمنون

سورة النور

سورة الفرقان